

مصر وشرق الأدنى القديم

نبأ الإله شمش

الأستاذ الدكتور
محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

دار المعرفة الجامعية
٤ شارع ستيرز الأناريطه
الاسكندرية



مصر والشرق الادنى القديم
بلاد الشام

مصر والشرق الأدنى القديم

(٨)

تِلْكَ الْأَشْهُارُ

الأستاذ الدكتور

محمد بسيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

دار المعرفية الجامعية
شارع ستيفن الأداريق
الإسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
مولانا وسيدنا محمد وآله الكرام

« اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على
ابراهيم وآل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما
باركت على ابراهيم وآل ابراهيم، في العالمين انك حميد مجيد»

تقديم

يحتل الشرق العربى فى تاريخ الدنيا القديم مكانة لا يتناول اليها تاريخ أمة أخرى فى هذه الدنيا ، فمنه انبثقت الحضارة الانسانية ، وانبعثت أضواؤها ، التى أشعتها على العالم فنعم بها دهرًا ، ولا يزال حتى اليوم ينعم بثمارها ، فى هذه البقعة من الارض ألقىت المحبة الاولى ، فأينعت ، وأثمرت أطيب الثمرات ، ووجهت الفكر الانسانى وتسامت به ، وحطقت حتى أدركت قوة الخالق — جل وعلا — فمجده بعد أن عرفته ، وآمنت أنه : لا اله الا هو ، لا شريك له ، ثم بشرت به الناس كافة ، ذلك لأن الله شاءت ارادته — ولا راد لمشيئته — أن يجعل هذه البقعة من الارض موطن الهداية ، ومبعث النور ، فاصطفى منها أنبياء ومرسلين ، فكان منها «نوح» عليه السلام — أول الرسل — وكان منها ابراهيم الخليل — أبو الانبياء و خليل الرحمن — وكان منها «موسى» كليم الله ، وكان منها «عيسى بن مريم» — كلمة الله و روحه — وكان منها حبيب الله ، ورحمة العالمين ، وخاتم النبيين ، سيدنا ومولانا وجعدنا ، محمد رسول الله ، ﷺ .

والحق أنه ليس هناك من هذه الصفوة المختارة من الانبياء والمرسلين ، المعروفين لنا من الذكر الحكيم ، الا وكان من هذا الشرق الخالد ، وعلى أرضه أنزلت التوراة والانجيل والقرآن العظيم ، ففضلا عن صف ابراهيم وموسى ، وزابور داود ، وحكمة سليمان ، فأسهمت جميعها فى توجيه البشرية وقيادتها الى طريق الحق والتوحيد ، والاخاء والمساواة ، والحب والترحم ، والفضيلة والفداء .

وفى هذه البقعة المباركة من أرض الله شاءت العناية الالهية أن تتطور الحضارة الانسانية ، تحتضنها الطبيعة — الحانية عليها ، المترفقة بها حينا ، القاسية مع ذلك حينا آخر ، تحمل فى ثناياها دائما قوة دافعة متجددة ، تستهدف التقدم ، وتسعى الى الوصول الى آفاق بعيدة من السمو والرفعة .

وتمثل بلاد الشام في هذه البقعة رأس المثلث الحضارى ، ضلعه
الايمن وادى الرافدين ، وضلعه الايسر وادى النيل ، وقاعدته شبه
الجزيرة العربية •

وفي بلاد الشام — أو في فلسطين على وجه التجديد — «مدينة
المقدس» ، تلك المدينة التى يقدسها العرب جميعا — من مسلمين
ومسيحيين — بل هى رمز البشرية المتدينة على اختلاف مظاهرها
ومذاهبها ، يقدسها اليهود لأن لهم فيها ذكريات دينية وسياسية ،
ويقدسها النصارى لأن فى مجاورتها ، ولد المسيح عليه السلام فى بيت
لحم ، وربى فى الناصرة ، ولأن بها كنيسة القيامة التى اليها يحجون •
ويقدسها المسلمون لأن ارادة الله تعالى شاعت أن يخصها بالعديد من الانبياء
والمرسلين — ابتداء من أبيهم ابراهيم وحتى عيسى بن مريم ، عليهم
السلام — ولأن فيها أولى القبلتين ، وثالث الحرمين الشريفين ، ولأن
بها مسرى جدنا النبى الاعظم ، سيدنا ومولانا محمد ، ﷺ ، وصدق
الله العظيم حيث يقول «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد
الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله» •

ويقدم هذا الجزء الثامن من سلسلة دراسات «مصر والشرق الادنى
القديم» دراسة تاريخية عن بلاد الشام فى عصورها القديمة •

والله المعلى التقدير أسأل أن يكون فى هذه الدراسة بعض النفع ،
ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين •

«وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب» ••

دكتور

محمد بيومى مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الادنى القديم

كلية الاداب — جامعة الاسكندرية

بولكلى فى } الثامن من المحرم عام ١٤٠٩ هـ •
العشرون من أغسطس عام ١٩٨٨ م •

الباب الأول

الموقع والسكان

الفصل الأول

الموقع الجغرافي وأثره الحضارى والسياسى

تقع بلاد الشام فيما بين خطى عرض ٣١° ، ٢٧° شمالا ، وخطى طول ٢٢° ، ٤٠° شرقا ، وهى واحدة من أقاليم آسيا الغربية ، فى المنطقة التى تمتد من جبال طوروس شمالا ، وحتى شمال سيناء جنوبا ، ومن البحر المتوسط غربا ، وحتى البادية وبلاد النهرين شرقا ، وتشمل الان الدول العربية التالية : ١ - المملكة الاردنية الهاشمية ٢ - فلسطين ٣ - الجمهورية العربية السورية ٤ - الجمهورية اللبنانية العربية •

وقد أطلق سكان وادى الرافدن القدامى على بلاد الشام اسم «أمورو» - وتقابل «مارتو» بالسومرية - وهى ترادف كلمة الغرب كذلك ، ومنذ ، العهد اليونانى استخدم اصطلاح «سورية» (سورستان عند الترك ، وأرام فى التوراة) ، وهى كلمة يونانية محرفة عن أصل سامى قديم ، وكان يعنى «بلاد الشام أو الشام» ، وتعنى اليسار أو الشمال ، بالمقابل مع اليمن (اليمن أو الجنوب) وذلك بالنسبة الى أهل الحجاز ، كما يقال اليد اليمنى واليد الشومى •

وعلى أية حال ، فإن بلاد الشام - أو سورية بمعناها الواسع ، انما تتوسط من الناحية الجغرافية ، قارات العالم القديم الثلاثة - آسيا وافريقيا وأوربا - كما أنها - من الناحية التاريخية - انما تتوسط أعرق حضارتين عرفهما العالم القديم ، وهما حضارة وادى النيل (مصر) وحضارة وادى الرافدين (العراق) ، مما ساعد سريعا على أن تتطور الامور فيها على صورة غير التى عهدناها فى مصر أو فى العراق القديم ، ذلك أن الحضارة المصرية انما كانت حضارة نيلية ، نشأت فى

مصر وتطورت فيها ، وساعدت على تطورها على هذا النحو ظروف جغرافية طبيعية معينة ، صانت هذا التطور حتى استطاع أن يشب مصريا تلونه البيئة التي نشأت بين أحضانها ، وكان الامر مشابها لذلك في العراق القديم ، في حضارة ما بين النهرين ، فكلتا الحضارتين — المصرية والعراقية — محلية متطورة ، وكلا الاقليمين استطاعا أن يدفعما بعجلة التطور الى الامام •

غير أن الامر في بلاد الشام — أو سورية — انما يختلف عن ذلك كثيرا ، ذلك لان بلاد الشام — بحكم وضعها الجغرافي ، واتصالها بجيرانها — انما اضطرت الى أن تعطى وتأخذ ، وتعمل كوسيط ، وتتأثر بجيرانها من الشرق ، ومن الجنوب الغربي ، فجاءت حضارتها على صورة غير تلك الصورة التي عهدناها في جارتها ، وساعدت على هذه الصورة طبيعتها وتضاريسها ، وخلوها من مجارى مائية رئيسية ، مما يعطيها مظهرا يختلف كثيرا عن مظاهر جارتها عبر التاريخ •

ولعل ذلك كله ، انما كان من العوامل التي أدت الى أن بلاد الشام — التي نعنيها بالرقعة الجغرافية الانفة الذكر — لم تكن تعنى في التاريخ دولة معينة لها كيان الدولة المعروف ومقوماتها ، فهي لم تكن أبدا كمصر ، ولم يكن أبدا تاريخها كتاريخ مصر ، بما فيه من مد وجزر ، وقد تأثرت حضارتها — كما سنرى ، بغيرها من حضارات الامم التي تجاورها ، ذلك لان وضعها الجغرافي جعلها تتأثر من ناحية بوادي الرافدين ، ومن ناحية أخرى بمصر ، ومن ناحية ثالثة بدولة أخرى استطاعت — وان لم تصبغها بصبغة واضحة — أن تلعب دورا خطيرا فوق مسرحها السياسي ، تلك هي «دولة الحيثيين» الذين عرفهم الاشوريون تحت اسم «خاتى» ، وعرفتهم مصر باسم «خيتا»^(١) •

(١) انظر : نجيب مبخايل : مصر والشرق الادنى القديم — الجزء الثالث — الاسكندرية ١٩٦٦ •

والمواقع أن أثر الموقع الجغرافي لبلاد التسام لم يقتصِر على النواحي الحضارية ، وإنما امتد كذلك إلى النواحي السياسية ، فمِنذَ خان موقع بلاد التَّسام الجنوبيه (فلسطين) بين عواصم النيل والدجلة والفرات ، والذي جاء لبنى إسرائيل على أيام سليمان عليه السلام (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م) بالنجارة ، هو نفسه الذي سيجيء لهم بالحرب في البقية المباقية لهم في فلسطين بعد أيام سليمان ، عليه السلام ، وكم من مرة ضيق على اليهود ، فلم يجدوا لهم مخرجاً من ضيقهم ، إلا بالانضمام إلى أحد الطرفين في الصراع القائم بين الامبراطوريات الكبرى - في مصر والعراق القديم - أو بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون ، وكم من مرة اجتاحت المضطرون بلادهم ، وكان من وراء التوراة ، ومن وراء صراخ أصحاب المزامير والانبياء وعويلهم وطلبهم الغوث من رب السماء ، كان من وراء هذا كله موقع اليهود الذي تتهدده الاخطار ، بين شقى الرحى ، ومن فوقهم دول أرض الجزيرة ، ومن تحتهم أرض النيل (٢) .

وهكذا نرى «آشور» مثلاً ، على أيام الملك «تحلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) ترى أن امتلاكها لسورية وفلسطين ، هو الشرط الاساسى لنجاح امبراطوريتها ، فهو لم يكن بالنسبة لحكام بلاد النهرين بسبب ثروة سورية وفلسطين من أخشاب نادرة في الشرق ، وبسبب ثروتها المعدنية وساحلها الطويل على البحر المتوسط ، وتجارها الغنية فحسب ، ولكنه كان كذلك - وفي نفس الوقت - المدخل إلى جنوب شرقى آسيا الصغرى من ناحية ، ومصر من ناحية أخرى ، ولهذا فقد اتخذ «تجلات بلاسر» الخطوات الجادة مباشرة لضم الاجزاء الاساسية من سورية وفلسطين إلى الامبراطورية الاشورية ، وتثبيت سيادة آشور على سورية وفلسطين ، ومن هنا ، فإنه لم يقنع - بما فعل غيره من الحكام الاشوريين - بقبول الجزية ، ممن يخضعهم من الامراء السوريين والفلسطينيين (٣) .

(٢) ول ديوارنت : قصة الحضارة - الجزء الثانى - ترجمة محمد بدران - القاهرة ١٩٦١ ص ٣٢١ .

3) M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 253.

ولم يختلف الامر كثيرا بالنسبة الى مصر ، ومن ثم فقد رأينا القوم بعد طردهم للهكسوس من مصر ، ومطاردتهم حتى «زاهي» في لبنان ، حوالى عام ١٥٧٥ ق.م ، يدركون أن حدودهم الطبيعية انما تبدأ في سورية ، بينما لا يقل نطاق الامان من حولهم عن الشرق الاوسط تقريبا ، ومن هنا فقد توسعت الامبراطورية المصرية الى حدودها القصوى — كلما أمكن ذلك — لا كاستعمار بالمعنى المفهوم ، وانما لنشر «السلام المصرى» ، بل اننا يمكننا أن نزعّم بقليل من خشية ، أن الامبراطورية المصرية كانت في جوهرها ، وفي معنى ما «امبراطورية دفاعية» أساسا ، حتمتها ظروف الصراع الاقليمى ، والاستراتيجية العريضة في الشرق الادنى القديم^(٤) .

ومن هنا أدرك فراعين عصر الامبراطورية المصرية (الاسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون = ١٥٧٥ — ١٠٨٧ ق.م) ، أن السياسة الفعالة والوحيدة في مختلف العصور ، هي احتلال حربي لطرق الغزو ، من وديان الاورنت (العاصى) والاردن — أو سورية وكنعان — ووضع في قوة حربية لمنع الاحتكاك عند مدخل ممر الغزو في اقليم حلب ، بين الفرات والعاصى^(٥) .

ورأت مصر ، أن الخير لكل من الطرفين — مصر والدويلات السورية — في اتباع هذه السياسة ، ذلك لان الدويلات السورية سوف تطمئن على أمنها من هذا الطريق ، وبخاصة وأن سورية (بلاد الشام) لم تكن قد عرفت بعد في هذه العصور ، الكيان السياسى للدولة الموحدة — كما كان الامر في مصر منذ أكثر من ستة عشر قرنا ، أى منذ حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م — ومن ثم فهي ليست بقادرة على صد هجرات جديدة ،

(٤) جمال حمدان : شخصية مصر — القاهرة ١٩٧٠ ص ٥٦ .
 (٥) محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ١٩٦ — ١٩٧ ، نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم — الجزء الثانى — الاسكندرية ١٩٦٦ ص ١٣٠ .

أو كسر شوكة الهجرات الموجودة على أطرافها ، دون دفع داخلي ، أو
عون خارجي^(٦) .

وأما بالنسبة لمصر ، فإن احتلالها للولايات السورية ، انما يعتبر
بممناسبة صمام أمن لها ، بخاصة وأنها كانت قريية عهد بطرد الهكسوس ،
الذين ربما اتصلوا بذوى قرباهم في تلك المناطق ، أو من كانوا لايؤمنون
بصداقة مصر ، ومن ثم فسوف يصبحون — بمرور الزمن — خطرا على
الولايات الموالية لمصر ، وربما على مصر نفسها ، أضف الى ذلك كله ،
افادة مصر من السيطرة على أبواب التجارة ، ومداخل الهجرات في
شمال وأطراف العراق^(٧) .

وتنطلق مصر — امتدادا لهذا المنطق — في نفس الاتجاه ، ويكتب
لها نجحا بعيد المدى في تكوين امبراطوريتها الواسعة ، ويستمر المد
المصري حتى عبر الفرات ، ويصل الى تخوم الفرات الشرقية ، كما
يسيطر على كل سواحل وجزر البحر المتوسط ، وهكذا تتربع مصر على
عرش السيادة والزعامة في الشرق الادنى القديم طوال عهد الامبراطورية
المصرية ، وان لم تخل هذه الزعامة وتلك السيادة ممن ينافس مصر
عليها ، وان ظلت مصر — بصفة عامة — القوة الكبرى في الشرق الادنى
القديم .

وحين تنتهي أيام الامبراطورية ، تحاول مصر — كلما أمكنها ذلك ،
وسنحت لها الفرصة — أن تسترد مكانتها في العالم القديم ، وتعمل
جاهدة على أن تجعل لها صوتا مسموعا في سياسة الشرق الادنى القديم .
وأن تسترجع الامبراطورية المصرية المفقودة في سورية وفلسطين ، الامر

(٦) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم — الجزء الاول — مصر
والعراق — القاهرة ١٩٦٧ ص ١٠٧ .
(٧) احمد فخرى : مصر الفرعونية — القاهرة ١٩٧ ص ٢٦٩ ،
عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٠٥ وكذا
BIFA, XXX, 1931, P. 113.

الذى جعله بلاد الشام في كثير من أزمنة التاريخ القديم ، ميدان المعركة بين مصر وغيرها من القوى الكبرى في الشرق الأدنى القديم ، سواء أكانوا من البابليين أو الآشوريين أو الكلدانيين ، بل وحتى الحيثيين وشغوب البحر وغيرهم * .

وانطلاقاً من كل هذا ، فإن بلاد الشام — أو سورية — إنما تأثرت بعوامل ثلاثة : أولها : موقعها الاستراتيجي ووقوعها بين قارات ثلاث ، وقد عرضها ذلك للغزوات البابلية والآشورية والكلدانية والمصرية والحيثية والفارسية والمقدونية والرومانية والمغولية والصليبية وغيرها ، وثانيهما : وقوعها بين أقدم وأعرق حضارتين في العالم القديم ، هما الحضارة المصرية وحضارة بلاد الرافدين ، وثالثهما : أنها كثيراً ما كانت — وخاصة أطرافها الشرقية — مسرحاً لنزاع متواصل بين سكان البادية وسكان السهول ، ويحكى جزء كبير من تاريخها قصة حوادث الاضطرابات الكثيرة لهذه الجماعات (٨) .

(٨) عبد الحميد زايد : الشرق الخالد — القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٣٥ .
— ٢٣٦ —

الفصل الثاني

الساميون في سورية والاراء التي دارت حول موطنهم الاصلى

(١) سكان بلاد الشام :

لا ريب في أن بلاد الشام — أو سورية بمعناها الواسع — انما كانت — قبل وصول الهجرات السامية اليها — عامرة بسكانها من غير الساميين ، الذين استقروا فيها منذ أجيال وأجيال ، ومع ذلك فان بقايا ساكني الكهوف من الالف الثالثة قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، انما تشير الى أنهم كانوا قوما من الساميين^(١) ، صحيح أن وجود جنس نقى في الشرق الاوسط بين الآلاف من تياراته الجنسية التي تتلاطم فيه ، أمر يتطلب — فيما يرى ول ديورانت — مستوى من التفضيلة لا يعقله عاقل^(٢) ، ولكنه صحيح كذلك أن سكان بلاد الشام انما كانوا في غالبيتهم العظمى — كما سوف نرى — من الساميين الذين أتوا اليها من شبه الجزيرة العربية ، مع قليل آخر من غير الساميين •

ومع ذلك ، فمما لا ريب فيه أنه ليست هناك سلالة نقية صافية ، كما أنه ليست هناك ثقافة وليدة البيئة وحدها ، ولم تتأثر بأخرى ، وان كان هذا لا يمنعنا من القول بأن بلاد الشام — أو قل سورية بمعناها الواسع ، والذي يشمل سورية ولبنان وفلسطين والاردن ، كانت أكثر من غيرها تعرضا لهجرات الشعوب السامية ، وربما غير السامية كذلك • هذا وتتكون العناصر السامية في بلاد الشام من الاموريين

1) A. Lods, Israel, From its Beginnings to The Middle of The Eighth Century, London, 1962, P. 56.

(٢) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣٢٨ •

والكتعانيين — الفينيقيين والاراميين ، هذا الى جانب كوكبة أخرى من القبائل كالآدوميين والمؤابيين والعمونيين والمديانيين واليبوسيين والمقنزيين والقينيين والعماليق وغيرهم . وأما العناصر غير السامية في بلاد الشام فأهمها : الحوريون والحيثيون والفلسطينيون والثيرك وغيرهم^(٣) .

(٢) الساميون :

ينسب المؤرخون الساميين الى «سام» بن نوح عليه السلام ، وذلك اعتمادا على ما جاء بالتوراة التي جعلتهم إحدى التقسيمات البشرية الثلاثة التي ترجع السلالات البشرية على تعدد قبائلها وشعوبها الى أبناء نوح الثلاثة «سام وحام ويافت»^(٤) ، وقد استعمل لفظ «سامي» لأول مرة في عام ١٧٨١ م على يد المستشرق الألماني «أوجست لدوج شلوتسر» في مقالته عن الكلدانيين ، وذلك في قوله «من البحر المتوسط الى الفرات، ومن أرض الرافدين حتى بلاد العرب جنوبا ، سادت — كما هو معروف — لغة واحدة ، ولهذا كان السوريون والبابليون والعبريون والعرب شعبا واحدا»^(٥) ، وكان الفينيقيون أيضا يتكلمون هذه اللغة التي أود أن اسمها «اللغة السامية» ، وقد تولى «ايشهورن» بعد ذلك هذا الاصطلاح وان ادعاه لنفسه^(٦) .

وبدأ العلماء بعد ذلك يستعملون كلمة «الساميين» على أساس أنها تعنى جنسا بشريا واحدا يرتفع في نسبه الى «سام بن نوح» ويتميز عن غيره بصفات مشتركة بينة ، وهي لغوية قبل كل شيء ، فبين اللغات السامية من التشابه الكبير في الاصوات والصيغ والتراكيب والمفردات

(٣) محمد بيومي مهران : اسرائيل — الجزء الثاني — الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٤٩٧ — ٤٩٩ .

(٤) تكوين ١٠ : ١ ، ٢١ .

5) Schller (A.L.), Von den chaldaern, P. 161.

وكذلك Moscati (S.), Ancient Semitic Civilizations, London, 1957. وفي الترجمة العربية التي قام بها الدكتور السيد يعقوب بكر تحت عنوان «الحضارات السامية القديمة» ص ٢٣٩ .

6) R. Nicholson, Aliterary History of The Arabs, Cambridge, 1935, P. XV.

ما لا يمكن معه أن ننسب تقاربهما الى حدوث اقتباسات بينها في العصور التاريخية ، وانما لا سبيل الى تفسير هذا التقارب الا بالفترض أصل مشترك بينها^(٧) ، ذلك لأنها تشترك في وجود فعل ثلاثي كمصدر أساسي ووجود زمنين للفعل هما الماضي والمضارع وتصريف الفعل يتبع نفس الاسلوب ، وفي جميع لغات المجموعة السامية نجد تشابها بين الكلمات الاساسية كالضمائر الشخصية والاسماء التي تدل على القرابة^(٨) ، فكل من الاب والام والاخ والاخت والعم كلمات مشتركة في كل هذه اللغات ، والكلمات الخاصة بأعضاء جسم الانسان مثل العين والانف والرجل والشعر واليد والاذن والرأس ألفاظ نجدها مشاعة في كل اللغات السامية^(٩) هذا فضلا عن تغير الحركات في كلمات هذه اللغات والذي يحدث تغييرا في المعنى وفي التعابير التي تدل على منظمات الدولة والمجتمع والدين^(١٠) ، وفي أمور أخرى مشتركة^(١١) ، وهكذا كان هناك الكثير من الأدلة اللغوية التي ترسم صورة عامة للمصالح المميزة في المجموعة السامية من حيث هي أسرة لغوية واحدة .

وفي عام ١٨٦٩م قسم العلماء اللغات السامية الى مجموعتين ، الاولى : وتسمى المجموعة السامية الشمالية وتشمل اللغات العبرية والفينيقية والآرامية والآشورية والبابلية والكنعانية ، وأما الأخرى فتسمى المجموعة السامية الجنوبية ، وتشمل اللغات العربية بلهجاتها

(٧) سبتينوموسكاتي : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة د . السيد يعقوب بكر - القاهرة ١٩٦٨ ص ٤٤ .
(٨) فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - الجزء الاول - ص ٦٦ ، ولنفس المؤلف : تاريخ العرب ص ٩ - ١٠ وكذلك Hastings, J., Encyclopaedia of Religion and Ethics, 2, 1934, P. 378.
(٩) اللغة العربية عبر القرون ص ١٣ .
(١٠) جواد علي : الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٢٢٢ وكذلك

Encyclopaedia Britannica, 20, P. 315.

(١١) انظر في ذلك : حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ، الاسكندرية ١٩٧١ ص ١٧ - ٢٥ وكذلك عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، بيروت ١٩٦٤ ص ٣٨ ، هامش ١ .

والحبشية^(١٣) ، الا أن هناك من يقسمها الى مجموعات أو أقسام ثلاثة، وأما أول هذه الاقسام فهو القسم الشرقي : ويضم اللغات البابلية والاشورية والكلدانية الارامية ، وثانيهما هو القسم الغربى : ويضم اللغات الكنعانية والاخلامية والفينيقيّة والبونية والارامية والعبرية والسريانية والتدمرية والنبطية والمؤابية والامورية ، وأما القسم الثالث فهو القسم الجنوبي ، وينقسم بدوره الى فصيلتين ، الاولى : العربية : وتضم العربية القديمة والقحطانية والحميرية والمعينية والسبئية والعذنانية المضرية أو القرشية الفصحى ، والثانية تضم الحبشية أو الاثيوبية والجعزية والنيجرية والتيجرينائية والامهرية والهروبة^(١٤) .

ولكن هناك من يعترض على هذه التسمية — أى السامية — على أساس أنها تسمية لغوية ، وليست جنسية ، وغير جامعة ولا مانعة كذلك، هذا فضلا عن أنها اعتمدت الى حد كبير على التوراة ، كما أنها لا تعتمد على أسس علمية أو عنصرية صحيحة ، بل بنيت تلك القرابة التي أورعتها التوراة ووضع ذلك التقسيم على اعتبارات سياسية وعاطفية، وعلى الآراء التي كانت شائعة عند شعوب العالم فى ذلك الزمان عن النسب والانساب وتوزيع البشر^(١٥) ، فهناك العيلاميون الذين جعلت التوراة من جدهم «عيلام» الابن الاكبر لسام ، وذلك حين تقول «بنو سام عيلام وأشور وارفكساد ولود وأرام»^(١٥) يومع ذلك فهم لا يتكلمون لغة سامية ، وهناك لغات سامية لا ينتمى الناطقون بها الى الجنس السامى كالأحباش ، ثم هناك الكنعانيون الذين جعلتهم التوراة من الحاميين ، وهم يتكلمون لغة سامية ، بل هم أنفسهم ساميون ، والامر كذلك بالنسبة الى المصريين حيث جعلتهم التوراة حاميين ، «بنو حام

(١٢) جواد على : المرجع السابق ص ٢٢٣ .

(١٣) السيد عبد العزيز سالم : دراسات فى تاريخ العرب — الجزء الاول — عصر ما قبل الاسلام ص ٦١ ، ٦٢ .

14) Barton, G. A., Semitic and Hamitic origins, London, 1934, P. 1.

وكذلك جواد على : المرجع السابق ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(١٥) تكوين ١٠ : ٢٢ .

كوش ومصر ايم وفوط وكنعان»^(١٦) . والمصريون ساميون ما في ذلك من شك ، وقد خرجوا من الجزيرة العربية متجهين صوب الكتانة فيما قبل العصور التاريخية السالكين في هجرتهم هذه طريقين ، الاول : هو شمال الجزيرة العربية فشبّه جزيرة سيناء ، اذا ما اتجهوا نحو الشمال ، والاخر : عبور بوغاز باب المندب ثم الاتجاه شمالا حتى اذا ما وصلوا صحراء مصر الشرقية سلكوا الطريق الموصل بين البحر الاحمر والنيل ، مارا بوادي الحمامات ، وقد بقيت لهذه الدروب في جميع عصور التاريخ المصري مكانة خاصة وكانوا يسمون هذا الطريق «طريق الآلهة» اشارة الى مجيء بعض اسلافهم ومعهم آلهتهم من هذا الطريق ، وما من شك في أن صلة مصر بالشعوب السامية في عصر ما قبل التاريخ تركت آثارها في اللغة المصرية القديمة ، سواء في مفرداتها أو أجروميته^(١٧) ، ومن هنا فان العلماء^(١٨) يعتبرون — اذا استثنينا منهم تلك الطائفة التي تؤمن بحرفية ما جاء في التوراة — بأن اللغة المصرية هي احدى اللغات السامية ، وقد كتبت بها الوثائق المصرية منذ عهد مينا — أي منذ حوالي ٣٢٠٠ سنة قبل الميلاد تقريبا^(١٩) ، وأما لماذا أخرجت التوراة المصريين من مجموعة الشعوب السامية فنجواب ذلك في الروايات الاسرائيلية نفسها ، حيث تذكر حياة الاسرائيليين في مصر بكل مرارة ، وتصف الذل والهوان الذي كان يعيش فيه اليهود في مصر^(٢٠) ، حتى غدا العرف الشائع بين العبريين أنهم يتشاءمون تشاؤما تقليديا بالايام التي قضوها في مصر ، ويحسبونها بلية البلاء ومحنة المحن في تاريخهم كله من عهد الخليل الى عهد النازية الهتلرية في القرن العشرين ، وقد مرت بهم محنة

(١٦) تكوين ١٠ : ٦ .

(١٧) أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم — القاهرة

١٩٦٣ ص ٣١ .

18) T. W. Thacker, The Relationship of Semitic and Egyptian Verbal Systems, Oxford 1954.

(١٩) محمد عبد القادر محمد : الساميون في العصور القديمة ص ٧

(٢٠) محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم

— الجزء الثاني — اسرائيل ص ٢٤٥ — ٢٥٣ ، ٢٧٥ وكذلك : سفر

الخروج ٩ : ١٣ ، ١٤ ، ٢٢ .

السبى الى وادى النهرين ، ولكنهم لم يتشاعمو بها كما تشاعمو بالمقام فى مصر ، ولم يجعلوا من بابل عيدا باقيا متجددا كعيد الخروج من ارض وادى النيل^(٢١) ، وانطلاقا من هذا نستطيع أن نقول ان دعوى التوراة فى اخراج المصريين من الساميين لم يكن الا من نوع الحقد الذى يكنه اليهود للمصريين بخاصة ، وللعرب بعامة ، والامر كذلك بالنسبة الى الكنعانيين ، فلقد تعتمد العبريون فى توراتهم — كما يرى بروكلمان — اقضاء الكنعانيين عن الانتساب الى سام بن نوح ، لاسباب سياسية ودينية ، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية ولغوية ، وقد أرجح الاصحاح العاشر من سفر التكوين نسب الفينيقيين والسبئيين الى حام جد الكوشيين ، ذى البشرة السوداء ، مع أنهم لم يكونوا من الهاميين ، وقد يكون ذلك بسبب وجود جاليات فينيقية وسبئية فى افريقية ، فعد كتبة التوراة هؤلاء من الهاميين^(٢٢) .

ومن هنا كان المصدر الذى اعتمد عليه العلماء فى ذلك — وأعنى به التوراة — موضع شك ، فكتاب سفر التكوين اعتمد على الاجناس التى يعرفها فحسب كما أنه كان متأثرا بعواطفه العدائية القديمة نحو مصر وكنعان وبابل ، ومن هنا نراه يخرجهم من الساميين ويجعلهم من الهاميين ، هذا فضلا عن أنه يبدو مضطربا بالنسبة لآشور وكوش ، فاذا أضفنا الى ذلك أن سفر التكوين — فيما يرى جان استروك ، كما جاء فى دائرة المعارف اليهودية نفسها^(٢٣) — ليس عملا موحدًا قام به مؤلف واحد وانما هو من عمل مجموعة من كتاب متتاليين ، ومن مصادر مختلفة ، وأنه أخذ صورته الحالية بمرور الزمن ، وفى عصور لاحقة لعصر موسى بأمد قصير ، لتبين لنا الى أى مدى كان الاعتماد على روايات سفر التكوين منزلقا خطرا^(٢٤) .

(٢١) عباس العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين — القاهرة ١٩٦٠ ص ٥٨ .

(٢٢) جواد على : المرجع سابق ص ٢٢٤ ، وكذلك

Nicholson. R. A. Op. Cit., P. XV.

23) The Jewish Encyclopedia, 4, N. Y., 1903 P. 67.

(٢٤) راجع كتابنا «اسرائيل» ، الفصل الثانى «التوراة» ص ٩١

وعلى أية حال ، فرغم أن العلم الحديث يعتبر تسمية السامية أو الشعوب السامية تسمية لغوية أكثر منها تسمية جنسية ، وذلك خلاف المفهوم القديم الذي أشاعته قصص العبرانيين في التوراة عن الفصل بين جنس الساميين من نسل سام ، وبين جنس الحاميين من نسل حام ، ولدى نوح عليه السلام ، فإن تعبير «الشعوب السامية» مقبول ، على أساس شيوعه للدلالة على شعوب ربطت بين أهلها روابط التشابه في الملامح العامة ، وروابط التشابه في تأثيرات البيئة والمناخ ، وروابط اللغات ، ثم روابط العقائد والتقاليد والتفخيلات ، نتيجة لتشابه الاسس التي قامت عليها الظروف التي أوجت بها ، وينطبق ذلك بأطرافه على شعوب الشرق الأدنى ، بدوله العربية في الجزيرة العربية والشام والعراق ومصر والدول العربية الأفريقية ، وانطلاقاً من هذا يذهب «موسكاتي» إلى أن الشعوب السامية في لغتها تؤلف كتلة واحدة ، لا باجتماعها في صعيد جغرافي واحد ، والتحدث بلهجات لغة واحدة فحسب ، ولكن باشتراكها في أصل حضارى تاريخى واحد أيضاً ، ومن هنا يجوز لنا ألا نقصر الصفة السامية على الديدان اللغوى ، وأن نتحدث أيضاً عن الساميين وعن الشعوب والحضارة السامية (٢٥) .

ومع ذلك فهناك من يرى أن السامية ليست جنساً بالمعنى المفهوم من الجنس عند علماء الاجناس ، أى أنها ليست جنساً له خصائص جنسية ولامح خاصة تميزه عن الاجناس البشرية الأخرى ، ويقول العالم الفرنسى «الاب هنرى هليش» : انه ينبغي ألا نفهم من استعمال كلمة «السامية» أى شئ أكثر من اصطلاح المقصود به تيسير الامر على الباحثين ، دون أن نعتقد أن له دلالة عنصرية (٣٧) ، وذلك لان بين الساميين تمايزاً وتبايناً في الملامح وفي العلامات الفارقة يجعل اطلاق الجنس عليهم بالمعنى العلمى الحديث من علم الاجناس ، أو الفروع العلمية الأخرى ، نوعاً من الاسراف واللغو ، كما أننا نرى تبايناً في

(٢٥) سبتينوموسكاتي : المرجع السابق ص ٤٩ .

26) Fleisch, H. Introduction a l'Etude des langues Semitiques, Paris 1947, P. 18.

داخل الشعب الواحد من هذه الشعوب السامية في الملامح وفي المظاهر الجسدية ، وفي هذ التمايز والتباين دلالة على وجود اختلاط وامتزاج في الدماء ، وقد وجد بعض علماء الانثروبولوجيا مثلا أن بين اليهود تباينا في الصفات وفي الخصائص التي وضعها هذا العلم للجنس^(٢٧) ويذهب الانثربولوجى الفرنسى «أوجين بيتار» الى أن اليهود بعيدون كل البعد عن الانتماء الى ما يسمى بجنس يهودى ، وانما طائفة دينية واجتماعية اندمج فيها على طول الاجيال المتعاقبة أشخاص ينحدرون من سلالات متنوعة بعدت بهم عن أولئك الذين كونوا في قديم الزمان قرب البحر الميت ، ذلك الشعب اليهودى القديم^(٢٨) ، والذي هو نفسه موضع شك في اصلته ونقاوته ، وقد أثبتنا في بحثنا عن النقاوة الجنسية عند اليهود^(٢٩) ، أنهم منذ الازل غير أنقياء جنسيا ، فعلى سبيل المثال ، نجد أن رؤوس الاسباط الاثنى عشر — بنص توراتهم نفسها — نصف دمائهم اسرائيلية ، والنصف الاخر ، بعضه آرامى والبعض الاخر لا ندري عنه شيئا^(٣٠) ، أضف الى ذلك أن بعضا من آباء الاسباط هؤلاء قد تزوج من غير الاسرائيليات ، في «يهوذا» — والذي حمل اليهود اسمه — قد تزوج من كنعانية^(٣١) ، والامر كذلك بالنسبة الى يوسف الصديق عليه السلام والذي تزوج من مصرية^(٣٢) ، كما فعل موسى الكليم الامر نفسه حين تزوج من امرأتين ، احدهما مديانية ، والاخرى كوشية^(٣٣) ، وسليمان نبي الله وأعظم ملوكهم تزوجه التسورا بألف من النساء من كل بلد ولون^(٣٤) ، فضلا عن أنه هو نفسه ابن امرأة

(٢٧) جواد على : المرجع السابق ص ٢٢٥ ، وكذلك

Buxton, L. H. D., the peoples of Asia, London, 1925, P. 96 FF.

28) Pittard, E., les Races et l'histoire, Paris, 1924, P. 432-42.

(٢٩) محمد بيومى مهران : «النقاوة الجنسية عند اليهود» ، وهى المحاضرة الثالثة عشرة من سلسلة المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية في العام الجامعى ١٩٧٢/٧١ م.

(٣٠) تكوين ٢٩ : ٤ - ١٧ - ٣٥ : ٢٦ .

(٣١) تكوين ٣٨ : ١ - ٣ .

(٣٢) تكوين ٤١ : ٤٥ .

(٣٣) خروج ٢ : ٢١ ، ٣ : ١ عدد ١٢ : ١ - ١٥ .

(٣٤) ملوك أول ١١ : ١ - ٣ .

حيثية^(٣٥) ، كما كان ابنه وخليفته رحبعام من زوجة عمونية
وهكذا .

ويبدو أن الامر لم يقتصر على اليهود ، فلقد وجد علماء
الانثروبوجيا عند فحص العظام التي عثر عليها في الاثار الاشورية
والبابلية أن أصحابها يختلفون أيضا فيما بينهم في الملامح التي تعد
أساسا في تكوين جنس من الاجناس ، كما وجد نفس الامر عند العرب
في الجاهلية^(٣٦) — ويخرج الدكتور جواد على من ذلك^(٣٧) كله بأن
السامية ليست جنسا صافيا بالمعنى الانثروبولوجي ، بل انها مجموعة
ثقافية ومصطلح أطلقه العلماء على هذه المجموعة لتمييزها عن بقية
الاجناس البشرية الاخرى .

٣ - الموطن الاصلى للساميين ، والآراء التي دارت حوله :

وأيا ما كان الامر ، فهناك شبه اجماع بين العلماء على أن الشعوب
المتكلمة بلغات سامية ترجع الى جماعة سامية أولى ، وكان لها وطن
أصلى واحد ، ثم تفرقوا في منطقة الشرق الادنى القديم ، وان اختلفوا
فيما بينهم اختلفا كبيرا في هذا الوطن الاول . فهناك من رأى أن أرض
بابل (بلاد النهرين) كانت الموطن الاول للساميين ، بينما يفضل آخرون
أرض أرمنية ، وهناك فريق ثالث ذهب الى أن ذلك المهد الاول للساميين
كان في أرض آمو — أى بلاد الشام ومنطقة الفرات — بينما رأى
فريق رابع أن افريقية هي ذلك الوطن الام ، على حين ذهب فريق
خامس الى أنه في الجزيرة العربية — على اختلاف بين أصحاب هذه
النظرية بين نجد والبحرين واليمن — وأخيرا توسط بعض الباحثين بين
الآراء المتباينة عن الموطن الاول للجنس السامي ، فذهب الى أن الهلال
الخصيب وأطراف جزيرة العرب هي الوطن الاول للساميين ، وقد كان
هذا الميدان موضع صراع بين البداوة والحضارة ، فقد كان البدو

(٣٥) صموئيل شان ١٢ .

36) Buxton. L. H. D., Op. Cit., P. 99 FF.

(٣٧) جواد على : المرجع السابق ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

يهاجمون الحضرة سكان القرى والمدن ، والبدو هم من الساميين ، وكثير من الحضرة كانوا من الساميين أيضا ، ومن هذا التنازع على الحياة تكون تاريخ الساميين في هذه المنطقة الواسعة من الهلال الخصيب التي تحدها من الشرق والشمال والغرب جبال ، والتي تمتد فتشمل كل جزيرة العرب (٣٨) .

ولنناقش الآن هذه الآراء المختلفة ، لنثبت أي الآراء منها هو الصحيح ، أو على الأقل لنصل الى رأي نميل الى أنه هو الصحيح .

(١) الرأي الاول : بلاد النهرين

يرى فريق من العلماء — وعلى رأسهم فون كريمر وارنست برينان وفرانسوا لنورمان وفريتر هول — أن بلاد النهرين (أو العراق القديم) هي الموطن الاول للساميين ، وذلك لوجود ألفاظ عديدة لمسميات زراعية وحيوانية تشترك فيها أكثر اللغات السامية المعروفة وهي مسميات لأمر هي من صميم حياة هذا الاقليم ، كما يعتمد كذلك على أن اسم «الجمال» تشترك فيه جميع اللغات السامية ، ولما كان الموطن القديم للجمال يقع في أواسط آسيا قريبا من نهري «سيحون وجيخون» ، فإن هذه المنطقة تعتبر الموطن الاصلى للساميين (٣٩) ، إلا أن أجداد الساميين غادروها في الدهر الاول ، وارتحلوا عنها فانحازوا الى الجنوب ، مجتازين ايران والارضين المأهولة بالشعوب «الهندو — أوربية» حتى وصلوا الى اقليم «بابل» فنزلوا فيه ، فصار هذا الاقليم الوطن الاقدم أو الاول للساميين (٤٠) .

ويذهب العالم الايطالي «اجيانسيو جويدي» (٤١) الى أن مواطن

(٣٨) جواد على : المرجع السابق ص ٢٣٩ ، وكذلك

Roux, G., Ancient Iraq (Penguin book) 1966, P. 125.

(٣٩) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٦٥ .

(٤٠) جواد على : المرجع السابق ص ٢٣٠ .

41) Guidi, I., Della Sede primitiva die popoli semitici, Roma, 1879.

الساميين الاول كانت الارضين في جنوب بحر قزوين وفي جنوب شرقية ،
الا أنهم غادروها بعد ذلك وارتحلوا عنها الى اقليم بابل ، ثم يعضد
هذه النظرية بأسس لغوية ، ذلك أنه لاحظ أن لفظة «نهر» موجودة
بلغظها هذا تقريبا في جميع اللغات السامية — العربية والعبرية
والآرامية والسريانة والبابلية الاشورية — بينما تختلف كلمة «جبل» ،
اختلافا بينا من لغة سامية الى أخرى ، ففى العربية «جبل»
وفي العبرية «هر» وفي الآرامية والسريانية «طورا» وفي البابلية
الاشورية «شادو» كذلك لاحظ أن كثيرا من أسماء النباتات والحيوانات
وأشكال الارض في اللغات السامية تشبه ما يوجد من ذلك في البابلية
الاشورية — لافى العربية — واستخلص من ذلك نتيجة هى : أن سهول
العراق لابد أن تكون الوطن الاصلى للساميين ، لا سيما اذا أضفنا الى
ذلك أن البابلية الاشورية توجد منها نصوص مكتوبة منذ الالف الرابع قبل
الميلاد ، وهى أقدم كتابات في تاريخ الساميين على الاطلاق ولكن هذه
النظرية مجروحة لسبب بسيط جدا ، وهو أن أحد الملوك الساميين الاوائل
في العراق ، وهو الملك سرجون الاول الاكادى (حوالى ٢٣٧٠-٢٣١٥
ق.م) (٤٢) كتب عن أصله في نقش مشهور مايفهم منه صراحة أنه وعشيرته
نزحوا الى العراق من شرق جزيرة العرب، ثم ان تاريخ العراق قبل نزوح
الساميين اليها معروف لنا عن طريق الوثائق السومرية التى تثبت أن
هذا الشعب — ولم يكن ساميا (٤٣) — هو الشعب الاصلى في العراق —
وان ذهب «سيرليوناردولى» الى أن الساميين هو السابقون — (٤٤)

(٤٢) يختلف المؤرخون في تاريخ الملوك السومريين والاكديين على
السواء ، وعلى سبيل المثال فهناك من ضح سرجون الاول في الفترة
(٢٣٥٠ - ٢٢٩٥ ق.م) ومن يضعه في الفترة (٢٣٣١ - ٢٢٧٦ ق.م) .
(٤٣) يتفق المؤرخون على أن السومريين شعب غير سامى ، ولكنهم
يختلفون في موطنهم الاصلى ، فقد ذكرت أساطيرهم أنهم جاءوا من
الجنوب عن طريق البحر ، ويرى «روتزنى» أنهم جاءوا من آسيا
الصغرى ، بينما يرى آخرون أنهم جاءوا من جهة التركستان وجبال
أورال ، وهناك من يقول بأنهم جاءوا من وادى السند ، وجاء في بعض
الآراء أنهم من هضبة إيران ، بل لقد ذهب طه باقر الى أنهم من بلاد
العراق نفسها (أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٢٨) .

44) Woolley, L., the Sumerians, Oxford, 1929, P. 5-6.

وهو يختلف كل الاختلاف في العادات والتقاليد والزى والسحنة عن الساميين ، أما فيما يتصل بشيوع كلمة «نهر» واختلاف الكلمة الدالة على «الجبل» فان ذلك ان دل على شيء ، فانما يدل على أن الساميين قد عرفوا النهر قبل أن يعرفوا الجبل ، وقبل أن يتفرقوا وتختلف لهجاتهم ، ولكن أى نهر ؟ ليس من المحتم أن يكون دجلة أو الفرات (٤٥) .

وأما دحض ملاحظة « جويدى » بالطريقة التى اتبناها الآب «هنرى فليش» (٤٦) اذ قال ان شيوع كلمة النهر واختلاف اللفظة الدالة على الجبل لا يندل على شيء وان اللفظة التى تستعمل للدلالة على «الرجل» أو «الانسان» ليست هى أيضا بواحدة فى كل اللغات السامية ، فإنه — فيما يرى أستاذنا الدكتور حسن ظاظا (٤٧) — دلمع ضعيف ، فالذى لا شك فيه أن كلمة «انس» كانت هى الكلمة الشائعة فيما قبل تاريخ هذه اللغات للدلالة على الانسان ، ونص الكلمة الموجودة عندنا فى العربية وفى العبرية وفى الآرامية التى توجد فيها أيضا كلمة «جبرا» ، وهى فى الواقع اسم مجازى للرجل يتضمن معنى القوة الذى يوجد فى كلمة «الجبروت» أما كلمة «الرجل» فى اللغة العربية فممنطور فيها الى أنه المخلوق الذى يمشى على رجلين لا على أربع ، واذا كانت كلمة «انس» المذكرة غير موجودة بمعنى رجل أو انسان فى بعض اللغات السامية ، فان المؤنث منها مستفيض فى كل هذه اللغات ، أحيانا كما هو ، وأحيانا منقلبة سینه شيئا أو ثاء ، كما هو الحال عندنا فى العربية فى كلمة «أنثى» مع وجود جمع امرأة فى العربية على نساء ونسوة ، هذه الصيغة المؤنثة من «انس» بصورها الصوتية المتقاربة توجد فى البابلية الآشورية والفينيقية والآرامية بجميع لهجاتها من آرامية مصرية وآرامية يهودية وسريانية وتدمرية كما توجد فى الحبشية والعربية الجنوبية أما فيما يتصل بأسماء بعض النباتات والحيوانات والارضين

(٤٥) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٠ - ١١ .

46) Fleisch, H., Op. Cit., P. 20.

(٤٧) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١١ - ١٢ .

فربما كانت الالفاظ الشائعة من ذلك في البابلية الآشورية ألفاظا مستعارة من لغات أخرى غير سامية كلغات القوقاز وفارس والاناضول .

ومعارض «تيودور نولدكه» هذه النظرية بشدة ، ويرى أنه من الخطأ الاعتماد على الموازنات اللغوية في اثبات حقائق علمية لا يعتمد أصحابها فيها الا على مجرد دراسة كلمات وأجراء موازنات بين الفاظ لم يثبت ثبوتا قطعيا أن جميع الساميين أخذوها من العراق ، وأورد جملة أمثلة اختلف فيها الساميون ، مع أنها أجدر المعانى بأن يكون لها لفظ مشترك في جميع اللغات السامية^(٤٨) .

وأخيرا فما يوجه الى هذه النظرية من نقد أنها تستدعى أن نتصور انتقال الساميين من منطقة خصبة الى بلاد صحراوية قاحلة كبادية الشام والجزيرة العربية^(٤٩) ، وهو أمر غير مقبول لانه يفترض انتقال شعب من طور الحياة الزراعية على ضفاف نهر الى حياة البداوة وذلك عكس ما تقتضى به النظم الاجتماعية^(٥٠) ، بل ويخالف المنطق والمعقول كذلك .

(٢) الرأى الثانى : أرمينية :

هناك فريق من العلماء — على رأسهم جيون بيترس — رأى أن «أرمينية» هى الموطن الاصلى للساميين ، معتمدين فى ذلك على سفر التكوين الذى جعل من «أرفكساد» جد «عابر» واحدا من أبناء «سام» وهو الذى سميت باسمه منطقة «أربخيتيس» التى تسمى الآن «ألبك» على الحدود بين أرمينية وكردستان ، وكان يظن أن هذه المنطقة كان يسكنها الجنس الاصلى الذى انحدر منه فى رأيهم الساميون والهندو

48) Semitic Languages, Encyclopaedia Britannica, 1911, Vol. 24.

وكذلك جواد على : المرجع السابق ص ٢٢١ .

(٤٩) نسيب وهيبه الخازن : من الساميين الى العرب ص ١٤ .

(٥٠) فيليب حتى : تاريخ العرب ص ١٠ .

أوربيون معا ولكن «تيودور نولدكه»^(٥١) يقول : ان هذه الصلة موضع شك ، وان الانفصال المزعوم عن تلك المنطقة لم يكن في زمن قريب يتيح للساميين الاحتفاظ برواية تاريخية عنه ، ومن الخطأ القادح أن نتصور أن الشعوب تستطيع أن تحتفظ خلال آماذ طويلة بذكرى الوطن الذي يقال ان أجدادها المزعومين هاجروا منه ، ويجب أن ننبد الفكرة الغريبة التي سادت زمنا من أن الذكريات التاريخية تظل حية بين الشعوب غير المتحضرة •

ويمضى نولدكه في تفنيده لهذه النظرية فيقول : ان الفترة التي كان العبريون والعرب وسائر الشعوب السامية يؤلفون فيها شعبا واحدا موزعة في البعد بحيث لا يمكن لاي منهم الاحتفاظ برواية عنها ، ويبدو أن نسبة العبريين وأقاربهم الادنين الى «ارفكشاد» ترجع الى الاسطورة التي تقول ان سفينة نوح رست بالقرب من تلك المنطقة^(٥٢) ، ولكننا نجد في سفر التكوين نفسه^(٥٣) رواية مختلفة مأخوذة عن مصدر آخر تقول ان جميع الشعوب ، ومنهم الساميون ، جاءوا من بابل •

هذا فضلا عن أننا لو سلمنا جدلا — وبدون مناقشة — بهذه النظرية ، فإنه بترتب على ذلك أن تكون مرتفعات كردستان مهدا للانسانية كلها — لا للساميين وحدهم — فقد نزل من السفينة في هذا المكان المفترض نوح وأبناؤه الثلاثة جميعا «سام وحام ويافت» ولكن أنصار هذه الفكرة كانوا يقولون عن حام انه لعن ومعنى ذلك أنه طرد أيضا ، وأن «يافت» انطلق ليكون شعبا كثير العدد في بلاد بعيدة ، بينما بقى سام بجوار أبيه نوح حيث رست السفينة ، كما أنه في نفس المنطقة عاش «ارفكشاد» ، ومن بعده «عابر» الاب الاسطوري للعبريين ، وواضح أننا في تلك النظرية ننتقل من افتراض الى أسطورة ، الى مفاهيم

(٥١) موسكاتى : المرجع السابق ص ٢٤٦ — ٢٤٧ وكذلك تكوين ١٠ : ٢٢ ، ٢٤ ، ١١ : ١٢ ، وكذلك

Encyclopaedia Britannica, 1911, Vol. 24, P. 620.

(٥٢) تكوين ٨ : ٤ •

(٥٣) تكوين ١١ : ١ — ٩ •

ضمنية ، وكل ذلك لا يمكن أن تقوم عليه نظرية علمية مقبولة ، ومن أجل ذلك فإن هذا الافتراض قد أصبح الآن مهجورا لا يقبل عليه احد^(٥٤) .
ومن هنا فلا تكاد تجد بين العلماء اليوم من يعتقد أن الساميين جاءوا أصلا من الشمال *

وأما حجة «جون بيترس» من أن أرمينية هي أنسب مكان يتفق مع رواية التوراة في الطوفان ، وهو المحل الأصلي للامم السامية والآرية^(٥٥) ، كما أن الانف الحيثي يشبه كل الشبه الانف العبراني : فالرد عليه ان رواية الطوفان في التوراة هناك ما يناقضها من نصوص التوراة نفسها - كما أشرنا آنفا - وأما عن التشابه بين الانف الحيثي والعبراني ، فمرجع ذلك - فيما يرى برستد^(٥٦) - شدة امتزاج اليهود مع الحيثيين عن طريق الزواج أو غيره ، كما أن اليهود ليسوا انقياء جنسيا فهم يقولون عن أنفسهم انه منذ فجر التاريخ ومجتمعاتهم تتعرض للاضطهاد ، ويصورون شكلا من أهم أشكال هذا الاضطهاد في انتهاك الاعراض ، فالفراعة يقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، ونبي الله سليمان وخلفاؤه - وأسلافه كذلك - يكثر من التزاوج بالاجنبيات ويجعلون ذلك عادة متفشية بين عامة اليهود ، والآشوريون والبابليون يأخذون نساء اليهود سبايا ورجالهم عبيدا^(٥٧) ، هذا فضلا عن أنه ان كان تشابه الانف العبراني والحيثي ، دليلا على صحة هذه النظرية ، فقد نسي أصحابها أن العرب ، وهم من الساميين ، لم يرزقوا هذا الانف^(٥٨) .

(٣) الرأي الثالث : أرض أمور

ذهب كلاي الى أن المهد الاول للساميين هو أرض أمور ، ويشمل

(٥٤) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ٩ .

55) Journal of the American Oriental Society, 39, P. 243 FF.

56) Breasted, J. H., Ancient Times, N. Y., 1916, P. 218-19.

(٥٧) راجع مقالتنا «النقاوة الجنسية عند اليهود» ، ومقالة

الدكتور حسن ظاظا : عن الاختلاط الجنسي عند اليهود .

58) Barton, G. A., Semitic and Hamitic Origins, P. 8.

في رأيه بلاد الشام ومنطقة الفرات^(٥٩) ، وقد توصل الى نظريته هذه من الدراسات اللغوية ، ولكنها لا تستند في الواقع الى أدلة قوية ، أو تقويم على دراسات حضارية ، وأثرية تدعمها حفائر ، وانما تقوم على مقارنة فكرية في الاساطير والمأثورات الشعبية ، وأن الاسرة البابلية الاولى قد نزحت الى العراق من الغرب ، من اقليم آمورو ، كذلك لوحظ تشابه في بعض بقايا الحضارات القديمة بين الجهتين . ولكن اذا سلمنا بذلك فانه يترتب عليه أن يكون الساميون قد انطلقوا من سورية الى غيرها من بلاد الشرق الادنى ، كالعراق والاردن وشبه الجزيرة العربية ، وهذا يقتضى رحلات طويلة عبر الصحراوات لا يمكن القيام بها في هذه العصور الموعلة في القدم الا على ظهور الابل ومعنى ذلك أن الابل ينبغي أن تكون معروفة ومستأنسة ومستخدمة في القوافل منذ الالف الرابع قبل الميلاد على الاقل ، وهو أمر تقوم الأدلة كلها على خلافه ، اذ أن استعمال الجمل في هذه المنطقة لم يعرف الا في أخريات القرن الثالث ق.م ، وربما بعد ذلك ، وهى عقبة كتود في طريق اقرار هذه النظرية والاقرار بها^(٦٠) .

(٤) الرأى الرابع : أفريقية

وهناك من رأى أنهم من أفريقية ، وان اختلفوا في المكان الذى نبت فيه الساميون لأول مرة ، وفي الطريق الذى سلكه الساميون الى الجزيرة العربية^(٦١) ، فزعم «نولدكه»^(٦٢) أنهم من افريقية الشرقية ، بدليل الارتباط بين اللغات انسامية والحامية ، والتشابه الجسمانى الكبير بين الحاميين والساميين (ولا سيما الساميون في جنوب الجزيرة العربية) ، ولكنه في الوقت نفسه يسلم بأنه ليس ببعيد أن تكون الجزيرة العربية

59) Clay, A. T., Amurru, the Home of the Northern Semites, 1909.

وكذا

(٦٠) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٢ ، ١٣ .

(٦١) جواد على : المرجع السابق ص ٢٣٥ ، وكذلك

Kapper, A., and Paar, L. W., An Introduction to the Anthropology of the Near East, Amsterdam, 1934, P. 47.

62) Encyclopaedia Britannica, 1911, Vol. 24, P. 618-620.

ذلك الموطن الاصلى ، وفنادى كذلك «بارتون»^(٦٣) بالوطن الافريقى للساميين ، وان رآه فى شمال افريقية وليس فى شرقها ، وقريب من هذا ما ذهب اليه «برنتون»^(٦٤) حين حدد شمال غربى افريقيا ، ولا سيما منطقة جبال أطلس ، موطننا للساميين •

ويرى «باور — لياندر» — مع أغلب العلماء — أن الجزيرة العربية هى موطن الساميين الاصلى الذى صدرت عنه هجراتهم التى سجلها التاريخ ، ولكنهما يفترضان أن الساميين جاءوا قبل التاريخ الى الجزيرة العربية من افريقية عبر مضيق باب المندب ، وهذا الفرض يتمشى فى رأيهما والشبه الكبير فى صيغ الفعل بين لغاب أرتيريا الكوشية واللغات السامية^(٦٥) •

والاعتراض الموجه الى هذه النظرية هو كيف اختلقت من افريقية اذن جميع اللغات السامية بحيث لا تعود الى الظهور الا فى المستعمرات الفينيقية على الساحل ، لا سيما المستعمرة البوننية فى قرطاج بتونس ، ثم مع الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى ، وهو اعتراض مفحم ليست له اجابة علمية مقنعة^(٦٦) ، ثم ان كثيرا من علماء الانثروبولوجيا يرون أن افريقية تأثرت بالدماء الآسيوية أما تأثيرها فى دماء الشرق الادنى وفى دماء سكان جزيرة العرب فقد كان قليلا لقد دخلت اليها دماء شعوب الشرق الادنى من البحر المتوسط ومن طور سيناء ومن مضيق باب المندب ، ويظهر أثر هذا الاختلاط واضحا فى افريقية الشرقية والشمالية ، وما زال هذا التأثير واضحا حتى اليوم ، ولهذا فمن

63) Barton, G. A., Op. Cit., P. 6.

64) Brinton, Cradle of the Semites, Philadelphia, 1890 :
Ibid., P. 7.

وكذلك

(٦٥) سبتينوموسكاتى : المرجع السابق ص ٢٤٧ ،

جرجى زيدان : العرب قبل الاسلام بيروت ١٩٦٦ ص ٣٦ . وكذلك

Fleisch, H., Op. Cit., P. 25.

(٦٦) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٢

الصعب تصور هجرة الساميين من أفريقية الى جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق على وفق نظرية هؤلاء العلماء (٦٧) .

هذا وقبل أن ننتقل الى الرأي الاخير - وهو الأرجح فيما نعتقد - ذلك الرأي الذي ينادى بان هذا المهد كان في الجزيرة العربية ، نحب أن نشير الى رأيين آخرين - ليس لهما أهمية الاراء السابقة - ذلك أن «أنجناد» ذهب الى أن أصل الساميين من أوربه وقد تركوها وهاجروا منها الى آسيا الصغرى ، ثم هاجروا منها الى أرض «أمورو» وذهب قسم منهم في الالف الرابعة قبل الميلاد الى بابل وبقيّة أنحاء العراق (٦٨) .

وذهب آخرون الى أن الوطن الاول للساميين هو أرض «قفقاسية» ، إذ كان البشر من ثلاثة أجناس أساسية هي : الجنس القفقاسي والجنس المغولي والجنس الزنجي ، وقد قصدوا بالجنس القفقاسي أصحاب البشريتين البيضاء والسمراء ، أي الآريين والساميين ، فوطن هذين الجنسيتين الاول هو «قفقاسية» على هذا الرأي ، منه انتقل الساميون الى أوطانهم الجديدة ، بهجرتهم الى الجنوب واستقرارهم فيما يقال له الهلال الخصيب ثم فيما وراءه الى السواحل الجنوبية لجزيرة العرب ، ومنه انتقل الآريون الى الجنوب الشرقي لقفقاسية والى الغرب والشمال ، أي الى آسيا وأوربا ، ثم الى أماكن أخرى فيما بعد وبدهى أن هجرات على هذا النحو لابد أن تكون لها أسباب ومسببات ، إذ لا يعقل ترك انسان لوطنه من غير سبب ، وقد بحث القائلون بهذا الرأي عن الاسباب التي أدت الى وقوع تلك الهجرات ، فوضعوا لها جملة فرضيات (٦٩) .

(٦٧) جواد على : المرجع السابق ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ، وكذلك

Buxton, L. H. D., the People of Asia, London, 1924, P. 34.

(٦٨) جواد على : المرجع السابق : ص ٢٣٨ .

(٦٩) نفس المرجع السابق ص ٢٣٩ ، وكذلك

Sonia Cole, Races of man. British museum (Natural History, 1965 P. 9.

(٥) الراى الخامس : الجزيرة العربية

هناك كثير من العلماء — من أمثال سبرنجر^(٧٠) ، وايرهاردشرادر^(٧١) ، وكارل بروكلمان ، وكينج^(٧٢) ، وجون ماير^(٧٣) ، وستانلى كوك^(٧٤) ، وهوجو فينكلر ، وتيله والاب فنسان وجاك دى مورجان وكايتانى وديتلف نيلسن^(٧٥) وفريتز هومل وفلبى^(٧٦) ، وسايس^(٧٧) — يرون ان الموطن الاصلى للساميين كان الجزيرة العربية ، ذلك لخزان البشرى الشهير ، الذى لم يتوقف عن أن يقذف — كاقليم طرد وكصحراء فقيرة ، ولكنها ولود — بالموجة تلو الموجة الى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة ، والى وادى النيل عبر البحر الاحمر : أو عن طريق سيناء ، والواقع أن بلاد العرب — كانت ولا تزال — فى معظمها أراضى صحراوية يحيط البحر بأطرافها جميعا ، ما عدا القسم الشمالى ، فإذا زاد سكانها وعجزت عن امدادهم بالغذاء الضرورى ، كان طبيعى أن يرحل الفائض من السكان الى المناطق الخصبة من منطقة الهلال الخصيب ومصر^(٧٨) .

وقد اختلف أصحاب هذه النظرية فى المكان الذى كان الموطن الاول للساميين من الجزيرة العربية ، فـ «سبرنجر»^(٧٩) وآخرون ، راوه فى أواسط الجزيرة ، ولا سيما نجد^(٨٠) ، بينما ذهب آخرون الى العروض

70) Sprenger, A., Das Leben und die lehre des Mohammad, Berlin, 1861.

71) Scharder, E., in ZDMG, 27, 1873, P. 397 FF.

72) King, L. W., History of Sumer and Akkad, London, 1915, P. 119.

73) Meyers, J. L., in the Cambridge Ancient History, I, 1923, P. 38.

74) Cook, S. A., in the Cambridge Ancient History, I, P. 192.

(٧٥) ديتلف نيلسن : التاريخ العربى القديم ، ترجمة الدكتور

فؤاد حسن — القاهرة ١٩٥٨ .

76) Philby, H. B., the Background of Islam, Alexandria, 1947, P. 9. FF.

77) Sayce, Assyrian Grammer, 1872, P. 13.

78) Philby, H. B., Op. Cit., P. 10.

79) Sprenger, A., Op. Cit., P. 241.

(٨٠) عمر فروخ : المرجع السابق ص ٣٦ ، وكذلك

Hastings, J., A Dictionary of the Bible, 1904, P. 74.

Warrel, W., A Study of Races in Ancient Near East, 1927, P. 7, 45, 94.

— ولا سيما جزيرة البحرين والسواحل المقابلة لها — ويسندون نظريتهم بأن دراسة بعض العلماء كشفت عن هجرة بغض الاقوام مثل الفينيقيين وغيرهم من هذه الاماكن ، بينما رأى فريق ثالث — ومنهم فلبى (٨١) — أن الاقسام الجنوبية من الجزيرة العربية كانت هي الموطن الاصلى للساميين ، أى أن هذا الفريق من العلماء يرى أن اليمين هي «مهد العرب» و «مهد الساميين» ، منها انطلقت الموجات البشرية الى سائر الانحاء ، وهى فى نظر بعض المستشرقين أيضا «مصنع العرب» وذلك لان بقعتها أمدت الجزيرة بعدد كبير من القبائل ، قبل الاسلام بأمد طويل ، وفى الاسلام ، ومن اليمين كان «نمرود» وكذلك جميع الساميين (٨٢) .

وأيا ما كانت هذه المنطقة من جزيرة العرب ، فان جزيرة العرب هذه كانت موطن الساميين الاول ، وعلى هذا الاساس يمكن تفسير حركات القبائل السامية من البادية الى اودية الانهار الخصبة ، والتي بدأت منذ عصور ما قبل التاريخ ، ولم تتوقف على الاطلاق حتى الفتح الاسلامى ، وهكذا يمكننا أن نعتقد عن يقين أن شبه الجزيرة العربية هي مهد الساميين وأن الصحراء العربية كانت نقطة الانطلاق للهجرات السامية ، وان كان البعض يرى أنها لا تستند الى أسس تاريخية ، ولا على أدلة علمية ، ولكن يجب أن نلاحظ أن وثائق التاريخ ليست الاساس الوحيد للرأى القائل أن الساميين جاءوا من الصحراء العربية ، فمن الثابت أيضا أن الاحوال الاقتصادية والاجتماعية للصحراء تجعل سكانها الرعاة البدو ينزحون ولا مناص الى التدفق على المناطق الزراعية المحيطة بالصحراء (٨٣) ، أضف الى ذلك أن الهجرات السامية التى سجلها التاريخ خرجت كلها من الجزيرة العربية .

81) Philby, H. B., Op. Cit., P. 9.

82) Montgomery, J. A., Arabia and the Bible, Philadelphia, 1934, P. 126.

وكذلك جواد على : المرجع السابق ص ٢٣٣ .
(٨٣) سبتينوموسكاتى : المرجع السابق ص ٥٣ .

هذا فضلا عن استحالة الهجرة من مناطق وافرة الخيرات كثيرة الخصب كالعراق الى بلاد صحراوية كثيرا ما يشغلها الجفاف ، أو من حياة الحضارة والاستقرار الى حياة البداوة ، والارتحال ، فمن الطبيعي أن المهجرات تتم من مناطق فقيرة جدباء الى مناطق خصبة وافرة الخيرات ، ولما كان من الثابت أن حياة الساميين الاولى كانت بدوية ، فمن الراجح أن يكون موطنهم الاصلى صحراويا ، وأن يكون هذا الموطن هو جزيرة العرب ، ومنها كذلك أن معظم المدن التي قامت في العراق أو في الشام على تخوم الصحراء ، انما كانت بفضل عناصر بدوية وغدت من جزيرة العرب واستقرت في مواضع هذه المدن مثل «تدمر» و «البتراء» و «الحيرة» ، وعلى هذا الاساس يمكن اعتبار جزيرة العرب مركزا لهجرات سامية متتابعة وهناك كذلك أدلة لغوية وتاريخية وجغرافية تشير بوضوح الى أن جزيرة العرب هي مهد الساميين ، هذا الى أننا نرى أن جزيرة العرب قد أمدت بلاد الرافدين والشام بالسكان ، وأن القبائل الضاربة في الهلال الخصيب قد جاءت من جزيرة العرب ، فليس بمستبعد إذن أن يكون الساميون قد هاجروا منها الى الهلال الخصيب^(٨٤) .

أضف الى ذلك أنه منذ فجر التاريخ ، وما قبل التاريخ ، كانت كل المواطن المقترحة الاخرى مسكونة بشعوب غير سامية ما عدا جزيرة العرب ، ثم ان الاسطورة التي وردت أصداء منها في أول سفر التكوين من التوراة تذكر أن الجنة الارضية كانت تروياها أربعة أنهار تجتمع في مصب واحد لتصبح نهرا واحدا ، واثنان من هذه الانهر هي دجلة والفرات ، أما الاثنان الآخران فكان أحدهما يسمى «فيشون» ، وتصفه التوراة بأنه «يحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب ، وذهب تلك الارض جيد ، وفيها المقل وحجر الجزع»^(٨٥) ، وظاهر أن هذا النهر

(٨٤) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٦٨ ، جواد على : المرجع السابق ص ٢٣٤ .
(٨٥) تكوين ٢ : ١٢ .

المثلث كان ربما يصل الى الاطراف الجنوبية الشرقية من شبه جزيرة العرب مما يلي عدن شرقا ، والنهر الرابع يسمى في هذه القصة «جيحون» وتصفه التوراة بأنه يحيط بجميع أرض الحبشة^(٨٦) ، ويبدو من ذلك أنه كان ينبع من جبال اليمن ويأخذ مجراه مستديرا حولها فيلتقى بنهر فيشون ونهر المدجلة ونهر الفرات في شط العرب^(٨٧) ، وقد تصور «كيتانسي» أودية جزيرة العرب مثل وادي الحمض ووادي السرحان ووادي الرمة ووادي الدواسر ، أنهارا كانت ذات مياه غزيرة تتساقط اليها من المرتفعات والجبال في الدهور الغابرة ، ثم حدثت تغيرات في حالة الجو في جزيرة العرب ، ومن ثم فقد قلت مياه تلك الانهر حتى جفت ، فصارت أودية لا تجري فيها المياه الا أحيانا ، اذ تسيل فيها السيول بعد هطول الامطار^(٨٨) ، وقد ذهب الى هذا الرأي المستشرق الالماني «هومل» فرأى أن الانهر المذكورة في التوراة هي أنهر تقع في بلاد العرب وأنها وادي الدواسر ، ووادي الرمة ووادي السرحان ووادي حوران^(٨٩) ، كما ذهب «هومل» الى أن ميل السطح في شبه جزيرة العرب وتعرضه للرياح الموسمية ، ربما كان قد تغير بانخساف في طبقات الارض ، فنذر الماء في شبه الجزيرة العربية ، ولعل سبق اليمن الى عمارة السدود وخزانات المياه التي من أشهرها «سد مأرب» يرجع الى محاولة التغلب على هذا القحط ، بل لعل المأثورات المتداولة بين عرب الجاهلية عن وجود ما يسمى بالعرب البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم ووبر ، إنما هو صدى لتلك الكوارث الجغرافية التي دفعت بالساميين الاصليين من سكان بلاد العرب الى البحث عن القوت في أماكن أخرى^(٩٠) ، وان كان المستشرق «موسل» يتجه الى أن سبب الهجرات وتصول الارض الخصبة الى صحارى ،

(٨٦) تكوين ٢ : ١٣ .

(٨٧) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٣ ، ١٤ .

88) Caetani, L., Studi di Stroia Orientale, I, P. 64, 80, 243.

وكذلك جواد على : المرجع السابق ص ٢٤٤ .

89) Montgomery, J. A., Op. Cit., P. 9.

(٩٠) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٤ .

انما يرجع الى ضعف الحكومات ، والى تحول الطرق التجارية^(٩١) .

وأيا ما كان الامر ، فاننا نجد أنفسنا أمام نظرية متكاملة ، فالساميون عرفوا ، أول ما عرفوا ، النهر لا الجبل ، اذ عاشوا على النهرين الكبيرين (فيشون وجيحون) اللذين كانا يشقان شبة الجزيرة العربية من أقصاها الى أقصاها ، كما عاش السومريون على النهرين الآخرين (الدجلة والفرات) ، كذلك تفسر لنا هذه النظرية الاسباب التي كانت وراء هجرة الساميين وانتشارهم في الشرق الأدنى ، أما العرب الذين بقوا في أرضهم بعد جفافها فان لغتهم القديمة المقدسة قد بقيت معهم ، وهذا يفسر لنا القدسية التي كانت للعربية الفصحى بين عرب الجاهلية ، كما يفسر لنا اجماع علماء النحو المقارن ، من أمثال بروكلمان ووليم رايت وادوارد دروم ودافيد يلين ، على أن اللغة العربية الفصحى هي بلا منازع أقدم صورة حية من اللغة السامية الام ، وأقرب هذه الصور الى تلك اللغة التي تفرعت منها بقية اللغات السامية ، فاذا أضفنا الى ذلك أن أسماء الاعلام التي تدل على بعض المواضع ترجع الى تبادل فكرى ودينى لا نعلم متى كانت بدايته ، لايغاله في القدم ، فاننا لا يسعنا الا أن نؤيد هذه النظرية ، فمن تلك الاسماء اقليم «تهامة» ، وهو سهل الحجاز الساحلى الواقع على البحر الاحمر ، وهو يمت بصلة لغوية الى الالهة «تيامت» المعروفة في وثنية العراق القديم بكونها تهيمن على الشطوط والسواحل ومصايد الاسماك ، كذلك اسم مدينة «عدن» في جنوب الجزيرة العربية ليس بغريب عن نفس الاصل السامى القديم الذى أخذت منه كلمة «عدن» صفة للجنة ، والاصل في كل هذا أنها تدل على النعومة والصقل والبريق ، ومنها اشتقت كلمة «معدن» أيضا^(٩٢) .

أضف الى ذلك كله ، أن هناك حقيقة تبدو ثابتة الى حد كاف ، وهى أن التاريخ يدلنا على أن الصحراء العربية كانت نقطة الانطلاق للهجرات

91) Musil, A., Northern Negd, N. Y., 1928, P. 317.

(٩٢) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٥ ، ١٦ .

السامية^(٩٣) ، ويضعيف الدكتور العنانى الى ذلك أدلة منها وحدة التفكير واتحاد العقلية والاشتراف فى نوع الخيال عند جميع الامم السامية واصطباغ كل ذلك بصبغة واحدة أصلها وحى الصحراء وقوامها حياة البداوة ، وأن الشعوب السامية التى تحضرت فى أطراف الجزيرة ظلت محتفظة بنوع التفكير والخيال السالف الذكر^(٩٤) .

وأخيرا فان الساميين القدامى أنفسهم يقولون انهم هاجروا من جزيرة العرب ، قال ذلك الاكاديون على لسان سرجون الاول ، كما أشرنا الى ذلك من قبل — وقال ذلك المصريون حين روى قداماؤهم أنهم جاءوا من الشرق ، ومن الجنوب الشرقى ، وأنهم علموا الحضارة لمن كانوا فى البلاد ، وأخضعوهم لسلطانهم ، ويصفون الطريق الذى جاءوا منه وصفا غامضا لا نعرف عنه شيئا على وجه التحقيق فى بدايته ، ولكنهم استخدموا الطريق الموصل بين البحر الاحمر والنيل مارا بواى الحمامات بعد ذلك ، وقل ظل هذا الوادى الى آخر عهد الفراعنة يتمتع بشيء من التقديس ، والامر كذلك بالنسبة الى ذكرى آل «شمسو — حور» أى أتباع حور (حورس) ، ولكن من هو الاله حور وما أصله ؟ الجواب عن ذلك : أن هذا الاله لم تكن له فى الاصل صلة بعبادة الشمس ، وأنه كان رمزا اتخذته احدى القبائل كمعبود لها على هيئة الصقر ، وأنه جاء مع الفاتحين ، وفى نصوص الاهرام (وهى من أهم المراجع الدينية ٢٥٠٠ — ٢٢٥٠ ق م) يصفون هذا الاله تارة بكلمة «أختى» وتارة بكلمة «أبتى» و «أبت» معناها الشرق ، و «أخت» معناها أفق الشمس ، وكلا الكلمتين تشير الى المشرق^(٩٥) ، ويذهب أستاذنا الدكتور أحمد فخرى^(٩٦) — يرحمه الله — الى أن هناك اشارات كثيرة

(٩٣) سبتينوموسكاتى : المرجع السابق ص ٥٣ .

(٩٤) على العنانى وآخرون : كتاب الاساس فى الامم السامية وقواعد اللغة العبرية وآدابها ، وكذلك محمد مبروك نافع «تاريخ العرب : عصر ما قبل الاسلام القاهرة ١٩٥٢ ص ١١» وكذلك

Hastings, J., Op. Cit., P. 85.

(٩٥) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٣٥ .

(٩٦) نفس المرجع السابق ص ١٣٦ — ١٣٨ .

الى أن الموطن الاصلى لحوور هو بلاد بونت ، والى أن اسم حور غريب على اللغة المصرية ولكنه موجود في اللغات السامية ، وبعبارة أدق في اللغة العربية ، والى أن هؤلاء الواهدين «أتباع حور» عبروا من جزيرة العرب الى الشاطئ الافريقي في أرثيريا ، ثم ساروا مخطرقين البلاد حتى وصلوا الى صحراء مصر الشرقية ودخلوها عن طريق وادي الحمامات ، هذا فضلا عن أن الاله «حور» هذا لم يكن الاله الوحيد الذى قال المصريون بأن أصله من بلاد العرب ، وإنما هناك آلهة أخرى، منها الاله «بس» ، فإذا أضفنا الى ذلك كله عدة حقائق منها أنه لم يوجد في يوم من الايام حاجز طبيعى يفصل بدو شرق مصر عن بدو سيناء أو بدو فلسطين أو شرق الاردن أو شمالى الجزيرة العربية ، ولهذا كان طبيعيا منذ بدء تاريخهم ببداية سيناء ، وأن تكون بلادهم مفتوحة لسكان هذه المناطق ، ومنها أن مناظر أهل بونت في معبد «ساحورع» فى الاسرة الخامسة ومناظرهم على جدران الدير البحرى وبعض مقابر طيبة فى الاسرة الثامنة عشرة ، تبين أنهم من جنس يشبه كثيرا جنس المصريين ويتفق معهم فى أكثر الملامح والملبس ، من هذا كله يتبين لنا صحة ما ذهب اليه المصريون من أنهم قد هاجروا الى مصر من بلاد اليمن الجنوبية ، والتي كانوا يدعونها فى تلك الايام الغابرة «بلاد بونت» — رغم تقلب الدول عليها — كما كانوا يدعونها كذلك «بانثر» أى «أرض الاله — أو أرض الله» ، وان كانت أحدث الآراء تتجه الى أنها كانت تشمل كلا من الشاطئ الافريقى والاسيوى ، أى ما يعرف الان باسم جنوبى جزيرة العرب والصومال وأرثيريا (٩٧) .

وأما الفينيقيون فيذكرون أنهم قدموا من شبه الجزيرة العربية ، وأنهم وصلوا أولا الى بلاد العرب الصحرية فى شمال الحجاز ، ومنها دخلوا اقليم النقب ليأخذوا طريقهم بمحاذاة الساحل الى لبنان وسورية، ويشير «استرابو» الجغرافى الرومانى (الكتاب ١٦ : ٢) الى أن مقابر

(٩٧) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٤٠ ، مصر الفرعونية ص ١٣٣ ، وكذلك محمد مبروك نافع المرجع السابق ص ٥٢ ، ٥٣ ، الاطلس الجغرافى التاريخى : خريطة ١٧ ص ٦٩ .

جزر البحرين في الخليج العربي تتشابه ومقابر الفينيقيين ، وأن سكان هذه الجزر يذكرون أن أسماء جزائرهم أسماء فينيقية وأن في مدنها هياكل تشبه الهياكل الفينيقية ، هذا بالإضافة الى أن «تيودور بنت» أجري عام ١٨٨٩ م تنقييا في مقابر البحرين وبعث بشيء منها الى المتحف البريطاني ثم ظهر أنها من مقابر الفينيقيين قبل هجرتهم الى سواحل سورية ، كما عثر الرحالة «جون فلبى» على مثل هذه المقابر في الخرج والافلاج من أعمال نجد ، وهو يرى أنه ربما جاء الفينيقيون من هاتين المنطقتين ، ثم هاجروا منها الى سواحل الخليج العربي ، كما أن هناك أسماء في شرق الجزيرة العربية تحمل نفس أسماء المدن التي أنشأها الفينيقيون على الساحل الشامي مثل «صور» على ساحل عمان و «جبيل» على ساحل الاحساء ، و «أرواد» الاسم القديم لجزيرة المحرق ، كما أن هناك من رأى أن الفينيقيين قد انطلقوا من البحرين الى البصرة سالكين الهلال الخصيب الى الساحل السوري حيث بنوا مدنها هناك (٩٨) .

وهكذا انطلقت من شبه الجزيرة العربية هجرات ضخمة تتدفق في موجات متتابة تشق طريقها الى الاراضى الخصبة ، ويذهب بعض العلماء الى أن الفترة بين الموجة والتي تليها تبلغ زهاء ألف عام (٩٩) ، وتشير الاثار المستخرجة من الاراضى فيما بين دجلة والفرات على أن أولى الهجرات السامية بدأت نحو عام ٥٠٠٠ ق.م ، وأن هذه الاكتشافات لا تنفى فكرة وقوع هجرات سامية أخرى قبل هذا التاريخ، كما أن الساميين قد شرعوا قبل العصر التاريخي ينزلون في مصر ، وربما دخلوا مصر عن طريق وادى الحمامات ، وعن طريق سيناء ثم الدلتا ،

(٩٨) راجع كتابنا «اسرائيل» ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، وكذلك عز الدين اسماعيل : تاريخ فلسطين القديم ص ٣٧ .

99) Montgomery, J. A., Arabia and the Bible, P. 21.

وكذا

Warrell, W., Astudy of Races in Ancient near East, 1927, P. 7, 45, 94.

وكذلك فيليب حتى : تاريخ العرب ص ١٢ .

واستقروا بها واختلطوا بالسكان الاصليين مكونين المصريين الذين نعرفهم في التاريخ ، وفي نهاية الالف الرابع وأوائل الالف الثالث قبل الميلاد، أخذت الهجرات من الجزيرة العربية صورة منتظمة وأخذت تنطى على الشرق الأدنى وتؤثر فيه ، وكانت سورية محط لهذه الهجرات من البدو الساميين ، وكانت بوتقة انصهرت فيها الحضارة والبداءة ، ولكن حصتها من موجات الساميين كانت أكثر من غيرها حيث تعرضت لخمس هجرات منها على الأقل ، حتى غدت مهدا للهجرات السامية الفرعية الى نواحي الشرق الأدنى القديم ، كاذ الموجة الاولى هي موجة الاموريين ، ومع الاموريين — أو في أعقابهم — تقدمت موجة أخرى تحمل اسم الكنعانيين أو الفينيقيين ، كما أطلق عليهم اليونان ، وأما ثالث الموجات فقد أطلق على أصحابها اسم «الاراميين» ، وكانت الموجة السامية الرابعة هي موجة العبرانيين^(١٠٠) ، وفي حوالى القرن الخامس قبل الميلاد كانت هجرة الانباط الى الشمال الشرقى من شبه جزيرة سيناء حيث بلغت عاصمتهم «بطرة» أو «البتراء» درجة رفيدة مدهشة من الحضارة في الفترة السابقة لاحتلال الرومان سورية في عام ٦٥ ق.م ، وأخيرا كانت هجرة الالخميين المناذرة الى العراق ، والنساسة الى الشام .

وأما أعظم الموجات العربية الكبرى ، فهي هجرة القبائل العربية في القرن السابع الميلادي الى الهلال الخصيب والعراق ومصر والشمال الافريقي ، وان تميزت عن غيرها من الهجرات السامية بأنها لم تكن بدافع الاقتصادى — كما أراد أن يفسرها المغرضون من الاوربيين — وانما عن ايمان وعقيدة ، عن ايمان عميق بدينهم الحنيف ، وبما وعد الله به المسلمين المجاهدين في سبيل الله ، وعن عقيدة بأن الجهاد فريضة مكتوبة وركيزة مطلوبة ، من حرص عليها وصدق فيها عز ، ومن أهملها أو خادع فيها ذل ، فقال سبحانه وتعالى في سورة الحج : « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم » وقال في سورة العنكبوت «والذين

.....
(١٠٠) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ج ٣ ص ١٨٢ ، ١٨٣ ولعرفة المزيد عن هذه الهجرات ، راجع الفصل السادس من كتابنا «اسرائيل» .

جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين» وقال في سورة التوبة «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم» ، وهكذا كان المسلمون ينطلقون الى ساحة القتال معتمدين على الله ، واثقين آخر الامر في نهاية سعيدة ، هي النصر أو الشهادة ، ومن هذا المنطلق يقف المقداد بن عمرو قبيل موقعة بدر الكبرى فيقول لرسول الله ﷺ : «يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا معكما مقاتلون» ، ومن هذا المنطلق كذلك يقف سعد بن معاذ ليرد على رسول الله ﷺ — حين أراد أن يعرف رأى الانصار ، «لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، انا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله» .

وهكذا بهذه الروح العالية ، وبهدى من الله وبارشاد من رسول الله ، وباتباع لكتاب الله وسنة رسوله ، استطاع المسلمون — أو استطاعت الهجرة العربية الكبرى — أن تجعل راية الاسلام ترغرف عالية على الشرق العربي ، بعد أن طردت الساسانيين والرومان ودكت عروش الإباطرة ونشرت الدين الاسلامي وشادت أسس الحضارة الاسلامية العربية ، ولم تكن هذه الهجرة بدافع اقتصادي ، كما أراد أن يفسرها الاوربيون ، الذين لا يؤمنون بتفسير التاريخ تفسيراً للروحانيات شأن فيه ، ولعل عذرهم أنهم لا يفهمون روحانية الاسلام ، وأنهم يعيشون في بلاد ، وفي عصر ، طغت فيه على أذهانهم فلسفة المادية ومنطقها .

الباب الثاني

الامور

الفصل الأول

الممالك الامورية

(١) سكان بلاد الشام فيما قبل الاموريين :

يمثل الآموريون الموجة السامية الاولى التى قدمت الى بلاد الشام — أو سورية بمعناها الواسع — من شبه الجزيرة العربية ، والتى انطلقت منها هجرات ضخمة تتدفق فى موجات متتالية ، تشق طريقها الى الاراضى الخصبة ، ويفصل بين الموجة التى تليها فترة تبلغ قرابة ألف عام^(١) .

ولسنا نعرف عن أهل البلاد الاصليين قبل قدوم الآموريين الكثير. بل أن معلوماتنا عنهم تكاد تكون شبه نادرة ، أن لم تكن معدومة فى بعض النواحي ، فربما كانت بها جماعات ليست من جنس البحر المتوسط قدمت من مواطنها فى الاراضى المرتفعة فى أواسط آسيا ، أثناء العصر الحجري النحاسى ، وفرضت نفسها على سكان البلاد واخطلط بهم على مر الايام ، كما أثبتت ذلك الحفائر فى «جازر»^(٢) و «قرقميش» وغيرها من مواقع أخرى ، كما فى فلسطين^(٣) ، وربما كان بها بعض السومريين الهندو — أوربيين .

1) H. Winkler, History of Babylonia and Assyria, New York, 1907, P. 18-22.

وكذا

J. Montgomery, Arabia and The Bible, Philadelphia, 1934, P. 21.

(٢) جازر : وهى تل الجزر الحالية على مبعدة ١٨ ميلا شمال غرب القدس ، ١٧ ميلا جنوب شرق حيفا ، وخمسة أميال وثلاثي الميل شرقى عقرون

(M. Unger, Unger's Bible Dictionary, 1970, P. 401).

(٣) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ — بيروت ١٩٥٩ ص ٧٣ — ٧٤ .

غير أن الرأي السائد الآن أنهم كانوا ، دون شك ، من جنس البحر المتوسط ، والذي يعتبر الساميون فرعاً منه ، وقد عاش في هذا الجزء من العالم بين سكانه بعض الساميين المنتمين إلى شبه الجزيرة العربية في أصولهم الأولى ، ولكنهم كانوا أقلية ، قبل أن يقوموا بهجرتهم الكبرى ، حوالي عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد^(٤) ، وإن ذهب بعض الباحثين إلى أن أول إشارة إلى أرض الآموريين إنما ترجع إلى عصر «سرجون الأول» (٢٣٧٠ - ٢٣١٥ ق م) ، وهو أول شخصية كبرى في تاريخ الساميين ، وفي ذلك العهد أصبحت سورية سامية لأول مرة ، باستثناء بعض جيوب سكنها الحوريون وآخرون من غير الساميين ، واحتفظت بصيغتها السامية خلال العصور حتى الوقت الحاضر^(٥) .

وعلى أية حال ، فلم تكن بلاد الشام خالية من السكان عند قدوم الهجرة السامية الكبرى إليها ، بل كان فيها ، دون شك ، أقوام ساميون اختلطوا بسكانها الأصليين ، الذين كانت لهم لغات وديانات غير سامية الأصل ، ولكن سرعان ما طغت السامية على غيرها^(٦) .

(٢) اسم الآموريين :

نحن لا نعرف الاسم الذي أطلقه الآموريون على أنفسهم على وجه اليقين ، ولكننا نعرف أن جيرانهم السومريين في الشرق كانوا يطلقون عليهم اسم «مار - تو» Mar-Tu (المارتو) ، فلقد تصور السومريون أن السالم يتكون من أربعة أقسام ، وتمثل أرض سومر وأكد قسميه الجنوبي والشمالي على التوالي ، ويتكون قسمه الشرقي من أراضي شوبور (سوبار) وخمازي ، وأما قسمه الغربي فقد أطلق عليه اسم

(٤) أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم - القاهرة ١٩٦٣ ص ٥٩ .

(٥) فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - الجزء الأول - ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق - بيروت ١٩٥٨ ص ٧٠ ، وكذا Armo Poebel, Historical Texts, P. 177.

(٦) أحمد فخري : دراسات في العالم العربي - القاهرة ١٩٥٨ ص ١٠٨ .

أرض «مارتو» كما وصفوا «المارتو» بالبداوة اذ «لايعرفون القمح»^(٧).

هذا وقد أطلق الاكديون على الاموريين اسم «امورو» (Amuru) ويعنى الغرب ، وقد أطلق البابليون الاسم على كل سورية ، كما سمو البحر المتوسط «بحر أمورو العظيم» ، ومن المحتمل أن اسم «امورو» كان فى الاصل اسما لقبيلة قوية ، أو مجموعة من القبائل ، ثم عمم الاسم بعد ذلك ، وصار اسما عاما يطلق على البدو القاطنين فى بادية الشام^(٨) ، وأما معنى الاسم فى العهد القديم فهو «الواحد الاعلى» ذلك لان اسم الاموريين انما هو اسم عام يعنى «ساكن البلاد الجبلية» أو «طوال المقامة»^(٩).

وعلى أية حال ، فلقد استعملت كلمة «أمور» طوال التاريخ لتدل على هضبة صحراء سورية ، وان كان امتدادها بوصفها وحدة سياسية خلال الالف الثانى قبل الميلاد ، انما كان يختلف من وقت لآخر ، اذ كانت تنحصر فى الاقليم الجبلى المعروف الان «بجبل الدروز» ، وأحيانا كانت تشتمل على أرض من البحر المتوسط ، وحتى «خاتى» (خيتا) ، وأحيانا كانت تمتد الى شرق الاردن ، حيث قامت مملكة سيحون، ومملكة عوج ملك باشان ، وأما فى عصر العمارنة فقد كانت أمور دويلة فى الجزء الفينيقي من بلاد الشام ، وكانت «سيميريا» واحدة من أهم مدنها^(١٠).

هذا ويمكن القول أن المنطقة التى سكنها الأموريون انما كانت تشكل ممرا طبيعيا له أهميته من الناحية التجارية ، ونقل التراث الحضارى،

7) S. N. Kramer, The Sumerians, Chicago, 1970, P. 284-287.

(٨) محمد عبد القادر : الساميون فى العصور القديمة - القاهرة

١٩٦٨ ص ١١٠ ، وكذا

S. Moscati, The Semites in Ancient History, Cardiff, P. 52-57.

(٩) عدد ٢٩/١٣ ، ثنية ٧/١ ، ٢٠ ، يشوع ٦/١٠ ، عاموس

٩/٢

ثم قارن : عدد ٣٢/١٣ - ٣٣ ، ٣٧ ، ثنية ١١/٢ ، وأنظر :

M. Unger, Op. Cit., P. 45.

10) A. H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, I, Oxford, 1947, P. 189-190.

وكان من الناحية الغربية يؤدي الى البحر المتوسط ، ومن الناحية الشرقية الى منعرج الفرات ، وقد حاول كل من البابليين والمصريين والاشوريين والكلدانيين والفرس والمقدونيون السيطرة على المنطقة^(١١) .

(٣) مملكة ماري :

لا ريب في أن مدينة «ماري»^(١٢) ذات الموقع الهام في حوض الفرات الاوسط ، أهم مركز لتجمع العناصر السامية الغربية في وادي الفرات ، ولم تفقد هذه الاهمية الا بعد سقوط مملكة ماري في أواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وقد سادتها دائما هذه العناصر السامية الغربية وان خضعت في كثير من الاحيان لنفوذ حكام السهل الميزوبوتامي المجاور .

هذا وقد قامت مملكة ماري في حوالي عام ١٨٢٠ ق م ، ولم تستمر أكثر من ستين عاما ، حيث انتهت على يد حمورابي البابلي

(١١) عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ص ٢٣٧ .

(١٢) ماري : كلمة سومرية من جهة الاشتقاق ، شبيهة باسم البلاد «أمورو» و «مارتو» أي بلاد الغرب ، وهي الان «تل الحريري» جنوب مصب نهر الخابور ، بالقرب من «دير الروز» على مبعدة ميل واحد غربي الفرات ، قرب بلدة «أبو كمال» (البوكمال) قرب الحدود العراقية السورية ، وقد أصبحت ماري والبلاد المحيطة بها خلال القرن العشرين قبل الميلاد أمورية في سكانها وحضارتها وحكومتها (أنظر : قاموس الكتاب المقدس ١١٩/١ ، وكذا

M. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, P. 46.

W. F. Leemans, Foreign Trade in The Old Babylonian Period, Leiden, 1960, P. 102.

هذا وقد اكتشف «أندريه بارو» في عام ١٩٢٣ م حوالي عشرين ألف لوحة فخارية مكتوبة بالخط المسماري في قصر الملك «زمرى ليم» آخر ملوك ماري ، وهي محفوظة الان بمتحف اللوفر في باريس ، وتنقسم الى قسمين ، الاول : نصوص اقتصادية وإدارية ، والثاني رسائل متبادلة بين ملوك ماري وأتباعهم وحلفائهم وقد نشرت هذه الوثائق تحت عنوان Archives Royales de Mari وقد ظهر منها حتى الان ١٦ جزءا ، وقد شارك في هذا العمل العلمي الضخم كثير من الاساتذة المتخصصين .

حوالى عام ١٧٦٠ ق.م ، وحكم فى هذه الفترة أربعة من ملوك مارى هم : (١) ياجيد ليم (١٨٢٠ - ١٨١٠ ق.م) - (٢) ياخدون نيم (١٨١٠ - ١٧٩٦ ق.م) - (٣) سومو يامام (١٧٩٦ - ١٧٩٢ ق.م) (٤) ياسماخ أدد الاشورى (١٧٩٢ - ١٧٨٢ ق.م) ، ثم الملك «زمرى ليم» (١٧٨٢ - ١٧٦٠ ق.م) (١٣) .

على أن هناك من يذهب الى أن «زمرى ليم» انما قد حكم عامين آخرين تحت السيادة البابلية التى عمل على التخلص منها ، الامر الذى دعا «حمورابى»^(١٤) الى تدمير «مارى» تدميرا نهائيا ، ونهب معبد عشتار والقصر الملكى ، واضرام النيران فى المدينة التى لم تقم لها بعد ذلك قائمة (١٥) .

هذا وكانت مملكة «زمرى ليم» تتكون أساسا من وادى الفرات الاوسط ، فيما بين مصب نهر بلخ شمالا ، و «توتول» (خيت الحالية) جنوبا ، وقد عمل «زمرى ليم» على ضم معظم أملاك «شمسى أدد» الاشورى فى الغرب ، والتى امتدت حتى الثنية الكبرى للفرات غربا ، وشملت الجزء الاكبر من «ميزوبوتاميا العليا» ، وحوض الخابور وبلخ حتى ثنية الفرات ، وربما امتد نفوذه الى اقليم «ايداماراز» الذى

13) W. W. Hallo and W. K. Simpson, The Ancient Near East, USA, 1971, P. 99.

L. Oppenheim, The Archives of The Palace of Mari, JNES, 11, 1925, P. 130.

J. R. Kupper, Les Nomades en Mesopotamie au Temps les rois de Mari, 1957, P. 33.

وكذا (١٤) اختلف العلماء فى تاريخ عصر حمورابى ، ومن ثم فقد قدموا لنا التواريخ التالية : (١٨٤٨ - ١٨٠٦ ق.م) ، (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م) ، (١٧٩١ - ١٧٤٩ ق.م) ، (١٧٤٢ - ١٦٨٦ ق.م) ، (١٦٨٦ - ١٦٨٠ ق.م) ، (١٧٣٠ - ١٦٨٥ ق.م) ، (١٧٢٤ - ١٦٨٢ ق.م) (أنظر : محمد عبد القادر : الساميون فى العصور القديمة ص ٢٥١)
15) J. R. Kupper, in BA, 41, 1947, P. 153-154.

يتأخم أعالي الفرات ، كما تشير الى ذلك نصوص ماري (١٦) .

ويذهب بعض الباحثين الى أن نجاح «زمرى ليم» في توسيع ملكه ومجاها نفوذه ، حتى غدت مملكة ماري في عهده من القوى الكبرى في الشرق الأدنى القديم ، انما يرجع الى انه كان رجل حرب (١٧) ، كثير التنقل والحرصه وغالبا ما كان في معسكر جنده خارج عاصمته ماري (١٨) . فضلا عن حشده لاعداد ضخمة من العناصر السامية الغربية وخاصة الخانيين الذين اعتمد عليهم «زمرى ليم» بصفة أساسية في تكوين قواته المقاتلة ، وقد أسفرت هذه الجهود عن مكانة متميزة لمملكة ماري في عهد «زمرى ليم» كقوى ضاربة كبرى في الشرق الأدنى القديم ، حتى قضى عليها «حمورابي» في عام ١٧٦٠ قبل الميلاد (١٨) .

بقيت الإشارة الى أن الاكتشافات التي قام بها الفرنسيون في ماري في الفترة (١٩٣٣ - ١٩٣٩) والفترة (١٩٥١ - ١٩٥٥) أظهرت أنه كان بهذه المنطقة حضارة تنقسم الى عصرين ، الواحد : سابق لعصر سرجون الاول الاكدي ، وهو يمثل حضارة سومرية ، والاخر : أموري في الالف الثاني قبل الميلاد (١٦) .

(٢) مملكتا الاموريين في شرق الاردن :

أقام الاموريون مملكتين آموريتين في شرق الاردن ، الواحدة : مملكة سيحون ، وتقع بجانب نهر الاردن ، وتمتد حدودها من «أرنون» (٢٠) .

16) J. R. Kupper, Archives Royal de Mari, Vil. VI, Paris, -954, No.76. وكذا

J. R. Kupper, Northern Mesopotami and Syria, in CAH, II, Part, I, 1973, P. 9.

17) Ibid., P. 9.

(١٨) محمد عبد اللطيف : سجلات ماري .

(١٩) عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ص ٧٣ - ٧٤ .

(٢٠) أرنون : نهر يدعى الان «وادي الموجب» في المملكة الاردنية الهاشمية ، ويتكون من وادي «وله» الذي يأتي من الشمال الشرقي ، ووادي «عنقيلة» التي من الشرق ، و «سيل الصعدة» التي من الجنوب ، ويجري نهر أرنون في غور عميق حتى يصل الى البحر الميت في نقطة تقع الى مسافة قصيرة من منتصف الشاطئ الشرقي (قاموس الكتاب المقدس ٥٧/١ ، وكذا

(M. Unger, OP. Cit., P. 127 .

(وادي مؤاب) الى «يبوق»^(٢١) (وادي الزرقاء) ، ومن الاردن الى الصحراء^(٢٢) ، وكانت «حشبون»^(٢٣) عاصمة لها .

وأما المملكة الثانية فهي : مملكة عوج ملك باشان^(٢٤) ، وتمتد من «يبوق» ، وحتى جبل حرمون (جبل الشيخ)^(٢٥) ، وقد هزم العبرانيون هذين الملكين (سيحون وعوج) واحتلوا أرضهما^(٢٦) ، وذلك عندما كان بنو اسرائيل يتجولون هنا وهناك في شرق الاردن ، دون أن يستطيعوا العبور الى غربه ، محتكين بكل القبائل الساكنة هناك ، والرافضة أبدا استقبالهم ، وأخيرا نجحوا في تحدي «سيحون» في «ياهص»^(٢٧) ، كما نجحوا كذلك في تحدي «عوج» ملك باشان في «أذرعى»^(٢٨) ، وبذلك تمكنوا من الوصول الى الاردن في مقابل «أريحا»^(٢٩) .

(٢١) يبق : هو نهر الزرقاء الذى ينبع الى الغرب من عمان ، ثم يسيل شرقا ثم شمالا ، مارا بمدينة «الزرقاء» التى حملت اسمه ، ثم يصب فى الاردن عند نقطة تقع على مبعده ٤٣ ميلا الى الشمال من البحر الميت (قاموس الكتاب المقدس ١٠٥١/٢) .
(٢٢) قضاة ٢٢/١١ .

(٢٣) حشبون : وتعرف الان باسم «حسيان» ، وهى مدينة خربة قائمة على تل منعزل بين أرنون ويبوق ، وتقع على مبعده سبعة أميال ونصف شمال «مادبا» (قاموس الكتاب المقدس ٣٠٧/١ - ٣٠٨) .
(٢٤) باشان : منطقة فى شرق الاردن بين جبلى حرمون وجلعاد ، وسميت باشان نسبة الى جبل هناك ، وتشمل حوران والجولان واللجاة ، ويحدها شمالا أراضى دمشق ، وشرقا بادية سورية ، وجنوبا أرض جلعاد ، وغربا غور الاردن ، ويخترق جانبها الشرقى جبل الدروز ، وهو جبل باشان القديم (قاموس الكتاب المقدس ١٥٩/١ ، وكذا (M. Unger, Op. Cit., P. 127

(٢٥) تثنية ٤/٣ ، ٩ ، وأنظر M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, P. 45-46
(٢٦) قضاة ١٩/١١ - ٢٣ ، قاموس الكتاب المقدس ١١٩/١ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٤٩١/١ - ٤٩٢ .
(٢٧) ياهص : وتقع على مبعده ميل واحد جنوبى زرقاء معين ، ١٢ ميلا شرقى البحر الميت ، وقيل انها قرية «أم المواليد» أو «خربة اسكندر» (قاموس الكتاب المقدس ١٠٤٩/٢) .
(٢٨) أذرعى : وتسمى الان «درعة» وتقع فى وادي زبدية ، على مبعده ٢٩ ميلا شرقى الطرف الجنوبى لبحيرة طبرية ، وعلى الحدود بين سورية والاردن (قاموس الكتاب المقدس ٤٢/١) .
(٢٩) عدد ٢١/٢١ - ٣٥ ، تثنية ٣٦/٢ - ١١/٣ .

(٣) الاموريون في التوراة :

تصور التوراة الآموريين في سفر التكوين ، وكأنهم من سلالة «كنعان»^(٣٠) ، وهو نوع من الاضطراب المعهود في التوراة ، ذلك لان الاموريين — طبقا لرواية التوراة هذه — سوف يكونون من الحاميين، وليسوا من الساميين ، ذلك لان الكنعانيين — في نظر التوراة — انما هم قوم حاميون^(٣١) ، بل ان هناك من الباحثين المحدثين من يرى في أرض أمور المهد الاول للساميين، وتشمل بلاد الشام ومنطقة الفرات^(٣٢)، وعلى أية حال ، فان التوراة تصور الآراميين من الاهمية بما يكفي لان يطلق اسمهم — في بعض الاحايين — على كل شعوب أرض كنعان ، بصفة عامة^(٣٣) .

وأيا ما كان الامر ، فان الآموريين يظهرون في التوراة ، وكأنهم يحتلون جزءا من بلاد يهوذا ، كما يحتلون كذلك جزءا من منطقة شرق الاردن^(٣٤) ، ذلك لان الآموريين كانوا منذ عصر سيدنا ابراهيم عليه السلام (١٩٤٠ — ١٧٦٥ ق.م) أهم قبيلة في الارض الجبلية بجنوب فلسطين^(٣٥) ، وكانوا يسكنون في حصون «تامارا» — وهي عين جدي، التي تقع على مقربة من حبرون —^(٣٦) . هذا وينسب الى الآموريين انشاء عدة مدن ، لعل من أهمها «تل الحسى» — على مبعده ١٦ ميلا الى الشرق من غزة — و «تل النجيلة» — على مبعده ١٨ كيلا الى

(٣٠) تكوين ١٦/١٠ .

(٣١) تكوين ٦/٢٠ .

32) A. T. Clay, Amurru, The Home of The Northern Semites 1909.

J. Hastings, A Dictionary of The Bible, Edinburgh, 1936, P. 380.

(٣٣) تكوين ١٦/١٥ ، يشوع ٧/٧ ، ٨/٢٤ ، قضاة ١/٦ ، عاموس

١/٢ ، وانظر

M: F. Unger, Op. Cit., P. 45-46.

وكذا

(٣٤) تكوين ٧/١٤ ، ١٩ ، قاموس الكتاب المقدس ١١٩/١

35) A. H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, II, Oxford, 1947, P. 187.

(٣٦) تكوين ٧/١٤ ، أخبار أيام ثان ٢/٢٠ ، تكوين ١٣/١٤ ،

ثم قارن : تكوين ١٨/١٣ .

الشمال الشرقى من غزة ، فضلا عن مدينة «شعليم»^(٣٧) ، شرقى اللد ،
كما جددوا مدينتى «لخيش»^(٣٨) و «جازر» ، وحصنوا جميع المدن
وأحاطوها بأسوار .

(٣٧) شعليم - أو شعلبيم : مدينة في فلسطين سكنها الاموريون ،
وربما هى الان «سلبيط» على مبعدة ثلاثة أميال شمال غربى عجلون ،
وقد جاء عنها فى التوراة «وحصر الاموريون بنى دان فى الجبل لانهم لم
يدعوهم ينزلون الى السوادى ، فعزم الاموريون على السكن فى جبل
حارس فى أيلون ، وفى شعلبيم ، وقويت يد بيت يوسف فكانوا تحت
الجزية وكان تخم الاموريين من عقبة عقريم من سالع فصاعدا» (أنظر :
قضاة ١/٣٤ - ٣٦ ، قاموس الكتاب المقدس ١/٥١١) .

(٣٨) لخيش : أو لاختيش أو لاختيش : وكان يظن أنها «تل
الحصى» (تل الحصى) على مبعدة ٦٦ ميلا الى الشمال الشرقى من غزة ،
١١ ميلا الى الجنوب الغربى من مدينة جبرين ، ويرجح الان أنها «تل
الدوير» على مبعدة ٥ أميال غرب بيت جبرين (أنظر :

W. M. F. Petrie, Tell el-Hesi (Lachish), London, 1891.

M. F. Albright, in ZAW, 6, 1929, P. 3.

وكذا

الفصل الثاني

الأموريون وجيرانهم

(١) الأموريون ومصر

تشير «رسائل العمارنة»^(١) الى أن الاموريين انما قاموا — في أخريات أيام أمنحتب الثالث (١٤٠٥ — ١٣٦٧ ق.م) وعلى أيام أمنحتب الرابع (١٣٦٧ — ١٣٥٠ ق.م) — بدور خطير في اضعاف السيادة المصرية على سورية الشمالية والوسطى ، وذلك عندما فقد الشعب الشامى صلاته الشخصية بفرعون ، وبدأ يئن تحت وطأة دسائس أصحاب المطامع في الداخل والخارج ، كما بدأ الحيثيون يعيثون بالحدود السورية والحدود الميتانية^(٢) ، حتى رأينا «عزيرو» الامورى الخائن يعلن كذبا أن ملك «خاتى» قد ظهر في «نوخاشى» ، وأنه يخشى وصوله الى «أمور أرض الملك»^(٣) .

ثم سرعان ما بدأ الحيثيون يغرون ضعاف النفوس بالعمل لصالحهم ، وكان هناك فريق من موالى مصر — على رأسه عبدى شرتا وولده عزيرو — مهروا في النفاق ، واستمروا يضللون أمنحتب الثالث — كما سيضللون ولده اخناتون من بعده — ويسرفون في الود والطاعة لمصر وفرعونها ، ويسرفون في الوقت نفسه في اظهار الحقدهما —^(٤) وهكذا بدأ فريق

(١) أنظر عن «رسائل العمارنة» (محمد بيومى مهران : اخناتون — عصره ودعوته — القاهرة ١٩٧٩ ص ٢٣٣ — ٢٤٥ وكذا S. A. B. Mercer, The Tell el-Amarna Tablets, 2 Vols, Toronto, 1939. J. A. Kundtson and O. Weber, Die El-Amarna Tafeln, 3 Vols, Leipzig, 1915.

(٢) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ٢١٨/١ .
 (٣) S. A. B. Mercer, Op. Cit., II, P. 529.
 (٤) عبدالعزيز صالح : المرجع السابق ص ٢١٨ .

من الامراء المحليين ، في أبعد أطراف الامبراطورية المصرية ، وأقلها تعلقا بفرعون يتطلعون الى الحكم والانفصال عن مصر ، ويستعينون ببداو الصحراء ، ليكونوا لانفسهم دويلات صغيرة ، محتجين على تبعيتهم المستمرة لفرعون ، ولكنهم كانوا في الواقع ينافسونه في الحكم ، وساعد ترفع مصر واهمالها هؤلاء الامراء على أن يخطوا الخطوة الثانية. وذلك عندما استطاع «عبدى شرتا» وولده «عزيرو» أن يجعلوا من جزء كبير من شمال سورية دويلة مستقلة^(٥) .

ويذكر عدد كبير من رسائل العمارنة بالتوسلات اليائسة التي بعث بها «رابعدي» نائب الملك المخلص في «جبيل»^(٦) طالبا العون ضد «عبدى شرتا» الذي كان حاكما على «أهور»^(٧) (وهي إذ ذاك منطقة ساحلية تمتد من لبنان شمالا حتى أرواد) ، والذي تمكن من بسط نفوذه عنوة على جيرانه ، فاحتل عرقة وقطنة وحماة ونى في الداخل ، ثم احتل أرواد ، وهاجم «سيميريا» على الساحل ، وفي الواقع فلقد كان «عبدى شرتا» وأولاده — وخاصة «عزيرو» — أعداء زمينين لمصر ، ربطوا أنفسهم بأعداء فرعون المعروفين «بالخابيرو»^(٨) أو «ساجاز» (قاطعوا

(٥) محمد بيومي مهران : اخناتون ص ٢٤٥ — ٢٤٩ ، وكذا

J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 230.

(٦) جبيل : كانت تكتب في الدولة القديمة «كبن» ، وفي الدولة الوسطى «كبنى» ، وفي الدولة الحديثة «كينا» ، ثم ذكرها الاشوريون باسم «جويلا» ، والاغريق «بيلوس» ، والعرب «جبيل» ، وتقع على مبعدة ٤٠ كيلا شمالي بيروت

(A. H. Gardiner, Onom. I, P. 267).

7) S. A. B. Mercer, Op. Cit., II, P. 830-837.

J. H. Breasted, A History of Egypt, N. Y., 1946, P. 382-383.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 230-231.

(٨) أنظر عن «الخابيرو» (محمد بيومي مهران : اسرائيل ٢٢/١

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 203.

— ٢٨ ، وكذا

J. A. Wilson, Op. Cit., P. 121.

I. Epstein, Judaism, 1970, P. 13-14.

G. Roux, Ancient Iraq, 1966, P. 316.

H. R. Hall, The Ancient History of The Near East, London, 1963, P. 406-407.

الرقاب) ثم فيما بعد بالحيتيين^(٩) .

ويستمر «ربعدى» (رب آدى) فى توسلاته اليائسة الى فرعون ، يطلب فيها العون ضد أمير الاموريين «عبدى شرتا» وولده «عزيرو» اللذين كان الواحد منهما بعد الآخر ، انما يحاول القضاء على السيادة المصرية فى غربى آسيا ، غير أن فرعون لم يحرك ساكنا ، حتى يبدو «ربعدى» اخر الامر ، وقد داخله يأس شديد من وصول نجدة تأتى له من فرعون ، ومن ثم يطلب منه أن يأمر قائديه «ينخامو» و «بيخوريا» أن يتجها الى أمور ، ويستوليا عليها^(١٠) لان أبناء عبدى شرتا فى الحقيقة أعداء الملك^(١١) .

ويصبح «ربعدى» فى مدينة «جبيل» حسيرا محصورا ، وقد حاول «ينخامو» أن يأتى له بنجدة من سيميريا ، ولكن دون جدوى ، فقد كان أولاد «عبدى شرتا» يحاصرون المدينة برا ، وسفن أرواد تحاصرها بحرا ، ولم يفعل سوى أن يكرر طلب المعونة من فرعون ، وأن يؤكد له أن أبناء عبدى شرتا يعملون لمصالحهم ، و «يحتلون مدن مولاى الملك» ، ثم يجعلونها طعاما للنيران^(١٢) .

وأيا ما كان موقف اخناتون من تابعه ربعدى ، وأيا كان السبب فى عدم امداده بالقوات اللازمة لرد الهجوم الامورى ، وسواء أكان السبب هو عدم وصول رسائل ربعدى للفرعون ، أو انه انما يكمن فى قدرة «عبدى شرتا» ، وأولاده من بعده ، على الملق ، وكان الكذب والنفاق

(٩) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٣٢٠ ، عبد العزيز صالح :

المرجع السابق ص ٢١٨ ، وكذا

K. A. Kitchen, Suppiluliuma and The Amarna Pharaohs, Liverpool, 1962.

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 231.

10) S. A. B. Mercer, Op. Cit., I, P. 389.

11) Ibid., P. 395.

(١٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢١٩ ، وكذا

G. Steindorff and Keith Seele, When Egypt Ruled The East, Chicago 1963, P. 107.

سلاحين لا يمل الرجل وأولاده من استعمالهما ، حتى كان الواحد منهم يستولى على مدائن الفرعون الواحدة تلو الاخرى ، وفي نفس الوقت يرسل لفرعون رسائل الخضوع والعبودية ، وقد نجح «عزيرو» بصفة خاصة في اخفاء خيائنه عن الفرعون ، بما قام به من رشوة لاولئك الذين كانوا من أقرب الناس الى فرعون ، حتى لم يعد هذا الاخير بقادر على أن يفرق بين المخلصين من ولاته في غربى آسيا وبين المنافقين منهم^(١٣) .

وأيا ما كان الامر ، فلم يكن ربعدى هو الوحيد الذى اتهم عزيرو بنشاط معاد لمصر ، فهناك أيضا «أبيميليكي» أمير صور ، و «أكزى» حاكم «قطنة» ، مما جعل الفرعون يشتد على «عزيرو» في رسالته اليه ، بل ويهدده بالموت وجميع أفراد عائلته ، وأن يطلب منه الحضور فوراً لتقديم تفسير عما يحدث ، ومن عجب أن يقوم «عزيرو» بتلك الزيارة التى كان يخشى عواقبها ، وأن يعود كذلك الى مركزه الاول في أمور ، ومن ثم فقد دعاه الملك «رجل (أمير) أمور»^(١٤) . وفى عهد «سيتى الاول» (١٣٠٩ – ١٢٩١ ق.م) ، وعلى الجدار الشمالى لمعبد الكرنك بالاقصر ، نجد التقرير المقتضب القائل بأن الملك قد ذهب لتخريب بلاد قادش^(١٥) وبلاد أمعور (أمور)^(١٦) ثم ذكرت «أمور» بعد ذلك فى نصوص معركة قادش من عهد رمسيس الثانى (١٢٩٠ – ١٢٢٤

-
- (١٣) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٤٢ – ١٤٨ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢١٨ – ٢١٩ ، وكذا A. C. Stanly, The Lebanon and Palestine in The Amarna Letters, CAH, III, P. 312.
S. A. B. Mercer, Op. Cit., No. 42, 60.
(١٤) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٢٥٥ – ٢٦٥ وكذا W. F. Albright, JEA, 23, 1937, P. 190 F.
S. A. B. Mercer, Op. Cit., No. 55, 156, 159, 162, 164, 169.
(١٥) قادش : وتقع فى مكان «تل نبي مند» على الشاطئ الايسر لنهر الاورنت (العاصى) ، داخل الزاوية التى تكونت ناحية الغرب من اتصاله بنهر الموquادية ، على مبعده بضعة كيلو مترات جنوبى النهاية الجنوبية لبحيرة حمص (أنظر
J. H. Breasted, The Battle of Kadesh, Chicago, 1913, P. 13.
16) A. H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, Oxford, 1947, II, P. 189.

ق ١٧) (١٧) .

ويرد ذكر بلاد أمور في عهد رمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) ثلاث مرات ، الواحدة : قبيل غزو شعوب البحر لبلاد الشام ، حيث يذهب بعض الباحثين الى أن الفرعون انما قام باخماد ثورة في أوائل عهده في بلاد أمور ، ولعل السبب في هذه الثورة أن الاضطرابات قد بدأت في غربي آسيا نتيجة هجرات شعوب البحر الهندو - اوربية ، أو أن أمور - جريا على العادة القديمة - قامت بثورة ضد رمسيس الثالث في أوائل عهده .

وأيا ما كان الامر ، فان رمسيس الثالث قد وجد نفسه مضطرا الى اخماد ثورة في أمور ، وطبقا لرواية النصوص المصرية ، فان (رئيس أمور قد أصبح رمادا ، وبذرتة قد انقطعت ، واخذ كل قومه أسرى وشنتوا وأخضعوا ، وكل من بقى على قيد الحياة في بلاده ، كان ياتى بالثناء ليرى شمس مصر العظيمة تطلع عليه ، وجمال قرص الشمس في وجوههم ، والشمسان «شمس السماء - ثم الملك شمس مصر» اللذان يطلعان ويضئان ، شمس مصر ، والشمس التي في السماء ، ويقولون : الرفعة لرع ، ان أرضنا قد خربت ، ولكننا في أرض حياة ، قد محي فيها الظلام ، ملك مصر العليا (الصعيد) ومصر السفلى (الدلتا) ، وسر ماعت رع ، مري أمون ، ابن رع ، رمسيس الثالث» (١٨) .

وجاء ذكر بلاد أمور للمرة الثانية في نقش السنة الثامنة من عهد رمسيس الثالث (حوالي عام ١١٧٤ ق.م) ، وطبقا لما جاء في النصوص المصرية ، فقد اتخذت شعوب البحر - وهي في طريقها الى مصر - معسكرا في بلاد أمور ، وسرعان ما خرج لهم الفرعون ، على رأس

17) A. H. Gardiner, The Kadesh Inscription of Ramesses, II, Oxford, 1960.

A. H. Gardiner, Onom. II, P. 189-190.

18) W. F. Edgerton and J. A. Wilson, Historical Records of Ramesses, III, Chicago, 1936, Pls. 27-28, P. 22-23.

جيشه ، ثم اتخذ من «زاهي» في فينيقيا معسكرا له ، وسرعان ما دارت رحى الحرب بين الفريقين ، واستطاع الفرعون أن ينال من شعوب البحر ، وأن يهزمهم شر هزيمة (١٩) .

وكانت المرة الثالثة التي جاء ذكر بلاد أمور فيها على أيا مرعسيس الثالث بعد الهزيمة النهائية لشعوب البحر ، وهو يهاجم حصنا بمساعدة جنده الأشداء ، وقد نكس السوريون حراهم ، بينما رفع أحدهم الموقد علامة على الاستسلام ، وقد كتب فوق الحصن «كلام نطق به رئيس أمور الخاسيء وأهل قبيلته ، في حضرة ألساكم الطيب مثل مونتو ، امنحنا النفس الذي تهبه حتى نستطيع أن نتنفس عن التحدث بشهرتك الى أبنائنا» (٢٠) .

وأما آخر ذكر لآمور ، فقد كان في مرسوم كانوب (٢١) (أبو قير) .

(٢) الاموريين وبلاد الرافدين

(١) الاموريون والاكديون :

لا ريب في أن علاقة الآموريين ببلاد الرافدين انما هي جد قديمة . ورغم أننا لا نستطيع أن نؤكد أن الاكديين انما كانوا ينتمون أصلا الى «المارتو» الساميين الذين وجدوا على التخوم الغربية لمنطقة الفرات الاوسط ووصفهم السومريين بالبداوة (٢٢) ، غير أن مثل هذا الافتراض انما يبدو مقبولا فقد تركزت العناصر السامية التي نزحت الى السهل الميزوبوتامي في تواريخ لاحقة ، وخاصة الاموريين ، في نفس المنطقة التي وجد فيها «المارتو» ، كما تعتبر شبه الجزيرة العربية ، وخاصة أطرافها الشمالية ، هي المنطقة التي صدرت عنها الهجرات السامية في

19) W. F. Edgerton and J. A. Wilson, Op. Cit., Pls. 29, 31-34, P. 35-

(٢٠) محمد بيومي مهران : مصر والعالم الخارجى في عصر رعمسيس الثالث - الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٢١٩ - ٢٤٠ .

W. F. Edgerton and J. A. Wilson, Op. Cit., Pls. 90, 96, P. 96, 100.

21) A. H. Gardiner, Onom, II, P. 190.

22) S. N. Kramer, The Sumerians, Chicago, 1970, P. 286-287.

العصر التاريخي^(٢٣) — كما وضحنا ذلك من قبل بالتفصيل — ونقرأ في نقش مشهور للملك الاكدي «سرجون الاول» (٢٣٧٠ — ٢٣١٥ ق.م) ما يفهم منه صراحة ، أنه وعشيرته قد نزحوا الى العراق من شبه الجزيرة العربية^(٢٤) .

هذا فضلا عن أن الاموريين انما قد وجدوا في نفس المنطقة التي تسغها المارتو ، وأنهم قد هددوا أسرة أكد نفسها . الامر الذي اضطر الملك الاكدي «شاركالي شاري» (٢٢٥٤ — ٢٢٣٠ ق.م) خامس ملوك هذه الاسرة الى القيام بحملة ضدهم ، وتفيد تسمية العام الثاني من حكمه بأنه «قهر أمورو عند باصار» ، وهو اسم مكان يضم مجموعة من التلال في الصحراء السورية العربية ، ويطلق عليها حاليا اسم «جبل بشرى» ، ويقع الى الجنوب الغربي من مصب نهر بلخ (بالخ) في الفرات ، في غرب «دير الزور» الحالية ، ومن المؤكد أن جهد «شاركالي شاري» انما كان جهدا دفاعيا ، ذلك لان الرجل لم ينتقل بعد ذلك الى مناطق أبعد في الشمال الغربي ، كما يرجح أن الهدف من الحملة انما كن صد خطر الساميين الاموريين الذين يبدو أنهم أرادوا الافادة من ضعف دولة أكد ، والنزوح الى السهل الميزوبوتامي بغية تحقيق حياة أفضل لأنفسهم^(٢٥) .

(٢) أسرة ايسين الامورية :

في أخريات عهد «ايبي سين» (٢٠٢٩ — ٢٠٠٦ ق.م) — آخر ملوك أسرة أور الثالثة (٢١١٣ — ٢٠٠٦ ق.م) تعرضت الدولة لهزتين عنيتين صدرتا عن شعبين فتيين هما : شعب العيلاميين ، وشعب الاموريين . فلقد انتهز العيلاميون وحلفاؤهم من القبائل الجبلية الاخطار التي

(٢٣) محمد عبد اللطيف : تاريخ العراق القديم — الاسكندرية ١٩٧٧ ص ٢٥٤ — ٢٥٥ ، سبتينوموسكاتى : المرجع السابق ص ٥٣ — ٥٤ .

(٢٤) حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم — الاسكندرية ١٩٧٠ ص ١٢٦

(٢٥) محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ٢٩٤ ، وكذا

C. J. Gadd, The Dynasty of Agade and The Gutian invasion, in CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971, P. 455.

J. Bottero, in CAH, I, Part, 2, 1971, P. 327.

واجهها «ايبي سين» من ضغط العناصر الامورية في الغرب ، فهاجموا أرض سومر ، وحاصروا «ايبي سين» في عاصمته أور (٢٦) .

وفي هذه الظروف السيئة انتهز «ايشبى ارا» — حاكم مارى من قبل ايبي سين ملك أور — فرصة تدهور السلطة المركزية في أور ، وأخذ يعمل لصالحه الشخصى ، فخرج عن طاعة سيده ، ونقل نشاطه الى مدينة «نيبور» ، ثم الى مدينة «ايسين» الى الجنوب منها بنحو ثلاثين كيلو مترا ، وهناك استقل بالحكم ، وأسس أسرة حاكمة خاصة به ، هي «أسرة ايسين» في السنة الثانية عشرة من حكم «ايبي سين» ، اذ يؤرخ حكمه بعد هذه السنة (٢٧) .

ولم يكتف «ايشبى ارا» بذلك ، بل عمل على امتداد سلطانه الى مناطق نفوذ سيده «ايبي سين» ، ويمكن أن نتبين ذلك من نص رسالتين متبادلتين بين «بوزور نوموشدا» (أو بوزو شولجى) حاكم «كازالو» في الشرق ، وبين «ايبي سين» ملك أور ، الذى رد أسباب المحنة الى القضاء والقدر ، واراادة الارباب وفساد الدولة ، فقال الحاكم «كازالو»: «قضى انليل بالشر على سومر ، وهبط عدوها من أرض .. واعطى انليل الملكية الى رجل وضع ، الى ايشى ارا ، الذى ليس من بذرة سومرية ، لقد انداست سومر فى مجمع الالهة ، وقضى انليل أنه طالما بقى أهل السوء فيها ، فليسوف يدمر ايشبى ارا ، رجل مارى ، بنيانها ، ويكتسح أرضها» (٢٨) .

وهكذا أسس الاموريون أسرة حاكمة فى «ايسين» — كبرى عواصم

26) H. Hinz, in CAH, I, Part, 2, 1971, P. 658.

(٢٧) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٤٧ وكذا

C. J. Gadd, Babylonia, 2120-1800 B. C., in CAH, I, Part, 2, 1971, P. 613.

28) S. N. Kramer, Letter of King Ibbi-Sin, in ANET, 1966, P. 480-481.

S. N. Kramer, The Sumerians, Chicago, 1970, P. 333-335. وكذا

A. A. Fadhil, Three Sumerian Letters, in Sumer, 26, 1970, P. 166-169.

S. N. Kramer, Lipit-Ishtar Law Cod, in ANET, P. 159-161.

وانظر : عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٤٦-٤٤٧ ، محمد

الأموريين — وأصطنع ملوكها لقب «ملك سومر وأكد» ، كما اصطنعوا الصفات الالهية ، وقاموا بأعمال عمرانية في أنحاء البلاد التي خضعت لهم ، ورمموا كثيرا مما خرب على اثر سقوط أسرة أور الثالثة .

وتشير لوحة فال أشورية الى أن «ايشي ارا» : ليس له منافسون وهو تعبير مبهم على أية حال ، ولكنه مع ذلك انما يشير الى سمعته الطيبة في العصور اللاحقة التي تعتمد على ما قام به من اصلاحات ، وما بذل من جهود موفقة في شأن اعلاء شأن مدينته وسيادتها .

على أننا لا نملك الكثير من الوثائق عن تفاصيل الاحداث في عصر أسرة ايسين ، فالجزء الاكبر من معلوماتنا مستقى من « قائمة نيبور » التي تشير الى أن الاسرة قد حكمت ٢٢٥ سنة ، ٦ شهور (٢٩) ، حكم فيها ١٥ ملكا ، أولهم «ايشبي ارا» ، وآخرهم «دمق ايليشو» (٣٠) .

وعلى أية حال ، فالى هذه الاسرة ينسب واحد من أهم التشريعات في تاريخ العراق القديم ، وأعنى به تشريع «لبت عشتار» (٣١) خامس ملوك الاسرة ، ويؤرخ بعد «تشريع اشنونا» بنصف قرن ، وقبل تشريع حمورابي بقرن ونصف تقريبا ، ولم يبق من تشريع «لبت عشتار» سوى ثمانى وثلاثين مادة ، يحتمل أنها كانت تؤلف نحو نصف مواد التشريع (٣٢) .

(٢٩) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ١٧٨/٥ .
(٣٠) أنظر عن أسماء ملوك أسرة ايسين وفترات حكمهم (نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٧٦ ، ليواوينهايم : بلاد ما بين النهرين — ترجمة سعدى فيضى — بغداد ١٩٨١ ص ٤٤٤ — ٤٤٥ ، وكذا (CAH, I, Part, 2, 1971 P. 1000.

(٣١) أنظر عن قانون لبت عشتار (نجيب ميخائيل : المرجع السابق ٤٩/٦ — ٥٣٣ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٥٢ — ٤٥٣ ، وكذا

F. R. Steele, The Code of Libit-Ishtar, in AJA, L11, 1948, P. 425-450.

(٣٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٥٢ .

وعلى أية حال ، فإن الهجرات الارامية بصفة خاصة — والسامية بصفة عامة — والتي نزلت بلاد النهرين منذ أوائل الالف الثاني قبل الميلاد لم تكن شرا كلها على العراق ، وانما كانت خيرا له في بعض أمرها ، وكان خير ما فيها أن الامورية منها جددت دماء الساميين في أرض العراق ، وجددت حيوتهم ، ولم تحل دون نشاط المدن الكبرى ، مثل اشنونا وايسين ومارى ، وإلى حد ما لارسا ، ثم مدينة أخرى استفادت من تنافس المدينتين — ايسين ولارسا — واضعاف ثابتيهما لأولاهما .
وقدر لها أن تغطي بشهرتها على مدن العراق كلها في عصرها ، وهي مدينة «بابل» ، وتقع أطلالها الآن على مبعده ٨٠ كيلا ، الى الجنوب من «بغداد» ، على الشاطئ الشرقي للفرات ، وتدل عليها خمس ربوات تحمل الشمالية منها اسم بابل^(٣٣) .

(٣) دولة بابل الامورية :

كان الاموريون — أو الساميون الغربيون — حين انتقلوا الى بابل ، قد هجروا حياة التنقل ، ومارسوا الزراعة منذ زمن بعيد ، بل انهم كانوا قد اكتسبوا مظاهر حضارية ، قبل استقرارهم في بابل ، والتي كانت قبل زعماتهم لها مجرد بلدة عادية ، عرفها السومريون باسم «كدنجيرا» ، فأحالوها الى حاضرة كبيرة ، وأحسنوا استغلال موقعها التجارى والزراعى في أضيق منطقة خصبة يتقارب فيها نهر دجلة والفرات ، وأطلقوا عليها اسم «بابل» وهو اسم ليس هناك ما يمكن تأكيده عن معناه ، وإن كان الشائع هو ترجمته بمعنى «باب ال» أى «باب الاله»^(٣٤) ، ويرى أصحاب هذه الترجمة أنها كانت قريبة مما تدل عليه التسمية السومرية «كدنجيرا» التي استمرت تستخدم الى جانبها ، مع

(٣٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٥٧ — ٤٥٨ .

(٣٤) قارن ما جاء في سفر التكوين من التوراة (تكوين ١١/١ —

٩) حيث يروى قصة أو أسطورة طريفة ، ينتهى فيها الى أن بابل «دعى اسمها بابل لان الرب هناك بلبل لسان كل الارضى ، ومن هناك (١٠) (من بابل) بددهم الرب على وجه كل الارضى» (تكوين ١١/٩) .

مترادفات أخرى مستحدثة^(٣٥) .

وكان مؤسس الأسرة الامورية البابلية الجديدة (دولة بابل الاولى) هو «سمو — ابوم» ، وكان يحكم ، في بادىء الامر ، رقعة صغيرة في جنوب العراق ، ثم سرعان ما بدأ في توطيد نفوذه بين أمراء المدن الجنوبية ، ثم اعلان نفسه على بابل ملكا ، بعد أن بسط نفوذه على سومر وأكد ، ثم تلاه أربعة ملوك^(٣٦) عملوا على الحفاظ على مدينتهم، وتنشيط اقتصادياتها ، واعدادها للمشاركة في قيادة بلاد النهرين .

وظل الامر كذلك حتى جاء سادس ملوكهم ، الملك الشهير «حمورابى» الذى استطاع فى النصف الاول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، أن يقضى على منافسيه من حكام دويلات المدن، وأن يعيد الى بلاد الرافدين وحدتها السياسية^(٣٧) ، وأن يصدر تشريعه الشهير الذى خلد اسمه بين عظماء الرجال على مدى التاريخ القديم^(٣٨) .

(٣) الاموريون وبلاد الاناضول

(١) الاموريون ودولة الحيثيين :

أشرنا من قبل الى علاقة الاموريين بالحيثيين على أيام العمارنة ،

(٣٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٥٨ ، وانظر : قاموس الكتاب المقدس ١٥٢/١ ، وكذا (M. F. Unger, Op. Cit., P. 114-118

(٣٦) أنظر عن ملوك دولة بابل الاولى (نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٧٦ ، ليوأوينهايم ، المرجع السابق ص ٤٤٤ - ٤٤٦ ، وكذا CAH, I, P. 2, 1971, P. 1000.

(٣٧) أنظر عن عصر حمورابى : C. J. Gadd, in CAH, II, Part, I, 1973, P. 176-224.

(٣٨) أنظر عن قانون حمورابى : (نجيب ميخائيل : المرجع السابق ٥٣/٦ - ٨١ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٦١ - ٤٦٩ ، وكذا

T. J. Meek, The Code of Hammurabi, ANET, P. 163-177.

A. Deimel, Codex Hammurabi, 1930.

W. Eilers, AO, 31, 1931.

R. F. Harper, The Code of Hammurabi, 1904.

وكذا
وكذا

وأن رسائل العمارنة تشير الى تعاون الحيثيين والاموريين — على أيام
عبدى شرتا وولده عزيزو — فى القضاء على الامبراطورية المصرية فى
سورية الشمالية ، وقد كتب «اكزى» أمير «قطننة» (وهى تل المشرقة
الحالية على مبعده ١٨ كيلا الى الشمال الشرقى من حمص) يستغيث
بالفرعون «أمنحتب الثالث» ويسأله أن يرسل اليه رماة الاقواس^(٣٩) ،
ثم يكتب ثانيا الى فرعون ينبئ به بأن قطننة ورجالها قد أخذهم ملك
«خاتى» ، و «عزيزو» أمير الاموريين^(٤٠) ، ثم يتظاهر «عزيزو» الخائن
بالولاء لفرعون فيكتب اليه أن ملك «خاتى» قد ظهر فى «نوخاشى» ،
وأنه يخشى وصوله الى «أمر أرض الملك»^(٤١) ، مع أنه كان فى حلف
مع خاتى (خيتا) ضد مصر •

وقد أدرك «شوبيلوليوما» (١٣٧٥ — ١٣٣٥ ق م) ملك خاتى ،
أثناء صراعه مع «ميتانى» أنه لن يتمكن من تحقيق أغراضه فى غربى
آسيا ، مادام النفوذ المصرى قويا ، ومن ثم فقد أخذ يؤلب الامراء
السوريين ليشقوا عصا الطاعة على فرعون ، فاستجاب له أميران ، هما
«ايتوجاما» أمير قادش ، ثم «عبدى شرتا» ملك أمور ، وهكذا ارتبط
أمرأ أمور بالحيثيين للعمل ضد مصر ، وبدأوا يرون فى ملك خاتى
الشمس الحقيقية التى تجدر بهم عبادتها ، والتقرب اليها ، وأدركوا أن
شمس «بوغازكوى» أقرب اليهم من شمس مصر^(٤٢) •

(٢) الاموريون والمراكز التجارية الاشورية فى الاناضول :

تشير الوثائق الاشورية الى أن العنصر الامورى انما قد شارك فى
مجتمعات المراكز التجارية الاشورية القديمة فى آسيا الصغرى ، وأن

39) S. A. B. Mercer, The Tell-El-Amarna Tablets, I, Toronto, 1939, P. 229.

40) Ibid., P. 237.

41) Ibid., II, P. 529.

(٤٢) أنظر : محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٢٤٦ — ٢٥٠ ،
٢٥٥ — ٢٥٦ •

الاختلاط بين الاسماء الاشورية والامورية في مجتمع المركز التجارى
الاشورى ، ما يشهد بامتزاج هذه العناصر كسكان يتعايشون معا في
نطاق المركز التجارى الواحد *.

وكان الاموريون اقرب العناصر للاشوريين ، وأكثرهم ارتباطا بهم
اجتماعيا ودينيا ، وقد اعتمدوا عليهم بدرجة كبيرة في مزاولة نشاطهم
التجارى ، أما السكان الوطنيون ، وخاصة العناصر الهندو — أوربية،
فقد نظر اليهم الاشوريون بازدراء ، وأطلقوا عليهم صفة «برابرة» (٤٣) *.

وهناك ما يشير الى أن العنصر السامى الاخر — بجانب الاشوريين —
في سكان الاناضول في فترة اللوح الكتابية القبادوشية ، انما كان
العنصر الامورى ، الذى يشار اليه بالتعبير السومرى «مارتو»
Mar-Tu ، ومقابلته البابلى والاشورى Amurru ، والذين
ينتمون أصلا الى «أرض أمورى» Mat-Amurre في الغرب ، ومن
الواضح أن الكثير من هؤلاء الاموريين كانوا من المقيمين بأرض آشور،
ويتبدون الى الهما القومى «أشور» ، ثم جاءوا الى آسيا الصغرى مع
الاشوريين ، وان كان ليس هناك ما يمنع من أن يكون منهم من وفد الى
آسيا الصغرى ، قبل حلول الاشوريين بها بوقت طويل (٤٤) *.

وأما عن وجود الاموريين في أرض آشور نفسها ، فنشهد به الرسائل
الموجهة الى «اينا» بن «الا ايلى» ، رجل الاعمال الامورى المقيم في
«كانش» من زوجته «تارام كوبى» المقيمة في مدينة آشور ، ويفهم من
هذه الرسائل عدة أمور ، منها أن الرجل لم يترك لزوجته شيئا من المال،
عندما تركها في مدينة آشور ، ليقيم في الاناضول ، ومنها أن القوافل

(٤٣) محمد عبد اللطيف : المراكز التجارية الاشورية في وسط
آسيا الصغرى — الاسكندرية ١٩٨٤ ص ٥٦ ، وكذا
H. Lewy, Anatolia in The Old Assyrian Period, in CAH, Part, 2, P. 717.
(٤٤) محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ٥٧ ، وكذا
J. Lewy, Amurritica, in HUCA, 32, 1961, P. 67-68, with Notes, 209-211.

التجارية التي كانت تحمل البضائع من آشور الى آسيا الصغرى ، انما كانت تتجمع في مكان ما في مجاورات مدينة آشور، وربما كانت ضاحية لها، وأنه قد حمل الاسم «أموروم» وأن سكانه كانوا من الاموريين ، كما قامت فيه عبادة معبودهم «أموروم»^(٤٥) .

وليس هناك من ريب في أن الوجود الاموري في أرض آشور ، انما كان سببا للتقارب والتعاون بين الاموريين والاشوريين في آسيا الصغرى وطبقا لدراسة عقود الزواج والطلاق ، فان معظم زيجات الاشوريين بالاناضول انما كانت من هؤلاء الاموريين ، كما كان رجال الاعمال الاشوريين كثيرا ما يستعينون بهؤلاء الاموريين ، وكثيرا ما كانوا يعهدون اليهم بتولى أمر قوافلهم التجارية^(٤٦) .

هذا ويذهب البعض الى أن الاموريين في الاناضول انما كانوا يشبهون الاشوريين الى الدرجة التي يصعب معها التفرقة بينها ، وخاصة أن الفريقين من الجنس السامي ، هذا فضلا عن اقتران اسم المعبود «آشور» بالمعبودات الامورية ، وأن هناك آشوريين قد تعبدوا للاله الاموري «أموروم» كما تشير الى ذلك نصوص الألواح القبادوشية^(٤٧) .

وهناك ما يشير الى أسماء تتضمن أسماء آلهة سامية غربية (أمورية) مثل «داجان» ، و «أموروم» اللذين عبدهما الاشوريون ، واقترنت بعض أسمائهم بهما ، فأما «داجان» فقد انتشرت عبادته في اقليم «قبادوقيا» بوسط آسيا الصغرى منذ عصر أكد ، كما انتشرت في السهل الميزوبوتامي منذ القرن العشرين قبل الميلاد ، على الاقل ، وأما «أموروم» فيمكن اعتباره معبودا قوميا للاموريين ، اذ يدل اسمه على

45) J. Lewy, Op. Cit., P. 41, 48-49, 62-66, Notes, 107, 110, 201.
J. Lewy, Some Aspects of Commercial Life in Assyria and Asia Minor in The Ninetcenth Pre-Christian Century, in JAOS, 78, 1958, P. 90. with Note. 7.

46) J. Lewy, Amurritica, in HUCA, 32, 1961, P. 65.

47) H. Lewy, in CAH, Part, 2, 1971, P. 721.

الأرض والشعب والمعبود ، أسوة بأشور المعبود القومي للآشوريين ، كما يقتزن اسم «أموروم» باسم «أشور» في عدد من النصوص من «كول تبه»^(٤٨) . هذا وتدل النصوص القبادوشية على أن الآشوريين كان لهم تأثير كبير على الآشوريين في وسط الأناضول ، حتى حمل هؤلاء الآشوريين — كما تدل النصوص — أسماء تدل على عبادتهم للمعبود أموروم ، وإن كان مما لا شك فيه أن التأثير الأقوى إنما كان للآشوريين فهم أصحاب السيادة في مجتمعات المراكز التجارية بوسط الأناضول^(٤٩) .

48) J. Lewy, Op. Cit., 35-37, 62, with Notes, 25-27, 187.

H. Lewy, Op. Cit., P. 720.

وكذا

وأنظر : محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ٥٩ - ٦١

49) H. Lewy, Op. Cit., P. 718-720.

J. Lewy, Op. Cit., P. 34-35.

الباب الثالث

الفينيقيون

الفصل الأول

الفينيقيون والاصل السامي

(١) الكنعانيون الفينيقيون :

قدم الكنعانيون — الفينيقيون الى سورية — أو بلاد الشام — مع الاموريين ، أو في أعقابهم مباشرة — فهم الجماعة السامية الثانية التي قامت بدور رئيسي في تاريخ بلاد الشام ، بعد الاموريين ، هذا وتنتمي المجموعتان — الكنعانية والامورية — الى أصل واحد ، وتتحدثان بلغتين تتشابهان في الكثير ، حتى أدى ذلك التشابه الى أن يطلق على «لغة الاموريين» ، اسم «الكنعانية الشرقية» ، تميزا لها عن لغة الكنعانيين التي عرفت باسم «الكنعانية الغربية — أو الفينيقية» ، وذلك على أساس أن هاتين اللغتين تنتميان الى أصل واحد .

وتطلق وثائق العهد القديم اليهودية على السكان السابقين للعبريين في سكنى فلسطين اسم «الاموريين» (العموريين) ، بينما يسميهم النص اللوهمي^(١) «الكنعانيين» ، ومن الواضح أن هناك صلة قوية بين هذين الشعبين ، فلغتهما لا تختلفان الا في اختلاف لهجة الواحد منهما عن الاخرى ، بل ربما يبدو أن الاموريين (السوريين) اسم أطلقه

(١) المصدر اللوهمي : ويرمز له بالحرف (E) وهو الحرف الاول من كلمة (Elohist) ، وربما ألف حوالي عام ٧٧٠ ق.م في اسرائيل ، لانه يستعمل اسم العلم «الوهم» علما على «الله» وقد أدمج مع المصدر اليهودي (والذي يرمز له بالحرف (J) وهو الحرف الاول من كلمة (Jahwist) وربما ألف حوالي عام ٨٥٠ ق.م ، في يهوذا) في مجموعة واحدة (JE) حوالي عام ٦٥٠ ق.م ، ويقول «لوسيان جوتييه» ان هذين المصدرين القديمين كانا قد امتزجا قبل أن تنبثق بقية المصادر الاربعة (وهما : الكهنوتي والمصدر التثنوي) .

العهد القديم على سكان المنطقة الجبلية في فلسطين (هضبة يهوذا)، بينما أطلق اسم الكتعانين على سكان السهول ، بالرغم من أن كليهما شعب واحد ، ويؤيد هذا الاحتمال أن الاصل العبري لكلمة كتعان (ك. ن. ع) ، انما يعنى انخفض أو منخفض ، فالكتعانين اذن اسم يعنى سكان المنخفض^(٢) . وقد ظل اسم كتعان وأرض كتعان يطلق على ساحل فلسطين وسورية حتى بعد هجرة العبريين الذين قنعوا باحتلال هضبة يهوذا بفلسطين ، أما أرض العموريين فهي الجانب السوري المتاخم للصحراء حتى أعالي الفرات^(٣) .

(٢) تاريخ دخولهم سورية :

هذا وقد اختلف المؤرخون في تاريخ دخول الكتعانين الفينيقيين الى المنطقة ، وفي المواطن التي قدموا منها ، وأما عن تاريخ الدخول ، فان «هيودوت» (حوالى ٤٨٤ — ٤٣٠ ق.م) انما يروى — على لسان علماء صور — أنهم قدموا الى فلسطين في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد، بل لقد أثبتت الحفائر أن هذه الهجرة الكتعانية أقدم من هذا التاريخ بكثير ، ذلك لان مدن أريحا وبيسان ومجدو ، أسماء سامية ، وأنها كانت موجودة قبل عام ٢٠٠٠ ق.م ، هذا فضلا عن أن هناك مدنا أخرى قد كشف عنها ، وهى مدن كتعانية ترجع الى نفس العهد ، وربما قبله بنصف قرن وان كان هناك من يرجعها الى عام ٢٥٠٠ ق.م .

(٣) موطن الكتعانين الفينيقيين الاصلى :

وأما عن الموطن الذى قدموا منه ، فان «هيودوت» يروى — نقلا عن الفينيقيين — أنهم مهاجرون من أرتيريا ، سواء قصد بهذه العبارة الجنوب العربى وساحل الحبشة ، أم منطقة الخليج في الشمال الشرقى

2) G. A. Barton, Semitic and Hamitic Origins, London, 1934, P. 80.

(٢) محمد السيد غلاب : الهجرات البشرية الكبرى — مجلة كلية

اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، العدد السادس ، الرياض ١٩٧٦

ص ٣٠٥ .

للهضبة العربية^(٤) ، وأنهم قد وصلوا أولا الى بلاد العرب الصخرية^(٥) ، شمال الحجاز ، ومنها دخلوا إقليم «النقب» ليأخذوا طريقهم بمحاذاة الساحل الى لبنان وسورية ، وهناك حقيقة تاريخية قيمة نقف عليها من ملاحم «رأس الشمرا» ، اذ يفهم منها أن الكنعانيين الفينيقيين عاشوا ردحا من الدهر في صحراء النقب جنوبي فلسطين ، وأن الفضل يرجع اليهم في تخطيط أهم المدن في تلك المنطقة مثل «بئر سبع» وأشدود^(٦) .

ويشير الجغرافي الروماني «سترابو» (٦٦ — ٢٤ ق م) في الكتاب السادس عشر من مؤلفه Geographica^(٧) — الى أن مقابر البحرين في الخليج الاسلامي العربي ، انما تتشابه ومقابر الفينيقيين ، وأن سكان جزر البحرين يذكرون أن أسماء جزائرهم انما هي أسماء فينيقية ، وأن في مدنها هياكل تشبه الهياكل الفينيقية^(٨) ، هذا فضلا عن أن «جيمس تيودور بنت» قد أجرى في عام ١٨٨٩م تنقيبا في مقابر البحرين ، وبعث بشيء منها الى المتحف البريطاني ، فظهر أنها من مقابر الفينيقيين قبل هجرتهم الى سواحل سورية^(٩) ، هذا الى جانب أن «جيمس تيودور بنت» (١٨٥٣ — ١٨٩٧) انما كان متأثرا برأى هيودوت القائل بأن الفينيقيين انما كانوا يدعون في عهده بأن أسلافهم من البحرين^(١٠) .

هذا وقد عثر الرحالة «هاري سان جون بريدجر فلبى» (١٨٨٥ — ١٩٦٠) على مثل هذه المقابر في الخرج والافلاج من أعمال نجد ، وهو يرى أن الفينيقيين ربما جاءوا من هاتين المنطقتين ، ثم هاجروا منها

(٤) ثروت الاسيوطي : المرجع السابق ص ١٢٥ .

(٥) أنظر عن بلاد العرب الصخرية : كتابنا «دراسات في تاريخ العرب القديم ص ٩٦ ، وكذا Diodorus Siculus, II, 48.

W. Smith, A Dictionary of the Bible, I, P. 91.

(٦) حسن ظاها : الساميون ولغاتهم ص ٥٧ — ٥٨ .

7) The Geography of Strabo, Translated by Hamiltons, London 1912.
The Geography of Strabo, Translated by H. L. Jones, London, 1949.

8) Strabo, 16-2.

9) A Grohmann, Arabien, Manchen, 1963, P. 251.

10) G. Bibby, Looking for Dilmun, London, 1970, P. 29.

الى منطقة الخليج العربى (الاسلامى) ، كما أن هناك أسماء فى شرق الجزيرة العربية تحمل نفس أسماء المدن التى أنشأها الفينيقيون على الساحل الشامى ، مثل «صور» على ساحل عمان ، و «جبيل» على ساحل الاحساء ، و «أرواد» وهو الاسم القديم لجزيرة «المحرق» ، هذا فضلا عن أن هناك من رأى أن الفينيقيين قد انطلقوا من البحرين الى البصرة، سالكين طريق الهلال الخصيب الى الساحل السورى ، حيث بنوا مدنهم هناك (١١) .

وهكذا يرى «أمين الريحانى» أن المؤرخين والاثريين يجمعون على أن الفينيقيين ساميون ، كالعرب تماما ، بل انهم عرب الاصل ، نزحوا من الشواطىء العربية الشرقية ومن البحرين الى سواحل البحر الابيض المتوسط فى قديم الزمان (١٢) ، الا أن هذه النظرية انما تحيط بها هواتف الرية ، ذلك لان شواطىء الخليج العربى الباطلية لا تصلح أمواها للتربية الملاحية بالنسبة الى ندرة الاخشاب هناك ، وهى الناحية التى برز فيها الفينيقيون وبزوا غيرهم .

وأيا ما كان الامر ، فان التعبير التوراتى «أرض كنعان» انما يغطى كل فلسطين غرب الاردن (١٣) ، وأن الكنعانيين قوم ساميون وليسوا حاميين ، كما أراد سفر التكوين أن يجعلهم (١٤) ، وأنهم قدموا من شبه الجزيرة العربية ، سواء من شرقها أو شمالها أو حتى من جنوبها، وسكنوا فلسطين ، وأقاموا بها حضارة راقية ، كذلك فان جزءا من الكنعانيين انما قد انتقلوا الى الساحل السورى للبحر المتوسط ، حيث عرفوا هناك بالفينيقين ، وهم بهذا انما يمثلون — على هذه الصورة — امتدادا كنعانيا نحو الساحل .

(١١) جواد على ٥٢٩/١ ، عز الدين اسماعيل : تاريخ فلسطين القديم ص ٢٧ وكذا

H. St. J. B. Philby, Shaba's Daughters, London, 1939, P. 373.

(١٢) أمين الريحانى : قلب لبنان ، بيروت ١٩٥٨ ص ٤٢٣ .

(١٣) عدد ٣٤ : ٢ — ٦٢ وكذا M. F. Unger, Op. Cit., P. 171.

(١٤) تكوين ١٠ : ٦ .

وهكذا حتى اذا ما أتى الاسرائيليون الى فلسطين ، كان الكنعانيون مستقرين فيها منذ أجيال وأجيال ، وفي العهد القديم فان القوم الذين سكنوا البلاد — فيما قبل الاسرائيليين — كان يطلق عليهم «الكنعانيون» دون النظر الى الاختلافات الجنسية بينهم ، وقد تركز الكنعانيون في عدد من المدن المحصنة ، ولكنها لم تكن موزعة على طول البلاد ، كما هو المفترض دائما ، وانما كانت في معظم الاحياء في السهول التي هيأتها الطبيعة ، بينما كانت هناك أحيانا مدن في أكثر الجهات القاحلة والجبلية من البلاد ، وهذه المدن كانت في الواقع قلعا محاطة بأسوار ، ذات منازل متلاصقة بجوار بعضها ، ولها مناطق ملحقة بها تزودها بالارض الزراعية الضرورية^(١٥) .

وأيا ما كان الامر ، فقد بقي الكنعانيون في بلادهم حتى القرن السابع قبل الميلاد^(١٦) ، حيث يرد ذكرهم في سفر صفنيا^(١٧) ، رغم المحاولات الاسرائيلية العنيفة أحيانا ، والهمجية أحيانا أخرى ، بل وعمليات الإبادة في أغلب الاحياء .

(٤) أصل كلمة كنعان وفينيقي :

وقد اختلف المؤرخون في أصل كلمة «كنعان» ، فهناك من رأى أن الكلمة سامية ، وأنهم سموها بالكنعانيين،نسبة الى جددهم الاول «كنعان»؛ على عادة العرب في تسمية قبائلهم ، وأن بنى كنعان انما كانوا يقيمون في أرضهم السهلة على ساحل الخليج العربى(الاسلامى)وقد نسبت اليهم وسميت بارض كنعان ، وعند نزولهم حملوا معهم اسمهم واسم بلادهم الذى أعطوه لوطنهم الجديد^(١٨) ، ومنهم من رأى أن كلمة كنعان مشتقة من أصل سامى (خنع — قنع — كنع) اشارة الى الصفة ، ومنها مجازا ،

15) M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 114.

(١٦) كتب سفر صفنيا في عهد ملك يهوذا «يوشيا» (٦٤٠ — ٦٠٩ ق.م) على قول ثقات الشراح ، وان رأى البعض أنه كتب في الجزء الاخير من عهد «يهوياقيم» (٦٠٩ — ٥٩٨ ق.م) .

(١٧) صفنيا ١٠٢ — ٧ .

(١٨) عز الدين اسماعيل : المرجع السابق ص ٣١ .

الارض الخفيفة ، على عكس مرتفعات لبنان ، فسمى هؤلاء الساميون
بالكنعانيين ، أى سكان المنخفض ، لانفرادهم بسكنى هذه السهول
الساحلية التى تحف بشرق البحر المتوسط •

هذا وقد ذهب فريق ثالث الى أن أصل كلمة «كنعان» انما هو مشتق
من كلمة حورية ، هى «كناجى» ، وتعنى الصباغة القرمزية التى اشتهروا
بها ، عندما اتصل الحوريون بهذه البلاد فى القرن الثامن عشر أو السابع
عشر قبل الميلاد ، ومنها اشتقت الكلمة الاكدية ، «كناخى» أو «كيناخى»
— كما فى رسائل العمارنة — وبالفينيقية «كنع» وبالعبرية «كنعان» ،
وكلها مسميات تدل على الحمرة الأرجوانية ، ثم جاء الاغريق واتصلوا
بهذه الشعوب السامية واتجروا معها ، واحتكوا بهذه المجتمعات المدنية
المتناثرة على الساحل ، فأطلقوا عليها اسم «فينكس»^(١٩) ، وهى كلمة
تعنى فى بعض الآراء نوعا من النخيل ينمو على شواطئ هذه النواحي،
ويقابلها عند الرومان Palmyra التى أطلقت على مدينة «تمر» أو
«تدمر»^(٢٠) فى شرق البقاع •

وكلمة «تمر» هى الكلمة السامية التى تقابل كلمة Palm بمعنى
النخيل فى بعض اللغات الاوربية حتى اليوم ، وأن أصحاب هذا الرأى
يرجحون أن الفينيقيين انما نشأوا عند الخليج العربى ، فى بلاد النخيل،
وتحولوا منه الى فلسطين يوم أن كانت وطننا مشهورا بكثرة ما فيه من
النخيل^(٢١) ، ولكن هناك من يرى أن «فينكس» كلمة تعنى اللون
الاحمر كذلك •

وعلى أى حال ، فلقد اشتقت من هذه الكلمة ، كلمة «فينيقيا»

(١٩) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤٧ •
(٢٠) تقع تدمر على مبعدة ١٠٠ كيلو مترا من حمص ، ١٥٠ كيلو
مترا الى الشمال الشرقى من دمشق ، فى منتصف المسافة تقريبا بين دمشق
والفرات ، وكانت عاصمة التدمر بين (أنظر عن تدمر بالتفصيل : محمد
بيومى مهران : دراسات فى تاريخ العرب القديم ص ٥٣٣ - ٥٤١)
(٢١) عباس العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين
ص ٢٢ •

وبالتالى أصبحت ترادف كلمة «كنعان» وأن الكلمتين أصبحتا تعنيان ، على الاغلب ، شيئاً واحداً ، وهكذا اتفقت التسمية السامية القديمة . والتسمية اليونانية الحديثة فى أن تربط بين هذه الشعوب وبين اللون الاحمر ، والواقع أن هذه المدن الساحلية على شواطئ تشرق البحر المتوسط تخصصت منذ عرفت فى صناعة نوع من الصبغة الأرجوانية كانت تستخرج من حيوانات بحرية رخوة تكثر قرب شواطئها ، ومن هنا جاءت نسبتها الى اللون الاحمر^(٢٢) ، وهكذا كانت تسميتهم السامية القديمة بالكنعانيين ، وبالاغريقية الفينيقين ، وكلاهما علم على شعب سامى واحد ، ينزل بسهول فلسطين الساحلية .

هذا وقد تغير اسم كنعان بتغير العصور . فهو — بديء ذى بدء — اسم أطلق على الساحل السورى وغرب فلسطين ، ثم سرعان ما أصبح الاسم الجغرافى المتعارف عليه لفلسطين ، وقسم كبير من سورية ، وكان هذا أول اسم لفلسطين ، وجميع الاسماء الاخرى أقل أهمية . وفى وثائق العهد القديم الاول أطلق اسم كنعان بمعناه الواسع على جميع سكان البلاد فى غرب الاردن ، أى مدلول جنسى^(٢٣) هذا وقد كان تعبير «لغة كنعان»^(٢٤) يطلق بصفة عامة على لغة فلسطين السامية^(٢٥) .

(٢٢) نجيب ميخائيل المرجع السابق ص ١٨ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ٨٥ — ٨٧ ، وكذا :

W. F. Albright, Op. Cit., P. 87.

M. F. Unger, Op. Cit., P. 170-171.

وكذا

(٢٣) عدد ٣٤ : ٣ — ١٢ .

(٢٤) اشعياء ١٩ : ١٨ .

(٢٥) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٨٧ ، وكذا :

M. F. Unger, Op. Cit., P. 171.

الفصل الثاني

دويلات المدن الفينيقية

تقديم :

تعد فينيقيا واحدة من أصغر دويلات العالم القديم ، وهي تشغل من الناحية الجغرافية شريطا ساحليا ضيقا كان يمتد من جبل الاقرع (كاسيوس) شمالا ، الى جبل الكرمل جنوبا ، ومن أرواد (وتسمى خرائبها اليوم طرطوس شمال عريت) الى عكا (عكو بمعنى الرمال الحارة) ولا يزيد طوله على مائتى ميل ، كما لا يزيد عرضه على ٣٥ ميلا ، وهو غنى بالخلجان ، وبه عدد من الشغور ، وترتفع الى جانبه من ناحية الشرق جبال شامخة تغطيها الغابات من أشجار الارز والصنوبر والسرو ، وتفصل الخلجان الرؤوس البارزة في البحر عن بعضها البعض . وتظهر بالقرب من الشاطئ بعض الجزر التي كان لها كذلك شأن في تاريخ هذه البقعة ، ذلك لانها كانت عامرة بالقرى والمدائن ، شأنها في ذلك شأن الساحل نفسه ، بل ان أهميتها تفوق الساحل في أحيان كثيرة (١) .

وعلى أية حال ، فلقد كان الفينيقيون محصورين في شريط من الارض على شئ كثير من الضيق ، ذلك لان جبال لبنان لا تبعد عن البحر أكثر من ٥٠ كيلا ، بل يقترب الجبل من البحر في بعض المواضع فيصير على بعد ما بين ١٢ ، ١٥ ميلا ، وفي بعض المواضع يلاصق الجبل البحر .

هذا فضلا عن أن هذا الشريط الضيق من الارض مقسم طولاً الى

(١) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم - الجزء الثالث - سورية - الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٤٨ .

عدة أقسام منفصلة بعضها عن بعض بامتدادات جبلية ناتئة من جبل لبنان . وواصلت الى ساحل البحر ، وهذا الامتداد الفاصل حاجز حقيقي تنشأ عنه أقاليم مختلفة ، ثم أكثر هذه الامتدادات الناتئة عند الجبل تنتهي عند البحر بانحدار عمودي لا يدع مكانا لطريق يوصل بين جانبيها ، وهكذا كان الحال قديما ، أو كان ما وجد على أكثر تقدير ، طريق ضيق منحوت في جنب الفتوة •

ولعل من خير الامثلة على ذلك ، رأس الكلب ، وهو رأس يقع شمال بيروت (وهي بثرونا في رسائل العمارنة ، بمعنى الابار) ، ويوجد قرب قمته آثار طريق ضيق ، وفي أسفله الطريق الذي سلكه الفاتحون المصريون والاشوريون والروم ، وكل منهم قد ترك على الطريق نقوشا تخذ ذكراه • وكان البحر أسهل طريق للمواصلات بين كل بلد وآخر ، وهذا الانقسام انما كان أحد الاسباب التي جعلت فينيقيا لا تصلح أن تكون دولة حقيقية ، فصارت عبارة عن دويلات صغيرة ، يسود بعضها البعض الآخر ، طبقا للزمان والظروف السياسية والاقتصادية •

هذا ونعبر فينيقيا بمثابة ممر ضيق بين افريقيا وآسيا ، لان صحراء سورية الكبرى الواقعة وراء جبال لبنان اقليم لا يمكن اجتيازه عمليا . وعكس ذلك من ناحية فلسطين في الجنوب ، اذ تتصل هنيقيا بشبه جزيرة سيناء ثم الى داخل مصر نفسها ، أما في الشمال فالاتصال ممكن بأعلى وادي دجلة والفرات •

ومن هذا الوضع ندرك كيف كانت فينيقيا غير قادرة على أن تبقى منعزلة محايدة ازاء المنافسات التي تجاذبت العالم القديم ، وكان عليها أن تصطلي بها ، أو أن تتحاز الى فريق منها ، وكان ضمها ضرورة من الضرورات التي تحرص على تأمينها كل امبراطورية كبيرة ، لعظم الموارد التي تنتج من تجارتها ، ولمنفعة الاسطول الذي يجده الفاتح بها •

وكان انحيازها الى فريق من الفريقين المتحاربين ذا فائدة حربية أيضا ، فهي لمن ملكها باب مفتوح على افريقية وعلى آسيا على السواء ،

وهى ثغر يحتوى من وراءه به ، ويتخذ في نفس الوقت قاعدة لما يقدر
من الغزو والتوسع (٢) .

وهكذا تأثر الفينيقيون الى أبعد الحدود بالبيئة التي عاشوا بها ،
واستجابوا لها استجابة كاملة ، فشكلت تاريخهم وحياتهم الاجتماعية
والاقتصادية والسياسية ، ذلك لان الوطن الفينيقي الممتد على سواحل
الشام على صورة شريط ضيق يقع بين البحر من الغرب ، والصحراء من
الشرق ، أصبح بمثابة قنطرة يعبرها الغزاة الاسيويون القادمون من
منطقة الجزيرة قبل نزولهم الى وادي النيل ، كما تعبرها القوات
المصرية القادمة من الوادي تتعقب الغزاة ، وهم في طريق فرارهم بعد
دفعهم عن حدود مصر .

وكانت الجيوش المصرية تطرق بلادهم باستمرار ، تحاصر مدنهم
وتدك قلاعهم ، وتحملهم أسرى الى مصر يسخرهم فرعون في الاعمال
التي يريد ، وقد سجلت الآثار المصرية والوثائق المصرية هذه الصلة
الوثيقة بين فينيقيا ومصر ، وما كادت الشعوب السامية النازلة في وادي
الدجلة والفرات تفيق وتتطلع الى السيادة على الشرق الأدنى حتى
اتجهت صوب فلسطين ، وكانت جيوشها الغازية تطرق هذه القنطرة
الساحلية ، وتفضل بها مثل ما فعله المصريون من قبل .

وهكذا أصبح الوطن الكنعاني الفينيقي في مهب التيارات العالمية ،
بين قوى عالمية كبرى ، قامت في وادي النيل ، وفي وادي الدجلة
والفرات ، وفي آسيا الصغرى ، وترتب على هذا الوضع نتائج بعيدة
الآثر ، اذ لم يستطع الكنعانيون أن يقيموا دولة موحدة ، تصد هذه
التيارات وتضع حدا لهذا النفوذ الاجنبي (٣) .

(٢) ج . كونتنو : الحضارة الفيبينية - ترجمة د . محمد عبد الهادي
شعبرة ، ومراجعة د . طه حسين - القاهرة - ص ٢٨ - ٢٩ ، ٣٤ .
(٣) حسن محمود وآخرون : حضارة مصر والشرق القديم - القاهرة
ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

وهكذا حددت خصائص المنطقة الجغرافية مصيرها التاريخي، فتركز طرق المواصلات الأساسية بين ثلاث قارات في هذا القطاع الضيق من الأرض إنما كان يعنى أنه قدر لهذا القطاع أن يكون مسرحاً لسلسلة من الهجرات والغزوات ، دون أية فرصة دائمة لإنشاء نظم سياسية قوية ، فقد كانت فينيقيا أرض تجارب للمطامع والمنافسات التجارية والحربية للدول الكبرى والتي كانت تقع بينها ، وكانت الشعوب المهاجرة تتدفق عليها مرة بعد أخرى ، لأنها كانت منطقة جذابة في حد ذاتها لخصبها ، ويمكن دخولها من كل جانب ، وكانت مفتوحة أمام مصر وأرض الرافدين وآسيا الصغرى والبحر المتوسط ، فضلاً عن الصحراء التي جاء منها البدو الساميون^(٤) .

وانطلاقاً من كل هذا ، وتخريجاً عليه ، لم يستطع الفينيقيون ، بل لم يستطع السوريون جميعاً ، أن يشكلوا وحدة سياسية واحدة ، كمصر ، وإنما وحدات صغيرة تعيش في مدن محصنة ذات أسوار عالية ، وأبراج كبيرة ، يلجأ إليها السكان وقت الخطر ، ويحتمون بأسوارها ، ويتخذونها وقت السلم أسواقاً لتجارتهم .

على أن قيام هذه المدن المحصنة ، وإن كان أحسن وسيلة للتجأ إليها الفينيقيون لصد غارات الدول المجاورة أو غارات البدو المجاورين ، إلا أن تقسيم البلاد إلى مدن صغرى يحارب بعضها البعض الآخر ، ولا يسود بينها أى نوع من الاستقرار ، جعلها تقع فريسة سهلة لعدوان القوى المجاورة ، وخاصة الكبرى منها .

هذا ونظراً لأن الفينيقيين لا يميلون بطبيعتهم إلى النواحي السياسية ، بقدر اهتمامهم بالشئون الاقتصادية ، فإنهم إنما كانوا يفضلون الأمان والاستقرار السياسى حتى يتمكنوا من تسويق تجارتهم

(٤) سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة - ترجمه وزاد عليه السيد يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٦٨ ص ١٢٢ . . .

والنجاح في المجالات التجارية بصفة عامة^(٥) .

وقد أدت هذه الأوضاع مجتمعة الى ظهور ما يسمى بدويلات المدن حيث كان لكل مدينة حكومتها الخاصة بها ، وعلى رأسها حاكم بالوراثة ، قد ينتقل الملك منه الى أسرة أخرى ، أو تنتزع الامارة وتسلب ، نتيجة ثورة من عناصر تصبح لها الغلبة ، ولم يكن سلطان الامير أو الحاكم أو الملك استبداديا مطلقا ، ذلك لان التجارة تتطلب مفاخرة وألوانا من النشاط لا يتفق وهذا اللون من الحكم .

وكانت تقوم ، الى جانب الحاكم ، هيئة من المشرعين ، كما كانت تعقد أحيانا مؤتمرات من المدن الكبرى للتداول في الشؤون العامة المشتركة ، وكانت طرابلس مقر الاجتماع العام للمدن الثلاث الرئيسية . وكان للدين نصيبه في الادارة ، فهو يحدد سلطة الحاكم ، وللكهنة نفوذ يلي نفوذ الحاكم ، أما الموارد المالية فتعتمد على التجارة ، وان كنا لاندري على وجه التحقيق ، أكان بيت المال يعتمد على المكوس أو على الاحتكار أو على الامرين معا^(٦) .

وهكذا انتظم الفينيقيون في جماعات صغيرة يرأس كل منها ملك ، ويستقرون حول مدن محصنة تحيط بها مناطق زراعية تابعة لها ، وكانت هذه المدن هي العواصم التي يلجأ اليها أهل المناطق الزراعية ، ويحتمون داخل أسوارها وقت الخطر .

على أن المزراع كثيرا ما كان يحدث بين هذه المدن ، وكانت أكثرها تفوقا تلك التي كانت وسائلها الدفاعية أكثر فاعلية ، هذا الى أن بعضا من تلك المدن انما كان يشغل موقعين ، الواحد : على الساحل ، والاخر : يمثل جزرا صغيرة في مواجهته يلجأ اليها القوم عند اشتداد الخطر ،

(٥) فيليبحتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق - بيروت ١٩٥٨ ص ٨٨ ، محمد بيومي مهران : تاريخ مصر الفرعونية والشرق الادنى القديم - القاهرة ١٩٨٥ ص ١٨٣ ، ابن خلدون : المقدمة : المرجع السابق ص ٣٨٩ .
(٦) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٥٠ - ٥١ .

وقد أدى هذا الوضع الى أن يهيأ لكل مدينة مرفأين ، أحدهما شمالي، والاخر جنوبي ، فتلجأ السفن لهذا المرفأ أو ذاك بحسب الفصول واتجاه الريح ، ومثال ذلك صيدا وصور ، فكانت المسافة بينهما ملاحية يوم واحد^(٧) .

ويدهى أن المدن المنيعه كانت أقدر من غيرها على البقاء والازدهار، كما أن هذه المدن الفينيقيه المتفرقة بسبب مظاهر الطبيعة لم تترك الامر هكذا ، وانما حاولت جاهدة ايجاد نوع من الترابط يؤلف بينها ، ويجمع كلمتها ، وبخاصة في وقت الاخطار الخارجية ، ومن ثم فقد عمدت الى انشاء تحالف قوى بين عدة مدن ، بزعامة أوفرها قوة ، تحالف كان دائما يميله الخطر المشترك ، وأحيانا المصالح المشتركة .

وكانت مدينة «أوجاريت» في القرن السادس عشر قبل الميلاد ، و «جبيل» في القرن الرابع عشر ، و «وصيدا» بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر ، و «صور» بعد هذا القرن الاخير ، ثم «طرابلس» في القرن الخامس قبل الميلاد ، تتزعم هذه الاحلاف^(٨) .

ولعل من أشهر هذه المحالفات ، ذلك الحلف المشهور الذى قضى عليه فرعون العظيم تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق م) في «مجدو» حوالى عام ١٤٦٨ ق م ، وقد تجمع هذا الحلف ، الذى كان يتزعمه أمير قادش^(٩) ، عند مدينة «مجدو» (وهى تل المتسلم الحالية غربى بحيرة طبرية ، وعلى مبعده ٢٠ ميلا جنوب سرقى حيفا) حيث

(٧) كونننو : المرجع السابق ص ٢٩ ، محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الادنى القديم - الاسكندرية ١٩٦٩ ص ١٥٩ .

(٨) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٩٢ .

(٩) قادش : وتقع مكان تل نبي مند ، على التايطىء الايسر لنهر العاصى عند اتصاله بنهر الموقادية ، وعلى مبعده ٧ كيلا جنوبى بحيرة حمص ، وان رأى البعض أنها «قادش» التى تقع شمال فلسطين ، على مبعده ٧ كيلا شمال بحيرة الحولة : أنظر

J. H. Breasted, The Battle of Kadesh, P. 13.

A. H. Gardiner, Onom., I, P. 137-141.

وكذا

جمع هذا الامير حوله «ثلاثمائة وثلاثين أميرا ، كل منهم معه جيشه الخاص» ، لكى يوقفوا تقدم فرعون عند «مجدو» ، وبدهى أن عدد الامراء (٣٣٠ أميرا) انما يشير بوضوح الى أن سورية وفلسطين وفينيقييا ، انما كانت مجزأة بصورة غريبة ، فهؤلاء الامراء لم يكونوا في المواقع الا زعماء لدويلات صغيرة جدا ، كما كانوا على درجة من الاستقلال ، تحول دون تكوين جيش موحد ، بحال من الاحوال^(١٠) .

هذا ويبدو واضحا من رسائل العمارنة ، من عصر الملك أمنحتب الثالث (١٤٠٥ - ١٣٧٦ ق.م) وأمنحتب الرابع (اخناتون ١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) أن القوم لم يفقدوا العمل المشترك بينهم فحسب ، وانما حاول الملوك الفينيقيون جميعا الحصول على الفوائد من سيدهم المصري ، بعضهم على حساب بعض ، وكان معظم هؤلاء الملوك يوجهون رسائلهم بصفة شخصية^(١١) ، ولعل السبب في ذلك طغيان احدى المدن ، أو حتى احدى الوحدات ، على جاراتها التي تتزعمهن ، الامر الذي كان يؤدي أحيانا بخروجها عليها ، والانضمام الى أعدائها ، كما حدث حين ثارت صيدا وباليتروس وعكا ضد صور ، وأعلنت خضوعها لاشور ، بل ووجهت جميعا ضد أسطولا يستهدف تدميرها فباء بالهزيمة .

وانطلاقا من كل هذا نستطيع أن نقرر أن لونا من الاتحاد قائم بين الولايات الفينيقية أحيانا ، تزعمته صور ، وفينيقييا في أوج مجدها ، وأما حين دانت بالسيادة لاشور وفارس انحلت عرى الرابطة التي ألقت بين الولايات^(١٢) .

.. —————

(١٠) انظر عن معركة مجدو ، والمراجع الخاصة بها (محمد بيومي مهران : مصر - الساب الثالث - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٠٣ - ٢١٥ انظر عن رسائل العمارنة (محمد بيومي مهران : اخناتون : عصره ودعوته - الاسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٣٣ - ٢٤٥ ، وكذا

J. A. Kundtson, Die El-Amarna Tafeln, 2 Vols., Leipzig, 1908, 1915.

S. A. B. Mercer, The Tell-El-Amarna Tablets, Toronto, 1939.

(١١) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٩٢ .

(١٢) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٥٥ .

وأما أهم المدن الفينيقية من الناحيتين السياسية والدينية فكانت مدن : جبيل : وكانت مركزا مقدسا للعبادة ، ثم «صيدا» وقد لقبت «بالمدينة الام في كنعان» ، ثم «صور» ، وكان لها الى جانب ازدهارها التجارى دور عظيم فى تأسيس العقائد فى المدين الفينيقى ، ثم «أوجاريت» ، وكانت مع انضمامها فى بعض الاوقات الى « بيروت » تعيش بسبب بعدها عيشة أكثر استقلالاً من مدن فينيقيا الوسطى (١٣) .

وكانت تتوسط هذه الثغور والمدن الكبيرة ، قرى أقل شأنًا ، تنتشر بينها ولها شهرتها الخاصة فى بعض نواحي الصناعة والفنون .

وقد تحكمت الطبيعة فى تحديد مواقع هذه المدن ، اذ كان العامل فى اختيارها وقوعها على نهر ، أو على مقربة من جبل يسهل معه الدفاع عنها ، وكانت بعض هذه المدن تقام على البر ، وعلى جزر متناثرة قريبة من الساحل ، ويتعاون البر والجزيرة فى حماية المدينة والدفاع عنها ، ولنشر الان الى بعض هذه المدن :

(١) أوجاريت :

كان موقع أوجاريت أهلا بالسكان قبل ابتداء التاريخ بزمن طويل، ودليل ذلك أن الاستاذ «شيفر» اكتشف على مبعدة ٧ كيلا شمالي أوجاريت على الشاطئ الايمن لنهر العرب عن آثار عمران من العصر الحجري القديم ، مع أدوات شيلية ، أو أدوات من العصر الشيلى الاول (١٤) .

ويشير تاريخ الابحاث الاثرية الى أنه فى ابريل من عام ١٩٢٨م ، وعلى مقربة من ميناء البيضاء (الميناء الابيض) على مبعدة عشرة أميال الى الشمال من ميناء اللاذقية ، كان أحد الفلاحين يحرق حقله فاصطدم حد المحراث بشيء صلب فى باطن الارض ، فنظر الرجل فرأى جزءا من قبر خرب ، وأخطرت ادارة الآثار فى بيروت ، وعلم أن مخلفات أثرية

-
- (١٣) ج . كونتنو : المرجع السابق ص ٣٣ .
(١٤) ج . كونتنو : المرجع السابق ص ٤٤ .

مختلفة كشفت من قبل ، وبدأت الحفائر في بداية عام ١٩٢٩م ، واكتشف الباحثون أن تلا يبعد نحو نصف ميل عن الشاطئ ويقوم بين فرعى نهر الفد اللذين يلتقيان بعد ذلك ويصبان في البحر ، أن هذا التل يغطي بقايا مدينة قديمة ، واسمه العربي «رأس الشمرة» (ربما لكثرة ماينمو عليه من نبات الشمر = المشمار) .

ثم لم يلبث علماء الآثار أن اكتشفوا أن هذا التل انما يغطي خرائب «أوجاريت» ، وهى مدينة قديمة ذكرتها وثائق مصر وأرض الرافدين والحيثيين ، وباستمرار الحفائر كشفت قبور وأوان فخارية وتماثيل صغيرة وحلى وعظام حيوانية ، ثم ألواح عليها نقوش مسمارية ، وكان التوفيق عظيما الى حد دعا الى تنظيم بعثة للحفر عاما بعد عام تحت ادارة الاثرى الفرنسى «شيفر» ، وقد توقف العمل عام ١٩٣٩م لاندلاع الحرب العالمية الثانية ، ولكنه استؤنف مرة أخرى عام ١٩٥٠م .

هذا وقد كشف في رأس الشمرة عن نصوص مكتوبة بلغات عدة : الاكدية والمصرية والحيثية والهورية ثم لغات أخرى كانت مجهولة حتى ذلك الوقت ، ومن ثم نشأت مشكلة حل رموز هذه اللغة ، وقد تم ذلك في خلال عام واحد ، وعلى يد ثلاثة علماء عملوا مستقلين هم : «هانز باور» الالمانى ، و «ادوارد دروم» و «شارل فيرولو» الفرنسيين ، وقد شغل ثالثهم بنشر النصوص وترجمتها وشرحها منذ عام ١٩٢٩م

وقد كشفت في رأس الشمرة عدة مئات من الألواح والكسر ، أحدثت ثورة في معلوماتنا عن الادب الكنعانى ، والمجموعة الاساسية فيها هى مجموعة الملاحم وشعر الاساطير ، وان وصلت اليها للاسف في حالة بعيدة عن الكمال ، ولهذا كانت في ترجمتها عدة فجوات ، هذا الى أن ترتيب الألواح ليس أكيدا في كثير من الاحيان ، وكذا ترتيب الاحداث في دورات الملاحم .

وفي عام ١٩٥٣م كشفت وثائق ملوك أوجاريت ، وهى تشتمل على رسائلهم الى ملوك الحيثيين وغيرهم من الدول ، ولا بد أن هذه الوثائق

كتبت كلها قبل تخريب المدينة حوالى عام ١٣٥٠ ق م (وان كان الرأى المسائد أن المدينة خربت حوالى عام ١٢٠٠ ق م ، على يد شعوب البحر الذين جاعوا من سواحل الاناضول وجزر بحر ايجيه ، وأغاروا على الشرق الادنى القديم)^(١٥) وترجع هذه الوثائق الى ما بين عامى ١٥٠٠ ، ١٤٠٠ ق م ، على وجه التقريب^(١٦) .

وعلى أية حال ، ففي منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد حدث زلزال فى المنطقة أعقبه طغيان البحر ، فخربت أوجاريت ، ولكنها مع ذلك نهضت من جديد ، ثم ما لبثت أن وقعت سريعا فى قبضة الحيثيين فى عهد أحد ملوكها ويدعى «نقمان» ، وأصبح هذا تابعا لملك الحيثيين «شوبيلوليوما» (١٣٧٥ - ١٣٣٥ ق م) ، وعند قيام رعمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق م) ثانى ملوك الأسرة التاسعة عشرة المصرية . بمحاولة استرداد الامبراطورية المصرية فى غرب آسيا ، وحدثت بينه وبين ملك الحيثيين «مواتيل» وحلفائه من ملوك وأمراء سوريه وفينيقيا معركة «قادش» انضمت أوجاريت لهؤلاء الاحلاف ، راغبة أو كارهة ، بحكم تبعيتها للحيثيين^(١٧) .

وانتهت معركة قادش (حوالى عام ١٢٨٥ ق م) بنصر شبه مؤزر للفرعون ، وان اضطر الفرعون حوالى عام ١٢٨٢ ق م الى أن يخرج

(١٥) انظر عن «شعوب البحر رغروهم لدر وادبراطورييها فى غربى اسيا (محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث - الاسكندرية ١٩٦٩ (رسالة دكتوراة) .
(١٦) سبنينوموكاتى : المرجع السابق ص ١١٧ - ١١٨ ، ٢٧٢ .
(١٧) انظر عن معركة قادش (محمد بيومى مهران : مصر : الكتاب الثالث - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٣٥٢ - ٣٥٦ ، وكذا

A. H. Gardiner, The Kadsh Inscriptions of Ramsess, II, Oxford, 1960, P. 5-10.

H. Goodick, JEA, 52, 1966, P. 72-80.

A. Burn, JEA, 7, 1921, P. 194-196.

A. Gotze, LDZ, 32, 1929, P. 832-840.

J. Kuentz, BIFAO, 55, 1928, P. 14 F.

مرة أخرى الى غربى آسيا ، للقضاء على الثورات التى قامت فيها بتحريض من الحيثيين ، وان يلتقى مرة ثانية بالحيثيين فى «تونب» . حيث أوقع بهم هزيمة ثانية ، فضلا عن تلقين ملوكها درسا قاسيا أجبرهم على احترام مصر ، وعدم التدخل فى أمر ولايتها الاسيوية^(١٨) .

وفى حوالى عام ١٢٦٩ ق.م ، أبرمت معاهدة تحالف بين مصر وحاتى^(١٩) ، وظل سكان أوجاريت كما كانوا من قبل . وزادت عليهم عناصر جديدة (من أهل مكينى ببلاد أليونان ومن قبرص) لعبت دورا كبيرا فيما بعد ، وانتعشت أوجاريت للمرة الاخيرة حيث أنها خربت حوالى عام ١٧٧٤ ق.م ، أثناء غزو شعوب البحر لمصر وإمبراطوريتها الاسيوية ، بعد أن اسقطت دولة الحيثيين ، ولكن رعمسيس الثالث (١١٨٢ — ١١٥١ ق.م) ثانى ملوك الاسرة العشرين ، كتب له نجحاً بعيد المدى فى هزيمة شعوب البحر فى موقعتين ، الواحدة برية : والاخرى بحرية ، ومن ثم فقد نجح فى القضاء على الاخطار التى دددت مملكته الاسيوية ، فضلا عن مصر نفسها^(٢٠) .

وأخيرا فيمكن القول بان أوجاريت بحكم موقعها ، انما كانت أكثر

(١٨) أنظر (محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث - الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٩٠ - ٩٥ ، وكذا K. A. Kitchen, JEA, 50, 1964, P. 68-70.

(G. Gaballa, JEA, 55, 1969, P. 82-88).

(١٩) أنظر عن معاهدة التحالف بين مصر وحاتى (محمد بيومى مهران : مصر - الكتاب الثالث ص ٣٥٦ - ٢١٠ ، وكذا S. Langdon and A. H. Gardiner, JEA, 6, 1920, P. 179-205.

M. B. Rowton, JCS, 13, 1959, P. 1 F.

(٢٠) أنظر عن غزوات شعوب البحر (محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة - القاهرة ١٩٧٦ ص ٢٥٧ - ٢٦٤ ، مصر ٣/ دى ٢٧٣ - ٢٨٥ ، وكذا

H. Nelson, JNES, 2, 1943, P. 45 F.

W. F. Edgerton and J. A. Wilson, Historical Records of Ramses, III, Chicago, 1936, P 35-55.

تأثرا بقبرص والحيثيين ، فضلا عن الحوريين ، أكثر من تأثرها
بمصر (٢١) .

(٢) أرواد (أرادوس) :

قامت أرواد في شمال فينيقيا على إحدى الجزر ، وتقابلها على
الشاطئ أرواد الداخلية ، وقد وصف «أسترابو» هذه الجزيرة التي
قامت عليها أرواد بأنها كانت (في العصر اليوناني الروماني) بأنها مغطاة
بالمباني بارتفاعات شاهقة ذات طوابق متعددة .

وكانت تسمى أرواد في العصر الهلنستي «أنترادس» (Antaradus)
وقد أطلق عليها الصليبيون (Tortosa) وهي اليوم «طرطوس»
شمالي عرمت ، حيث لا تزال تشاهد بعض الآثار الفينيقية المهمة ،
وهي معبد وعدة قبور .

هذا وكان أهل أرواد يتجمعون في جزيرتهم الصخرية — كما يفعل
الناس الآن في جزيرة مناهاتن في نيويورك — في ناطحات سحاب مصفرة،
وقد ظهرت براعتهم في ضمان التزود بالمياه لأجل جزيرتهم ، وكانت
تخزن مياه المطر الآتية من سطوح المنازل في صهاريج ، وتضاف إليها
مياه ينبوع تحت البحر ، يحصلون عليها بوضع قمع ضخيم مقلوب على
الينبوع ، بحيث يتصل القمع بانبوب جلدي ، وربما كان هذا أقدم
ما سجله التاريخ من وجود نبع مياه عذب تحت البحر (٢٢) .

هذا وعلى الرغم من صغر مساحة أرواد ، فقد سجل التاريخ أنها
كانت تسيطر على كثير من المدن المجاورة ، مثل «سيميرا» و «مارثوس» ،
على أننا لا نعرف الكثير عن تفاصيل تخطيطها ، وربما كانت جباناتها ،
وكذا ضواحيها ، تمتد إلى الأرض الرئيسية ، وقد اشتهر أهل أرواد

(٢١) محمد أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية — بيروت ١٩٨١
ص ٢٧ .

(٢٢) فيليب حتى : المرجع السابق ، وكذا

Strabo, XVI, 2, 13.

بأنهم ملاحون مهرة ، وكانت لهم فرق كبيرة فى الاسطول الفينيقي ، وقد رسم على ظهر عملتهم الاولى «سفينة» هى شعار المدينة^(٣) .

هذا وقد تعرضت أرواد ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من المدن الفينيقية الرئيسية ، لكثير من أطماع الشعوب المجاورة ، وانتهى أمرها بأن دمرها أقوام البحر ، كما تشير الى ذلك مظاهر التخريب التى ترجع الى القرن الثانى عشر ، وان عادت مرة أخرى الى الحياة ، حيث قاست الكثير من غزوات الآشوريين المتكررة .

(٣) جبيل :

تقع جبيل على مبعدة ٤٠ كيلا الى الشمال من مدينة بيروت ، العاصمة اللبنانية الحالية ، ويرجع تخطيطها الى عصر البرونز ، وتقع المدينة على صقع جبل ، ومنها طريق يتصل بالميناء ، وأهل جبيل يعتبرون مدينتهم أقدم مدن العالم قاطبة ، وقد بناها الاله «ايل» ، فيما تزعم أساطيرهم ، هذا وقد كشفت الحفائر فى جبيل عن آثار ترجع الى عصر Chalcolithic وربما كانت هناك مخلفات ترجع الى عصور أقدم ، كما أن جبيل ربما كانت كذلك من المراكز الهامة والقديمة لعبادة الالهة «عشتار»^(٢٤) .

وعلى أى حال ، فلقد ظلت هذه المدينة الى آخر أيامها القصبية الدينية لفينيقيا ، وكان البردى من أهم سلعها التجارية ، ومن ثم فقد اشتق اليونان ، فيما يرى ول ديورانت ، من اسمها اسم الكتاب فى لغتهم ببلوس (Biblo) ، ومن هذه الكلمة نفسها استقت كلمة (Bible) اسما للكتاب المقدس (التوراة والانجيل)^(٢٥) .

وكان اسم المدينة عند المصريين القدامى يكتب حتى الاسرة

(٢٣) عبد الحميد زايد : الشرق الخالد - القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٤٧ .

(٢٤) نفس المرجع السابق ص ٢٤٧ .

(٢٥) ول ديورانت : قصة الحضارة - الجزء الثانى - ترجمته محمد

بدران - القاهرة ١٩٦١ ص ٣١٣ - ٣١٤ .

الثانية عشرة (١٩٩١ - ١٧٨٦ ق م) «كبن» ، ولعله تحريف للاسم
الغينيقي « جبيل » ، ثم أصبح بعد ذلك يكتب « كبن » (Kepen)
بالباء الثقيلة ، ثم أطلق اليونان عليها اسم «ببيلوس» ، ثم أصبحت في
العربية «جبيل» •

هذا وقد أقام المصريون علاقات مع جبيل منذ عصور ما قبل
التاريخ ، وتشير دراسة الخشب الموجود في مقابر الاسرة الاولى الى
أنه وارد من سورية ولبنان ، وأنهم عملوا على احضار خشب الارز من
هنا ، كما يشير الى ذلك «حجر بالرمو» ، منذ عهد «سنفرو» مؤسس
الاسرة الرابعة ، كما سنشير الى ذلك بالتفصيل في فصل العلاقات
الخارجية •

وعلى أية حال ، فهناك ما يشير الى أن «جبيل» انما كانت أهلة
بالسكان منذ أقدم العصور ، وكانت بحكم موقعها ذات مركز تجارى
هام ، فنشأت بينها وبين جاراتها علاقات وثيقة ، ويذهب كثير من
الباحثين الى أن جبيل انما قد خضعت للنفوذ المصرى في أغلب عهودها •

ـ (٤) صيدا :

كنت صيدا شقيقة صور ، بل لعل صيدا انما كانت في فترة ما ملكة
المدائن الفينيقية وتقع صيدا على مبعدة ٤٥ كيلا الى الجنوب من بيروت ،
٤٠ كيلا شمالى صور (أى في مكان وسط تقريبا بين بيروت وصور) في
سهل ساحلى شديد الخصوبة ، وافر المياه ، ولكنه ضيق ينحصر بين
السهول الغربية لجبال لبنان الجنوبية وبين البحر ، يصل اتساعه الى
ما يقرب من ميلين (٢٦) •

هذا وقد أنشئت المدينة ، في بادية أمرها ، على رأس جبلى ،
اختاره القوم ، في أكبر الظن ، بسبب المرفأ الممتاز الذى يتألف من

(٢٦) أنظر :

F. C. Eislen, a study in Oriental history, New York, 1907, P. 1.
Dictionnaire de la Bible, Pub. Vigouroux, T. V, Paris, 1928, P. 1704.

سلسلة من الجزر الصغرى المتصلة بعضها بإبغض الآخر بأرصفة صناعية ، وكان هذا المرفأ يقع الى جهة الشمال ، وكان هناك ، من ناحية الجنوب ، مرفأ آخر يسمى «المرفأ المصرى» وهو أكبر من الشمالى ، وان كان أقل منه أمنا ، كما كان هناك ، من ناحية البر ، سور لحماية المدينة ، وأما قلعة صيدا الحالية ، وتسمى «قلعة البحر» ، فترجع الى أيام الحروب الصليبية ، وتتقع على أكبر الجزر التى قامت عليها المدينة (٢٧) .

هذا ويذهب «الاب هنرى لامانس» الى أن مدينة صيدا القديمة انما كانت جزيرة (٢٨) ، وهو أمر ، فيما يرى أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم ، نستبعده اليوم ، ذلك لان كل الآثار القديمة التى تم العثور عليها انما كشف عنها فى البر (٢٩) .

وتقوم المدينة الحديثة فى نفس مكان صيدا القديمة على وجه التقريب ، أى على قلعة البر الذى أقيمت عليه قلعة البر الصليبية ، مع ملاحظة أن المدينة الحديثة امتدت فى فترة لاحقة للاسترداد الاسلامى نحو الشمال الشرقى بجذاء الساحل ، وأصبحت لا تتمتع كثيرا فى الداخل (٣٠) .

هذا وقد اشتق اسم «صيدا» من الصيد ، أى صيد السمك ، واليه ينسب الاله الفينيقي الوثنى «صيدون» ، ومن ثم فقد ذهب البعض الى أنها كانت محطه صغيرة لصائدى الاسماك ، على النحو الذى كانت

(٢٧) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٩١ ، وكذا

Poidebard et Lauffray, Sidon, Amenagements Antiques du Port de Saida, Beyrouth, 1951, P. 84.

(٢٨) هنرى لامانس : السواحل اللبنانية - مجلة المشرق - السنة السابعة - العدد ٢٠ ص ٩٤٨ .

(٢٩) السيد عبد العزيز سالم : دراسة فى تاريخ صيدا فى العصر الاسلامى - بيروت ١٩٧٠ ص ١٠ .

(٣٠) نفس المرجع السابق ص ١٠ ، وكذا

D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, P. 28.

Schwarz, Encyclopaedia of Islam, P. 422.

عليه قرية «راقودة». (راكوتيس) التي أقيمت عليها مدينة الاسكندرية ، وقد أشار «هومير» الى أن السمك في صيدون أوفر من الرمال ، كذلك فسر «جستان» في القرن الاول اسم صيدا بكثرة السمك فيها ، على أساس أن الفينيقيين كانوا يسمون السمك «صيدون» ، كما أشار الادريسي الى عين في صيدا كان ينشأ فيها في الربيع سميكات على طول الاصبع ، منها ذكور واناث ، وأن لها أيد وأرجل صغار ، وعلى أية حال ، فمازال صيدا حتى اليوم تشتهر بأسمائها ومازال القوم يعتبرون صيد الاسماك من أهم حرفهم ، بل ان ميناءها الحالي ، ما يزال في نظر البعض ، لا يعدو أن يكون مرسى لزوارق السفن^(٣١) .

هذا وقد عرفت صيدا في الآشورية باسم «صيدونا» ، وفي اللاتينية «صيدون» أو «صيدونيا» وفي رسائل تل العمارنة المصرية «صيدونو» ، وفي العبرية «صيدون» أو حتى «زيدون» ، وعند الصليبيين «ساجيتا»^(٣٢) .

وأما في العربية فقد عرفت باسم «صيدا» ، وكذا باسم «اربل» ، يقول ياقوت الحموي في معجمه «اربل اسم لمدينة صيدا التي بالساحل من أرض الشام ، ولعلها سميت «اربل» عند العرب من الربل أى كثرة الشجر ، وقد أشار ابن فضل الله العمري الى أن كورتها كثيرة الاشجار ، غزيرة الانهار»^(٣٣) .

هذا وتنسب القوراء مدينة «صيدا» الى صيدون الابن الاكبر

(٣١) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ١٧-١٨ ، منير الخورى : صيدا عبر حقب التاريخ - بيروت ١٩٦٦ ص ٢٤ ، الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الافاق ص ١٥ ، وكذا

F. C. Eislén, Op. Cit., P. 11.

(٣٢) أنيس فريجه اسماء المدن والقرى اللبنانية - بيروت ١٩٥٦ ص ٢٠٣ ، منير الخورى : المرجع السابق ص ٢٤ ، وكذا

F. C. Eislén, Op. Cit., P. 10.

(٣٣) معجم ياقوت ١٤٠/١ ، القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشا ١١١/٤ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ١٦ .

لكنعان بن حام بن نوح ، ومن ثم فهي تربط بين تأسيس صيدا وبين الكنعانيين الذين عرفوا أيضا باسم الصيدونيين^(٣٤) ، وهكذا تنسب التوراة «الكنعانيين — الفينيقيين» ، كما أشرنا من قبل ، الى الحاميين ، وليس الى الساميين ، مع أنهم يتكلمون لغة سامية ، بل هم أنفسهم ساميون ، والامر كذلك بالنسبة الى المصريين الذين جعلهم التوراة حاميين ، تقول التوراة^(٣٥) في سفر التكوين «بنوحام : كوش ومصرام وفوط وكنعان»^(٣٦) ، والمصريون ساميون ، ما في ذلك من ريب ، وكذا الكنعانيون الفينيقيون .

وهكذا، تعتمد العبرانيون في توراتهم ، اقضاء الكنعانيين — الفينيقيين عن الانتساب الى سام بن نوح ، لاسباب سياسية ودينية ، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية ولغوية ، وقد أرجع الاصحاح العاشر من سفر التكوين نسب الفينيقيين والسبثيين الى «حام» جد الكوشيين ، ذى البشرة السوداء ، مع أنهم «الفيينيقيين والسبثيين» من الساميين ، وقد يكون ذلك بسبب وجود جليات فينيقيه وسبثية في افريقيه ، فعد كتبة التوراة هؤلاء من الحاميين^(٣٧) .

ومن عجب أن يأخذ مؤرخو العرب وجغرافيوهم بالتفسير التوراتي لنسب الفينيقيين ، ومن ثم فقد أجمعوا على نسبة الصيدونيين الى

(٣٤) تكوين ١٥/١٠ ، أخبار أيام أول ١٣/١ ، يوسف مزهر : تاريخ لبنان العام ١١/١ ، وكذا Schulim Ochser, The Jewish Encyclopaedia, N. Y., 1903, Article, Sidon.
(٣٥) أنظر : عن التوراة ، ومدى الشك الذى يحيط بوثاقة نصها وصحته (محمد بيومى مهران : اسرائيل — الكتاب الثالث — الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١ — ٣٧٩) .
(٣٦) تكوين ١٥/١٠ .
(٣٧) جواد على : الفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام — بيروت ١٩٦٨ — الجزء الاول ص ٢٢٤ ، وكذا R. Nicholson, A Literary History of The Arabs, Cambridge, 1935, P. XV.

«صيدون بن صدقاء بن كتعان بن حام بن نوح» (٣٨) .

هذا ويذهب «ايوستاثيوس» الى أن صيدون القديمة من بناء «بيلوس» ، وأنها سميت باسم ابنته «صيد» ، ولكن الكتاب الاغريق أجروا تعديلا على هذه الاسطورة ، فابدلوا «صيد» بـ «صيدوس بن ايجييتوس» الذي بنى صيدون وسماها باسم «صيدوس» ، ويذهب «فردريك كارل ايسلين» الى أن هذا التفسير الاخير انما يشبه الى حد ما تفسير التوراة ، وأنه يربط المدينة واسمها باسم «صيدون» ، ويعترض ، وهو على حق في هذا ، على الاخذ بهذا التفسير الخيالي (٣٩) .

ومن ثم فإن «ايسلين» انما يرجح أن صيدون القديمة سميت باسم اله يخل هذا الاسم ، ومنه اشتقت التسمية الصليبية «ساجيتا» أو «ساجيت» ، وإن كان يميل الى ربط اسم «ساجيتا» باللفظة اللاتينية Sagitta بمعنى السهم ، بدليل أن السهم كان شعار مدينة صيدا في العهد الصليبي ، وكانت العملات التي سكّت في صيدا في ذلك العهد تحمل هذا الشعار (٤٠) .

ويذهب الاستاذ أنيس فريجة الى أن يكون «صيد» هو الجذر الذي اشتقت منه صيدون ، وصيدا ، الها ساميا قديما يمثل الصيد ، ويعطى تسمية أهل صيدا للمزار الواقعة في الجنوب الشرقي منها ، والذي يسميه الاهالي «لمزار النبي صيدون» ، بأنه مكان هيكل فينيقي قديم للاله السامي «صيد» اله الصيد (٤١) .

(٢٨) أنظر : معجم ياقوت ٤٣٧/٣ ، القلقشندی : المرجع السابق - ١١١/٤ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء دمشق والجزيرة - دمشق ١٩٥٦ ص ١٨ .

39) F. C. Eislén, Op. Cit., P. 9.

(٤٠) عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ص ١٨ - ١٩ ، وكذا

F. C. Eislén, Op. Cit., P. 14.

(٤١) أنيس فريجة : المرجع السابق ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ص ١٩ .

ويعتقد أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم أن اسم «صيدا» مشتق من الجذر السامي صيد ، ويقصد به صيد السمك ، وهو الحرفة الرئيسية لسكان هذه المدينة منذ نشأتها ، ولا نستبعد تمجيد الاهالى لهذه الحرفة فأطلقوا على مدينتهم اسمها ، بحيث أصبح اسم صيدون يعنى مدينة صيد الاسماك ، ولعل هذا التمجيد كانت له علاقة بالفكر الدينى القديم عند سكان صيدون ، أو لعله كان يرتبط بالطوطمية التى كان من مظاهرها أن يتسمى بها الافراد تعبيراً عن تفاؤلهم بها ، كما كان يفعل العرب فى العصر الجاهلى عندما كانوا يتفألون بالطير كالحمامة مثلاً ، ومن المعروف أن كثيراً من الاسماء السامية القديمة للمواضع أو للقبائل كانت لها صلات وثيقة بأسماء الالهة ، وليس ضرورياً أن تكون حرفة الصيد التى كان يمارسها القوم كانت مقصورة على صيد السمك ، فمن المعروف أن أهل صيدا احترفوا أيضاً صيد نوع من القواقع أو الاصداف كانوا يستخرجون منها الاصباغ الارجوانية المشهورة ، وكانت هذه الحرفة من أسباب ازدهار التجارة الفينيقية^(٤٢) .

ـ (٥) صور :

تقع «صور» (أى الصخرة) على مسافة ٤٠ كيلاً جنوب صيدا ، وتعتبر أعظم المدن الفينيقية جميعاً ، دونما ريب ، وطبقاً لرواية «هيودوت» (عن كهنة ملقارت) ، فلقد أنشئت صور قبل قدوم هيودوت اليها ، حوالى عام ٤٥٠ ق.م ، بألفين وثلاثمائة سنة ، ومن ثم تكون قد ظهرت الى الوجود ، حوالى عام ٢٧٥٠ ق.م^(٤٣) .

هذا وقد بنيت ، فى الاصل ، على جزيرة تبعد عدة أميال من البر ،

(٤٢) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ١٩ ، تاريخ العرب فى العصر الجاهلى - بيروت ١٩٧٠ ص ٤٠٨ ، وأنظر : محمد غلاب : الساحل الفينيقى وظهيره فى الجغرافيا والتاريخ - بيروت ١٩٦٩ ص ٣٥٩ .

(٤٣) قاموس الكتاب المقدس ٥٥٩/٢ (بيروت ١٩٦٧) ، وكذا Herodotus, II, 44.

وقد كانت ، فيما يرى استرابو^(٤٤) ، «مبنية بنفس الشكل الذي بنيت به أراذس» ، هذا وقد كانت الجزيرة متصلة بالبر بسد طوله نصف ميل ، بناء الاسكندر المقدوني (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) أثناء حصاره لها عام ٣٣٢ ق.م ، والذي دام سبعة أشهر من البر والبحر^(٤٥) .

هذا وقد بدأت المدينة تاريخها ، في بادىء الامر ، كحصن ، الا أن ميناءها الآمن ، وسلامتها من الغزو ، سرعان ما جعلها حاضرة البلاد الفينيقية كلها ، ومأوى لخليط من التجار والعبيد قدموا اليها من جميع بلاد البحر المتوسط^(٤٦) ، وهكذا ما أن حل القرن التاسع قبل الميلاد ، حتى كانت صور مدينة غنية في عهد ملكها «حيرام» (٩٨٠ - ٩٣٦ ق.م) الذي عاصر الملك النبي سيدنا سليمان عليه السلام (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م)^(٤٧) ، وفي أيام زكريا (حوالي عام ٥٢٠ ق.م)^(٤٨) كانت الفضة

44) Strabo, XVI, 2, 23.

(٤٥) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٢٥٤ ، وكذا

Arrian, II, 18-24.

Diodorus, XVII, 41-46.

(٤٦) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣١٤ .

(٤٧) يتفق المؤرخون على أن سليمان عليه السلام قد حكم في القرن العاشر قبل الميلاد ، ولكنهم يختلفون في تحديد هذه الفترة من هذا القرن العاشر ، فهناك من يراها في الفترة (٩٧٤ - ٩٣٢ ق.م) (فضلو حورانى : المرجع السابق ص ٣٤) ، ومن يراها في الفترة ٩٧٣ - ٩٣٦ ق.م (حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ٨٤) ، ومن يراها في الفترة ٩٦٣ - ٩٢٣ ق.م (فيلب حتى : المرجع السابق ص ٢٠٥) ومن يراها في الفترة ٩٦١ - ٩٢٣ ق.م (موسكاتى : المرجع السابق ص ١٤٣ ، وكذا E. W. Heaton, The Old Testament Prophets, 1969, P. 172.

ومن يراها في الفترة ٩٧١ - ٩٣١ ق.م

(Epstein, Judaism, 1970, P. 36)

ومن يراها في الفترة ٩٦٣ - ٩٢٩ ق.م

(Historical Atlas of The Holy Land, 1959, P. 81).

ومن يراها في الفترة ٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م

(W. Albright, The Biblical Period from Abraham to Ezra, P. 120).

(٤٨) لا ريب في أن زكريا هذا ، انما هو غير زكريا الذي جاء في القرآن الكريم ، والد النبي يحيى عليهما السلام ، واللذين عاصر السد المسح عليه السلام (انظر عن زكريا القرآن : سورة آل عمران : آية ٣٣ - ٥٩ ، مريم : آية ٢-١٥) ، واما زكريا المذكور هنا فهو صاحب سفر

التي تجمعت فيها كأنها التراب ، وكان الذهب كأنه «لوحل الطرقات»^(٤٩) ، ويقول عنها «استرابو» : ان بيوتها من طبقات كثيرة ، بل انها أكثر طبقات من بيوت روما»^(٥٠) ، غير أن هذا الرخاء انما كان قائما في ذلك العصر ، وفي جميع العصور ، على التجارة والغنى ، وليس على الاراضى والمفتح^(٥١) .

وعلى أية حال ، فلقد ظلت صور ، نتيجة ثرائها ، فضلا عن بسالة أهلها ، مستقلة حتى أيام الاسكندر الاكبر والذي رأى في استقلالها تحديدا لعظمته وعبقريته الحربية ، ومن ثم فقد أخضعها ، كما أشرنا آنفا ، عام ٣٣٣ ق م ، ثم قضى عليها نهائيا ازدهار مدينة الاسكندرية العظيمة^(٥٢) .

وأخيرا ، فلعل من الجدير بالاشارة أن الحفائر التي أجريت تحت سطح البحر ، فضلا عن الخرائط الجوية ، قد أثبتت أن حاجز الماء الذي كان يحمي مدينة صور ، انما يقع اليوم تحت سطح البحر بنحو ٥٠ قدما ، وكان طوله ٧٥٠ مترا ، وعرضه ثمانية أمتار ، وكانت تشرف عليه أسوار المدينة العالية وأبراجها الشامخة ، وقد بنيت هذه الحصون في عهد ملك صور «حيرام» (٩٨٠ — ٩٢٦ ق م) ، وبذلك أصبحت صور من أعظم موانى حوض البحر الابيض المشرقى^(٥٣) .

=

زكريا ، وهو السفر قبل الاخير في العهد القديم ، وقد عاش في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس ق م على الأرجح (محمد بيومي مهران : النبوة والانبياء عند بنى اسرائيل ص ٥٩) .

(٤٩) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣١٤ .

50) Strabo, XV, 2. 23.

(٥١) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٩١ .

(٥٢) نفس المرجع السابق ص ٢٥٤ ، ول ديورانت : المرجع

السابق ص ٣١٤ — ٣١٥ .

(٥٣) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٩١ ، حسن أحمد محمود

وآخرون : حضارة مصر والشرق القديم ص ٣٩٠ ، وكذا

A Poidebard, un Grand Port disparu : Tyr, Paris, 1939, P. 25-26.

الفصل الثالث

علاقات فينيقيا بمصر

(١) في عصر الدولة القديمة :

يذهب كثير من الباحثين الى أن علاقات فينيقيا بمصر إنما ترجع الى عصور ما قبل التاريخ ، وليس الى العصر التاريخي فحسب^(١) ،

(١) كانت لمصر علاقات منذ أقدم العصور بالاقطار الاسيوية بوجه عام ، وكذا بجزر البحر المتوسط ، فقد عثر على آثار فرعونية بوسط هضبة الاناضول ، وببلاد ما بين النهرين وأوجاريت ، فهناك على صفحة أحد الاواني المرمية من قصر أوجاريت ، أميرة مصرية تسكب أمام عريسها ، وأمامها نقش بالهيراوغلييفية من عهد اخناتون ، وتزوج بعض ملوك مصر أميرات أسيويات ، وقد كثرت آثار المصريين في كثير من المواقع من لوحات وتمائيل وأوان ، ولا زال متحف بغداد ودمشق وبيروت والقدس يحتفظ بنماذج كثيرة من مخلفات المصريين عثر عليها في باطن أرض هذه الاقطار ، كما لا زالت توجد أطلال لدور عبادة ، وبعض المعبودات المصرية التي عبدت في آسيا ، فوجد معبد لامون في غزة من عهد الرعامسة ، وآخر لبتاح في عسقلون ، ولكن أغلب هذه المقاصير كانت لموظفين يؤدون طقوس العبادة المصرية هناك ، كما أقام المصريون لوحات لبعض الالهة المحلبة مثل «ميكال» بيت شان ، و «بعل سيفون» أوجاريت ، كما وجد ، بالمثل ، بعض التأثيرات الاسيوية في رسوم الاواني الفخارية منذ أقدم العصور في مصر ، وكذا في الاختتام الاسطوانية وبعض الاواني الحجرية والمعدنية ، غير أن الحضارات الاسيوية (السومرية والأكدية والاشورية والبابلية والحثية والهورية والفينيقية والارامية وغيرها) لم تستطع أن تؤثر على الحضارة المصرية تأثرا واضحا ، وظلت الحضارة المصرية طوال التاريخ المصري القديم لها طابعها الخاص المميز عن غيره من الحضارات الاخرى ، ذلك لانها بنيت على أسس قوية ، وظلت أكثر من أربعة آلاف سنة لها طابعها المصري الاصيل ، رغم تعرضها في بعض الفترات القصيرة من عمر التاريخ لمحن ، استطاعت أن تخرج منها بعافية ، فالبيئة والانسان المصري هما العاملان الرئيسان في بناء الحضارة المصرية ، وقد تفاعل الانسان مع البيئة وقدم للانسانية أعرق حضارة عرفها التاريخ ، واستطاع أن يتفاعل مع جيرانه ، فأعطى وأخذ ما رآه ملائما ، دون أن يبتعد عن الاطار المصري الاصيل (انظر : عبد ٢٢

ويعتمدون في ذلك ليس على الميثولوجيا والاساطير فحسب ، وانما على بعض الاثار كذلك •

ومن النوع الاول ما رواه «بلوتارك» من أن «أوزير»^(٢) حين قتله أخوه «ست» وضعه في صندوق ، ثم ألقى بالصندوق في أليم ، فجره التيار وأرساه على شاطئ مدينة بيبيلوس (جبيل) ، وثبته بين فرعى شجرة من شجرات الآثل ، ونمت الشجرة واحتوت بين طياتها جثمان أوزير ، الا أن ملك بيبيلوس كان قد أعجب بضخامة الشجرة فأمر بقطعها لتكون عمودا في قصره ، وتقوم ايزة بالبحث عن أخيها وزوجها حتى تصل الى بيبيلوس وتعرف مكانه ، فتحتال حتى تدخل القصر في زي خادمة ، وينتهي أمرها بكشف حقيقتها ، فيأذن لها ملك بيبيلوس بحمل العمود الذي يحوى جسد زوجها ، فتأخذه وتعود به الى مصر^(٣) •

هذا ويذهب البعض الى أن قصة أوزير هذه ، ليست أسطورة نشأت في عصر متأخر ، وانما هي قصة تبلورت فيها ذكرى حادثة تاريخية ، وهي قدم العلاقات بين مصر وفينيقيها الى أقصى حدود القدم ، وأن هذه العلاقات لم تكن تجارية فقط ، وانما كانت دينية أيضا^(٤) • وعلى أية حال ، فهناك من الباحثين من يذهب الى أن هناك ما يشير الى صلات ، ربما كانت بطريق غير مباشر ، بين مصر وفينيقيها^(٥) ، منذ

الحميد زايد : العلاقات بين مصر وبيبلوس من خلال الاثار الفرعونية - مجلة كلية الاداب والتربية بجامعة الكويت - العدد السادس - ١٩٧٤ •
(٢) أنظر عن «أوزير» (محمد بيومي مهران : الحضارة المصرية - الاسكندرية ١٩٨٤ ص ٢٨٦ - ٢٩٨) •
(٣) أنظر عن هذه الاسطورة (كونتنو : المرجع السابق ص ٤٥ ، محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٢٨٢ • وكذا P. Montet, in Syrie, 4, 1923, P. 190 F.

(٤) كونتنو : المرجع السابق ص ٤٥ •
(٥) اتصلت مصر ببيبلوس عن طريق البحر المتوسط ، وهو الطريق الذي مخرت السفن المصرية عبابه ، وربما استخدم الطريق البري أيضا ، وكان يبدأ من الدلتا بمحاذاة شاطئ سيناء ، ويتشعب منه طريق الى قلب سيناء حيث مناجم النحاس والفروز ، ومنه طريق يمتد الى الجزيرة العربية ، أما الطريق الشمالي فيستمر في محاذاة شاطئ فلسطين الى لبنان ، وهناك في جنب لبنان طريقان رئيسان ، أحدهما يستمر

عصور ما قبل التاريخ ، اعتمادا على دراسة بعض أنواع الفخار ، فضلا عن استخدام البداريين في العصر الحجري النحاسي لاشجار الصنوبر^(٦) ، هذا فضلا عن قطعتين من أدوات اللعب ، يحتمل أنهما مؤرخان من العصر السابق مباشرة لعصر الاسرات ، كما عثر هناك أيضا على لوحة من الارادوز على هيئة طائر ، أغلب الظن أنها لانسان عصر ما قبل الاسرات^(٧) .

هذا ، ونظرا لان جميع هذه المقتنيات التي كشف عنها تحت أرضية معبد من الدولة الوسطى ، فمن المحتمل ، فيما يرى الدكتور عبد الحميد زايد ، أنها كانت موجودة في مقصورة أقدم من الدولة الوسطى وأعيد بناؤها بعد ذلك ، ومن الجائز أن التجار الذين كانوا يترددون على تلك المنطقة جاءوا بها ليقدموها لسيدة بيبيلوس المحلية الالهة «حاتحور» ، وسوف نرى أن هؤلاء التجار كانوا يتجهون الى بيبيلوس من أجل الحصول على الخشب من لبنان^(٨) .

وأيا ما كان الامر ، فإن «جبيل» ، فيما يبدو ، انما كانت على اتصال تجارى بالدلتا (مصر السفلى) منذ عصور ما قبل الاسرات ،

بمحاذاة الشاطئ ، مارا بصور وصيدا وبيبلوس ، والثاني يسير في محاذاة وادي الليطاني والى البقاع فدمشق ، ويلتقى الطريقان في سهل البقاع عند قادش ثم الى وادي النهر الكبير ثم شمالا الى مضائق كليكية الى آسيا الصغرى ، أو شرقا الى وادي الفرات ثم الى الخليج العربى وأما الطريق البحرى فكان لزاما على البحار المصرى أن يختار الوقت المناسب ، فيتجه الى بيبيلوس أو غيرها من موانئ الساحل الفينيقي في شهرى مايو ويونيه حيث تساعده الرياح الجنوبية أو الجنوبية الغربية ، فيصل بيبيلوس في مدى أربعة أيام ، في مسافة ٥٥٠ كيلا ، أما رحلة العودة فكانت صعبة لأن الرياح لم تكن في الغالب ملائمة ، ولذلك كان يعتمد البحار على المجاديف وكانت رحلة العودة تستغرق ضعف مدة رحلة الذهاب (عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ١١١ - ١١٢) .

3) G Wainwright, in JEA, 20, 1934, P. 3.

(٧) عبد الحميد زايد : أرجع السابق ص ١١٣ .

M. Dunand, Fouilles de Byblos, I, Paris, 1939-1958, P. 26-27.

P Montet, Byblos et L'Egypte, I, P. 90-91, 98, 103, II, Pls. LV, LVI.

(٨) عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ١١٣ .

حيث وجدت جسور من جذوع الارز يعود تاريخها الى ما قبل الاسرة الاولى (أى الى عصر البدارى)^(٩) ، مما يدل على أن الخشب انما كان يستورد من لبنان من ذلك العصر السحيق ، هذا فضلا عن أنه قد عثر كذلك فى جيبيل (بييلوس) على بعض اللوحات الحجرية المرمرية المصرية وبعض التماثيم الحيوانية الصغيرة التى ترجع الى عصور ما قبل التاريخ^(١٠) .

وعلى أى حال ، فهناك ما يشير الى أن المصريين قد استوردوا من فينيقيا أخشاب الارز والصنوبر التى استخدمت فى مقابر الملوك فى أبيدوس^(١١) وفى صناعة السفن الكبيرة، ربما من عهد الملك «عما» مؤسس الاسرة الاولى ، فضلا عن استيراد الزيوت والخمور فى أوان فخارية من جنوب سورية ، وقد ذهب البعض الى أن هذه الواردات انما كانت بمثابة جزى ، قدمتها المناطق الخاضعة لمصر فى سورية وفلسطين وفينيقيا .

وهناك من يذهب الى أن التجار الاوائل كانوا يهتمون باحضار زيت شجر الارز الذى جاء ذكره فى نص من عهد «عنج ايب» من الاسرة الاولى ، كما عثر فى مقابر ما قبل الاسرات فى مصر على أوان لها نفس الاشكال السورية أو عليها رسوم تمثل الاواني السورية ، وكانت غالبا مملوءة بالزيت ، والراجح أنه جىء بها من سورية عن طريق البحر ، اما عن طريق ميناء بييلوس أو غيره من الموانى .

هذا ويذهب بعض الباحثين الى أن مصر انما كانت لها حصون وعمليات دفاعية فى غربى آسيا منذ أيام الملك «نعرمر» مؤسس الاسرة

(٩) أنظر عصر البدارى (محمد بيومى مهران : مصر - الكتاب الاول ص ١٦٤ - ١٧٥) .

10) G. Brunton and Caton Thompson, The Badarian Civilization, 1928, P. 627.

S. R. K. Glanville, The Legacy of Egypt, Oxford, 1947, P. 6.

(١١) أنظر عن أبيدوس (محمد بيومى مهران: مصر ١/ ٣٢٧-٣٢٧)

الاولى ، وخلفائه من أمثال «جبر» و «دن» و «قاعا» ، اعتمادا على صورة حصن نقشت على صلاية نعرمر ، وغيرها ، والامر بهذه الصورة غير مؤكد ، الا أن هناك في نقوش الملوك ، وفي حوليات جبر بالرمو ، ما يشير الى ذلك (١٣) .

هذا وقد عثر في أوائل الالف الثالثة قبل الميلاد على نسبة كبيرة من التماثم الحيوانية المصرية ، وبعض الاوانى الحجرية في بيبيلوس ، ومن أهمها قطعة حجرية مصرية تحمل «سرخ» ملكى ، ينتمى الى الاسرة الثانية ، فضلا عن اناء صغير من الحجر المصقول يحمل اسم الملك «نخ سخموى» آخر ملوك هذه الاسرة (١٣) .

وكانت السياسة الخارجية لمصر في عهد الاسرات : الرابعة والخامسة والسادسة ، تنحصر في سلسلة من الحملات والغزوات والبعثات الاقتصادية التى كانت تنطلق من العاصمة أو من قواعد على الحدود ، لتعود مرة ثانية الى نقطة الانطلاق محملة بالثروات ، ولم تكن تتضمن دورات من الكر والفر ، الامر الذى يتسم به سياسة التوسع الاستعماري .

وهكذا ، وفي الاسرة الرابعة ، وطبقا لما جاء في حجر بالرمو (١٤) وقد دونت عليه حوليات الملوك منذ أقدم العصور وحتى عهد نفر اير كارع ، ثالث ملوك الاسرة الخامسة) ، فان الملك «سنفرو» مؤسس

(١٢) عبد الحميد زايد : المرجع اسابق ص ١١٣ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣٣٨ - ٣٣٩ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٨٩ ، وكذا

W. M. F. Petrie, The Royal Tombs of The First Dynasty, I, London, 1900, P. 16-18, II, 1901, P. 30.

Y. Yadin, in IEJ, 1955, P. 1-16.

H. Kantor, in JNES, 2, 1942, P. 174 F, 201 F.

(١٣) رشيد الناضورى : جنوب غربى اسيا وشمال أفريقيا ص ١٢٠

٢١١ -

(١٤) انظر عن حجر بالرمو (محمد بيومى مهران : مصر ٤٤/١

٤٧ -

الأسرة ، يرسل أسطولاً بحرياً مكوناً من أربعين سفينة لاحتضار كتل من اخشاب الارز من لبنان^(١٥) ، وأن كثيراً من تلك الاخشاب قد عثر عليها في هرمه القبلى في دهشور ، وما زالت تلك الاخشاب في حالة جيدة حتى الان ، وما زالت تؤدي مهمتها التي أقيمت من أجلها ، مثل تثبيت بعض الاحجار أو سندها في أماكنها ، رغم مضى أكثر من أربعة آلاف وستمئة سنة عليها^(١٦) .

وفي عهد ولده وخليفته «خوفو» ، صاحب الهرم الاكبر ، تزداد أهمية ميناء «جبيل» ، ذلك الميناء الذي كانت تقيم فيه جالية مصرية منذ أيام الأسرة الثانية على الاقل ، والذي أصبح أكبر ميناء تجارى بين مصر وغربى آسيا ، كما أصبحت السفن التى تتعامل مع «جبيل» أو المصنوعة من أخشابها تسمى «الجبيلية» أحياناً^(١٧) .

هذا وقد ذهب بعض الباحثين الى أن ميناء جبيل انما كان يقوم كذلك بدور الوسيط بين تجارة مصر وكريت^(١٨) ، ورغم أن الامر بهذه الصورة غير مؤكد ، إلا أن الاتصال بكريت انما كان قديماً منذ زمن بعيد ، ذلك لان الثقافة المينوية انما تقدم دلائل قوية على التأثير المصرى^(١٩) ، هذا فضلاً عن أن هناك من يذهب الى أن المصريين انما قد وصلوا الى كريت رأساً بوسائلهم الخاصة^(٢٠) .

وأياً ما كان الامر ، ففي عهد «خوفو» قام وسط «جبيل»^(٢١) معبد

(١٥) جان يويوت : مصر الفرعونية ص ٥١ .

A. Fakhry, The Bent Pyramid at Dahshur, Cairo, 1951, Pl. 38, P. 559.

(١٧) عبد العزيز صالح : مصر والعراق ص ٨٩ .

(١٨) رشيد الناضورى : أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان ص ٢١ وكذا

W. M. F. Petrie, Op. Cit., II, P. 46.

A. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, P. 36.

19) Ibid., P. 36.

(٢٠) الكسندر شارف : تاريخ مصر - القاهرة ١٩٦٠ ص ٤٨ .

(٢١) كانت تكتب في الدولة القديمة «كبن» ، وفي الدولة الوسطى

مصرى ، أضاف اليه من جاء بعده كما تشهد بذلك عدة أحجار من هذا المعبد ، تحمل اسم خوفو ، بل وأسماء بعض من سبقوه على عرش الكنانة ومن لحقوا به على هذا العرش من ملوك الدولة القديمة .

هذا وليس هناك ما يعرف حتى الان عن الصورة الاولى التى نشأ عليها هذا المعبد ، فقد يكون معبدا آمورى الاصل ، أراد الملوك المصريون أن يجاملوا أصحابه ، وأهدوه هدايا ثمينة تحمل أسماءهم، ولم يمنعهم تمسكهم بدينهم المصرى من أن يتسامحوا مع معبودات جيرانهم ، ويعملوا على إثراء معابدها ، وقد يكون معبدا مصرى الاصل شادته جالية مصرية تجارية أقامت فى جبيل ، وعكفت على عبادة أربابها المصريون أن يجاملوا أصحابه ، وأهدوه هدايا ثمينة تحمل أسماءهم، ولم مصرى أقامه أمراء جبيل أنفسهم مجاملة للمصريين ، وتقبلوا فيه بعض العقائد المصرية ، كما تقبلوا له هدايا الملوك المصريين (٢٢) .

هذا وقد أسفرت الحفائر عن اكتشاف معبد للالهة المصرية «ايزة» ، بجانب معبد «بعلة» جبيل ، وأن الالهتين قد أصبحتا بمرور الزمن الهة واحدة (٢٣) ، وعلى أية حال ، فهناك الكثير مما يشير الى ازدهار التجارة

«كبنى» ، وفى الدولة الحديثة «كبنى» ، وذكرها الآشوريين باسم «جويلا» ، والاعريق «ببيلوس» ، والعرب «جبيل» ، وتقع على مبعدة ٤٠ كيلا شمالى بيروت (انظر : كونتنو : المرجع السابق ص ٤٦ ، وكذا (A. Gardiner, Onom., I, 1947, P. 257.

(٢٢) عبد العزيز صلح : المرجع السابق ص ١٠٦

W. A. Ward, Egypt and The Mediterranean, from Predynastic Times to The End of The Old Kingdom, JESHO, VI, Part, I, 1963, P. 24.

P. Montet, Byblos et Egypte, Paris, 1928, P. 29 F.

H. Nelson, Fragments of Egyptian Old Kingdom Stone Vessels from Byblos, in Beyrtus, I, 1934, P. 19-20.

(٢٣) فيليب حتى : تاريخ لبنان - ترجمة أنيس فريضة (ونقولا) رياده - بيروت ١٩٧٢ ص ٧٨ (ويذهب جاردنر : الى أن الالهة المصرية هنا «حاتحور» ، وليست ايزه ، وأنها اقترنت بالالهة عشتار ، هذا وقد جاء ذكر «حاتحور» على خاتم اسطوانى لاحد حكام ببيلوس ، وقد صاحبه الهين ذكرين : «رع» الخاص بالبلاد الاجنبية ، و «خاى تاو» ،

بين مصر وفينيقيًا على أيام الملك «خوفو» (٢٤) .

ولم يكن ملوك الأسرة الخامسة أقل نشاطًا من أسلافهم ملوك الأسرة الرابعة ، فهناك في المعبد الجنائزى للملك «ساحورع» ما يدل على نشاط خارجى عظيم ، خرجت فيه مصر عن عزلتها واحتكت بخيرانها بدرجة أكثر من صور سبقت ، فهناك منظر رائع للمسفن العائدة من سورية بالتجارة ، والاسيويون على ظهورها ، وأسلحتهم مرفوعة ولواء الفرعون ، وربما كان ذلك بمناسبة حملة الى لبنان للبحث عن الخشب القديم جدا من غاباتها (٢٥) .

وقد اختلفت الآراء حول هذه الحملة ، فذهب رأى الى أن مناظر الاسطول وعودته لا تدل على أنهما حملة حربية ، وان كنا لا نستطيع أن نكتبن الغرض منها على وجه اليقين ، على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب الى أن المناظر انما تدل على شيء أكثر من اقلاع الاسطول وعودته ، ثم استقبال الملك وقد حف به كبار موظفيه ، ومن ثم فهم حملة ودية ، وربما عادت بأميرة من هناك لتصبح إحدى زوجات الفرعون .

على أن هناك وجها ثالثا للنظر يذهب الى أن جيل انما كانت مستعمرة مصرية ، وان رأى «سير ألن جاردنر» أن في ذلك مبالغة الى حد ما ، ولكننا ندرك على الأقل أن الرسل المصريين انما كانوا يقابلون

والذى وصف في مكان آخر بأنه «الموجود في نيجاو» ، وهو الاله الخاص بمنطقة غابات لبنان حيث تقطع الاشجار ، وإذا صح النص الهيروغليفى على هذا الخاتم الاسطوانى ، فان ذلك يعطينا فكرة عن ثالوث بيبيلوس القديم (حاتحور - رع خاى تاو) ومن الجائز أن ذلك لا يبعد كثيرا عن الأسرة الخامسة .

(أنظر : عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ١٢١ ، وكذا W. Helck, Die Beziehungen Agyptens Zu Vorderasien in 3 und 2. Jahriausend V. Chr. (Ag. Abh. 5) 1962, P. 21.

(٢٤) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر - الكتاب الاول ص ٤٦٢ - ٤٦٦ .

25) Urk., I, 1932, P. 169.

W. S. Smith, CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971, P. 182.

هناك بكل القرحاب والتبجيل^(٣٧)

وتروى النصوص المصرية أن «نسى وسرع» قد قام بعدة حروب في سورية (بمعناها الواسع) ، كما يبدو ذلك من المناظر التي كانت في معبده ، كما نجح «وناس» في الحفاظ على «جبيل» بواسطة أسطوله ، وربما كانت المدينة وقت ذاك ، فيما يرى كثير من الباحثين ، من مستعمرات التاج المصري ، وقد عثر هناك على آنية تحمل اسمه في البقايا الاثرية التي كشف عنها في بيبيلوس^(٣٧) .

وعلى أية حال ، فلقد عثر في جبيل على أجزاء من أوان عليها أسماء كثير من ملوك الدولة القديمة من أمثال : خوفو وخفرع من الاسرة الرابعة ، وأوناس من الاسرة الخامسة ، وكذا أغلب ملوك الاسرة السادسة ، مثل الملك تيتي ، رأس هذه الاسرة ، وأما الذين لم يعثر حتى الان على أسمائهم كالمملك «وسر كاف» رأس الاسرة الخامسة ، فربما كان ذلك لحدث عارض ، أو أن شيئاً من مخلفاته لم تكتشف بعد ، أو أنها بليت وضاعت ، وعلى أية حال ، فإن الصلات بين مصر وفينيقيها انما كانت بوجه عام وطيدة في الدولة القديمة^(٣٨) .

وعلى أية حال ، فهناك ما يشير الى نشاط واسع من العناصر المجاورة لمصر من ناحية الشمال ، ويحدثنا «ونى» والذي قصاد أربع حملات

(٣٦) أنظر : محمد بيومي مهران : حركات التحرير ص ٤٤ ، مصر الفرعونية ص ١٣٣ ، وكذا

A. Weigall, Histoire de L'Egypte Ancienne, Paris, 1968, P. 43.

A. Gardiner, Op. Cit., P. 89.

(٣٧) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٣٧ ، وكذا

P. Montet, Byblos et L'Egypte, Paris, 1928, P. 69.

M. Dunand, Fouilles des Byblos, II, Paris, 1958, P. 267.

28) M. Munand, Op. Cit., I, P. 267, 278, 280.

H. Nelson, Op. Cit., P. 20.

W. S. Smith, Interconnections in The Ancient Near East, London, 1965, figs, 6-8.

حربية ، منها واحدة كانت برية وبحرية معا ، وقد حصر فيها عدوه بين فكى الكماشة ، كتب له فيها نجحا بعيد المدى فى تأديب العصاة من سكان الرمال ، فضلا عن القضاء على تمرد عند «أنف الرئم» ، وهو اقليم يظن أنه جبل الكرمل ، أقصى حدود فينيقيا من ناحية الجنوب (٢٩) .

هذا وهناك ما يشير الى أن «ببى الثانى» (والذى يسجل له التاريخ أطول فترة عرفها تاريخ مصر قاطبة وهى ٩٤ عاما) قد سار على سياسة أسلافه بالنسبة الى التجارة الخارجية ، فهناك ما يدل على اتصال تجارى بين مصر وبلاد بونت (٣٠) وسواحل فينيقيا ، من ذلك ما سجله الملاح المصرى «خنوم حتب» من أنه قد زار جبيل وبونت احدى عشرة مرة ، كان تحت رياسة «ثنى» فى زيارته الاولى ، وتحت رياسة «خوى» عند زيارته الثانية (٣١) .

وعلى أية حال ، فلقد عثر فى بيبيلوس على فؤوس مصقولة ، وسكاكين من الظران وخرز أسطوانى من المرمر ، وتماثيل صغيرة تشبه تلك التى عثر عليها فى «هيراكوبوليس» (نخن = البصيلة مركز ادفو بمحافظة أسوان) أو غيرها مما يحمل أغلبها خراطيش الملوك ، وكلها صنعت فى مصر وصدرت الى بيبيلوس ومنها أوعية صغيرة من عهد «ببى الاول» و «ببى الثانى» (من الاسرة السادسة) على هيئة قردة جالسة القرفصاء ترضع صغارها ، وغالبا أن هذه الاشياء كانت ترسل فى مناسبات خاصة ، مثل الاحتفالات الخاصة بعيد سد (٣٢) .

29) F. Daumas, Le Civilisation de l'Egypte Pharaonique, Paris, 1965, P. 292.

M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature California, 1973, P. 18.

A. Gardiner, Op. Cit., P. 96-97.

(٣٠) أنظر : عن بلاد بونت (محمد ببوى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة - الرياض ١٩٧٦ ص ٣٠٧ - ٣١٠) .

31) K. Sethe, Urk., I, 1932, P. 140-141.

PM, VII, 1951, P. 342.

A. Gardiner, Op. Cit., P. 101.

(٣٢) عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) في عصر الثورة الاجتماعية الاولى :

يذهب «جون ويلسون»^(٣٣) الى أن أهمية «سورية — فلسطين» في عصر الدولة القديمة انما كان ينحصر في أنها طريق تجارى تسير فيه السلع ، وكان يهم مصر أن يبقى هذا الطريق مفتوحا ، ولكنها لم تكن في الاحوال العادية في حاجة الى أن ترسل الحاميات أو تستعمر تلك البلاد .

ولكن الامر كان غير ذلك في حالة الميناء الفينيقي «جبيل» التي كانت ميناء شحن خشب الارز ومنتجاته ، كما كانت الميناء التي تصل اليها ، ثم تخرج منها ، السفن محملة بالنحاس والصفير من جزر البحر المتوسط ، والفضة من آسيا الصغرى ، والنبذ والزيتون من شرقى البحر المتوسط ، وحجر الاوبسيديان واللازرد من الممالك الواقعة الى الشرق منها .

وكننت تقييم في الميناء جالية مصرية من التجار ، وكان عددهم كافيا لتبرير اقامة معبد هناك ، وارسال الهدايا من ملك مصر ، وقد توقف ارسال هذه الهدايا المصرية التي كانت تحمل نقوشا فنمرف منها تاريخها الصحيح ، في عهد الملك «ببى الثانى» في آخريات الاسرة السادسة ، وحرق المعبد المصرى في جبيل^(٣٤) وهدم ، كما توقفت التجارة توقفا كاملا^(٣٥) ، وان كان هناك من يرى أن عدم وجود أشياء تحمل أسماء ملكيه في بيبيلوس وغيرها ، فبما بين الدولة القديمة والوسطى لا يعنى أن للتجارة قد توقفت تماما^(٣٦) .

33) John A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 100-101.

وفي الترجمة العربية ص ١٨١

(٣٤) قدر الاثريون حدوث حريق في بيبيلوس بعد عهد الملك ببى الثانى ، فقد لاحظوا في أعمال الحفر وجود رماد يقع في مستوى الطبقة التي عثر فيها على آثار من عهد ببى الثانى ، وأن طبقة الرماد كانت سميكة ، وقد عثر فيها على أجزاء من اناء يحمل اسم ببى الثانى ، وقد تكلست هذه الاجزاء بفعل الحريق ، وأن هذه الاكوام من الرماد كافية لان توضح ما أصاب هذه المنطقة من الدمار (عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ١١٤) .

35) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 102.

(٣٦) عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ١٢٥ .

وأيا ما تان الامر ، فان الوضع الجديد ، واضطراب الامن في مصر بسبب قيام الثورة الاجتماعية كان له ، دون شك ، اثر سىء على ملك مصر سياسيا واقتصاديا ، الامر الذى دعا حكيم الثورة الاجتماعية الى أن يقول «لم يعد أحد اليوم يسافر شمالا الى جبيل ، فما الذى سنفعله عوضا عن الارز اللازم لموميائنا ، فقد كان النبلاء يحنطون بالزيت الاتى من هناك ، وما هو أبعد منها (أى جبيل) حتى «كفتيو» (كريت) ولكن هذا لم يعد يأتى» (٣٧) .

وعلى أية حال ، فلقد عثر فى بيبيلوس على ما اصطلح على تسميته «أناة مونتية» العديد من الاشياء ، منها أساور ودبابيس لها رؤوس كبيرة ، وأكثر من ٦٠٠ خرزة ، ومعظم الخرز الحجرى يشبه خرز الدولة القديمة والعصر المتوسط الاول فى مصر (عصر الثورة الاجتماعية الاولى) والقليل منها له علاقة بخرز ما بين النهرين ، أما الانواط والتمائيل العاجية والحجرية والنحاسية والبرونزية والزجاج ، فكلها لها نظائرها من العصر المتوسط الاول ، ومن عجب أن يوجد فى هذه المجموعة ما يقرب من مائة جعران ، وغالبا ما تكون من العصر المتوسط الاول ، وان أرخوا البعض بعصر الاسرة الثالثة عشرة ، هذا وبالاناء أيضا ٣٠٠ خاتم اسطوانى الشكل وبعض التماثيل ، وأختام أخرى يمكن تمييزها عن الاختام التى على شكل أزرار ، والتى اختلف فى شأن نسبتها الى مصر أو الى بلاد ما بين النهرين (٣٨) .

(٣) فى عصر الدولة الوسطى :

قامت السياسة المصرية الخارجية فى عصر الدولة الوسطى بصفة عامة ، والاسرة الثانية عشرة بصفة خاصة ، على أساس تغليب علاقات الود مع الدول المجاورة فى الشام والعراق وجزر بحر ايجة ، واتخاذ الصلات التجارية معها سبيلا الى التأثير الحضارى فيها ، كما قامت على

37) J. A. Wilson, in ANET, 1966, P. 441.

(٣٨) عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ١١٤ - ١١٥ ، وكذا W. F. Albright, The Excavation of Tell Merisim, The Bronze Age of The Fourth Campaign, in AASOR, 13, 1933, 24, Sect, 24.

أساس توظيف النفوذ ، وتوسيع الاشراف والاستثمار على امتداد الحدود في الغرب والجنوب (ليبيا والنوبة) ، مع ايثار السلام المسلح للقائم على التحصين والميقلظة في الناحيتين ، وعدم الالتجاء الى استخدام القوة فيها ، الا حين الضرورة^(٣٩) .

هذا وهناك ما يشير الى عودة النفوذ المصرى الى جيبيل منذ أيام الاسرة الحادية عشرة ، وقد وجدت أشياء مصرية عديدة في بيبيلوس . أوضحها «دوناند» ، وهى غالبا مؤرخة من الاسرة الحادية عشرة^(٤٠) ، هذا وقد أشار القائد «حنو» من عهد الملك «منتوحتب الثانى» الى دور له في معاملة «الخانوبو» ، أى أهل جزر البحر الابيض المتوسط ، لا سيما الكريتيين ، وقد تكون هذه المعاملة ودية أو عدائية ، وان كان الاحتمال الاول هو الأرجح^(٤١) .

هذا وقد جاء ذكر بيبيلوس في قصة «سنوهى»^(٤٢) ، وذلك في الايام الاولى من الرحلة ولولا شهرة تلك المدينة ، فضلا عن العلاقات الوثيقة التى تربطها بمصر ، لما فكر فى الالتجاء اليها ، وأما عن عدم اقامته فيها ، فربما خوفا منه أن تصل أخباره الى مسامع الملك سنوسرت الاول (١٩٧١ - ١٩٢٨ ق.م) وقد كان فى أول ارتحاله ، وما كان يجب ، بل ما كان فى مصلحته ، أن يكتشف أمره ، وهو فى بداية سفره ، ومن ثم ، فأكبر الظن أن ذلك كان من وراء مغادرته بيبيلوس الى «قدهى» ، ثم الى قلب فلسطين ، حيث طابت له الإقامة عند أحد شيوخها^(٤٣) ،

- (٣٩) عبد العزيز صالح : مصر والعراق ص ١٧٦ - ١٧٧
 40) M. Dunand, Fouilles de Byblos, II, Paris, 1958, Pls. CXIII-CXXI.
 (٤١) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ص ٤٣٣ ،
 J. H. Breasted, ARE, I, P. 209.
 (٤٢) أنظر عن قصة سنوهى (محمد بيومى مهران : مصر ١/ ٥٩٤ ،
 - ٥٩٧ ،
 A. Erman, LAE, 1929, P. 14-29.
 J. Wilson, ANET, 1966, P. 18-22.
 (٤٣) وكذا
 وكذا
 A. M. Blackman, Some Notes on The Story of Sinuhe, JEA, 22, 1936,
 P. 35-44.

(٤٣) عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ١١٤ .

وان يشترك فيما بعد بفرقة من أهل الشام في صد جماعات سمي رؤساؤهم باسم «(حقا وخاسوت)» ، بمعنى حكام البلاد الاجنبية أو حكام البرارى ، وهو نفس الاسم الذى أطلقه المصريون فيما بعد على زعماء الهكسوس^(٤٤) .

هذا فضلا عن أن زعامة مصر المادية والثقافية انما كانت أمرا ثابتا بالادلة المادية ، فقد كان الملوك ، وربما النبلاء أيضا ، يرسلون الهدايا الى الامراء الفينيقيين وغيرهم من السوريين الموالين لمصر ، وأن هؤلاء الامراء انما كانوا يحبون تلك الهدايا ، وتنشرح لها صدورهم ، كما كانت كافية لكسب صداقة تلك الدويلات الصغيرة في غربى آسيا^(٤٥) ، ومن هذه الهدايا أوان من الالوسديون الاسود اللامع الى أمير جبيل في عيد توليته اماره مدينته ، فضلا عن تمثال صغير على هيئة أبى الهول من قطنه للاميرة «أتا» ابنة الملك «أمنمحات الثانى» (١٩٢٩ - ١٨٩٥ ق م) ، وهو أقدم تمثال معروف من نوعه يمثل سيدة مصرية على هيئة أبو الهول^(٤٦) .

ومع ذلك فان لوحة «نسموت» ، وتؤرخ بفترة الحكم المشترك بين أمنمحات الاول وولده سنوسرت الاول ، انما تشير الى أن هذا القائد انما كان عليه أن يشهر الصرب على الاسيويين الرحل ، وأن يدمر حصونهم ، ولكننا لا نعرف الى أى مدى بلغ نشاطه فى الاقاليم الاسيوية^(٤٧) .

وعلى أى حال فهناك ما يشير الى أن النشاط المصرى فى غربى آسيا لم يتوقف فى تلك الفترة ، حيث قدر لمصر أن تقوم بدور قيادى ، ومن

(٤٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٧٨ .

45) J. A. Wilson, The Egyptian Middle Kingdom at Megiddo in AJSL, 58, 1941, fig. 14 B, P. 225-236.

(٤٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٧٨ ، وكذا P. Montet, Byblos et L'Egypte, Paris, 1928, Pls., 88-89.

47) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 132. J. H. Breasted, ARE, I, Parag. 469-471, P. 227-228.

ثم فقد تم احتلال مدينة «جبيل» (بيلوس) أو على الأقل فرضت عليها
التبعية المباشرة^(٤٨) ، وهكذا رأينا الحكام هناك يتخذون لاماراتهم
شعارا ذا طابع مصرى ، وربما كانوا يتطيّبون عند تقويمهم بزيت .
وضع فى آنية تحمل اسم ملك مصر^(٤٩) ، هذا فضلا عن أنهم انما كانوا
يكتبون أسماءهم بالهيوغليفيه المصرية ، ويستعملون اللقب المصرى
«حا تى عا» الذى حملته المصريون من كبار الموظفين منذ أمد بعيد فى
الاقاليم المصرية نفسها^(٥٠) .

ومع ذلك ، فان أستاذنا الدكتور أحمد فخرى (١٩٠٥ - ١٩٧٣م)
— طيب الله ثراه — انما يرى أن هؤلاء الحكام لم يكونوا من موالى
مصر ، أو كانوا يحكمون باسمها ، أو يقدمون لها جزية مفروضة^(١) بذلك
لان مصر ، لم يكن لها حتى ذلك الوقت ، فيما يرى جـون ويلسون ،
امبراطورية سياسية فى آسيا ابان عهد الدولة الوسطى ، ولكنها كانت
تتمتع بالفوائد الروحية والاقتصادية اللتين كانتا تجنيهما ، فقد كانت
لها سيطرة فعلية على تلك البلاد فى ميدان الحضارة والتجارة^(٥٢) .

ورغم ذلك كله ، فان شواهد التاريخ انما تشير الى أن مصر كان
لها نفوذ هناك ، وأن هذا النفوذ لم يكن مقصورا على مدينة جبيل
وحدها ، وانما قد امتد الى مدن أخرى مثل «أوجارليت» (رأس
الشمرة) التى يحتمل أنها كانت ، فيما يرى بعض الباحثين ، تتبع مصر
سياسيا^(٥٣) ، هذا فضلا عن أن الآثار المصرية انما كانت قد انتشرت
كثيرا فى كثير من المدن السورية والفينيقية^(٥٤) ، فهناك فى «قطننة» .

(٤٨) جان يويوت : مصر الفرعونية — ترجمة سعد زهران — القاهرة

١٩٦٦ ص ٩٨ .

49) T. Save-Soderberghe, The Hyksos Rule in Egypt, in JEA, 37, 1951, P. 53.

(٥٠) جان يويوت : المرجع السابق ص ٩٩ .

(٥١) أحمد فخرى : مصر الفرعونية ص ٢٢٨ (القاهرة ١٩٧١) .

52) J. H. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 155.

53) T. Save-Soderberghe, Op. Cit., P. 53.

(٥٤) أنظر : محمد بيومى مهران : اخناتون : عصره ودعوته —

القاهرة ١٩٧٩ ص ٣ - ٦ .

(وتقع في مكان تل المشرفة الحالية على مبعدة ١١ ميلا الى الشمال الشرقي من حمص) ، قد عثر على تمثال يحمل اسم الملك « أمنمحات الثاني » (١٩٣٩ - ١٨٩٥ ق م) (٥٥) .

وفي عام ١٩٣٦ م ، عثر في مدينة «الطود» ، وتقع على مبعدة ٣ كيلا شمالي محطة أرمنت بمحافظة قنا ، على كنز ثمين من مصنوعات من الذهب والفضة واللازورد ، تشير بوضوح الى يد الصانع الميزوبوتامي والايجي ، قد نقشت عليها خراطيش «أمنمحات الثاني» ، وربما كانت هدايا ، وربما جزية من حكام بيلوس (٥٦) .

وعلى أية حال ، فلقد اتسعت صلات مصر التجارية بمناطق سورية وفلسطين وفينيقييا على أيام الدولة الوسطى ، وقد عثر في مقابر أمراء جبيل وأوجاريت على آثار مصرية وصلتهم على هيئة هدايا من الملكين أمنمحات الثالث والرابع ، كما وجدت إحدى المسلات وعليها اسم «أمنمحات الثالث» (١٨٤٢ - ١٧٩٧ ق م) ، ومن الجائز أنها من عهد هذا الملك (٥٧) .

وأيا ما كان الامر ، ففي عهد «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨ - ١٨٤٣ ق م) ارتحل الملك نفسه للقضاء على تمرد هناك ، ووصل الى اقليم «سكهم» ، والذي يرى فيه بعض الباحثين ناحية «ششم» في منطقة

55) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 132.

(٥٦) انظر:

R. Bisson de la Roque, Tresor de Tod, Cairo, 1950.

وكذا

R. Bisson de la Roque, Depot Asiatique Trouve a Tod, (1934-1936), Caire 1937, P. 113.

وكذا

J. Vandier, A Propas d'un Depot de Provenance Asiatique Trouve a Tod, in Syria, 18, 1937, P. 174-182.

57) B. Porter and R. L. B. Moss, Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphical Texts, Reliefs and Paintings, Oxford, 1957, 7, P. 386.

J. A. Wilson, AJSL, 8, 1941, P. 235.

وكذا

السامرة الجبلية^(٥٨) ، ولعل المسبب في هذه الحملة انما كان اغارة بعض القبائل الاسيوية ، وربما بدو الصحراء المتاخمين لفلسطين ، اغارة مفاجئة على حدود مصر ، فوجه الملك اليهم هذه الحملة التي كسرت شوكتهم •

وعلى أى حال ، فلقد عثر في «مجدو» على ختم أحد مسجلى المواشى ، وعلى تمثال للأمير الاشمونين «تحتو حتب الثانى» على أيام سنوسرت الثالث ، ومن ناحية أخرى ، فلقد عثر في مقبرة أمير الاشمونين (خمنو في المصرية بمعنى مدينة الثمانية ، أى آلهة الاشمونين الثمانية، وتقع على مسبعة ١٠ كيلا شمال غرب ملوى ، وكانت عاصمة الاقليم الخامس عشر من أقاليم الصعيد)^(٥٩) في مصر على صورة ماشية واردة من غربى آسيا (من فلسطين)^(٦٠) ، كما عثر في «بيروت» على تمثال صغير لأبى الهول وقيلادة للملك أمنمحات الرابع (١٧٩٨ - ١٧٩٠ ق.م)^(٦١) ، وأما أقصى الاماكن الى الشمال ، والتي عثر فيها على مثل هذه الاشياء ، فهى «أتخانا» التي لا تبعد كثيرا عن مصب الاورنت (العاصى)^(٦٢) •

ولعل كثرة الآثار المصرية في غربى آسيا من تلك الفترة هى التي دفعت أثريا محنكا مثل «سير ليونارد وولى» (١٨٨٠ - ١٩٦٠م) الى أن يؤكد أنه لابد من أن هناك حملات أكيدة قد تمت في ذلك العصر ، حتى نلتقى بمثل هذا العدد الذى عثر عليه من الاشياء التي تنتمى الى الاسرة الثانية عشرة^(٦٣) •

58) J. H. Breasted, Op. Cit., P. 302.

(٥٩) أنظر : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ص

١٦٥ •

60) W. S. Smith, Interconnection in The Ancient Near East, London, 1965, P. 14.

(٦١) أنظر : محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٤ - ٥ ، جان

يويوت : المرجع السابق ص ٩٨ - ٩٩ •

62) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 132-133.

B. Porter and R. B. Moss, Op. Cit., P. 395.

63) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 132.

Sir Loenard Woolley, PM, P. 386.

وعلى أية حال ، فإن أهمية الصلات التجارية انما كانت من وراء تلك الرغبة المشتركة بين مصر من ناحية ، وسورية وفينيقييا من ناحية أخرى ، في استمرار العلاقات الودية بين الطرفين ، ذلك لان مصر انما كانت تبغى فتح أسواق لتصريف منتجاتها ، واستيراد الاخشاب والزيوت من لبنان ، وأن تستورد ما كان يتجمع في موانئها من منتجات شرق البحر المتوسط من فضة وزيت ومعادن وأحجار كريمة ، وأن تستورد ما كان يتجمع في أسواقها الداخلية من منتجات بلاد النهرين وايران والاناطول وبلاد العرب ، وأخيرا فانها انما كانت جد حريصة على قوة صلتها بفينيقييا وفلسطين باعتبارها العصب الرئيسي لتجارتها البرية ، مع وما ورائها من بلاد الشام .

والامر كذلك بالنسبة الى الدويلات الصغيرة في فينيقييا وفلسطين وسورية ، التي وجدت في مصر خير عميل للتبادل التجارى الواسع ، ومصدرا رئيسيا للتبادل الحضارى ، وكان يعنيه أن تظل علاقاتها وثيقة بمصر القوية الغنية المتحضرة (٦٤) .

هذا ورغم الاضطرابات التي تعرضت لها مصر في أعقاب الاسرة الثانية عشرة ، فإن ملوك الاسرة الثالثة عشرة قد استمروا في الحفاظ على الوحدة الوطنية متماسكة ، ولمدة قرن على الاقل ، كانت مصر تحكم فيه بملك واحد ، وان كان ضعيفا ، وفي نفس الوقت ظلت هبة مصر في النوبة ، وفي غربى آسيا ، قوية الى حد كبير (٦٥) .

وهكذا يذهب كثير من الباحثين الى أن نفوذ مصر انما ظل قويا في آسيا بعد الاسر الثانية عشرة ، وهكذا ، وفي أيام «سحتب ايب رع» ، وهو الخلف المباشر للملك «أمنمحات سونب اف» (سخم كارع) ثانى ملوك الاسرة الثالثة عشرة ، نرى أمير بيبيلوس «ياكين اليوم» يعترف بنفسه بأنه «خادم ملك مصر» (٦٦) .

(٦٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٨٢ - ١٨٣ .
(٦٥) أنظر : محمد بيومى مهران : حركات التحرير في مصر القديمة - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٦ ص ١٠٦ - ١١٧ .
(٦٦) W. Hayes, Egypt from The Death of Ammenemes, III, to Sequenre, II, 1965, P. 6.

هذا ويبدو أن سيادة «خع سخم رع» (نفر حوتب الاول ١٧٤٠ — ١٧٣٠ ق م) (٦٧) ، وهو من أهم ملوك الأسرة الثالثة عشرة ، إنما كان معترفا بها في سورية وفينيقيًا ، كما أن لوحة الستياتيت التي عثر عليها عند وادي حلفا إنما تؤكد أن نفوذه في النوبة قد امتد الى هناك (٦٨) .

ولعل أكثر الآثار أهمية ذلك النقش الذي كشف عنه في بيلوس عند الشاطئ السوري ، وفيه يصور «يوناثان» أمير جبيل (بيلوس) جالسا أمام شخص عظيم ، اختفت صورته ، ولكن النصوص المدونة الى جانبه تؤكد أنه الملك المصري «نفرحوتب» (خع سخم رع) بالذات (٦٩) وربما كان «يوناثان» أو «ياننتين» هذا ، ابنا للامير «ياكين — اليوم» الذي كان أميرا لمدينة بيلوس على أيام الملك «سحتب ايب رع» الثاني (٧٠) ، وربما كان «ياننتين» هو نفسه أمير بيلوس الذي كان يدعى «ياننتين خامو» الثرى الذي تذكره سجلات مدينة ماري الشهيرة (٧١) .

غير أن الغريب من الامر ، أن يأتي ذكر بيلوس فيما اصطلح على تسميته «بنصوص اللعنة» (وهي عبارة عن مجموعة من الدمى والاداء الفخارية التي كتبت عليها تعاويذ سحرية لمسحق أصحابها من أعداء الملك ، والذين كانوا في معظمهم أجانِب أسيوين أو نوبيين) (٧٢) ، وذلك لانه من المعروف ولاء أمراء بيلوس لهذا العهد ، الامر الذي يدعو الى

67) W. Albright, BASOR, 99, P. 16.

، ويرى «سيف سودريج» أنها في الفترة (١٧٦٠ — ١٧٤٠ ق م)

68) J. H. Breasted, ARE, I, Parag. 753 FF.

(٦٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٨٤ — ١٨٥ .

70) W. C. Hayes, Op. Cit., P. 10.

71) W. Albright, Op. Cit., P. 9 F.

T. Save-Sadbergh, Op. Cit., P. 54.

وكذا

(٧٢) أنظر عن نصوص اللعنة :

G. Posener, Chronique d'Egypte, 27, 1939, P. 39 F.

وكذا

G. Posener, Princes et Pays d'Asie et de la Nubia, Bruxelles, 1940.

وكذا

K Sethe, Die Achtung feindlicher Fürsten, Berlin, 1926, P. 73 F.

JAOS, 74, 1955, P. 222-33.

وكذا

الشك في بعض ما جاء بهذه النصوص ، ومن ثم فقد ذهب بعض الباحثين الى أنها انما تعبر عن آراء خاصة بمن كتبوها من الحكام ، ولذلك لا نستطيع أن نشك في ولاء حكام بيبيلوس لمصر ، وقد قدمنا من قبله الكثير من الأدلة على ذلك ، مثل استعمالهم للقب المصري (جاتي عا) وكتابة أسمائهم بالهروغليفية المصرية ، واتخاذهم شعارا ذا طابع مصري لامارتهم ، واحاطة أنفسهم بمجوهرات وأشياء أخرى ذات طابع مصري ، كما أنها في الغالب صناعة مصرية (٧٣) .

وأيا ما كان الامر ، فالذي لاشك فيه أن الآثار المصرية التي كشف عنها في بيبيلوس قبل الوجود الهكسوسى في مصر ، انما هي جد عديدة ، فقد عثر على الكثير منها فيما يسمى بمعبد المسلات (٧٤) ، وهي بدون شك تماثيل صنعت في مصر ، وصدرت الى بيبيلوس ، ومن الجائز أنها تقليد لصناعة مصرية ، ومنها تمثال صغير لرجل من القاشانى يحمل على كتفيه حملا ، وقد كشف عنه بمعبد المسلات ، وموجود الان بمتحف بيروت (٧٥) ، وتمثال صغير لقردة من القاشانى مع وليدها ، وهو أيضا من معبد المسلات في بيبيلوس ، وموجود الان بمتحف بيروت ، وهناك أيضا تمثال لكلب من القاشانى ، وآخر لقطعة ، من القاشانى أيضا ، وأخيرا مسلة صغيرة عليها نص هيرغليفى ، ربما كان من القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد (٧٦) .

وفي أيام الوجود الهكسوسى بمصر (١٧٣٠ - ١٥٧٥ ق م) تنقطع العلاقات مع المصريين ، وان وجدت بين حكام الهكسوس وبين غربى آسيا ، وخاصة في عهد «خيان» ، والذي عثر له على آثار في خارج مصر ، وإن كنا لا نوافق على أن الرجل قد أقام امبراطورية عالمية ،

(٧٣) عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ١١٥ - ١١٦ .

74) M. Dunand, Op. Cit., II, Pls. XCVI-CVIII.

75) W. S. Smith, Op. Cit., figs, 61, 62, 63, 64.

(٧٦) عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ١١٦ ، وكذا

W. C. Albright, Dunand's New Byblos Volumé, Alycian at the Byblian Court, in BASOR, 155, 1959, P. 33-34.

فيما يزعم البعض ، تضم المنطقة ما بين النهرين وكريت ، أى سورية وفلسطين وفينيقييا ومصر ، وان كان هذا لا يمنع من القول بأن فينيقييا في عصر الهكسوس ، ربما كانت على علاقات تجارية وثقافية بمصر ، أكثر منها علاقات تبعية ، شأنها في ذلك شأن بقية دويلات سورية بمعناها العام^(٧٧) .

(٤) في عصر الدولة الحديثة :

لم يثر غزو الهكسوس لمصر في نفوس المصريين العاطفة الوطنية فحسب ، وانما أيقظ كذلك الشعور بالخطر القائم عند الحدود الشرقية ، ومن هنا أدرك المصريون أن حدودهم الطبيعية انما تبدأ في سورية ، بينما لا يقل نطاق الامان من حولهم عن الشرق الاوسط تقريبا ، ومن هنا توسعت الامبراطورية المصرية الى حدودها القصوى ، كلما أمكن ذلك ، لا كاستعمار بالمعنى المفهوم ، وانما لنشر «السلام المصرى» ، بل اننا يمكننا أن نزعم بقليل من خشية ، أن الامبراطورية المصرية في جوهرها ، وفي معنى ما «امبراطورية دفاعية» أساسا ، حتمتها ظروف الصراع الاقليمي ، والاستراتيجية العريضة في الشرق الاوسط القديم^(٧٨) .

ومن هنا أدرك فرعين الاسرة الثانية عشرة (١٥٧٥ - ١٣٠٨ ق.م) ، والاسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ - ١١٨٤ ق.م) ، بل وكذا الاسرة العشرين (١١٨٤ - ١٠٨٧ ق.م) الى حد ما ، أن السياسة الفعلية الوحيدة في مختلف العصور : هي احتلال حربى لطريق الغزو من وديان الاورنت (العاصي) والاردن - أو سورية وفينيقييا وفلسطين - ووضع قوة لمنع الاحتكاك عند مدخل ممر الغزو في اقليم حلب ، بين الفرات والعاصي^(٧٩) .

(٧٧) أنظر : محمد بيومى مهران : حركات التحرير في مصر القديمة

ص ١٤٥ - ١٤٨ .

(٧٨) جمال حمدان : شخصية مصر - القاهرة ١٩٧٠ ص ١٥٦ .

(٧٩) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ١٣٠/٢ .

ورأت مصر أن الخير لكل من الطرفين — مصر والدويلات السورية — في اتباع هذه السياسة ، ذلك لان الدويلات السورية سوف تطمئن على أمنها عن هذا الطريق ، بخاصة وأن الشام أو سورية بمعناها القديم ، لم تكن قد عرفت بعد في تلك العصور ، الكيان السياسى للدولة الموحدة — كما حدث في مصر ، منذ أكثر من ستة عشر قرنا ، أى منذ حوالى عام ٣٣٠٠ ق.م — ومن ثم فهي ليست بقادرة على صد هجرات جديدة ، أو كسر شوكة الهجرات الموجودة على أطرافها ، دون دفع داخلى ، أو عون خارجى (٨٠) .

وأما بالنسبة لمصر ، فإن احتلالها للولايات السورية ، انما يعتبر بمثابة صمام أمن لها ، بخاصة وأنها كانت قريبة عهد بطرد الهكسوس ، الذين ربما اتصلوا بذوى قرياهم في تلك المناطق ، أو بمن كانوا لايؤمنون بصداقة مصر ، ومن ثم يصبحون ، بمرور الزمن ، خطرا على الولايات الموالية لمصر ، وربما على مصر نفسها ، هذا بالاضافة الى أن سيطرة مصر على أبواب التجارة ، ومداخل الهجرات في شمال وأطراف العراق (٨١) .

وانطلاقا من كل هذا ، فإن «أحمس الاول» (١٥٧٥ — ١٥٥٠ ق.م) عندما كتب له نجحا بعيد المدى في الاستيلاء على «أفاريس» (تانيس) ، وهى سان الحجر الحالية بمحافظة الشرقية ، وتقع على مبعده ٢٠ كيلا الى الجنوب من مدينة المنزلة الحالية) — عاصمة الهكسوس — وطردهم منها (٨٢) ، ثم محاصرتهم في مدينة «شاروحين» أعواما ثلاثة ، نجح بعدها في اجلائهم عنها ، ثم مطاردتهم حتى «زاهى» (٨٣) في لبنان ،

(٨٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٠٧ .

(٨١) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٢٦٩ ، عبد العزيز صالح :

المرجع السابق ص ٢٠٥ وكذا

(٨٢) أنظر عن طرد الهكسوس من مصر (محمد بيومى مهران :

حركات التحرير في مصر القديمة ص ١٠١ — ٢٢٤) .

(٨٣) زاهى : اصطلاح جغرافى استعمل في الدولة الحديثة للإشارة

الى السهل الفينيقي وفلسطين أو الى سورية بمعناها الواسع .

وهذا يعنى أن «أحمس الاول» قد أجلى الهكسوس عن المناطق التى سكنوها ، والتى لجأوا اليها ، أو سكنها أقوام ينتمون الى جنسهم ، وبالتالي فإنه لم يطهر مصر منهم فحسب ، وإنما طهر منهم كذلك سورية وفلسطين وفينيقييا ، حتى يغدو بمأمن من غدرهم ومعاودتهم العدوان^(٨٤) .

وهناك نص يرجع الى العام الثانى والعشرين من حكم أحمس الاول يشير الى استخدام ستة ثيران مسمنة فى محاجر المعصرة جلبت من بلاد «فنخو» (أى بناة السفن) وهم الفينيقيون ، يقول النص : « الحجر مسحوب بمائية مما استولى عليه جلالته من أراضى الفنخو» ، وان كان هناك شك فى أن هذه الثيران قد جلبت فى حملة ، أو قدمت كجزية من الفينيقيين أو الاسيويين^(٨٥) .

وفى عهد تحوتمس الاول (١٥٢٨ - ١٥١٠ ق م) اخترقت القوات المصرية منطقة الفرات الى بلاد «نهرين» حيث يحكم ملك الميتان ، فى شمال شرق الشام ، وقرب نهر الخابور والفرات ، دون مقاومة كبيرة من الدويلات السورية ، ثم أقام لوحة تذكارية على ضفة الفرات عند قرقيش^(٨٦) .

وفى عهد حفييده العظيم «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق م) والذى وصلت الامبراطورية المصرية فى عهده الى أقصى اتساعها ، شارك الفينيقيون فى معركة «مجدو» والتى اشترك فيها ٣٣ ملكا وأميرا

84) J. H. James, CAH, II, Part, I, 1973, P. 289-305.

وكذا

J. H. Breasted, ARE, II, 1906, P. 1-11.

وكذا

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 168-169, JEA, 5, 1918, P. 48 F, 37, 1951, P. 71.

(٨٥) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢٠٣ ، وكذا

J. H. Breasted, ARE, II, No. 27.

(٨٦) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ١٤ - ١٧ ، وكذا

A. Gardiner, Op. Cit., P. 178-179.

J. H. Breasted, ARE, II, P. 34-35, 40, 202.

من دويلات ومدن سورية وفلسطين وفينيقيًا بقيادة أمير قادش (٨٧) .
وفي العام الثالث والثلاثين من الحكم ، قام تحوتمس الثالث بحملته
الثامنة (حوالي ١٤٥٧ ق.م) ونقرأ في لوحة «نباتا» أن جلالتة قد أمر
بصنع السفن في «جبيل» ، وأن تنقل برا الى قرتميش على عربات
تجرها الثيران ، ثم يعبر بها نهر الفرات ، حيث يسجل نصرا عسكريا
على عدوه ملك الميتان ، وعلى أى حال ، فلئن كان الطريق من بيلوس
يمر عبر قطنة وتوينب (قرب حلب) وقرتميش ، فان معنى هذا أن نقل
هذه القوات قد قطع أكثر من ٢٥٠ ميلا ، كما أن استخدام عربات تجرها
الثيران من ذوات الاربع عجلات ، ظاهرة غير متوقعة تماما ، ولعلها
كذلك من أقدم ، ان لم تكن أقدم ، المرات التي استخدمت فيها السفن
الحربية في التاريخ لعبور جيش كبير على نهر واسع كنهر الفرات (٨٨) .
وتدل الحملة ، دونما أى ريب ، على سيطرة تحوتمس الثالث على
شعور فينيقيًا بصفة خاصة ، وسورية وفلسطين بصفة عامة ، كما تدل
في الوقت نفسه على ولاء مدينة بيلوس للفرعون ، ذلك لانه لولا هذا
الولاء من بيلوس ومن حولها من الامارات للفرعون ، لما استطاع
تحوتمس الثالث تنفيذ هذا المشروع الخطير هو الاول من نوعه في التاريخ .
وفي عصر العمارنة أدرك «شوبيلو ليوما» (١٣٧٥ - ١٣٣٥ ق.م)
ملك الحيثيين ، أثناء صراعه مع ميتاني ، التي أنقذتها مصر منه على
أيام أمحتب الثالث (١٤٠٥ - ١٣٧٦ ق.م) ، أنه لن يتمكن من تحقيق

(٨٧) أنظر عن معركة مجدو (محمد بيومي مهران : مصر - الجزء
الثالث ص ٢٠٣ - ٢١٥ .

J. H. Breasted, Op. Cit., P. 157-188.

J. A. Wilson, ANET, 1966, P. 234-237-241.

A. Gardiner, Op. Cit., P. 189-193.

H. H. Nelson, The Battle of Megiddo, 1915.

R. O. Faulkner, The Battle of Megiddo, JEA, 28, 1928, P. 2 F.

(٨٨) أنظر : محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٢١٥ - ٢١٧

وكذا

J. H. Breasted, Op. Cit., P. 202-203.

M. B. Reisner, JEA, 6, 1920, P. 28.

أغراضه في غربى آسيا (سورية وفلسطين وفينيقيا) مادام النفوذ المصرى قويا ، ومادام أمراء تلك المناطق على ولائهم لفرعون ، ومن ثم فقد أخذ يؤلب هؤلاء الامراء ليشقوا عصا الطاعة على الفرعون .

وقد استجاب لدعوة الملك الحيثى «ايتوجاما» أمير قادش ، الذى بسط نفوذه على سهل سورية الشمالى وهزم الامراء الموالين لمصر ، ثم «عبدى شرتا» أمير الاموريين ، الذى تمكن من بسط نفوذه عنوة على حساب جيرانه ، فاحتل عرقة وقطنة وحماه ونى فى الداخل ، ثم احتل أرواد ، وهاجم سيميريا على الساحل .

وفى نفس الوقت كان هناك «ربعدى» أمير جبيل ، الموالى لمصر ، والذى ظل طوال حياته يرسل توسلاته اليائسة الى فرعون يطلب العون ضد «عبدى شرتا» وولده «عزيرو» اللذين كان الواحد منهما بعد الآخر ، يحاول القضاء على النفوذ المصرى فى فينيقيا وسورية الشمالية ، وفى نفس الوقت كان يرسل لفرعون رسائل الخضوع والعبودية ، وقد نجح عزيرو بصفة خاصة فى اخفاء خيائته لفرعون حينما من الدهر (٨٩) .

وتقدم لنا رسائل العمارنة كثيرا من رسائل الامراء الفينيقيين الموالين لمصر ، والذين يحذرون فرعون من تدخل الحيثيين والاموريين فى شئون المدن الفينيقية ، فهاهو «اكزى» أمير قطنة ، يكتب لامنحبت الثالث طالبا منه أن يرسل اليه رماة الاقواس (٩٠) ، ثم يكتب مرة ثانية الى فرعون ينبئ به بأن قطنة ورجالها قد أخذهم ملك حاتى وأمير الاموريين (٩١) ، وفى رسالة ثالثة يخبر الفرعون بأن جيوش الحيثيين

89) S. A. B. Mercer, The Tell-El-Amarna Tablets, I, Toronto, 1939, P. 21, 185, 207.

A. C. Stanly, CAH, III, 1965, P. 312.

وكذا

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 231.

K. A. Kitchen, Suppiluliuma and The Amarna Pharaohs, Liverpool, 1962.

90) S. A. B. Mercer, Op. Cit., I, P. 229.

91) Ibid., P. 237.

قد توغلت في منطقة نفوذه في وادي الاورنت ، واستولت على تمثال للمعبود «أمون رع» عليه اسم الفرعون ، ثم أحترقت المدينة عند عودتها^(٩٢) .

ويكتب «ربعدى» أمير جبيل بأن قوم حاتى أحرقوا الاراضى ، وأنهم يجمعون الجنود لفتح جبيل^(٩٣) . وعندما تزداد الامور سوءا على أيام «أمنحتب الرابع» (اخناتون ١٣٧٦ - ١٣٥٠ ق م) يكتب «ربعدى» (رب آدى) الى اخناتون قائلاً «فلينصت الملك مولاي الى كلمات خادمه، ولتأت العربات ورماة الاقواس ، لتحمى مدينة الملك مولاي ، ومدينة خادمه ، حتى يحضر الملك بنفسه»^(٩٤) ، وفي رسالة أخرى يطلب من فرعون أن يرسل اليه أربعمائة رجل وثلاثين زوجا من الخيل^(٩٥) ، بل انه في رسالة ثالثة يطلب فقط عشرين زوجا من الخيل ، وهو قادر بهم وحدهم على التقدم ضد أعداء الملك ، لان الشعب بأعداده الكبيرة معه «ومع الملك»^(٩٦) .

وينتهى الامر بأن يصبح «ربعدى» محصورا في مدينته «جبيل» ، وقد حاول «ينخامو» (قائد جيوش الملك هناك) في أثناء ذلك أن يأتى بنجدة من «سيميريا» ، ولكن دون جدوى ، فقد كان أولاد «عبدى شرتا» يحاصرون المدينة برا ، بينما تحاصرها سفن «أرواد» بحرا ، وتنتهى الامور بقيام ثورة في جبيل ضد ربعدى ، بقيادة أخيه ، وهو في زيارة لمدينة بيروت ، ويستولى الاموريون على المدينة^(٩٧) .

وأما «زيمردا» حاكم صيدا ، فقد كان خائنا لفرعون ، والواقع أنه لم يكن ربعدى وحده هو الذى اتهمه بالعمل ضد مصالح الملك مولاه ، وانما هناك كذلك «أبيملكى» حاكم صور ، والذى كان متهما بمساعدة

92) Ibid., P. 239.

93) Ibid., P. 215.

94) Ibid., P. 311.

95) Ibid., P. 303.

96) Ibid., P. 303.

(٩٧) أنظر : محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٢٥٦ - ٢٦٠ .

«عزيرو» عدو الفرعون ، كما كان على نزاع مع «زيمردا» الذى ادعى أن ابيملكى قد أخذ منه مدينته صيدا^(٩٨) .

هذا وقد كتب «خامونيرى» (أمونيرى) أمير بيروت ، فى نفس الوقت الذى سقطت فيه جبيل تقريبا ، يشكو للفرعون من أمراء مدن فينيقية أخرى كانوا يهددون مدينته بيروت^(٩٩) .

وهناك عدة رسائل من «أبيملكى» أمير صور ، من «زيمردا» حاكم صيدا ، وعزيرو الامورى عدو الفرعون ، وشعب أرواد ، وفى احدى هذه الرسائل يقول لفرعون «قد أقسموا ، وأعادوا القسم فيما بينهم، وجمعوا سفنهم وعرباتهم ومشاتهم ، لغزو صور ، خادمة الملك ، غير أن يد الملك القوية قد وصلت ، فهزمتهم صور، وضربتهم ، ولم يستطيعوا غزوها ، ولكنهم هزموا سيميريا بنصيحة زيمردا ، الذى أتى بكلمة الملك الى عزيرو»^(١٠٠) .

وفى رسالة أخرى كتب «أبيملكى» الى اخناتون يقول «فمنذ أن سمعوا اسم الملك واسم جيشه ، فانهم يشعرون بخوف عظيم ، حتى الذين لا يتبعون الملك»^(١٠١) ، وفى رسالة رابعة يقول : «أبيملكى» : «الى الملك مولاي وسيدى ، هكذا يقول ابيملكى خادملك ، سبع مرات وسبع مرات أسقط على قدميك ، ان الذى قتله الملك مولاي قد نفذ ، ان كل الارض قد ارتعدت من جنود الملك مولاي ، لقد سمحت لشعبى بأن يبحروا بالسفن لمقابلة جنود الملك مولاي»^(١٠٢) .

وأيا ما كان الامر بالنسبة لموالى مصر فى بلاد الشام ، وأيهم

98) F. J. Giles, Ikhnaton, legend and history, London, 1970, P. 176.

وكذا

S. A. B. Merer, Op. Cit., 11, 1939, P. 489 F, L. 59-68.

99) F. J. Giles, Op. Cit., P. 176

100) S. A. B. Mercer, Op. Cit., 11, P. 489.

101) J. A. Knudtson, Op. Cit., P. 615.

102) F. J. Giles, Op. Cit., P. 177.

الصادق في رسائله ، وأبهم الكذب ، فضلا عن المخلص منهم والخائن لسيدة الفرعون ، فليس هناك من شك في أن المضعف انما بدأ يدب في جسم الامبراطورية المصرية في غربى آسيا ، منذ أخريات أيام أمنحتب الثالث ، ثم كانت ثورة العمارنة الدينية ضربة قاسية وجهت الى الامبراطورية المصرية .

وأيا كان السبب في هذا الموقف الجديد، وأن سياسة اخناتون في أن يربط بلاد الشام بمصر برباط العقيدة ، فالذى لاشك فيه أن الفرعون قصر في أداء واجبه كملك ، تقع عليه وحده مسئولية الحفاظ على الامبراطورية المصرية ، لانه كان حرا في تصرفاته ازاء ممتلكاته ، ولم تكن بلاد الشام تختلف عن مصر نفسها ، فكلاهما من أملاك فرعون ، ومن حقه أن يتصرف في الواحدة منهما كما يتصرف في الاخرى ، طبقا لمصلحة التاج المصرى ، فضلا عن المصلحة العامة لكلا القطرين^(١٠٣) .

وعلى أية حال ، فلقد بدأت مصر تعمل على استعادة وحدة البلدين في ظل التاج المصرى في أعقاب أيام اخناتون ، وتحديثنا بقايا مقبرة القائد «حور محب» في منف عن حملة كلكت بالنصر في غربى آسيا وأن القائد «حور محب» كان عند قدمى سيده الفرعون في ساحة القتال في يوم ذبح الاسيويين^(١٠٤) .

هذا ويرجح البعض أن هذه الحملة انما كانت في أخريات أيام اخناتون ، وأن رأى آخرون انها كانت على أيام «توت عنخ آمون» (١٣٣٩ — ١٣٣٥ ق.م) ، وأنها كانت تهدف الى استعادة الهيبة المصرية في غربى آسيا ، والاستيلاء على الجزى الاسيوية التى بدأت تتدفق من

103) A. Weigall, The Life and Times of Akhnaton, Pharaoh of Egypt, London, 1943, P. 200-205.

James Baikie, The Amarna Age, London, 1926, P. 341.

104) Wilson, ANET, 1966, P. 250.

A. Gardiner, JEA, 39, P. 4.

جديد على خزائن فرعون (١٠٥) .

وفي عصر الاسرة التاسعة عشرة ، وعلى أيام ثانى ملوكها «سيتى الاول» (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق م) تقوم مصر بمحاولة جديدة لاسترداد امبراطوريتها المفقودة في غربى آسيا ، وتنجح في فرض هبة النفوذ المصرى في سورية الجنوبية ، والى حد كبير في فينيقيا ، وأن تسيطر على اقليم مولى سورى من موالى الحيثيين (١٠٦) .

ويخلف رعمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق م) أباه «سيتى الاول» على عرش الفراعين ، ويبدأ حكمه بمتابعة الانتصارات التى حققها أبوه في فلسطين ، ثم مدّها الى الشمال في سورية وفينيقيا ، وفي العام الرابع من عهد الفرعون (حوالى ١٢٨٦ ق م) يعبر الفرعون بقواته فلسطين وفينيقيا حتى نهر الكلب شمالى بيروت ، حيث أقام لوحة تذكارية ، غير أن المعركة الحاسمة انما كانت في العام التالى (١٢٨٥ ق م) في قادش بين الفرعون وملك الحيثيين «مواتيل» حيث انضم اليه الكثير من امراء سورية الشمالية وفينيقيا ، وتشير الادلة الى أن الفرعون قد تقدم بالجزء الرئيسى من جيشه من الجنوب عن طريق البقاع ، بينما اتخذت احدى فرقته (فيلق ست) طريقها في أمور ، في المنطقة شمال جبيل (بييلوس) ، وان كان الطريق الاكثر احتمالا ، انما كان التوغل شمالا عن طريق نهر الكلب ووادى «اليوثيوس» (الليطانى)

(١٠٥) دريوتون وفاندييه : مصر - ترجمة عباس بيومى - القاهرة ١٩٥٠ ص ٤٦٦ - ٣٦٧ ، وكذا

J. H. Breasted, A History of Egypt, 1946, P. 407. وكذا
ARE, III, P. 11. وكذا

W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, II, N. Y., 1959, P. 303-304.

H. E. Winlock, BMMA, XVIII, 1923, P. 6.

(١٠٦) أنظر : (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٢٨١ - ٢٨٧ ، وكذا : مصر والعالم الخارجى في عصر رعمسيس الثالث ص ٨٣ ، دريوتون وفاندييه : المرجع السابق ص ٤٧٠ ، وكذا

L. Cottrell, The Warrior Pharaohs, 1968, P. 111-113.

R. O. Faulkner, JEA, 33, 1947, P. 38-39.

الذى يقود مباشرة الى قادش ، والتي كانت قد اتخذت كمكان تجمع
فى استراتيجىة المعركة ، مما يشير الى أن فينيقيا انما كانت فى قبضة
الفرعون ، أو على الاقل قد أعاد هبة مصر فيها كاملة (١٠٧) .

وعلى أية حال ، فان هناك ما يشير الى أن رعمسيس الثانى انما قد
اضطر فى عام حكمه الثامن (حوالى عام ١٢٨٢ ق.م) الى الخروج الى
غربى آسيا لاختضاع البدن النائرة ، وقد كتب له نجما بعيد المدى فى
سورية وفلسطين وفينيقيا ، ثم يتقدم شمالا حيث يوقع بالحيثين هزيمة
ثانية فى «توينب» ، وتلقين مملكة حاتى درسا قاسيا أجبرها على احترام
السيادة المصرية فى غربى آسيا ، وعدم التدخل فى أمر ولاياتها (١٠٨) .

وجاء مرنبتاح (١٢٣٤ - ١٢١٤ ق.م) بعد أبيه رعمسيس الثانى،
وهناك ما يشير الى تعرض دولة الحيثيين الى متاعب كثيرة فى عهده ،
فانتشرت المجاعات وعمت الفوضى ، مما اضطر فرعون الى أن يرسل
الى حاتى مددا من القمح ، هذا فضلا عن أن آسيا الصغرى وفينيقيا
وشمال سورية انما بدأت تتعرض لهجوم طلائع شعوب البحر ، وهناك
ما يشير الى أن فرعون انما قد أرسل جنودا لمساعدة «أوجاريت» (رأس
الشمرة) للدفاع عن نفسها ضد شعوب البحر .

هذا وقد ظلت مصر على أيام «رعمسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١
ق.م) ثانى ملوك الاسرة العشرين ، ماتزال تحتفظ بامبراطوريتها
الاسيوية كاملة ، وكان خط الحدود المصرية عند «زاهى» فى لبنان ،
وهناك ما يشير الى أن الرجل قد اضطر الى اخماد ثورة فى «أمور»

108) A. H. Gardiner, The Kadsh Inscriptions of Ramsess, II, Oxford,
1960, P. 7-10.

H. Goedick, JEA, 52, 1966, P. 72-79.

(١٠٨) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر
رعمسيس الثالث ص ٩٠ - ٩٣ ، وكذا

K. A. Kitchen, JEA, 50, 1964, P. 68-69.

J. Kuentz, BIFAO, 55, 1928, P. 14.

ربما نشبت بسبب تهديد شعوب البحر لشمال سورية وفينيقيا^(١٠٩) .

وكانت السنة الثامنة من عهد رمسيس الثالث (حوالي عام ١١٧٤ ق.م) من أقسى السنوات على مصر ، فضلا عن امبراطوريتها الاسيوية. فلقد واجهت فيها البلاد تهديدا خطيرا ، ذلك لان شعوب البحر قد أتت في موجة كبيرة ، تقدم بعضها عن طريق البحر ، وتقدم البعض الآخر عن طريق البر ، بغية احتلال مصر ، أو سورية وفلسطين وفينيقيا على الاقل ، ثم الاستقرار الدائم في تلك البلاد ، ومن ثم فقد جاءوا ، وفي ركابهم زوجاتهم وأطفالهم ، وكثير منهم قد ركب عجلات تجرها الثيران التي تميزت بسنام يعلو رقابها. وهكذا تحركت الهجرات من شعوب البحر جنوبا في آسيا الصغرى ناشرة الخراب في الاناضول وسيليسيا وسورية وفينيقيا ، ثم اتخذت لها مركزا في أمور ، وتشير النصوص الى أن شعوب البحر (وبخاصة البلست) قد دمروا صيدا ، وربما كان الأرجح نهب وتخريب في فينيقيا ، وليس تدميرا بالمعنى الحرفي للكلمة .

وعلى أية حال ، فلقد كان رمسيس الثالث على أهبة الاستعداد ، فلقد سبق المهاجمين في تحصين حدوده وخاصة عند زاهى ، كما جمع أسطولا ضخما وزعه على الموانئ الشمالية ، ثم خرج على رأس جيشه حتى وصل الى زاهى ، حيث دارت بينه وبين شعوب البحر معركة برية في بلاد الاموريين ، هزم على أثرها المهاجمون شر هزيمة .

وتقدم لنا مناظر مدينة هابو في طيبة الغربية (الاقصر) منظرا لفرعون في عربته ، وهو يهجم في قلب قوات شعوب البحر الذين ساد بينهم الارتباك وسوء النظام ، ويساعده مشاة مصريون ، فضلا عن الفرسان وجنود الماريانو ، ويشاهد شعوب البحر وهم يرخون لسيقانهم العنان كما يفرون في عرباتهم ، كما تفر نساؤهم وأطفالهم بأمتعتهم المحملة

109) W. Edgerton and J. Wilson, Historical Records of Ram^{ss} III, Chicago, 1936, P. 22-23.

وكذا

G. A. Wainwright, JEA, 46, 1960, P. 24-28.

على عربات ثقيلة تجرها ثيران ذات سنام يعلو رقابها ، وهكذا نجح
رعسيس الثالث في أول لقاء بينه وبين هؤلاء المتبريرين ، واستطاع
أن ينال منهم وأن يهزمهم شر هزيمة ، وأن ينقذ امبراطوريته الاسيوية
منهم ، وبدى أن هذا النصر المؤزر للفرعون وجيوشه انما يمثل أحد
أدوار البطولة المصرية التي يسجلها التاريخ لمصر في القضاء على هذه
الموجة الغاشمة التي تتعرض لها الحضارة الانسانية من عصر الى
عصر (١١٠) .

وهكذا استطاع رعسيس الثالث الحفاظ على الامبراطورية المصرية
في غربى آسيا ، الا أن خلفاءه لم يستطيعوا الحفاظ عليها ، صحيح أن
هناك بعض الادلة الاثرية من عهود الفراعين : رعسيس الرابع
والسادس وغيرهما ، ولكنه صحيح كذلك أن مثل هذه الاشياء الصغيرة
لا تدل على معان قوية لها قيمة تاريخية من ناحية سلطان مصر على
غربى آسيا ، بل ان العكس صحيح ، فهناك ما يدل على أن العلاقات
بين مصر ومستعمراتها الاسيوية انما كانت شديدة الضعف في أخريات
أيام الاسرة العشرين ، حتى رأينا حاكم بيلوس يعقل رسلا مصريين
في عهد رعسيس التاسع مدة سبع عشرة سنة ، دون أن يسمح لهم
بالعودة الى مصر .

هذا وتقدم لنا رحلة «ون آمون» دليلا على اضمحلال النفوذ
المصرى في فينيقيا ، فلقد ذهب «ون آمون» مبعوثا من كهنة آمون ،
ليجربى مفاوضات شراء خشب الارز من بيلوس في عهد رعسيس
الحادى عشر ، آخر ملوك الاسرة العشرين ، فسرقه ملاح في سفينة
فينيقية ، كما تعرض لتهديدات الشيكرا المتكررة ، ولم يتم مهمته الا بعد
مساومات مهينة من ملك بيلوس (١١١) .

(١١٠) أنظر : محمد بيومى مهران مصر - الجزء الثالث ص
٣٧٣ - ٣٨٠ ، حركات التحرير في مصر القديمة ص ٢٥٧ - ٢٦٤ وكذا
W. Edgerton and J. Wilson, Op. Cit., P. 35-55.

(١١١) أنظر :

=

(٥) في عهد الانتقال الثاني (الاسرات من ٢١ الى ٢٥) :

هناك ما يشير الى أن «سمندس» (نسى بانوب دد) والذي كان يحكم مصر الوسطى والدلتا بعد موت آخر ملوك الدولة الحديثة «رعمسيس الحادي عشر» حوالي عام ١٠٨٧ ق.م ، من عاصمته تانيس (صان الحجر — مركز فاقوس) كان يأتي بالاخشاب لمصر من فينيقيا عن طريق جبيل ، وليست هناك أسباب تدعو الى الاعتقاد بتغيير هذه السياسة، وكانت سورية وفلسطين وفينيقييا قد انفصلت عن مصر وقتذاك، وسرعان ما انقسمت الى امارات صغيرة ، مثل فينيقيا وبلستيا واسرائيل ومؤاب وأدوم وأرام ، ولكن الروابط التجارية والثقافية قد استمرت مع القوى الكبرى على ضفاف النيل والفرات .

وفي عهد الاسرة الثانية والعشرين ، قام «شيشنق الاول» (٩٤٥ — ٩٢٤ ق.م) رأس الاسرة بحملته المشهورة على فلسطين حوالي عام ٩٣١ ق.م (وربما حوالي عام ٩٢٦ أو ٩٢٥ ق.م) ، والتي أراد منها ، في الدرجة الاولى ، استعادة الامبراطورية المصرية في غربي آسيا من جديد ، وقد امتد نطاق هذه الحملة ، حتى شرق الاردن ، من ناحية الشرق ، وحتى الساحل السوري من ناحية الغرب ، وأما في الشمال فقد وصلت الى سهل يزرعيل والجليل ، كما امتدت جنوبا حتى عصيون جابر ، على خليج العقبة ، وحتى حبرون وبئر سبع ، وان كانت نقوشه التي سجلت انتصاراته على الجدران الجنوبية الخارجية لبهو الاعمدة الكبير في معبد الكرنك لا تذكر مدنا فينيقية مشهورة (١١٢) .

-
- G. Lefebvre, *Remains of Contes Egypt*, P. 204- 220. =
 Leclant, *les Relations entre L'Egypte et la Phenicie du Voyage d'Ounamon a L'expédition d'Alexandre*, Beirut, 1968, P. 9-31.
 A. Gardiner, *Late Egyptian Stories*, Brussels, 1952, P. 61-76.
 A. Gardiner, *Egypt of The Pharaohs*, Oxford, 1964, P. 306-314.
 (١١٢) موك أول ٢٥/١٤ — ٢٧ ، أخبار أيام ثان ٢/١٢ — ٤ ، وكذا
 A. Gardiner, *Op. Cit.*, P. 229-230.
 K. Kenyon, *Archaeology in The Holy London*, 1970, P. 272-274.
 K. Klitch, *The Third Intermediate Period in Egypt*, Oxford, 1972, P. 294-300.

=

وعلى أية حال ، فإن هناك ما يشير الى أن «شيشنق الاول» ، وخلفاءه ، انما قد أعادوا العلاقات الطيبة مع امراء بيلوس ، والتي ترجع الى أقدم العصور ، حيث كانت مصر تستورد من هناك خشب الارز ، وإن توقفت هذه العلاقات الى حد ما على أيام الاسرة الحادية والعشرين وهكذا فلقد أهدى « شيشنق الاول » تمثالا جالسا له الى معبد سيدة جبيل ، وربما يشير هذا الى عودة العلاقات التجارية والسياسية مع ملك جبيل (أبى بعل) (١١٣) .

وفي عهد «أوسركون الثانى» (٨٧٤ — ٨٥٠ ق.م) اشتركت مصر بعدد رمزى من جنودها فى موقعة «قربقر» (قرقار) المشهورة فى عام ٨٥٣ ق.م والتي كانت تتكون من حلف يضم اثنى عشر ملكا من ملوك وأمراء سورية وفينيقييا وفلسطين والاعراب ضد المعاهل الاشورى «سلمنصر الثالث» (٨٥٩ — ٨٢٤ ق.م) (١١٤) .

... وفى عهد «شبتكو» (٧٠٢ — ٦٩٠ ق.م) من الاسرة الخامسة والعشرين ، وأثناء الغزوات الاشورية على سورية وفينيقييا ، تكون حلف يضم فنيقييا وفلسطين ومؤاب وأدوم وعمون ويهوذا ، مع بعض القبائل البدوية ، وفوق الجميع كانت مصر ، ضد المعاهل الاشورى «سنحريب» (٧٠٥ — ٦٧١ ق.م) ولكنه انسحب من الميدان فجأة ، وعاد الى عاصمته نينوى .

وجاء «طهراقا» (٦٩٠ — ٦٦٤ ق.م) بعد شبتكو ، وبدأ ينظم المقاومة ضد الاشوريين فى غربى آسيا ويتعاون مع أمرائها ، وخاصة

A. T. Olmstead, History of Palestine and Syria, 1931, P. 355.

M. Noth, ZDPV, 61, 1938, P. 278-280, PEO, 104, 1972, P. 30.

Y. Tharoni, The Land of The Bible, London, 1966, P. 288-289.

113) R. Dussaud, Syria, 5, 1924, P. 145-147.

(١١٤) انظر :

J. B. Pritchard, The Ancient Near East, Princeton, 1950, P. 188.

A. L. Oppenheim, ANET, 1966, P. 278-279.

J. Finegan, Light from The Ancient Past ..., Princeton, 1969, P. 24.

أمراء صور وصيدا في صد الآشوريين ، وقد نجح «طهرأقا» في هزيمة الآشوريين هزيمة منكرة حوالى عام ٦٧٤ ق.م ، جعلت الأمراء السوريين ، وعلى رأسهم ، بعل صور ، ينضمون تباعا الى الفرعون المصرى طهرأقا^(١١٥) .

(٦) في عصر انهضة (الاسرة السادسة والعشرون) :

كانت سياسة مؤسس الاسرة السادسة والعشرين «بسماتيك الاول» (٦٦٤ - ٦١٠ ق.م) وولده «نخاو الثانى» (٦١٠ - ٥٩٥ ق.م) الحفاظ على دولة آشور الضعيفة ، كماجز بين مصر وبين القوى الخطيرة في الشرق ، والتي تهدد الان آشور في المقام الاول ، ولكنها على العموم ربما تتجاوز في الغد القريب كل المشرق القديم ، وأخيرا لكى تسترجع مصر امبراطوريتها المفقودة في غربى آسيا ، ومن ثم فقد أسرع «نخاو الثانى» بقواته لمساعدة العاهل الآشورى (أشور - أو بالظ الثانى) القابع في «حوران» أملا في عون يأتيه من السماء عن طريق مصر ، غير أن القوات المصرية لم تصل اليه الا بعد سقوط حوران تحت أقدام البابليين في عام ٦١٠ ق.م ، وكانت «نينوى» قد سقطت في عام ٦١٢ ق.م ، وربما في أغسطس عام ٦١٣ ق.م^(١١٦) .

على أن «نخاو الثانى» ، رغم أنه لم يوفق في انقاذ آشور ، الا أن قواته ظلت تسيطر على منطقة عبر الفرات ، بعد أن استولت في عام ٩٠٥/٩٠٦ ق.م على معقل «كيموخو» ، وهزموا البابليين في «قوراماتى»

(١١٥) أنظر : محمد بيومى مهران : اسرائيل ٩٧٠/٢ - ٩٧٨ ، ملوك ثان ٣٥/١٩ ، اشعيا ٣٦/٣٧ ، وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 268-269.

J. Bright, A History of Israel, 1972, P. 296-308.

B. Mozar, IEJ, 10, 1960, P. 72-77.

ANET, P. 287-288.

(١١٦) أنظر : محمد بيومى مهران : اسرائيل ٩٨٠/٢ - ٩٨١ ،

محمد عبد القادر : الساميون في العصور القديمة ص ٢٤٧ وكذا

M. Noth, The History of Israel, P. 273.

A. Gardiner, Op. Cit., P. 258.

وهما موقعان على الفرات الى جنوب قرقيش ، كما أن «نخاو الثانى» نجح فى أن يخضع المدن الساحلية مثل عسقلون وأشدود وغزة ، وهناك نص بالهيريغليفيّة عثر عليه فى «صيدا» يشير الى سيطرة نخاو على الساحل الفينيقيّ سيطرة كاملة ، وقد يسر له ذلك امتلاكه لأسطول فى البحر الابيض المتوسط (١١٧) .

وهناك ما يشير الى أن «نخاو الثانى» قد أنشأ — بجانب أسطوله فى البحر المتوسط ، أسطولا آخر فى البحر الاحمر ، وأنه استغل قدرة الملاحين الفينيقيين وخبرتهم الملاحية ، فى الدران حول افريقيا قبل البرتغاليين بأكثر من ألفى عام ، ويعد «هيودوت» مصدرنا الاساسى عن هذه الرحلة التى بدأت من البحر الاحمر ، وعادت الى مصر عن طريق جبل طارق .

وعلى أية حال ، فيكاد من المؤكد الان أن السفن التى أرسلها «نخاو الثانى» بملاحيا الفينيقيين لتقوم بدورة ملاحية حول افريقيا قد نجحت فى هذه المهمة ، حيث قبضت فى رحلتها ثلاث سنوات دارت فيها حول شواطئ افريقيا ، ثم عادت من بوغاز جبل طارق (أعمدة هيراكليس) محملة بجميع خيرات افريقيا التى حصلت عليها من الموانئ التى مرت بها .

ولعل أهم الادلة على نجاح الرحلة ما ذكره الملاحون من أنهم كانوا دائما يسيرون على مقربة من الشواطئ ، وكانت الشمس تشرق عن يسارهم ، ولكنهم وصلوا الى نقطة فاذا بهم يرون أن الشمس تحولت

(١١٧) ارميا ٨/٤٧ ، وكذا : محمد بيومى مهران : مصر ٢٧٩/٢ — ٢٨١ ، وكذا

D. J. Wiseman, *Chronicles of Chaldaean Kings*, London, 1965. P. 23, 67.

A. Gardiner, *Op. Cit.*, P. 358.

J. Yoyotte, *Nechao*, P. 372.

M. Noth, *Op. Cit.*, P. 280

S. A. Cook, *Op. Cit.*, P. 396-397.

وأخذت تشرق عن يمينهم ، وقد رفض هيرودوت تصديق ذلك ، مع أن هذه النقطة بالذات تدل على صدق أنباء الرحلة ، لان ذلك حدث عندما دارت السفن حول رأس الرجاء الصالح ، وكانت المرة الاولى في التاريخ التي تمر فيها مثل هذه السفن ، وكان الغرض من الرحلة الكشف والمعرفة واظهار المهارة الملاحية ، وفتح أسواق للتجارة ، ولا بد وأنه قد مهنت له معارف وارهاسات سابقة (١١٨) .

وعلى أية حال ، فهناك ما يشير الى قيام «بسماتيك الثاني» (٥٩٥ — ٥٨٩ ق.م) بحملة الى فينيقيا ، وان كن هناك من يذهب الى أنها لم تكن لاغراض حربية ، مادام الفرعون قد استدعى كهنة كثير من المعابد للاسهام فيها ، وربما لا تعدو أن تكون أكثر من زيارة تفتيشية لبناء جبيل (١١٩) .

وفي عهد «ابريس» (واح اييب رع) تحولت سياسة مصر في غربى آسيا الى ممارسة القوة ، ولعل السبب في ذلك رغبة مصر في الافادة من امكانيات قوتها البحرية النامية في مراقبة موانى الشام لتعطيل مصالح البابليين فيها ، وحتى لا تستغل ضدها ، ثم عودة البابليين الى التوسع الحربى في فلسطين وحصارهم لاورشليم في عام ٥٨٨ ق.م ، ومن ثم فسرعان ما عقد تحالف سرى بين الفرعون «ابريس» (٥٨٩ — ٥٧٠ ق.م) وأدوم ومؤاب وعمون وصيدا وصور بحضور صدقيا ملك يهوذا في اورشليم ، وقد قام الفرعون بالدور الرئيسى في اتخاذ القرار بالثورة ضد بابل (١٢٠) .

(١١٨) محمد بيومى مهران : مصر ٦٤٢/٣ — ٦٤٤ ، أحمد فخري : مصر الفرعونية ص ٤٢٥ ، وكذا

A. Gardiner, Op. Cit., P. 357.

Herodotus, II, 159-160.

119) Kienitz, Die Politische Geschichte Aegyptens, Berlin, 1953, P. 25.

A. Gardiner, Op. Cit., P. 360.

وكذا

Vetus Testamentum, 2, 1952, P. 135-136.

(١٢٠) أنظر : محمد بيومى مهران : اسرائيل ٩٩٧/٢ — ٩٩٩ ،

ارميا ٢٦/٢٢ — ٢٤ ، ٣٠/٢٧ ، ٥٩/٥١ ، خرقيال ١٧ / ١٥ ، ملوك ثان

٢٤/٢٠ ، وكذا

K. Kenyon, Op. Cit., P. 294-296.

. ونقرأ في التوراة أن الجيش المصرى سرعان ما خرج متجها الى فلسطين لمساعدة اورشليم ضد البابليين ومن أسف أن الوثائق المصرية صامتة تماما ، ويبدو أن الجيش المصرى بقى حينما من الدهر يحمى اورشليم ثم تركها بعد ذلك متجها نحو ساحل البحر المتوسط لاحتلال مدن الساحل الفينيقي بعد أن حول اهتمام البابليين عن اورشليم .

وهناك ما يشير الى أن ابريس قد وجه الجيش الى الهجوم على صيدا وصور ، ثم تحرك بعد ذلك نحو قبرص فاغار عى شواطئها ، ودمر المحطات الفينيقية ، وطرده الالهين منها ، ثم عاد دون أن يجنى الكثير من وراء ذلك ، وأخيرا سقطت اورشليم ودمر البابليون المدينة المقدسة تماما ، ثم اتجه «نبوخذ نصر» بعد ذلك الى الساحل الفينيقي وفرض الحصار على صور التي صمدت له قرابة ثلاثة عشر عاما (٥٨٥-٥٧٣ ق.م) ، وربما ساعدها على ذلك سهولة اتصالها بالبحر ، وقيام الاسطول المصرى بتموينها ، مما اثار حفيظة نبوخذ نصر على مصر وتصميمه على الانتقام المباشر منها (١٢١) .

وفي عهد الاسرة الثلاثين ، وعلى أيام ثانى ملوكها «جد حر» (٣٦٢-٣٦١ ق.م) قامت في مصر صحوه أخيرة لاسترداد الامبراطورية المفقودة في غربى آسيا ، ومن ثم فقد خرج الفرعون على رأس جيشه الضخم الذى لم يسبق تكوينه منذ أيام الدولة الحديثة ، الى آسيا وأحرز عدة انتصارات ساحقة ، فاحتل فينيقيا ، وأعاد الى الازهان ذكرى أيام

(١٢١) أنظر : ملوك ثان ٢٠/٢٤ ، ارميا ٢٢/٢٦ - ٤ ، ٧/٣٤ ، ٥/٣٧ ، ٣٠/٤٤ ، محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ٣٣٣ - ٣٣٤ ، وكذا : مصر ٦٥٣/٣ - ٦٥٦ ، وكذا

S. A. Cook, Op. Cit., P. 400-401.

W. Keller, Op. Cit., P. 281.

D. J. Wiseman, Op. Cit., P. 94-95.

W. Keller, Op. Cit., P. 280-284.

A. Gardiner, Op. Cit., P. 361-362.

Kienitz, Op. Cit., P. 29.

D. Baramki, Phoenicia and Phoenicians, Beirut, 1961, P. 30.

D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, P. 54.

جيوش عصر الامبراطورية الجبرارة المنتصرة ، وأصبح أمر استعادة
الامبراطورية المصرية في غربى آسيا وشيك التحقيق : لولا أن أتاه
الاذى من مأمنه في مصر وسورية معا .

ففى مصر كان الاذى من وراء نزوة الحكم وشهوة السلطان التى
أصيب بها أمراء الدلتا في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الكنانة ، ودفعت
مصر ثمنها غاليا ، ذلك أن الفرعون كان قد ترك عنه أخاه نائباً عنه في
مصر ، وأن هذا الاخ التمس قد راودته نفسه في لحظة قد غاب فيها
المضمير ، أن يستخلص الحكم لذاته أو لولده «نخت حر حب» ، ومن
ثم فقد أرسل اليه ، وكان على رأس احدى فرق الجيش ، يستدعيه من
فينيقيا ، وانتهر الملك الاسبرطى الاجير «اجيسلاوس» الفرصة ، وكان
مع مستأجره الفرعون في ميدان القتال ، فعاد الى مصر مع الابن ليلقى
منه ومن أبيه جزاء تأييده لهما ، وخيانتته لمستأجره السابق (جد حر) .

وأما في فينيقيا ، فقد تسربت أخبار ذلك الانشقاق في الاسرة الملكية
الى الجنود ، فضعفت عزائمهم ، وفقدوا الثقة في النصر ، وزاد الطين
بلة ، أن أثينا قد استدعت قائدها المحنك «خبرياس» من ميدان القتال .

وهكذا ضاع الامل ، ولجأ «جد حر» (تيوس) الى صيدا ، ثم الى
عدوه ملك الفرس ، حيث عاش هناك ومات في المنفى ، وانتهت الحملة
الكبيرة،والتي بدأت بانتصارات ساحقة ، الى لاشيء على الاطلاق (١٣) .

(١٢٢) محمد بيومى مهران : مصر ٦٨٨/٣ - ٦٩٠ ، نجيب
ميخائيل : مصر ٢٧٣/٢ - ٣٧٤ ، وكذا
F. Daumas, Le Civilisation de l'Egypte Pharaonique, Paris, P. 103,
112, 563.
A. Gardiner, Op. Cit., P. 376.
Diod., XV, 90-92, XVI, 40, 46.
M. F. Gyles, Pharaonic Policies and Administration (663-323 B. C).
Carolina, 1959, P. 45.

الفصل الرابع

الفينيقيون وعلاقاتهم بجيرانهم الاسيويين

أولا : الفينيقيون وبنو اسرائيل

(١) في عهد داود وسليمان عليهما السلام :

لعل من أوضح وأهم العلاقات بين الفينيقيين وبنى اسرائيل ، تلك العلاقات التي كانت على أيام داود وسليمان عليهما السلام ، ذلك أن التاريخ يحدثنا أن سيدنا سليمان عليه السلام ، انما بدأ بنو اسرائيل في عهده يتجهون بنشاطهم التجارى نحو البحر ، بغية الاتجار مع البلاد الواقعة على الابحر ، فضلا عن استيراد ما يحتاجون اليه من خارج فلسطين .

غير أن بنى اسرائيل لم يكونوا قد ألفوا ركوب البحر من قبل ، كما أنهم لم يكونوا على خبرة ، أيا كانت ، بثئون بناء السفن وملاحتها ، ومن هنا فقد بدأ سليمان عليه السلام يعمل على تأمين الطرق عبر وادى عربة ، ثم الاتفاق مع «حيرام» (٩٦٩ - ٩٣٦ ق.م) ملك صور على انشاء أسطول من السفن فى ميناء «عصيون جابر» تستغل فيه المهارة الفينيقية ، فضلا عن أخشاب الارز الملائمة لبناء السفن^(١) .

ومن ثم فقد أرسل «حيرام» الصورى الاخشاب التي حملها ثمانية آلاف من الرجال الى «عصيون جابر» على خليج العقبة ، بنى بها سليمان أسطولا من عشر سفن ، وقد عرفنا الكثير عن هذا الاسطول ، حتى أسماء ربانية من الفينيقيين^(٢) .

(١) أنظر : محمد بيومى مهران : اسرائيل ٧٨٠/٢ - ٧٨٢ .

2) W. Keller, The Bible As History, London, 1967, P. 201.

وهكذا أنشئ هذا الاسطول بالخبرة والاخشاب الفينيقية ، كما كان يديره فينيقيون كذلك ، ونقرأ في التوراة «وقد عمل سليمان سفنا في عصيون جابر ، التي بجانب ايله على شاطئ بحر سوف في أرض أدوم»^(٣) ، ونقرأ كذلك أن حيرام «قد أرسل في السفن عبيده النواتى العارفين بالبحر ، مع عبيد سليمان»^(٤) ، كما نقرأ كذلك في التوراة عن أسطول منفصل لحيرام ، أبحر مع أسطول سليمان الى «أوفير»^(٥) بوأتى من هناك بالذهب والاخشاب النادرة ، والاحجار النفيسة ، وكل ما هو نادر وغريب»^(٦) .

هذا ولم تقتصر علاقة الفينيقيين مع بنى اسرائيل على النشاط التجارى فحسب ، وانما امتدت كذلك الى النشاط المعمارى ، ذلك أن «داود عليه السلام» (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م) ، أراد - قبل أن ينتقل الى جوار ربه ، راضيا مرضيا عنه ، أن يسجل معاونته الفعالة لولده سليمان عليه السلام في بناء «المسجد الاقصى»^(٧) ، والذي يعرف خطأ في كثير من اكتابات الاوربية ، بل وبعض الكتابات العربية كذلك بـ«هيكل سليمان» ، ومن ثم فقد أخذ داود عليه السلام يجهز المواد اللازمة للبناء..

وكان اليهود في عصر داود عليه السلام ، مايزالون في بداوة بدائية ينذر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة أو علم من علوم الدنيا ، ومن ثم فقد كان الاعتماد على الفينيقيين هو الحل الوحيد الممكن أمام داود وسليمان عليهما السلام. ، حتى يتم بناء المسجد الاقصى ، ونقرأ في التوراة أن داود قد «أمر بجمع الاجانب الذين في أرض اسرائيل،

(٣) ملوك أول ٢٦/٩ .

(٤) ملوك أول ٢٧/٩ .

(٥) أنظر عن أوفير (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٧٨٢/٢ - ٧٩٣) .

(٦) ملوك أول ١١/١٠ - ١٢ .

(٧) أنظر عن المسجد الاقصى (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الثالث - في بلاد الشام بيروت ١٩٨٨ ص ١١٥ - ١٢٧) .

فاتخذ نحأتين لنحت حجارة مربعة لبناء بيت الله ، وهياً داود حديدا كثيرا ومسامير لمصاريع الابواب والاوصال ، ونحاساً كثيراً بلا وزن ، وخشب أرز لم يكن له عدد ، لان الصيغونيين والصوريين أتوا بخشب كثير لداود»^(٨) .

وهكذا عندما بدأ سليمان عليه السلام في البناء ، أرسل الى «حيرام» ملك صور بأن يقطعوا له الارز من لبنان ، على أن يعطيه «عشرين ألف كر حنطة طعاماً لبنيته ، وعشرين كر زيت»^(٩) ، هذا فضلاً عن الايدي العاملة التي أرسلها حيرام لتجهيز هذا الخشب والحجارة ، لان الاسرائيليين لم يكونوا مهرة في أعمال البناء ، على حين كان الفينيقيون بنائين من الطراز الممتاز في العمارة والفنون^(١٠) .

وعلى أية حال ، فان المعلومات التي توفرها لنا التوراة في الاصحاح السادس من سفر الملوك الاول تتيح لنا بسهولة التأكد من تأثير مصر وبلاد الرافدين ، على الرغم من أن الكاتب التوراتي يشيد باعجاب الى المساعدة الفينيقية ، والى الانفاق الضخم على البناء .

وأياً ما كان الامر ، فيمكن القول — اعتماداً على استخدام المعمارين والبنائين الفينيقيين ، ومن بقايا قصر سليمان — أنه قد اتبع النظام الفينيقي، الامر الذي نادى به من قبل المؤرخ اليهودي «يوسف بن متى» (٣٧ — ٩٨ أو ١٠٠م) ، وكذا المؤرخان (Monander) و (Dios) . استخدمنا حوليات صور كمصدر لها ، ومن ثم فيمكن الاعتماد عليها^(١١) .

ثم ربط يوسف اليهودي بين صداقة سليمان لحيرام الصوري وبين اقتباسه لنماذج البناء ، خاصة فيما يتعلق بالمعبد ، غير أن هذا التخمين

(٨) أخبار أيام أول ٢/٢٢ — ٤ .

(٩) ملوك أول ١/٦ — ٢ ، ٢/٧ ، ٢/٥ — ١١ .

(١٠) محمد بيومي مهران : اسرائيل ٨٤٥/٢ — ٨٤٦ .

(١١) نفس المرجع السابق ص ٨٤٦ — ٨٤٧ وكذا

Josephus, Antiquities of The Jews, VIII, 5, 3.

لا يساعدنا على إعادة التصميم ، وذلك لعدم وجود أية بقايا أثرية لمعابد حيرام ، وحتى اذا كانت هناك بقايا يمكن العثور عليها ، فانها لم تكتشف بعد ، وكل الذى نعرفه من يوسف اليهودى أن حيرام قد بنى معابد ، ولكنه لم يذكر لنا أى شىء عن مظهر هذه المعابد وشكلها (١٢) .

وعلى أية حال ، فيبدو أن معبد سليمان انما كان فعلا فينيقى الطراز ، ولعل من أهم ما يدل على أن الفينيقيين هم الذين قاموا بالعمل فى عمارة سليمان ، العثور على جزأين من تاج «عمود — سابق للايونى» (Proto - Ionic) والذى يسمى أحيانا (Proto - Aeolic) فى القدس ، فى القمة الشرقية للحافة الشرقية للمدينة المقدسة ، ومعها حجارة منحوتة مبعثرة كانت ، على الأرجح ، تشكل حائطاً يشبه ذلك الذى كان مقاماً فى مدينة «السامرة» التى كشف فيها عن تيجان شبيهة بذلك ، وفى الغالب أنها صنعت على الطراز الفينيقي ، كما وجدت أمثلة لها فى «مجدو» و «بيت شان» (بيسان) حيث توجد مبان من عهد سليمان عليه السلام (١٣) .

هذا ومن المعروف تاريخياً ، أنه لم يكن لبنى اسرائيل حتى ذلك الوقت ، الا تقاليد محلية قليلة فى فن العمارة ، ما كانت لتفيد كثيراً فى بناء المعبد ، ومن ثم فقد كان الاعتماد على الفينيقيين ، وعلى أية حال ، فلقد كان للطابعين — المصرى والبابلى — أثر كبير على الفينيقيين الذين اختلطت فنونهم بفنون المصريين من ناحية ، والبابليين من ناحية أخرى ، وطالما تحدثت التقاليد الاسرائيلية عن نشاط الحرفيين الفينيقيين بكل وضوح وتأكيد .

12) O. Rissfeldt, The Hebrew Kingdom, in CAH, II, Part, 2, Cambridge, 1975, P. 598.

(١٣) عبد الحميد زايد : القدس الخالدة — القاهرة ١٩٧٤ ص ٦٨ — ٧٠ ، وأنظر :

C. W. Mc-Ewan, The Syrian Expedition of The Oriental Institute, AJA, 1937, P. 8 F.

W. F. Albright, Archaeology and The Religion of Israel, Baltimore, 1963, P. 42.

هذا فضلا عن أخشاب الارز التي قام عليها «بيت وعر لبنان» (وهو اسم أطلقته التوراة على جزء من قصر سليمان)^(١٤) ، أتت من فينيقيا ، ومن المحتمل أن استخدام الفينيقيين للاعمدة الخشبية كان يؤدي ماتقوم به الاعمدة الحجرية عند المصريين ، ومن ناحية أخرى ، فان مصر وبابل قد استخدمتا — كفينيقيا تماما — أشجار الارز كصوائط وأسقف أو عوارض من الداخل ، كما أنه من المشكوك فيه أن الحجر البرونزي المدعم باثنى عشر ثورا هو تجديد للرمزية البابلية ، ولكنه ربما بنى على أنماط فينيقية ، الا أن وجود المذبح في مواجهة المدخل هو أسلوب بابلي ، وكان يشيد في بابل من الاجبر ، بينما كان الحجارة أكثر ملائمة في فلسطين^(١٥) .

(٢) فيما بعد عهد سليمان :

رغم أن هناك الكثير من الادلة على أن عبادة «البعل» الفينيقية ، قد عادت الى اسرائيل منذ أيام «يربعام الاول» (٩٢٢ — ٩٠١ ق.م) وفي أعقاب الانفصال الذي حدث بعد وفاة النبي الكريم سيدنا سليمان عليه السلام مباشرة ، الا أن التوراة انما تقدم لنا الملك الاسرائيلي «أخاب» (٨٦٩ — ٨٥٠ ق.م) في صورة قاتمة ، حيث تشير الى أنه قد اقتترف كل أنواع الشر التي اقترفها أسلافه من قبل .

(١٤) كان القصر يتكون من عناصر ثلاثة ، أولها «بيت وعر لبنان» ، وكان يستخدم بالتأكيد كترسانة أسلحة ، وربما كمكان للمالية في نفس الوقت ، ويحتل كذلك أنه استخدم كحوش للاسطبلات ، هذا وقد كان يؤدي نفس الغرض ثلاثة أو أربعة صفوف متوازية ، صنعت من أخشاب أرز لبنان ، وثانيها : صالة الاعمدة ، والذي لم يعرف للان الغرض الذي استخدمت من أجله ، وثالثهما : غرفة الاجتماعات الكبيرة ، وقد استخدمت كمكان للقضاء ، فضلا عن الاحتفالات الملكية (انظر : ملوك أول ١٦/١٠ — ٢٠ ، وكذا : محمد بيومي مهران : اسرائيل ٨٦٠/٢ — ٨٦١ ، وكذا (O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 596

(١٥) محمد بيومي مهران : اسرائيل ٦٤٩/٢ ، وكذا K. M. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, London, 1970, P. 247. R. A. S. Macalister, The Topography of Jerusalem, in CAH, III, Cambridge, 1965, P. 348-349.

ولعل السبب في ذلك أن «أخاب» قد تزوج من «إيزابيل» ابنة «إيثبعل» ملك صور ، والتي كانت ذات شخصية قوية ، ومن ثم فقد استطاعت أن تسيطر على زوجها تماما ، ولقد أثار هذا الزواج معارضة قوية في إسرائيل نفسها ، تزعمها النبي «إيلياء» (حوالي عام ٨٥٠ ق.م) ذلك لأن «إيزابيل» لم تأت في الواقع لإسرائيل بأفكار الحكم المطلق الغربية عن التصور العبري التقليدي عن الملكية فحسب^(١٦) ، وإنما حاولت إحلال آلهة الفينيقيين الوثنية شيئا فشيئا محل عبادة الله في مملكة إسرائيل^(١٧) .

وليس هناك من ريب في أن «إيزابيل» وحاشيتها الضرورية إنما كانوا يمارسون عبادتهم الوثنية السورية في معبد أنشئ في السامرة ، عاصمة إسرائيل ، من أجل هذا الغرض^(١٨) ، وعلى أية حال ، فلم تكن هذه الديانات الوثنية هي شعائر الدولة الرسمية ، فلقد بقي «يهوه» ، رب إسرائيل، هو الإله الرسمي بالنسبة للملك «أخاب» وكذا مملكة إسرائيل، وإن كان الملك نفسه ، فيما تروى التوراة ، «قد عبد البعل وسجد له»^(١٩) .

غير أن وجود هذه العبادات الوثنية في عاصمة الدولة (السامرة) قد أثار مقاومة التقاليد القديمة الصارمة للقبائل الاسرائيلية التي كانت خدمة «يهوه» هو هدفها النهائي^(٢٠) ، وقد تزعم «إيلياء» النبي الثورة ضد «أخاب» وزوجه «إيزابيل» اللذين جهدا لإلغاء عبادة «يهوه» ، وإحلال عبادة «البعل» في مكانها ، فهدهما مذابح رب إسرائيل ، وقتلا أنبياءه ، ومن ثم فقد اندفع إيلياء في طول البلاد وعرضها كالاعصار ، مهددا متوعدا ، بأنه لا ظل ولا مطر في هذه السنين ، وفي السنة الثالثة يقول الرب لإيلياء «أذهب وتراء لأخاب ، فأعطى مطرا على وجه

16) C. Roth, A Short History of The Jewish People, London, 1969, P. 25.

(١٧) ج . كونتنو : الحضارة الفينيقية ص ٧٤ .

(١٨) ملوك أول ٣٠/١٦ - ٣٤ .

(١٩) ملوك أول ٣١/١٦ .

20) M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 242.

• الأرض» (٢١) •

ولعل من الأهمية بمكان أن عبادة «البعل» السورية قد انتقلت من دويلة إسرائيل الى دويلة يهوذا ، وذلك حين تزوج «يهورام» (٨٤٩ - ٨٤٢ ق.م) ملك يهوذا من «عثليا» ، ابنة آخاب وايزابيل ، وقد أثبتت «عثليا» أنها ابنة أمها حقا ، فتحت نفوذها القوي ، ونتيجة لتأثيرها غير المحدود على زوجها «يهورام» لم يحتضن «يهورام» عبادة «بعل» صور فحسب ، ولكنه كذلك عقد العزم على تثبيتها كديانة رسمية للبلاد. وربما لكي يزيل المعارضة عن هدفه في سياسة عبادة الاوثان ، فقد قتل اخوته الستة ، كما قتل كذلك بعض النبلاء ، وان كان من المحتمل كذلك أن التناقض على العرش كان السبب في هذه المجزرة المروعة (٢٢) •

وأيا ما كان الامر ، فان «عثليا» عندما يقتل ولدها «أخزيا» (حوالي عام ٨٤٣ ق.م) في «راموت جلعاد» في معركة ضد ملك آرام ، وتأتي اليها الاخبار في اورشليم ، عاصمة يهوذا ، وكانت شديدة الرغبة في تولى العرش ، ما أن تأتي لها هذه الاخبار ، حتى تسرع فتأمر بقتل أبناء الاسرة المالكة ، وتعلن نفسها ملكة على يهوذا ، كما تعلن في نفس الوقت عبادة «البعل» السوري كعبادة رسمية في البلاد (٢٣) ، بل ان «سيسيل روث» (٢٤) انما يذهب الى أن هذه المرأة القوية انما كانت تخطط لاقامة أسرة ملكية جديدة في اورشليم من موطنها صبور ، أو بالاحرى من موطن أمها «ايزابيل» ، ذلك لان «عثليا» انما هي ابنة آخاب ملك اسرائيل •

ولعل «سيسيل روث» انما نظر الى هذه المرأة من ناحية أمها ، طبقا

(٢١) ملوك أول ١/١٧ - ١/١٨ ، ١٩ / ٢١ ، انجيل لوقا ١٥/٤ ، رسالة يعقوب ١٧/٥ •

(٢٢) ملوك ثان ١٨/٨ - ١٩ ، أخبار أيام ثان ١/٢١ - ٧ •
I. Epstein, Judaism, 1970, P. 47.

(٢٣) ملوك ثان ١/١١ ، أخبار أيام ثان ١٠/٢٢ ، وكذا
I. Epstein, Op. Cit., P. 47.

24) C. Roth, Op. Cit., P. 32.

للمتقاليد اليهودية التي ترى أن من كانت أمه يهودية فهو منهم ، لايعنيهم على أى دين كان أبوه ، هو يهودى صميم ، حتى وان ظل أغلف غير مختتن (٢٥) ، ولكن الامر بالنسبة الى «عثليا» انما هو عكس ذلك فهي من أم سورية فينيقية ، ومن أب اسرائيلي .

وعلى أى حال ، فقد انتهى حكم «عثليا» بعد سنوات ست (٨٤٣) — ٨٣٧ ق.م) (٢٦) اما بمؤامرة من الجيش ، أو بتمرد عام ضد عبادة «البعل» الذى جعلت منه عثليا عبادة رسمية فى يهوذا ، وعلى أى حال ، فان كلا الرايين قد وردا فى التوراة فى الاصحاح الحادى عشر من سفر الملوك الثانى (٢٧) .

وأيا ما كان الامر ، فان الامور سرعان ما تتغير فى يهوذا ، ويعيد الملك الجديد «يهوآش» (٨٣٧ — ٨٠٠ ق.م) (٢٨) ، والنبلاء عبادة «البعل» مرة أخرى ، مما أدى فى نهاية الامر الى اغتياله بيد اثنين من عبيده (٢٩) .

ثانيا : الفينيقيون وبلاد الرافدين

(١) فيما قبل الاشوريين :

لعل من أوائل الاشارات المبكرة والغامضة التى تدل على علاقة بلاد النهرين بفينيقيا ، تلك التى ترجع الى أيام الملك السومرى «لوجال زاجيزى» (من القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد) ملك الوركاء ، وذلك

25) I. Epstein, Op. Cit., P. 168.

(٢٦) قارن :

W. F. Albright, The Biblical Period from Abraham to Ezra, N. Y., 1963, P.

(٢٧) ملوك ثان ١/١١ — ١٦ ، وانظر :

A. Lods, Israel From its Beginnings to The Middle of The Century, London, 1962, P. 384-385.

(٢٨) أنظر : ملوك ثان ١/١٢ ، أخبار أيام ثان ١٥/٢٣ ، وكذا

W. F. Albright, Op. Cit., P. 166.

(٢٩) ملوك ثان ١/١٢ — ٢١ ، أخبار أيام ثان ٤/٢٤ — ٢٦ ، وكذا

I. Epstein, Op. Cit., P. 47-48.

حين يقول في أحد نصوصه ان معبوده «انليل» قد جعل شعوب كل البلاد «من البحر السفلى عند دجلة والفرات (الخليج العربي) حتى البحر العلوى (البحر المتوسط) توجه أقدامها نحوه (أى تتجه اليه كقائد لها) ولم يحصل له مناوئ من الشرق الى الغرب» ، ورغم أن بعض الباحثين يحلو له أن يفسر النص بأن الرجل قد بسط نفوذه من الخليج العربى جنوبا ، وحتى البحر المتوسط شمالا ، فان هناك من يرفض هذا التفسير^(٣٠) .

وفي عهد الملك الاكدي «سرجون الاول» (٢٣٧٠ - ٢٣١٥ ق م) أول الملوك الساميين العظام في العراق القديم - نقرأ في بعض نصوصه أن المعبود انليل قد منحه كل المنطقة من البحر العلوى (البحر المتوسط) الى البحر السفلى (الخليج العربى) ، وأنه قد غسل أسلحته في البحر المتوسط^(٣١) ، ومن ثم فقد ادعى «سرجون الاول» أن المعبود «داجان» قد أعطاه الارض العلوية ، مارى (تل الحريرى) ويارموتى (جنوب بيلوس) وابلا (بين تل الحريرى وجبل) حتى غابة أخشاب الارز وجبل الفضة^(٣٢) .

هذا ويذهب «بوتيرو» الى أن «يارموتى» تمثل الحد الجنوبي للتوسع الاكدي جهة الشمال الغربى ، وأن «ابلا» تمثل الحد الشمالى لهذا التوسع ، ولتدعيم هذا الاقتراح يلفت «بوتيرو» النظر الى الفرق بين تعبير «غابة أخشاب الارز» الوارد في نص سرجون الاول ، وتعبير «جبل الارز» الذى يرد لأول مرة في نص حفيده «نارام سن» (٢٢٩١ -

30) S. N. Kramer, The Sumeirans, Chicago, London, 1970, P. 58-59, 323.

وكذا
C. J. Gadd, The Cities of Babylonia, in CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971, P. 143.

31) A. Poebel, Historical Texts, 1914, P. 175, 181.

S. N. Kramer, Op. Cit., P. 324.

وكذا
32) A. L. Oppenheim, Sargon of Agade, ANET, 1966, P. 268.

S. N. Kramer, Op. Cit., P. 324.

وكذا

٢٢٥٥ ق م) ، ويوصف به «الامانوس» بمعنى أن سرجون لم يقصد الامانوس بالذات ، بل غابة أخشاب الارز عامة التي تتوفر بالدرحة الاولى في لبنان ، وأعطت أهمية كبيرة لمينائها الرئيسي جبيل (٣٣) .

على أن هناك من يرى أن «غابة الارز» التي ذكرها سرجون الاولى هي نفس «الامانوس» ، جبل الارز الذي أشار اليه نص «نارام سن» وعنى بتحديد اسم المنطقة ، ووصف طبيعتها (جبل) (٣٤) .

وأيا ما كان الامر ، فإن نصوص «نارام سن» تشير كذلك الى حملة في الشمال الغربي (٣٥) ، ولا نستطيع أن نجزم بما اذا كان هذا النص يعبر عن اخضاع تمرد مدن الغرب، أم يشير الى حملات جديدة لـ «نارام سن» في الغرب ، وخاصة أنه يرجح أن «أوليسوم» التي ذكرت نصوص «نارام سن» أنها تمثل أقصى امتداد لأمالك أكد في غرب الفرات هي ميناء على ساحل لبنان على مقربة من صور وهذا يعنى أن نفوذ «نارام سن» كان موجودا في هذا الساحل ، وبلغ فعلا البحر العلوى (البحر المتوسط) ، وهو ما لم نستطيع أن نثبتته بشكل واضح من فتوحات سرجون الاول التي لم يصف اليها خليفته «ريموش» و «مانيشتوسو» الجديد ، بل كل ما فعله الحفاظ عليها (٣٦) .

(٢) في عهد الآشوريين :

لم يسفر الضغط السياسى والعسكرى الاتى من المناطق الشرقية على فينيقيا عن نتيجة حاسمة ، الا عندما انهارت الدولة الحثية ، وظهرت قوة الدولة الآشورية ، وحينئذ أصبح من مبادئ سياسة حكام

33) J. B. Bottero, Syria at The Time of the Kings of Agade, in CAH, I, Part, 2, 1971, P. 324-325.

(٣٤) محمد عبد اللطيف : تاريخ العراق القديم - الاسكندرية ١٩٧٧ ص ٣٦٢ .

35) J. Bottero, Op. Cit., P. 325-326.

A. L. Oppenheim, Op. Cit., P. 268.

وكذا

(٣٦) محمد عبد لطيف : المرجع السابق ص ٢٨١ - ٢٨٢ وكذا

C. J. Gadd, Op. Cit., P. 442.

الرافدين أن يتوسعوا غربا لكي يقبضوا على نهاية الطرق التجارية^(٣٧).

هذا فضلا عن أن «آشور» بدأت ، وخاصة منذ أيام «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ — ٧٢٧ ق م) ، ترى أن امتلاكها لسورية وفلسطين وفينيقيها هو الشرط الاساسى لنجاح امبراطوريتها ، فهو لم يكن بالنسبة لحكام بلاد النهرين بسبب ثروة بلاد الشام من أخشاب نادرة في الشرق ، ويسبب ثروتها المعدنية ، وسواحلها الطويلة على شاطئ البحر المتوسط ، وتجارها الغنية محسب ، ولكنه كان كذلك — وفي نفس الوقت — المدخل الى جنوب شرق آسيا الصغرى من ناحية ، ومصر من ناحية أخرى ، ولهذا فسوى نرى «تجلات بلاسر» فيما بعد ، يتخذ الخطوات الجادة مباشرة ، لضم الاجزاء الاساسية من سورية وفلسطين وفينيقيها ، ومن هنا فانه لم يقنع — كغيره من الحكام الاشوريين — بقبول الجزية ممن يخضعهم من الامراء في بلاد الشام ، الامر الذى سوف يتبعه الحكام الكلدانيون كذلك»^(٣٨).

وهكذا بدأت آشور تتجه نحو غزو بلاد الشام في عهد «تجلات بلاسر الاول» (١١١٦ — ١٠٩٠ ق م) الذى غزا سورية في عام ١٠٩٤ ق م ، وأعلن نفسه فاتحا لآمور كلها ، وبعد أن اجتاز جبال طوروس الى بلاد المحيثيين ادعى الحصول على ولاء جبيل وأرواد وصيدا من المدن الفينيقيه كوريث للمحيثيين في سيطرتهم على سورية ، وربما كانت جبيل تحت حكم زكريا بعل ، وقطع الفاتح الاشورى أخشاب الارز من جبال لبنان وأرسلها الى بلاده لبناء هياكل للالهة ، وفي «سيميرا» ركب «بحر أمورو العظيم» (البحر المتوسط) ثم اتجه الى البر ، وقتل في طريقه «حصان البحر» أو «درفيلا»، هذا وقد اصطاد عدد من حكام بلاد الرافدين الثور

(٣٧) فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ترجمة جورج حداد.

وعبد الكريم رافق — بيروت ١٩٥٨ ص ١٥٠ .

(٣٨) محمد بيومى مهران : اسرائيل ٩٣٤/٢ ، وكذا

M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 253.

البرى فى جبال لبنان (٣٩) •

وبعد قرابة عقدين من الزمان ، تقدم العاهل الاشورى «ناصر بال الثانى» (٨٨٣ — ٨٥٩ ق.م) نحو سورية الشمالية ، ثم اتجه الى الجنوب ، وعبر نهر العاصى ودخل لبنان ، ونزل الى البحر المتوسط بدون مقاومة ، وهنا تلقى خضوع المدن الفينيقية ، صور وصيدا وجبيل فى حوالى عام ٨٧٦ ق.م ، وأرغمها على أن تدفع الجزية ، وأن يقدم له سكاها الذهب والفضة والنحاس والقصدير والحديد والمنسوجات الملونة وكميات من خشب الابنوس والارز والصندل والعاج ، وأقام بهذه المناسبة لوحة تذكارية عند نهر الكلب ، شمالى بيروت (٤٠) •

هذا وقد تلقى «ناصر بال الثانى» أيضا هدايا «عمرى» (٨٧٦ — ٨٦٩ ق.م) ملك اسرائيل ، عندما كان عند نهر الكلب (٤١) •

وهكذا ، ولأول مرة ، منذ عهد «تجلات بلاسر الاول» يصل ملك آشورى الى البحر المتوسط ويتلقى الجزية من عدد من المدن الفينيقية ، ويقول الملك الاشورى «لقد استوليت على كل جبال لبنان المترامية الاطراف ، ووصلت الى البحر الكبير فى بلاد أمورو ، وغسلت أسلحتى فى البحر العظيم ، وقدمت قرابينى من الماشية للالهة جميعا» (٤٢) •

وفى عام ٨٥٣ ق.م يتقدم «شلمنصر الثالث» (٨٥٩ — ٨٢٤ ق.م)

(٣٩) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٥٠ ، لبنان فى التاريخ ص ١٧٣ ، وكذا

D. D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, Chicago, 1927, I, Parag. 302.

(٤٠) فيلب حتى : لبنان فى لتاريخ ص ١٧٤ ، تاريخ سورية ولبنان

وفلسطين ص ١٥١ ، يوسف مزهر : تاريخ لبنان العام ٤٦١/٤٦٠ ، نجيب ميخائيل : سورية — لاسكندرية ١٩٦٦ ص ٧٥ ، وكذا

D. Baramki, Phoenicia and Phoenicians, Beirut, 1961, P. 28.

F. C. Eissen, a Study in Oriental history, N. Y., 1907, P. 43.

41) A. Lods, Op. Cit., P. 377.

42) A. L. Oppenheim, ANET, 1966, P. 276.

الى وسط سورية ، ومن ثم فقد تجمع في «قرقر» حلف من ملوك الاراميين والفينيقيين والاسرائيليين والعرب والبدو ، يضم اثنا عشر ملكا ، على رأسهم «بنحدد» ملك دمشق ، حيث حدثت الموقعة الشهيرة ، ورغم تفاخر «شلمنصر الثالث» بالنصر في موقعة «قرقر» (قرقر) هذه ، فان الحقائق التاريخية تقول ان نصره لم يكن حاسما ، ولم يؤد أبدا الى استسلام دمشق أو اسرائيل أو فينيقيا^(٤٣) ، ومن ثم فقد اضطر الى اعادة الكرة مرات بهدف اخضاع سورية و فينيقيا وفلسطين ، حتى استطاع في عام ٨٤٢ ق م ، ارغام المدن الفينيقية ، وخاصة صور وصيدا ، على دفع الجزية له^(٤٤) .

ويقول الملك الاشوري الاشوري في حولياته عن نصره هذا « في السنة الثامنة عشرة للملكي عبرت الفرات للمرة السادسة عشرة ، وكان حزائيل ملك آرام يثق بجيوشه ٠٠٠ ولكني حققت سقوطه ، وزحفت الى «بعل رأسى» وهو رأس في البحر وأقيمت صورتي هناك ، وفي ذلك الحين تلقيت الجزية من رجال صور وصيدا ، ومن ياهو بن عمري»^(٤٥) .

هذا وقد استمرت صيدا وصور تدفعان الجزية للاشوريين في عهد «أدد نيرارى الثالث» ، الذي قدم الى فينيقيا مرتين في عامي ٨٠٤ ، ٨٠٣ ق م^(٤٦) ، و «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ - ٧٢٧ ق م) وقد أقام «تجلات بلاسر» معسكره الرئيسي فيما بين عامي ٧٤٣ ، ٧٤١ ق م في «أرباد» (أربادو بالاشورية ، وهي تل أرفاد الحالية ، على بعد ٢١ كيلا شمالي حلب) ، ومن هنا أرسل حملة الى دمشق ، ثم فرض الجزية على المدن الفينيقية ، وطبقا لما جاء في المسلة السوداء ، فقد

43) A. L. Oppenheim, ANET, P. 279.

D.D. Luckenbill, ARAB, I, No. 611.

وكذا

J. B. Pritchard, The Ancient Near East, Princeton, 1950, P. 188.

J. Finegan, Op. Cit., P. 24.

J. Montgomery, Op. Cit., P. 27

44) A. Lods, Op. Cit., P. 377.

45) D. D. Luckenbill, Op. Cit., Parag. 672

(٤٦) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١١٢ .

خضع له كذلك «ياهو» ملك اسرائيل ، وقدم له الجزية على هيئة أوان من الذهب والفضة والرصاص^(٤٧) .

هذا ، وطبقا لما جاء في رواية يوسف اليهودي ، كما جصاعت في الحوليات السورية^(٤٨) ، فلقد اجتاحت «سلمنصر الخامس» (٧٢٧ — ٧٢٢ ق م) فينيقيا ومدنها ، وكانت صيدا وعكا وصور البرية ترغب في تحرير نفسها من السيطرة المالية لمدينة صور التي في الجزيرة وزعامتها ، فاعترفت بالفتح الاشوري وسيادته ، وأعطته أسطولا يتكون من ستين سفينة ، يعمل فيها نحو ثمانمائة مجدف فينيقي ، وقد تفرق أسطول «سلمنصر الخامس» في معركة مع سكان الجزيرة ، ولكن عددا كافيا من جنوده بقي ليقوم بمحاصرة الجزيرة من الساحل ، وكانت الابار الموجودة داخل المدينة القائمة في الجزيرة كافية لحاجات السكان ، وأخيرا انتهى الحصار الذي دام خمس سنوات في عام ٧٢٢ ق م بمعاهدة تحفظ لصور كرامتها^(٤٩) .

وفي عهد «سرجون الثاني» (٧٢٢ — ٧٠٥ ق م) سقطت السامرة في ربيع ، وربما خريف عام ٧٢٢ ق م تحت أقدام الاشوريين^(٥٠) ، ويبدو أن سرجون الثاني قد اتجه بعد ذلك الى فينيقيا ، وكان «ايلوايلي» الموالي لمصر هو ملك صور ، فدافع عن مدينته ضد الاشوريين ، وظهر كأهم شخصية في منطقة الساحل في عهد سرجون الثاني ، ويبدو أنه فرض سلطته على جزء كبير من فينيقيا ، حتى أنه حاول اخضاع قبرص كذلك^(٥١) .

وجاء بعد «سرجون الثاني» على عرش آشور «سنحريب» (٧٠٥ —

47) A. L. Oppenheim, Op. Cit., P. 281.

48) Josephus, Antiquities, IX, 14, 2.

(٤٩) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٥٣ .

(٥٠) أنظر : محمد بيومي مهران : اسرائيل - الكتاب الثاني — الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٩٤٠ — ٩٥٠ .

(٥١) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٥٣ .

٦٨١ ق م) ، ونهج نهج سلفه ، فأعاد فتح المدن الفينيقية والسورية ومملكة يهوذا ، بعد أن أعلنت صور وعسقلان العصيان ، فسارع إليها وأخضعها عام ٧٠٠ ق م ، ثم عين «أبو بعل الثاني» ملكا على صيد . وحدد له الجزية التي يلتزم بأدائها ، ثم بعد ذلك تقدم «ملك أرواد» و «أورملي» ملك بيلوس ، الولاء للعاهل الآشوري ، ثم قام «سنحريب» بعد ذلك بنقل عمال فينيقيين إلى عاصمته «نينوى» ليقوموا بصناعة سفن له تشبه سفن بلادهم ، وقد جهزت هذه السفن ببحارة من صور وصيدا ، وكذا من اليونانيين ، وربما القبارصة ، واستنّاع «سنحريب» بهذا الاسطول القيام بحملة بحرية (نهرية) على الدجلة. لاختضاع شعوب «بيت ياقين» والعلاميين ، وأن يعود من هناك بأسرى وذلك في عام ٦٩٤ ق م^(٥٢) .

وجاء بعد «سنحريب» ولده «اسرحدون» (٦٨٠ — ٦٩٦٩ ق م) و«عبد ملكوتي» (ملقارت) ملك صيدا (وهو خليفة أئو بعل انذى عينه ملكا على صيدا) أن في وسعه أن يستقل ، فسعى إلى ذلك وارتبط ببعض الأمراء المجاورين في حلف أدرك أهدافه «اسرحدون» فعجل بالقضاء عليه ، وباعت المحاولة بالفشل ، بعد أن اغتصبت صيدا في عام ٦٧٨ ق م ، وعولمت بقسوة حتى لا تعود لمثلها^(٥٣) .

وما أن رأى «عبد ملكوتي» ذلك حتى فر بحرا ، ولكنه أقتيد أسيرا «وصيد كالسمكة من البحر» ، ثم أعدم ، وأنقم «اسرحدون» من أهل صيدا أبشع انتقام ، ودمر المدينة وهدم عمرانها ، ودك بيوتها ، وأطاح بتحصياتها وأسوارها ، وقذف بأحجارها في البحر ، وكانت هذه الكارثة أول الكوارث التي توالى على صيدا عبر التاريخ .

ثم أمر «اسرحدون» سكان صيدا بالانتقال عنها إلى بلاده ، وأهل محلهم أقواما من الخليج العربي ، أو من شرق الامبراطورية الآشورية ،

(٥٢) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٢٩ .
(٥٣) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٢٩ — ١٣٠ .

وأمر بتعمير مدينة جديدة في موضع صيدا اسمها «كار أسر حدون» أي «مدينة أسر حدون»^(٥٤) ، وإن ذهب «فيلب حتى» الى أنه مجرد حصن آشوري أقامه أسر حدون ، بجانب موقع صيدا ، بقصد القضاء العرب في قلوب أهلها^(٥٥) .

ولعل من الأهمية بمكان أن نتوقف هنا قليلا ، للإشارة الى أن عملية تهجير سكان البلاد المغلوبة ، وإحلال آخرين غيرهم من بلاد أخرى ، ليست أمرا غريبا في تاريخ سياسة بلاد الرافدين القديمة ، وسنذكر هنا مثالين فقط ، أولهما : ما فعله سرجون الثاني مع سكان السامرة ، وثانيهما ما فعله «نبوخذ نصر» مع سكان القدس .

أما عن المثال الأول : فإن التاريخ يحدثنا أن العاهل الآشوري «سرجون الثاني» (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) عندما سقطت السامرة ، عاصمة دويلة إسرائيل ، تحت أقدامه في عام ٧٢٢ ق.م ، فإنه قام بتهجير أكثر عناصر سكان السامرة أهمية ، ربما النبلاء والاغنياء ، الى «حلق وخابور نهر جوزان ، وفي مدن مادي» ، ويقول العاهل الآشوري في حولياتـه :

«في بداية حكمي ، وفي السنة الاولى منه ، حاصرت السامرة واستوليت عليها ، ونقلت من أهلها ٢٧٢٩٠ مواطنا ، واستوليت على خمسين عربة من السلاح الملكي ، ثم ملأتها بسكان أكثر مما كان فيها فأطلت بها مواطنين جددا من بلاد كنت قد استوليت عليها ، وعينت حكاما عليها؛ وفرضت عليها الجزية والضرائب كما يفعل الآشوريون»^(٥٦) .

(٥٤) يوسف مزهر : المرجع السابق ص ٥٠ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٧٨ ، السيد عبد العزيز سالم : دراسة في تاريخ مدينة صيدا - بيروت ١٩٧٠ ص ٣٢ - ٣٣ ، وكذا

D. Braumki, Op. Cit., P. 29.

(٥٥) فيلب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ١٥٥ .

56) A. G. Lie, The Inscriptions of Sargon II, Part, I, The Annalas, 1929, P. 5.

A. L. Oppenheim, ANET, 1966, P 284.

وكذا

وبعد سنوات قليلة ، وربما في عام ٧٢٠ أو ٧١٥ ق.م ، وبعد قلائد في سورية وفينيقييا وفلسطين ، ساهم فيها معظم سكان الولايات المختلفة ، تكررت عملية التهجير والاحلال على درجة كبيرة ، وحين نجح العاهل الآشوري في القضاء على هذه الاضطرابات ، عمل — كما تقول التوراة — على أن يأتي بقوم آخرين ، وأن يسكنهم هذه الاقاليم ، ومن بينهم مجاميع من العرب ، حددهم النص الآشوري «بقبائل تامودي وايبا لايدى ومرسيمانو وجبايا ، والعرب الذين لم يعيشوا بعيدا في الصحراء ، والذين لم يعترفوا برؤساء وموظفين ، والذين لم يكونوا قد جاءوا من قبل بجزائهم لأى ملك ، سبيت الاحياء منهم ، ونقلتهم الى المسامرة» (٥٧) .

ونقرأ في التوراة (٥٨) كذلك أن العاهل الآشوري قد جاء أيضا بقوم من بابل وكوث (تل ابراهيم على مبعدة ٢٤ كيلا الى الشمال الشرقى من بابل) ومن «عوا وحماة وسفروايم» (٥٩) ومن سوسة وعيلام .

وربما كان الآشوريون يهدفون من وراء ذلك الى كسر التحالفات القديمة بادخال أجانب في البلاد ، ربما كانوا في بعض الحالات من الآشوريين أنفسهم ، وبداية لظروف جديدة أكثر ملائمة للامبراطورية الآشورية الطموح ، ومن الصعب أن نقدر أهمية هذا التهجير ، وان كان ، على الاقل ، قد حطم الروابط الاجتماعية والسياسية والدينية ، بدرجة أكثر فاعلية عما سبقه من اجراءات ، وبدون شك فان الغزوات الآشورية قد عجلت بنهاية الدويلات السامية المنهارة ، كما أن الاحوال القديمة قد تغيرت ، واختفت المعالم القديمة ، واضمحلت المشاعر المحلية

57) A. L. Oppenheim, ANET, P. 286.

(٥٨) ملوك ثان ٢٤/٦٧ ، عزرا ٩/٢٤ .

(٥٩) سفروايم : بلدان على ضفتى الفرات على مبعدة ١٦ ميلا جنوب غرب بغداد ، ويرى «رسام» أنها «أبو حبة» الحالية ، بينما يرى آخرون أنها «شومورية» شرقى بحيرة حمص (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٩٤٩/٢) .

والقومية ، ودمرت الدويلات الحاجزة (٦٠) .

وأما المثال الثانى : فكان عندما سقطت أورشليم (القدس) فى عام ٥٨٦ ق.م (وربما فى أغسطس من عام ٥٨٧ ق.م) تحت أقدام «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) ، فلم يكتف العاهل البابلى بنهب المدينة ، واشعال النيران فيها ، واحراق القصر الملكى ، وانما قسام الغازى الجديد ، اتباعا للعرف الآشورى ، بابعاد الطبقة العليا الحاكمة فى اليهودية ، ومن ثم فقد أسر بعضا من حاشية الملك اليهودى «صدقيا» (٥٩٧ - ٥٨٦ ق.م) وعديد من الرجال البارزين فى أورشليم وبلاد يهوذا ، وارسلوا الى «ربلة» حيث لقوا حتفهم جميعا ، وأما بقية السكان ، فلقد أقتيد الجزء الاكبر منهم - وقد قدره البعض بأربعين ألفا ، وقدره آخرون بخمسين ألفا - أسرى الى بابل ، ولكن «نبوخذ نصر» لم يفعل ، كما فعل الآشوريون ، بجلب سكان جدد الى يهوذا (٦١) .

وعودا على بدء ، الى موقف المدن الفينيقية من «اسر حدون» اذ نرى «ياكين ارسل» ملك أرواد ، يسلم مدينته ، وكذا ابنته ، لاسر حدون ، كما خضعت مدن فينيقية أخرى تحت زعامة «بعل» ملك صور لاسر حدون ، ووقعت معاهدة بين بعل واسر حدون ، غير أن ملك صور سرعان ما مزقها حين أحس بأن الوقت أصبح مناسباً لنزع النير الاجنبى .

وهناك نصب عند نهر الكلب ، على مقربة من نصب رعمسيس

(٦٠) محمد بيومى مهران : اسرائيل ٩٤٩/٢ ، وكذا
S. A. Cook, CAH, III, Cambridge, 1965, P. 383-385.

(٦١) محمد بيومى مهران : اسرائيل ١٠٠٤/٢ - ١٠٠٥ ، نجيب
ميخائيل : المرجع السابق ٣٢٠/٥ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ٢٢٠ ،
طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ٢٩٦/٢ ، ملوك ثان ١١/٢٥ -
٢١ ، ارميا ١١/٣٩ - ١٤ ، وكذا

Werner Keller, The Bible As History, 1967, P. 402.

الثانى ، يمثل أسر حدون واقفا بجلال ، قرب كتابة أثرية تروى خبر الاستيلاء على منف وعسقلان وصور ، وفي نصب آخر في «زنجرلى» (سمال القديمة) غربى عينتاب في شمالي سورية يقف أسر حدون ممسكا بحبل ربط به «بعل» ملك صور ، وطهراقا ، من الانف ، وان كان من المؤكد تاريخيا أن طهراقا لم يقع أبدا في الاسر ، ومن ثم فالمراد من هذا النصب انما الدعاية والتفاخر الكاذب^(٦٢) .

وفي عهد «آشور بانينال» (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م) حوصرت صور للمرة الثالثة ، فأقامت الحصون الدفاعية على الارض الرئيسية ، ووضعت المتاريس في كل الطرق برا وبحرا ، واضطر أهلها المحاصرون أن يشربوا من دماء البحر ، كما اضطر بعلها أن يستسلم في ظروف قاسية ، وفي صورة تدعو الى الشجن ، اذ سلم ابنته وبنات أخيه الى المعامل الاثوري المنتصر ، كزوجات تحمل كل منهن بائنتها الضخمة ، كما سلم ابنه «ياحي ملك» .

وكان هذا أكثر مما كان يطمع فيه «آشور بانينال» فرد الابن اذ لم تكن له به حاجة ، واكتفى بالنساء اللواتي ضمن الى حريمه ، واستولى الآشوريون على خيرات صور ، وعلى أسطولها الذى استخدموه في اخضاع ملك أرواد «ياكنلو» الذى اضطر في نهاية الامر أن يستسلم ويبيع ابنته الى «نينوى» العاصمة الآشورية ، محملة بالهدايا ، ولم تحتل أرواد هذه المهانة فخلعت ملكها ، واضطر أبناؤه العشرة الى الاتجاه الى بلاط آشور بانينال يحملون الهدايا ، وكل منهم يطمع في أن يوليه آشور بانينال مكان أبيه ، واستطاع احدهم ، وهو «عزى بعل» أن يحقق الهدف ، وان يجلس مكان أبيه على عرش أرواد^(٦٣) .

(٦٢) أنظر : فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٥٥ ، وكذا D. D. Luckenbill, ARAB, II, Chicago, 1927, Parag. 582-585.
Rene Mouterde, le Nahr el-Kelb, Beirut, 1932, P. 18, Pl. VI.
A. T. Olmstead, History of Assyria, N. Y., 1923, P. 384.
H. R. Hall, The Ancient History of The Near East, London, 1963, P. 499
(٦٣) نجيب ميخائيل : سورية ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٣) في عهد الكلدانيين :

ورث الكلدانيون البابليون امبراطورية الآشوريين بعد هزيمتهم لهم في نينوى عام ٦١٢ ق.م ، ثم في حران عام ٦٠٩ ق.م ، ومن ثم فقد ادعى الكلدانيون ، أصحاب دولة بابل الجديدة ، السيطرة على سورية وفينيقيا وفلسطين ، كورثة للامبراطورية الآشورية ، غير أن المدن الفينيقية لم تكن أقل تمردا في عهد السادة الجدد ، منها في عصر السادة القدامى ، وكانت مصر وقت ذاك تسعى لاسترداد سيادتها المفقودة على بلاد الشام ، وكانت المدن الفينيقية بوجه عام أكثر ميلا للاعتراف بالسيادة المصرية منها بالسيادة البابلية ، ربما لان مصر كانت دائما وأبدا أكثر رحمة بهم ، وأرفع حضارة ، وأشد اهتماما بمصالحهم . وفي عام ٥٨٧ ق.م ، ظهر «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) في شمالي سورية ، وأقام معسكره في «ربلة» ، على مبعده ٣٣ كيلا جنوبي حمص ، في وادي العاصي ، ومن هناك أرسل قواته لاختضاع المدن الفينيقية ، وفتح بلاد اليهودية ، وقد تم الاستيلاء على القدس في عام ٥٨٦ ق.م ، ونهبست المدينة المقدسة ، واشعلوا فيها النيران ، واهرقوا القصر الملكي والمعبد ، وفيه البقية الباقية من التابوت الذي كفت الروايات اليهودية عن ذكره بعد نقله الى معبد اورشليم (٦٤) .

وفي عام ٥٧٢ ق.م ، اتجه الفارسي الجديد الى فينيقيا ، فهاجم صيد وحاصرها ، حتى مات عدد كبير من أهلها بسبب الجوع والوباء ، فاستسلمت له ، أما صور فقد تحدىته بمقاومتها الباسلة ، واستطاعت أن تصمد أمامه زهاء ١٣ عاما ، تحطمت مقاومتها بعدها ، فاستسلم ملكها «اثبعل الثالث» ، وغنم دخلتها قوات الكلدانيين ودمرت مبانيها وسوتها بالارض — كما فعلت بالقدس الشريف ، ومنذ ذلك الحين تخلت صور عن مكانتها ، خاصة وأن الفرعون «أحمس الثاني» (٥٧٠ - ٥٢٦ ق.م)

(٦٤) محمد بيومي مهران : اسرائيل ٩٩٧/٢ - ١٠٠٤ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ١٥٥ - ١٥٦ ، وكذا M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 286-287.

كان قد انتقص من سيادتها ، بانتزاع قبرص ، وإن ظلت أسرة صورية تجلس على عرش «سلاميس» حتى خلعت عنه على يد «ايغا جوراس» ، وعلى أية حال ، فلقد انتهت غزوات «نبوخذ نصر» بضياح استقلال صور وصيدا ، وإن استطاعت صيدا أن تحل محل صور في زعامة المدن الفينيقية^(٦٥) .

ثالثا : الفينيقيون والفرس

في أكتوبر عام ٥٣٩ ق م ، سقطت بابل تحت أقدام الفرس ، وأعلن «كيوش الثاني» (٥٥٨ - ٥٣٠ ق م) نفسه ملكا على بابل^(٦٦) ، ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن سقوط بابل عام ٥٣٩ ق م ، ومن قبلها سقوط نينوى عام ٦١٢ ق م ، لا يعد كنهاية لتاريخ العراق القديم (بلاد النهرين) كدولة مستقلة فحسب ، وإنما الأمر أكبر من هذا وأخطر ، لأنه في هذا الوقت ، وفي هذه المنطقة من مناطق الشرق الأدنى القديم ، انتهت سيادة العناصر السامية ، وبدأت سيادة العناصر الهندو - أوروبية ، من فرس واغريق ورومان ، والتي استمرت قرابة اثني عشر قرنا ، حتى جاء الاسلام الحنيف ، وحرر الارض والقوم من دنس الاستعمار ، وذل الاستعباد ، فضلا عن تحرير العقول من وثنية الماضي البغيضة ، وبدأ القوم يؤمنون بالله الواحد الاحد ، الذي لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

(٦٥) يوسف مزهر : المرجع السابق ص ٥٠ - ٥٢ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٣ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٣٤
D. Harden, Op. Cit., P. 54.
Josephus, Antiquities, X, 11, 1.
D. Baramki, Op. Cit., P. 30.
(٦٦) أنظر عن احتلال الفرس لبابل (محمد بيومي مهران : حركات التحرير في مصر القديمة ص ٣٣٧ - ٣٤٤ ، اسراييل ١٠٢٧/٢ - ١٠٣٣ ،
G. Cameron, JAOS, LII, 1932, P. 304.
وكذا
R. Ghirshman, Iraq, 1954, P. 131-133.
A. T. Olmstead, History of The Persian Empire, Chicago, 1970, P. 50-51.
Herodotus, I, 178, 188 F.
A. L. Oppenheim, ANET, 1966, P. 315.

هذا وقد أعتبر الفرس ولايات سورية وفينيقيًا وفلسطين من أملاكهم ، كورثة للامبراطورية البابلية ، وعلى أية حال ، فلقد اعترفت جميع مناطق الامبراطورية البابلية ، بما فيها فنيقيًا بطبيعة الحال ، بالحكم الفارسي الجديد .

ونقرأ في التوراة أن كيروش أمر في السنة الاولى من حكمه للامبراطورية البابلية (عام ٥٣٩/٥٣٨ ق.م) بالسماح بعودة اليهود المنفيين في بابل الى اورشليم ، ولعل السبب في ذلك أن الجالية اليهودية في بابل قد ساعدته على احتلال المدينة ، وربما لان كيروش الثاني قد رأى في وجود جالية يهودية في فلسطين تدين بوجودها له ، سوف يشكل توازنا فعالا ، تجاه الحزب الموالي لمصر ، والذي طالما برز بشكل واضح في شئون فلسطين (٦٧) .

هذا وقد اعتمد اليهود العائدين الى فلسطين في اعادة بناء مقامهم الجديد على الموارد الفينيقيّة ، بل ان الفرس أنفسهم قد اعتمدوا على هذه الموارد ، وقد تم هجوم «قمبيز» (٥٢٩ — ٥٢٢ ق.م) على مصر بمساعدة السفن الفينيقيّة .

وكان الاسطول الفينيقي أيضا عماد البحرية الفارسية في هجومها على اليونان بقيادة الملك الفارسي «أكركسيس» الاول (خشايارشا ٤٨٤-٤٦٥ ق.م) ، ويبدو أن الفينيقيين رحبوا بفرصة ضرب منافسيهم البحرين القدماء ، ومن ثم فقد قدموا له ٢٠٧ سفينة ، كما أظهرت مهارة الفينيقيين الهندسية تفوقها في حفر قناة عبر البرزخ لتجنب العواصف حول جبل «آتوس» ، وقد حطم الاسطول كله تقريبا في معركة سلاميس البحرية عام ٤٨٠ ق.م (٦٨) .

(٦٧) عزرا ١/١ - ١١ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ٢٠٢ ، وكذا C. Roth, Op. Cit., P. 53.
S. A. Cook, Op. Cit., P. 409.
(٦٨) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٢٤٦ ، وكذا Herodotus, VII, 23, 96, VIII, 86, 89, 90, 96.

هذا وقد جعل الفرس من الجزر الفينيقية وفلسطين وسورية وقبرص ولاية ، هي الولاية الخامسة من ولايات الامبراطورية الفارسية ، وسميت «مرزبانه» (عبر نهرا) ، وفرض عليها جزية تعادل ٣٥٠ وزنة (نصف جزية مصر) ، ولم يتعرض الفرس لنظام الحكم الداخلى ، فترك للولاة ادارة شئون ولاياتهم ، ما داموا يدفعون الجزية .

وهكذا دخلت المدن الفينيقية فى فلك الامبراطورية الفارسية عام ٥٢٦ ، ومنحها «قمبيز» كثيرا من الامتيازات ، واتخذ صيدا حاضرة لمدن فينيقيا ، وأسس فيها الفرس قصرا ملكيا تحيط به المنتزهات ، كما أقام والى صيدا الفارسى قصرا لنفسه ، وأبقى قمبيز النظام الملكى فى صيدا فى ظل الحكم الفارسى ، ونصب ملكها قائدا عاما للأسطول الفينيقى ، وقد تمتعت المدن الفينيقية فى عهد قمبيز بنوع من الاستقلال ، وكان ملوكها يضربون العملات المحلية بأسمائهم ، وأذن لها أن تعقد اجتماعات سنوية فى طرابلس للبحث فى شئونها (٦٩) .

وانطلاقا من كل هذا ، فإن استعمار الفرس لفينيقيا لم يؤثر الا فيما يتصل بالجزية ، واستمر الفينيقيون يباشرون نشاطهم المعهود ويجوبون البحار ، ينقلون المتاجر بين الشرق والغرب ، وفى نفس الوقت أدرك الفينيقيون قسوة الامبراطورية الفارسية ، وأنه ليس هناك من يعدلها فى قوتها ، وأنه من الخير مساومتها ومهادنتها ، ما دامت لا تتعرض كثيرا لأخص شئونها ، ولا تتدخل فيما يمس مصالحها ، ومن ثم فقد وقف الاسطول الفينيقى الى جانب الفرس فى حروبه ضد اليونان ، وإن كان الاسطول الفينيقى قد هزم فى «سارديس» ، الا أنه أظهر بعد ذلك مهارة وشجاعة ملحوظتين أدتا الى هزيمة الايونيين عند جزيرة «ليد» المقابلة لمدينة «ميلتس» ، وسرعان ما سقطت ميلتس ، وتقدم الفينيقيون نحو جزر أرخبيل اليونان الاسيوية ، ثم الى شاطئ «تراقييا» ، ثم

(٦٩) فيلب حتى : لبنان فى التاريخ ص ١٨٥ ، يوسف مزهر : المرجع السابق ص ٥٥ ، وكذا

D. Harden, Op. Cit, P. 55.

احتل الاسطول الفينيقي بعد ذلك جزر بحر ايجيه ، مما مهد للقوات الفارسية بعد ذلك الانتقال الى «ماراثون» ، حيث انتهت المعركة بهزيمة مروعة للفرس في عام ٤٩٠ ق م ، حتى أن «هيودوت» يروى أن الملك الفارسي «دارا الاول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق م) كلف واحدا من عبيده بأن يذكره بذلك ثلاث مرات كل مساء بقوله : «يا مولاي لا تنسى الاثينيين» (٧٠) .

وفي عهد «أركركسيس الاول» (خشايارشا ٤٨٤ - ٤٦٥ ق م) اشترك الصيغونيون في الحرب الفارسية اليونانية ، وزودوا الاسطول الفارسي بعدد من سفنهم ، وخاضوا معركتين بحريتين في ميلاتس وسلاميس ، كما قام الاسطول الفينيقي بدور هام في حروب الفرس ضد اليونان في عام ٤٦٥ ق م ، وذلك على أيام «أرتاكرركسيس» (أرتا خشاشا ٤٦٥-٤٢٤ ق م) والذي كان يعرف باسم «لوغيجماتوس» لان أحد ذراعيه كان أطول من الآخر (٧١) .

وفي عهد «أرتاكرركسيس الثاني» (٤٠٤ - ٣٥٨ ق م) ثار المصريون ضد فارس ، وولوا عليهم فرعون الاسرة الثامنة والعشرين «أمون حر» (أمير تايبوس) عام ٤٠٤ ق م ، وحاولوا الاستيلاء على فينيقيا ، حين أدركوا أنها سخط فارس من الناحية البحرية ، ولكن خطط مصر باءت بالفشل ، ذلك لان جماعات الفارمين بعد هزيمة اليونان السابقة كانوا قد عادوا الى فينيقيا ، فعدا من المستحيل على مصر أن تقتبز الفرصة وتعيد سيادتها على فينيقيا (٧٢) .

-
- (٧٠) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٣٧ - ١٣٨ ، وكذا
A. Gardiner, Op. Cit., P. 368-369.
J. B. B. Bury, History of Greek, London, 1930, fig. 78.
(٧١) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٤ ، محمد
بيومي مهران : المرجع السابق ص ٣٧٤ ، وكذا
F. C. Eislén, Op. Cit., P. 61.
(٧٢) نجيب ميخائيل : لمرجع لسابق ص ١٣٩ .

وفي عام ٣٩٠ ق م ، قاد ملك صيدا جيشا في ثمانين سفينة حربية ضد الاسبراطيين الذين كان يمددهم ملك مصر بالمؤن (٧٣) .

وفي عام ٣٥٨ ق م ، كانت الامبراطورية الفارسية المهترئة تهب فيها حياة جديدة بولاية «أرتزر كسييس الثالث» (أوخوس) فبدأ باحتلال فينيقيا التي بدأت تسعى للتحالف مع مصر ، وفي عام ٣٥١/٣٥٠ ق م ، اتجهت حملة الى مصر ، ولكن الحروب انتهت بفشل ذريع للغاى الفارسى ، وأقام الفرعون «نخت حرب» (٣٩٠ - ٣٤٣ ق م) لنفسه تمثالا ضخما في عاصمته ، زعم على النقش المصاحب له : أنه حامى مصر ، وقاهر البلاد الاجنبية ، وضارب الاقواس التسعة (٧٤) .

هذا وقد أدى انتصار المصريين على الفرس ، أن انتشرت الثورات ضد الاحتلال الفارسى في كل مكان ، وكانت فينيقيا وقبرص في مقدمة الثائرين ، وفي عام ٣٥١ ق م ، عقد الفينيقيون مؤتمرا في طرابلس أعلنوا فيه خروجهم على فارس وسلطانها ، وكانت مصر مركز التشجيع كالمعتاد ، كما كانت المكان الذى يستطيع أن يوفر للثائرين الذهب والحبوب في وفرة .

وهكذا بدأت الثورة الفينيقية على الفرس في الحى الصيدونى في طرابلس ، حيث أعلن ملك صيدا «ستراتون الاول» العصيان ، وجيشا شاركت اسبرطه فيه بالمال والسلاح والرجال ، وسرعان ما انتقلت الثورة الى مدينة «صيда» نفسها في عهد ملكها الجديد «نتس» الذى طرد الحامية الفارسية ، وقطع أشجار الحديقة الملكية في المدينة أو حول منحدراتها الشرقية ، وأشعلوا النار في التبن المخزون لخيالة

73) G. F. Hill, Catalogue of The Greek Coins of Phoenicia, London, 1901, P. XCIV.

74) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 376.

E. Bahelon, Traite, des Monnaies, II, Part, 2, 1910, P. 575 F.

P. Tresson Sur deux Monuments Egyptiens indit Kemi, 4, 1931, P.126F.

A. T. Olmstead, Op. Cit., P. 432.

الفرس ، وسرعان ما طردت تسع من المدن الفينيقية الرئيسية الفرس وأعلنت استقلالها^(٧٥) .

وأدرك العاهل الفارسي «أوخوس» أن الامر أخطر من أن يسكت عليه ، ومن ثم فسرعان ما خرج على رأس جيش ضخم ، قدره كتاب الاغريق بثلاثمائة ألف من المشاة ، وثلاثين ألفا من الفرسان ، وخشي الصيديونيون مغبة الامر ، فالتمسوا عون مصر فأمدتهم بفرقة يونانية على رأسها قائد من «رودس» هو «منتور» .

غير أن «نتس» ملك صيدا عندما علم بضخامة القوة الحربية الفارسية الموجهة ضد مدينته خاف على نفسه ، فسعى الى التقرب من الملك الفارسي بأن أرسل «تساليون» أحد نوابه الى معسكر الفرس ، ليعد ملكهم ببذل العون له في اقتحام صيدا عن طريق الخديعة ، فضلا عن الاشتراك في الحملة التي يجهزها ملك الفرس ضد مصر ، ولم يلبث ملك صيدا أن تظاهر بعزمه على التوجه الى طرابلس في طائفة من رجاله ، بحجة التشاور مع ممثلي المدن الاخرى ، واصطحب معه مائة من خيرة شباب المدينة ، وبدلا من الاتجاه الى طرابلس ، اتجه بهم الى معسكر الفرس ، وسلمهم الى اعدائهم ، فقتلهم الفرس باعتبارهم المحرضين على الثورة .

ثم زحف «أوخوس» نحو صيدا ، فخرج اليه خمسمائة من ممثلي المدينة يحملون الاغصان طلبا للسلم والابقاء على ارواح الناس . ولكن أوخوس بادرهم بالحكم عليهم بالموت ، وقضى بذلك على الامل في التفاوض مع أهل صيدا الذين أدركوا ما ينتظرهم على أيدي الفرس من سوء المصير .

(٧٥) محمد بيومي مهران : حركات التحرير في مصر القديمة ٣٩٥-٣٩٦ .

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 377.

G. Contenau, Deuxieme Mission Archeologique a Sidon, in Syria, IV, 1923, P. 276 F.

وهنا قرر سكان صيدا الدفاع عن مدينتهم حتى الموت ، وفي لحظة من يأس قاتل أحرقوا سفنهم حتى لا يفكر جبان في الهرب ، كما اعتصم الكثيرون ببيوتهم ، وفضلوا الموت محترقين مع ممتلكاتهم في لهب ديارهم ، وقد قدر بعض الباحثين من هلكوا منهم في هذه المأساة المروعة بحوالى أربعين ألفا ، أما القلائل الذين أسروا فقد نقلوا الى بابل .

هذا وقد أصدر الملك الفارسي أمره بالعفو عن القائد اليوناني المختنن «(منتور)» ، وأما ملك صيدا الخائن «تنس» فقد أمر ملك الفرس بقتله ، فحاول الانتحار ولكنه جبن وأحجم ، وعنئذ أجهزت عليه زوجته ، وقتلت نفسها فوق جنته .

ثم تبع هذه المأساة الصيدونية المروعة استسلام بقية المدن الفينيقية الأخرى متعطلة بمصير صيدا (٧٦) .

رابعاً : الفينيقيون والاسكندر المقدوني

كانت معركة ايسوس في أكتوبر ٣٣٣ ق.م بين الاسكندر المقدوني (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) و «دارا الثالث» (كودومانوس) ، آخر الاخمينيين معركة حاسمة بالنسبة للإمبراطورية الفارسية ، حيث كانت بداية النهاية لها ، وعلى أية حال ، فلقد انتهت المعركة بانتصار ساحق لالاسكندر الأكبر ، وهزيمة فاضحة للملك الفارسي الذي سرعان ما اسرع الى الهرب مع فلول جيشه شرقاً ، تاركاً معسكره وأهل بيته ، وقد عولت

(٧٦) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٣٩٦ ، السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٥ - ٣٧ فيليب حتى : المرجع السابق ص ١٩٠ ، منير الخوري : صيدا عبر التاريخ ص ٧٣ ، أمين خليفة : تاريخ سورية قبل الفتح الاسلامي - بيروت ١٩٣٠ ص ١٩٧ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٤٠ - ١٤٤ .

F. C. Eislen, Sidon, N. Y., 1907, P. 75-77.

A. Gardiner, Op. Cit., P. 377.

A. Olmstead, Op. Cit., P. 434-435.

D. Baramki, Op. Cit., P. 31.

S. Smith, Babilonian Historical Texts, London, 1924, P. 149.

نساء الملك معاملة مهذبة ، وتخليدا لذي الانتصار ، أسست مدينة «الاسكندرونة» التي لا تزال تحمل اسم المنتصر اليوناني ، مكان الحادث (٧٧) .

ولم يتابع الاسكندر عهده الفارسي «دارا الثالث» (٣٣٦ - ٣٣٠ ق م) الى الشرق ، وانما اتجه الى الجنوب بصذاء الساحل ، وكانت ضحايا الملك الفارسي «أوخوس» (٣٥٩ - ٣٣٨ ق م) ما تزال ماثلة في أذهان الفينيقيين جميعا ، ومن ثم فقد رحبوا بدخول الاسكندر في البلاد ، وكانت مدينة «أرواد» أول مدينة فينيقية تظن ولاءها للاسكندر ، وابتهاجا بالتخلص من النير الفارسي .

وسرعان ما نهجت نهج أرواد مدن : طرابلس والبترون وجبيل وبيروت ، وارسلت صيدا رسلا للترحيب بالاسكندر ، ودعته للدخول فيها ، وفتحت أبوابها لجيوشه ، ودانت له بالطاعة في نفس العام ، فعزل الاسكندر «ستراتون الثاني» ملك صيدا ، الموالى للفرس ، وأقام مكانه أحد أقرائه ، وهو «عبدو لونيم» ، وكان يعمل بستانيا في القصر الملكي ، وأعاد الاسكندر لمدينة صيدا ممتلكاتها ودستورها الخاص (٧٨) .

وهكذا استسلمت المدن الفينيقية للاسكندر ، ما عدا مدينة «صور» التي حملت وحدها لواء المقاومة وتحدته في عناد ، معتزة بمكانتها وحصانة أسوارها ، كما كان ملكها حليفا للفرس ، فأحكم الاسكندر الحصار عليها زهاء سبعة أشهر ، وقد عاوناه في هذا الحصار أهل صيدا ، واستتركوا مع المدن الفينيقية الشمالية في تزويده بثمانين سفينة لتطويق صور من

(٧٧) أنظر :

Diodorus, XVII, 33.

Josephus, Antiquities, XI, 8, 3.

وكذا

W. W. Tarn, Alexander, in CAH, Cambridge, 1927, P. 366-369.

(٧٨) أسد رستم : تاريخ اليونان - بيروت ١٩٦٩ ص ٢٧ ، وكذا

D. Baramki, Op. Cit., P. 33.

المبحر (٧٩) •

وهكذا كانت صور ، القعسة الحظ ، تتوقع المساعدة من شقيقاتها الفينيقيات في الشمال ، غير أن تصرف الشقيقات كان مخجلا ، فبدلا من تقديم العون لصور ، وضعت سفنها تحت تصرف الغازي الجديد ، وكما خاب أهل صور في المدن الفينيقية ، خاب كذلك في ابنتها البعيدة في الشمال الافريقي «قرطاج» حيث بعثت اليها بشيوخها ونسائها وأطفالها (٨٠) •

وفي يولية من عام ٣٣٣ ق م ، سقطت صور تحت أقدام الغازي المقدوني ، بعد أن صمدت سبعة أشهر ، ولعل سقوط صور ، فيما يرى البعض ، انما يعد أعظم عمل عسكري قام به الاسكندر المقدوني ، فقدم من جانبه القرابين والتضحيات لاله المدينة «ملقارت» ، وقد اعتبره الاسكندر معادلا لهرقل (هركوليس) •

على أن المقدونيين الذين كانوا يشعرون بالمرارة من جراء ما فعله الصوريون من قبل لرفقائهم الذين وقعوا في الاسر لديهم ، فانهم لم يكن من اليسير كبح جماحهم ، ولذا أعقب استسلام صور الذبح والتقتيل ، وقيل ان ثمانية الاف من المحاربين خروا قتلى ، وبيع الكثيرون في أسواق النخاسة من الرجال والنساء والأطفال •

هذا بينما لقي بعض السوريين النجاة على أيدي الفينيقيين الآخرين ، كما وجدت قلة ملاذا في معبد «ملقارت» اعتصموا به ، ومن هؤلاء بعض رسل ومبعوثين دينيين من القرطاجيين ، فكان وجودهم مثار أسطورة تقول بأن قرطاج كانت تعد وتتأهب لتقديم العون لمدينتها الام •

وأما بيع كثير من أهل صيدا في سوق النخاسة ، فرغم أنه حقا اجراء

(٧٩) يوسف مزهر : المرجع السابق ص ١١١ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ٢٥٤ ، السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٧-٢٨ ،
F. C. Eislen, Op. Cit., P. 69. وكذا
(٨٠) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٢٥٤ •

بشع ، غير أنه كان مألوفاً لدى المنتصرين وقت ذاك ، وقد باشره الاسكندر الاكبر مرتين أخريين ، احدهما : في غزة ، والاخرى في «قيروبوليس» Cyropolis (حيث كان رجاله قد هتك بهم ولقوا حتفهم) ، على أنه من الجدير بالاشارة أن حملة الاسكندر هذه لم يكن لها فيما يبدو أثر ذو بال على أسواق الفخاسة العالمية (٨١) .

هذا وقد أصبحت المدن الفينيقية بعد موت الاسكندر تحت السيادة المصرية في العصر البطلمي في أغلب الاحايين ، وكان بطليموس الاول (٣٢٣ - ٢٨٤ ق.م) قد قام بغزو سورية في عام ٣٢٠ ق.م ، ثم الاستيلاء على اورشليم في عام ٣١٨/٣١٩ ق.م ، ورغم أنه قد اضطر الى اخلاء سورية الجنوبية (جنوب سورية وفينيقيا) الا أنه سرعان ما عاد اليها مرة أخرى بعد انتصاره العظيم على «ديمتريوس» في موقعة غزة عام ٣١٢ ق.م ، وكان من نتائج هذا النصر أن تابع بطليموس الاول تقدمه فاستولى على فلسطين وفينيقيا (٨٢) .

وعلى أية حال ، فلقد نجح بطليموس في مد خط حدود دولته الى خط يقع شمالي أرواد وجنوبي حمص ، وقد تراجع هذا الخط لدرجة كبيرة حتى جنوبي بيروت ودمشق حوالى عام ٢٥٠ ق.م ، ليتقدم مرة ثانية حتى شمالي أرواد ، بعد خمس وعشرين سنة (٨٣) .

(٨١) انظر : و.و. تارن : الاسكندر الاكبر - ترجمة زكى على - القاهرة ١٩٦٢ ص ٧٣ - ٧٨ ، الاب أميل أده : الفينيقيون واكتشاف أمريكا بيروت ١٩٦٩ ص ١١١ - ١١٢ ، وكذا

F. C. Eissen, Op. cit, P. 69.

Arrian, II, 18-24.

Diodorus, XVII, 41-46.

G. Glotz, Ancient Greece at Work, P. 350.

(٨٢) مصطفى العبادي : مصر من الاسكندر الاكبر الى الفتح العربى - القاهرة ١٩٦٦ ص ٣٤ - ٣٧ ، مصطفى عبد العليم : اليهود في مصر في عهد البطلمة والرومان - القاهرة ١٩٦٨ ص ٣٣ ، محمد عواد حسين : الحرب السورية السادسة ، حوليات جامعة ابراهيم باشا الكبير - القاهرة ١٩٥١ ج١ ص ٧١ ، ١٢٥ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ١١٠٦/٢ .

(٨٣) فيب حتى : المرجع السابق ص ٢٦٠ .

الفصل الخامس

الفينيقيون ودورهم في حوض البحر المتوسط

اولا : الفينيقيون ودورهم في التجارة البحرية :

لا ريب في أن الفينيقيين قد تأثروا الى أبعد الحدود بالبيئة التي عاشوا فيها ، واستجابوا لها استجابة كاملة ، فشكلت تجارتهم وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

على أن أبرز النواحي التي ظهرت فيها آثار البيئة في الحياة الفينيقية هي ناحية النشاط البحري ، فقد كانت جبال لبنان التي تقع خلف الوطن الفينيقى تعرقل صلة السهول الساحلية بالاقاليم الداخلية ، وتجبر السكان على أن يلتصقوا لانفسهم مخرجاً آخر بأن يتجهوا الى البحر ، هذا فضلا عن أن البيئة المحلية لم تعد قادرة على اعالة عدد من السكان يتزايد عددهم باستمرار ، ولم تعد الزراعة تكفي لاطعام الالف الأفواه التي تعيش في المدن الساحلية ، فكان على الفينيقيين أن يلتصقوا لهم سبلا أخرى للمعيشة ، أو ينطلقوا الى ميدان التجارة ، ويتصلوا بالأمم الكبرى من وراء البحر ، زد على هذا أن سفوح لبنان تزخر بالخشب الجيد المصالح لبناء السفن .

ومن ثم ، فإذا اقترنت الرغبة في المخاطرة ، والبحث عن لقمة العيش ، بتوفر الموانئ المصالحة ، والمواد الخام اللازمة ، لم نعجب اذا رأينا هؤلاء الساميين القادمين من شبة الجزيرة العربية ، يستجيبون لنداء البيئة ، ويتركون حياة البداوة التي ألفوها ، ويقبلون على البحر ليركبوا متنه .

هذا وقد بدأ القوم برحلات بحرية قصيرة لصيد الاسماك أو البحث

عن الزجاج أو الصلصال ، ثم لبيع هذه الاشياء وغيرها من المنتجات المحلية الاخرى ، ثم زاد هذا النشاط بعد القرن الثالث عشر أو الثاني عشر قبل الميلاد ، حينما ضغط الاراميون عليهم في وسط سورية ، وأحاط بهم الاسرائيليون والفلسطينيون من الجنوب ، فلم يجدوا مفرًا من أن يتجهوا الى البحر بكليتهم ، فقد كان هو المخرج الوحيد^(١) .

وقد أدى هذا الوضع الجديد الى انشاء محطات ومراكز مستقرة في المناطق التي تتجه اليها سفنهم لتكون محطات استقرار ، أو على الاقل محطات يستريحون فيها أياما معدودة ، في أول الامر على الاقل ، وقد أدى ذلك الى تتابع هجراتهم بالتدريج ، وعلى مرات متعددة ، لتحقيق هذا النشاط التجارى في هذه الاسواق والمناطق الجديدة في غربى البحر المتوسط^(٢) .

هذا وكانت السفن الفينيقية بسيطة أول الامر ، لا تقوى على أن توغل في ماء البحر ، فلم تكن أكثر من زوارق مكشوفة ، قليلة الارتفاع ، قليلة الغوص ، تكتسحها الامواج العظيمة ، ولا تستطيع أن تحمل قدرا كبيرا من السلع ، وكانت هذه السفن تصنع من خشب الارز ، وتدهن بالقار النباتى الذي لا يقوى على مغالبة الماء ، ثم قطعوا شوطا آخر في فن بناء السفن فكبّر حجمها بعض الشيء ، واستعين في تسييرها بالمجادف وبالمشراع معا ، وأصبح سمكها كبيرا الى حد ما .

غير أن العمل الجرى حقا ، والذي ينسب الى الفينيقيين ، هو مضيهم في فن بناء السفن الى أبعد غاية ، حينما وصلوا الى صناعة السفن العظيمة ماهرة المحيطات ، فقد قلب هذا الاختراع فن الملاحة رأسا على عقب ، فاشتدت جسارة الفينيقيين على السيطرة على البحر

(١) حسن أحمد محمود وآخرون : حضارة مصر والشرق القديم — القاهرة ص ٣٩٢ .

(٢) محمد بيومى مهران : تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم — القاهرة ١٩٨٥ ص ١٨٤ .

وركوبه ، وتضاعف نشاطهم ، وتضاعفت تجارتهم^(٣) .

هذا ولم يبرع الفينيقيون في صناعة السفن فحسب ، وانما برعوا كذلك في فن الملاحة وتعمقوا فيه ، وساعدهم على ذلك كثيرا ، اكتشاف أهمية النجم القطبي ، فأقبلوا على الابحار ليلا معتمدين على النجوم . وقد تعلم الاغريق هذا الفن منهم ، حتى أن أسماء النجوم الاغريقية هي نفسها الاسماء الفينيقية ، وهكذا كان القوم يبحرون بناء على خطط مرسومة ، واستطاعوا بعد تجارب طويلة أن يشقوا لانفسهم مسالك وطرق كشفوها واستخدموها ، ثم احتكروها .

وهكذا لم يكن الفينيقيون يسيرون في البحر بغير هدى ، ولم يكونوا قراصنة ، كما تصورهم الاساطير الاغريقية ، وانما كانوا يبحرون بناء على خطط مرسومة ، واستطاعوا ، كما أشرنا آنفا ، ان يشقوا لانفسهم طرقا ، لعل من أهمها ذلك الطريق الذي يمر من صيدا الى صور ، ثم يمر بمصر مباشرة ، أو قد يتجه الى قبرص ، ثم يتجه غربا الى طوروس وليسيا ، عن طريق رودس وكريت ، ثم يتجه الى صقيلة ، ثم شمال أفريقيا ثم أسبانيا ، وهناك طرق أخرى فرعية تتجه الى الشمال أو الجنوب ، ومن ثم فقد حق لهم أن يسموا أول أمة بحرية في العالم : وأول أمة جمعت بين النشاط في البر والبحر^(٤) .

هذا وكانت محطات الفينيقيين في الداخل تضم «أديسا» وربما « نصيبين » بحيث تصل موانئهم على البحر المتوسط بمراكبهم على الخليج العربى ، والفينيقيون ، طبقا لروياتهم ، فقد أتوا الى ساحل فينيقيا من منطقة الخليج العربى ، حيث كانت لهم هناك مدن تحمل الاسماء نفسها ، مثل أرواد وصور وصيدا ، وتقدم لنا التوراة في سفر

(٣) حسن أحمد محمود : ارجع لسابق ص ٢٩٣ .

(٤) فيليب حتى : المرجع السابق ص ١٠٥ - ١٠٦ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٤ ، حسن أحمد محمود : المرجع السابق ص ٢٩٣ ، وكذا

Strabo, XVI, 2, 24.

حزقيال وصفا مفصلا لتجارة الفينيقيين البرية والبحرية في مظاهرها المختلفة ، وهو يذكر بين وارداتهم الفضة والحديد والقصدير والمرصاص من أسبانيا ، والرقيق وأوانى النحاس الأصفر من أيونيا ، والكتان من مصر ، والخرفان والماعز من شبه الجزيرة العربية ، ويشير «هيودوت» الى أن توابل بلاد العرب كانت تنقل عن طريق التجارة الفينيقية^(٥) .

ولم يكن الفينيقيون يكتفون بمجرد المتاجرة والعوذة من حيث أتوا ، بل كانوا يستقرون ويستعمرون وينشئون مدنا فينيقية جديدة ، أما اذا دنت البلاد التي يفلها الفينيقيون ذات حكومات قادرة على حماية نفسها ، فان ملاحى فينيقيا لا يؤسسون مستعمرة حقيقية ، وانما يكتفون بوكالات تجارية ، وبشراء حق حرية التجارة ، كما فعلوا في مصر ، حين استقروا عند مصبى الدلتا ، وطبقا لرواية هيودوت ، فقد اتخذوا لانفسهم في منف حيا خاصا سمي «معسكر الصوريين» ، كما أقاموا معبدا هناك كانوا يتعبدون فيه لـ «أفروديث الاجنبية» ، وهى عشتار على الأرجح^(٦) .

وكان الفينيقيون يصدرون أربعة أصناف من السلع تحتاج اليها دول البحر الابيض المتوسط هى : الخشب والقمح والزيت والخمر ، ثم حملوا بعد ذلك منتجاتهم الصناعية المشهورة مثل المصنوعات المعدنية والمنسوجات ، وكان الخشب الجيد يالذات مطلوبا في مصر والعراق لبناء المعابد والقصور وقوارب الصيد والسفن التجارية وسفن الاساطيل . وكانت أخشاب لبنان المستقيمة والمستديرة تمدهم بحاجاتهم من الاخشاب بل بما يحتاجون اليه من القار والراتنج اللازم لصناعة السفن ، وبالنسبة

(٥) حزقيال ١/٢٧ - ٣٦ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٠٧ - ١٠٨ نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١١٦ ، وكذا

Strabo, XVI, 3, 4.

(٦) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٤ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١١٦ ، ج . كونتنو : الحضارة الفينيقية ص ٩٥ .

لليونان كان أرز لبنان أرزا فينيقيا^(٧) .

. ولعل من أشهر رحلاتهم البحرية التي استغرقت زهاء ثلاثة أعوام، دارت فيها سفن الفرعون «نخاو الثاني» (٦١٠ - ٥٩٥ ق.م) بملاحيتها الفينيقيين حوله أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح^(٨) ، كما أشرنا من قبل .

ولم يكن «نخاو الثاني» هو وحده الذي استغل مهارة الفينيقيين البحرية ، وإنما سبقه الى ذلك سيدنا سليمان عليه السلام (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م) ، وطبقا لرواية التوراة ، فلقد أنشأ النبي الكريم ، بالاتفاق مع حيرام ، ملك صور ، كما أشرنا من قبل، أسطولا فيميناء «عصيون جابر» ، استغل فيه المهارة الفينيقية ، كما كان يديره فينيقيون كذلك^(٩) ، ونقرأ في سفر الملوك الاول ، أن حيرام قد أرسل عبيده النواتى العارفين بالبحر ، مع عبيد سليمان^(١٠) ، ونقرأ كذلك عن أسطول منفصل لحيرام أبحر مع أسطول سليمان الى «أوغين»^(١١) ، وأتى من هناك بالذهب والاختشاب النادرة والاحجار النفيسة ، وكل ما هو نادر وغريب^(١٢) .

هذا ويذهب «ستانلى كوك» الى أن سليمان عليه السلام ، وحيرام المصورى ، قد امتلكا أسطول «ترشيش»^(١٣) ، والذي يمكن الحكم عليه

(٧) حسن أحمد محمد : لمرجع السابق ص ٣٩٤ ، وكذا Thepharstus, III, 12, 3, IV, 2, 2, IX, 2, 3.

(٨) محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثالث ص ٦٤٢-٦٤٣ (الاسكندرية ١٩٨٨) ، وكذا

Herodotus, IV 42.

9) W. Keller, Op. Cit., P. 201.

(١٠) ملوك أول ٢٧/٩ .

(١١) ملوك أول ١١/١٠ - ١٢

(١٢) ترشيش : يذهب بعض الباحثين الى انها فى «سردينيا» ، ويذهب آخرون الى انها «ترتيسوس» فى جنوب أسبانيا على مقربة من جبل طارق ، أو لعلها (قرطاج) المدينة الواقعة فى شمال أفريقيا (قاموس الكتاب المقدس ٢١٥/١ - ٢١٦ ، وكذا

F Thieberger, King Solomon, London, 1957, P. 206.

M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, P. 1070-1071.

من اسمه ، أنه قد ذهب الى ترشيش في أسبانيا ، وأما أسطول الفينيقيين فقد أبحر من «عصيون جابر» في أدوم ليحضر الذهب من أرض أوفير^(١٣) (ربما الأرجح جنوب غرب الجزيرة العربية)^(١٤) ، وهكذا يبدو أن رحلة الثلاث سنوات التي ذهبت الروايات الى أنها تتصل برحلة أوفير هذه ، ربما كانت تتصل بأسطول ترشيش الى أسبانيا ، علما بأن هناك من يرى أن هناك علاقات تجارية بين حيرام المصوري من ناحية ، وبين قبرص وأسبانيا من ناحية أخرى^(١٥) .

ثانيا : الفينيقيون ومستعمراتهم في البحر المتوسط :

لم يكن الفينيقيون يكتفون بمجرد التجارة والعودة من حيث أتوا ، بل كانوا يستقرون ويستعمرون وينشئون مدنا فينيقية جديدة ، وكان الفينيقيون الذين يستقرون لا يثيرون فزع السكان الأصليين ، فقد كانت أعدادهم قليلة ، وكانوا يتسربون دون أن يثيروا الريب والشكوك ، ولم يكن لهم اتجاه سياسى معين ، فسرعان ما يتلاءمون مع الوسط الذى يعيشون فيه ، فهاذا تم انشاء المستعمرة واستقر فيها المهاجرون بدأت تتصل بالمدن الفينيقية الكبرى عن طريق البحر ، وتعمل على تصريف المنتجات الفينيقية في البلاد التى تنشأ فيها ، كما تعمل على جمع المادة الخام ، وأرسالها الى بلاد الشام .

وهكذا انتشرت المستعمرات من رأس الدلتا الى ساحل قلقية الى بلاد اليونان ، كما انتشرت في جزر البحر الابيض المتوسط ومستعمراتهم في شرق البحر المتوسط أقدم من مستعمراتهم في أفريقيا وأسبانيا ، فقد استقروا في قبرص ورودس منذ منتصف القرن الحادى عشر ، ثم استقروا بعد ذلك في صقلية ثم في سردينيا .

وقد وصلت المغامرات الاستعمارية الفينيقية في غرب البحر المتوسط

13) S. A. Cook, in CAH, III, Cambridge, 1965, P. 367.

(١٤) أنظر عن الآراء التى دارت حول موقع أوفير (محمد بيومى

مهران : اسرائيل ٧٨٢/٢ - ٧٩٣) .

(١٥) ج . كونتنو : الحضارة الفينيقية ص ٧٤ .

الى الذروة بعد منتصف القرن العاشر قبل الميلاد الى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد ، فقد انشئت مستعمرة «قرطاج» في شمال افريقيا ، وتخطوا مضيق جبل طارق ونفذوا الى المحيط الاطلسي ، وأنشأوا مستعمرة قادنس (كاديس أوجاديس الحالية ، قرب مصب الوادي الكبير) على شاطئ أسبانيا الغربي ، وكانوا يحصلون من هناك على الفضة المتوفرة في أسبانيا •

هذا وقد كانت السفن تخرج من أجادير الاستجلاب القصدير ، فتبلغ الشاطئ الشمالي الغربي لاسبانيا وقد تصل الى جزائر «كاسيتريد» (جزائر سيلبي) وكل هذه البلاد الاسبانية كانت تسمى عند الفينيقيين بلاد «ترشيش» ويقابل هذه التسمية عند اليونان «ترتيسوس» (١٦) •

وعلى أية حال ، فان اسم «ترشيش» الذي نصادفه في كتابات التوراة (١٧) وآشور ، هو اسم فينيقي على الاغلب ، بمعنى المنجم أو مكان المصهر أو معمل تكرير ، هذا وقد اكتسبت تسمية «ترشيش» بسبب بعد البلاد معنى غامضا ، وصارت تعني المغرب الاقصى ، أو أبعد البلاد التي بلغت التجارة الفينيقية ، وان ذهب بعض الباحثين الى أن ترشيش هي «طرسوس» في قلقيا ، حيث كانت هناك مستعمرة فينيقية ، كما أن طقوس عبادة البعل فيها تشبه تلك التي في صور وقرطاجنة (١٨) •

وهناك من المستعمرات الفينيقية في أسبانيا أيضا «مقة» (ملاكة بالفينيقية) ومعنى اسمها «دكان» أو معمل صغير ، ويذكر «سترابو»

(١٦) حسن أحمد محمود : المرجع السابق ص ٣٩٥ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ١١١ - ١١٣ ، ج . كونتنو : المرجع السابق ص ٩٦ ، وكذا Herodots, III, 115. وكذا Strabo, III, S, 11.

(١٧) ملوك أول ٢٨/٩ ، ٢٢/١٠ ، أخبار أيام ثان ٢١/٩ ، ٢٠ / ٣٦ ، أشعياء ١٩/٦٦ ، ارميا ٩/١٠ ، حزقيال ٢٧ / ١٢ ، مزمور ٧/٤٨ (١٨) قاموس الكتاب المقدس ٢١٦/١ ، ج . كونتنو : المرجع السابق ص ٩٦ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ١١٢ ، وكذا

W. Albright, in Study in History of Civilization P. 42.

مكانا لتمليح الاسماك في هذه المدينة ، وهو أمر يدل على ما كانوا يصنعونه هناك ، وكانت «قرطبة» في الاصل مدينة ايبيرية استولى عليها الفينيقيون ، وأقدم نقودها تحمل حروفا فينيقية استبدلت فيما بعد باليونانية (١٧) .

ولعل من أهم المستعمرات الفينيقية في جزر البحر المتوسط انما كانت «صقلية» التي اتخذوها محطة ينتفعون بها في أسفارهم الخطيرة الى أعمد هيرقل (وهما الرأسان الصخريان عند مضيق جبل طارق) ونزلوا خاصة في «بانورموس» (بالرمو) وسوليئس (سولونت) وفي «موتيا» ، ومواقع هذه المدن الصقلية الثلاث مواقع اختيرت في عناية بالغة مسترشدين بما يجدون فيها من المنافع ، وكانت «بانورموس» في أحد الخلجان ، و «سوليئس» عند أحد الرؤوس ، وموتيا على جزيرة في بطن الخليج الواقع شمال رأس ليليبه ، وكانت الأخيرة أهمها جميعا ، حيث كانت القاعدة الأساسية التي انطلقت منها «قراطاج» لبشارة حروبها الصقلية حتى حوصرت ودمرت عام ٣٩٨ ق م .

وطبقا لرواية ديودور الصقلي ، فلقد استقر الفينيقيون أيضا في جزيرتي مالطة وجولوس وذلك لأنها جزر واقعة في عرض البحر صالحة للاساطيل لتكون مرافئ ارتفاق عند المرور من شرق البحر المتوسط الى غربيه (٢٠) .

هذا وقد كان للفينيقيين عدة مراكز في «كورسيكا» و «سردينيا» ، ففي سردينيا كانت هناك أربع مدن رئيسية هي : سولكس وكارالكس ونورا وثاروس ، وكانت «سولكس» تقع على السفح الداخلي لجزيرة «أنتيكو» الحالية ، الى جانب ممر يصل الجزيرة بالارض الرئيسية وأما الثلاثة الأخرى فهي مرتفعات جبلية .

(١٩) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١١٣ ، وكذا

Stralo, III, 4, 2.

(٢٠) ج . كونتنو : المرجع السابق ص ٩٥ - ٩٦ ، محمد بيومي
مهران : المرجع السابق ص ١٨٦ .

هذا ولم يعثر في «سولكس» الا على آثار قليلة تكشف عن طبوغرافيتها الفينيقية ، وإن عثر بها على فخار فينيقي يرجع الى القرن الثامن ق.م ، ويعد أقدم ما عثر عليه في سردينيا ، كما عثر على عدد من الالواح تشبه نظائر لها عثر عليها في حفائر «تانيت» في قرطاج ، مما قد يشير الى احتمال وجود معبد هناك .

وأما في «كارالس» (كاليارى) حيث حجيت أبنية من عصر متأخر الطبوغرافية الفينيقية ، فإن المحطة الاصلية تشبهه من نواحي كثيرة نظيرتها بالقرب من مرتفع «سان ايليا» الى الجنوب الشرقى ، وربما كان موقع الميناء القديم حيث توجد البحيرة المالحة اليوم الى شرقى «كاليارى» ، ولم يعثر هناك على مقابر من عصر مبكر ، ولكننا نلتقى بالمقابر من القرن الخامس وما بعده منتشرة على طول جانب التل الى شمال غرب المدينة الحديثة .

وأما «نورا» فتقع عند طرف شبه الجزيرة ، ولها ميناء ، ولم تشغل منذ العصر الرومانى الا بقلعة في العصور الوسطى في مكان قلعة فينيقية ، وقد عثر بها على مقابر من القرن السادس وما بعده ، كما عثر على معبد للمعبود «تانيت» ومجموعة ضخمة من اللوحات والاولانى الجزية .

وأما «ثاروس» ، فتقع الى الغرب من الجزيرة ، ولا تزال بحاجة ماسة الى اجراء حفائر بها تكشف عن آثارها (٢١) .

هذا وقد سعى الفينيقيون للنزول ببلاد اليونان ، وكثر تردد تجارهم عليها ، بل يبدو أن بلاد اليونان لم تخل من مستعمرات فينيقية ، يدل على هذا انتشار الاسماء السامية في بلاد اليونان ، كما أن بعض المعبودات اليونانية متأثرة بالديانة السامية ، ويبدو أن الفينيقيين لم يتركوا ناحية من البحر المتوسط ، الا أوغلوا فيها فاننتشروا في ساموس

(٢١) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٦٠ .

وكريت ، بل يذهب «ديودور الصقلي» الى القول بأن أهل مالطة من أصل فينيقي ، كما أن أهل «تراقيا» فينيقيوا الاصل أيضا ، وعلى أية حال ، فليس بجزيرة مالطة آثار لمدينة فينيقية ، ومع ذلك فهناك مقابر «بونية» كثيرة ، ترجع الى القرن الخامس ق.م وما بعده ، وهناك عدد قليل منها يرجع الى القرنين الثامن والتاسع ، وربما كان أشهر مواقعها هو حيث تقع اليوم مدينة «فالتا» (٣٣) .

هذا وتتصل «كورنثوس» ، وهي مؤسسة فينيقية في الغالب ، باله من أصل فينيقي هو «مليكرتس» (مقارت) ، كما تذكر الاساطير .

ثالثا : قرطاج

لا ريب في أن أعظم المدن الفينيقية عبر البحر قاطبة انما كانت «قرطاج» ، وتقع على مقربة من مدينة تونس الحالية ، فيما بين «بوسعيد» و «لاجويت» ، ويرجع تأسيسها الى عام ٨١٤ ق.م ، وان زعم البعض الى أنه يرجع الى ما قبل ذلك ، الى القرن الثالث عشر ق.م ، كما أن أقدم مخططاتها لا تشير الى أنها ترجع الى ما قبل القرن الثامن ق.م ، حيث ثبت الان عدم وجود أية آثار فينيقية الاصل في تلك المناطق قبل حوالي ٧٥٠ ق.م (٣٣) .

هذا ويذهب البعض الى اسم «قرطاج» الفينيقي مشتق من كلمتي «قرت حدشت» بمعنى المدينة أو القرية الحديثة ، وطبقا لقصة انشائها (٣٤) ، وبعبارة أصح أسطورة انشائها ، فقد أسستها الاميرة

(٢٢) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٦٠ - ١٦١ ، حسن أحمد محمود : المرجع السابق ص ٣٩٥ ، وكذا

Diodorus, V, 12, 2-4.

H. R. Hall, Op. Cit., P. 523.

Autran, Pheniciens, P. 5.

فيلب حتى : المرجع السابق ص ١١٣ .

23) D. Harden, The Phoenicians, London. 1963, P. 54.

B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 22. وكذا

(٢٤) أنظر : رشيد الناضوري : المغرب الكبير - بيروت ١٩٨١ -

الجزء الاول ص ١٦٢ - ١٦٣ وكذا : محمد بيومي مهران : المغرب القديم - تحت الطبع .

«اليسا» ابنة «متان» ملك صور، عندما هربت من ظلم أخوها «بيجماليون» ويسمى الرواة الاميرة «اليسا» هذه باسم «ديدون» أى «الهاربة» ، وليست لدينا أية وثائق تسوغ قبول هذه الرواية أو رفضها^(٢٥) .

وعلى أية حال ، فمئذ تأسيس قرطاج عام ٨١٤ ق.م ، اعتبرت نفسها جزءا من مدينة «صور» ، أو بعبارة أخرى تابعة لها ، وكانت ترسل في كل عام عشر دخلها لصور ، فضلا عن رسول يقوم بتقديم القرابين لمعبود مدينة صور «ملقارت» .

ولم يبدأ التاريخ الحقيقى لقرطاج إلا منذ القرن السادس ق.م ، عندما بدأت صور تضمحل ويقل شأنها تحت تأثير ضربات «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) ، وسرعان ما ازدهرت قرطاج ، حتى غدت زعيمة المدن الفينيقية فى أواسط البحر الابيض المتوسط ، ثم سارت قرطاج على نفس سياسة صور وصيدا ، فأظلت المستعمرات الفينيقية بحمايتها ، وأسست مستعمرات جديدة ، مثل المستعمرات التجارية فى جزيرة «اليسا» بين سردينيا وأسبانيا حوالى عام ٦٥٠ ق.م ، فضلا عن مستعمرة أخرى على شواطئ «مينوركا» فى جزر البليارد^(٢٦) .

غير أن الصدام سرعان ما بدأ بين القرطاجيين واليونان بسبب المنافسات التجارية والسياسية بينهما ، وقد بدأت بوادر ذلك الصدام فى جزيرة صقلية التى جمعت بين الفينيقين واليونانيين ، وذلك فى بداية القرن السادس قبل الميلاد ، ولم تستطع مدينة صور القيام بدور الحماية والدفاع عن هذه المراكز الفينيقية الغربية بسبب الضغط الآشورى والبابلى الكلدانى .

وهكذا بدأت مدينة قرطاج تحتل مكان الزعامة ، وعملت على تحقيق

(٢٥) ج . كونتنو : المرجع السابق ص ٩٨ .
(٢٦) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٥ - ١٨٦ ، وكذا
O. Harden, Op. Cit., P. 54.

تلك الحماية ، ويمكن القول أنه منذ ذلك الوقت بدأت الدول القرطاجية في التواجد فعلا ، كقوة سياسية سامية جديدة في غربى البحر الابيض المتوسط ، منذ حوالى منتصف القرن السادس ق.م .

هذا ولم يقتصر التهديد اليونانى على جزيرة صقلية ، وانما ظهر أيضا على الساحل الليبى فى طرابلس ، حيث استقرت بعض العناصر اليونانية وحاولت أيضا منافسة القرطاجيين ، هذا فضلا عن القوة الفارسية العظيمة التى وصلت سيادتها حتى مصر فى عام ٥٢٥ ق.م ، ثم حاولت التفرش بالمراكز الفينيقية فى الشمال الافريقى ، وعلى رأسها قرطاج ، ولكن البحارة الفينيقيون فى الاسطول الفارسى امتنعوا عن تنفيذ الاوامر الفارسية ، وبذا تخلص الفينيقيون من عنصر جديد قوى ، كان من أشد الاخطار التى تهدد تواجدهم فى تلك المنطقة (٢٧) .

وايا ما كان الأمر ، فإن الحرب سرعان ما نشبت بين اليونانيين والقرطاجيين حوالى عام ٥٥٠ ق.م ونجح «مطخوس» (ملك=سيد) أن يهزم اليونانيين فى صقلية ، وأن يطردهم منها ، غير أنه انهزم فى سردينيا فعاقبه مواطنوه بالنفى من قرطاج ، وعنفذ تحول ضد وطنه وحاصر قرطاج وأخذها وتولى حكمها ، ثم خلفه «ماجون» وعلى يديه تدعمت قوة قرطاج ، وفى حوالى عام ٥٣٥ ق.م ، وقع اشتباك بحرى بين اليونان والاسطول الفينيقى ، وفى ظل النصر طرد القرطاجيون اليونان من كورنيكا ، وأحلوا مكانهم حلفاءهم أهل «اتروريا» (٢٨) .

وثبت القرطاجيون أقدامهم فى هذه الفترة أكثر من موضع على شاطئ أسبانيا ، وامتدت امبراطوريتهم القوية فى القرن السادس ق.م ، من حدود ليبيا الى أعمدة هيرقل (هيركوليس) وضمت جزر البليارد ومالطة وسردينيا ، وبعض مواقع على ساحل أسبانيا والغال ، وهكذا فإن الفرصة التى لم تتح لصيدا وصور ، تحت النفوذ المصرى

(٢٧) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٧٢ - ١٧٣ .
(٢٨) ج ٠ كونتنو : المرجع السابق ص ٩٨ - ٩٩ .

والاشورى ، فى أن تكون امبراطورية ، فقد نجحت قرطاج فى أن تفعل ذلك (٢٩) .

وفى عام ٥٠٩ ق.م ، عقدت قرطاج أول حلف مع روما ، وظل تاريخ قرطاج طوال القرن الخامس كله يدور حول صراعها الطويل مع صقلية ، وهو صراع انتهى لصالح قرطاج .

وفى القرن الثالث قبل الميلاد بدأت الحرب البونية ، وفى الحرب الاولى منها (٢٦٨ - ٢٤١ ق.م) انتصر الرومان فى البحر ، وفشلوا فى أفريقية ، فانسحروا الى صقلية وانتصروا بها على أهل قرطاج .

وفى الحرب البونية الثانية (٢١٩ - ٢٠٢ ق.م) قام «هانيبال» (حانى بعل بالفينيقية ، ومعناه نعمة بعل) ، وكان قد أقسم ، وهو ما يزال يافعا ، أن يكون عدو روما الدائم بمشروعه الذى كرس له حياته ، وزحف على ايطاليا من أسبانيا ، بطريق جبال الالب ، وبعد قتال ناجح دام ١٥ عاما فى الارض الايطالية هوجمت روما أثناءه ، استدعى «هانيبال» الى أفريقية ، وهناك كسر فى معركة «زاما» عام ٢٠٢ ق.م الحاسمة فى جنوب غربى قرطاج .

وفى عام ١٩٦ ق.م ، هرب هانيبال الى صور ، ومن هناك اتصل بملك سورية «انطيوخس» واشترك معه فى الحرب ضد أعداء قرطاج الالقاء ، غير أنه كسر نهائيا ، ولم يعد له أمل فى الهرب ، فانتصر فى آسيا الصغرى فى عام ١٨٣ ق.م ، وهو يقول «أن هذا سيوفر على الرومان قلقهم فى انتظار موت رجل مسن مكروه» .

وفى الحرب البونية الثالثة (١٤٩ - ١٤٦ ق.م) انتصر الرومان على القرطاجيين ، وانتهت قرطاج ، وخربت تخريبا تاما ، حتى لم يبق منها شئ قائم ، وحرمت للأبد بناء مساكن عند موقع المدينة المهدمة ،

(٢٩) فيب حتى : المرجع السابق ص ١١٦ .

والتي تركت طعمة للنيران لمدة سبعة عشر يوما ، حتى جعلت موقعها كومة من الرماد ، ثم اعملوا المحراث فيها ، ومع ذلك فروما نفسها هي التي أسست منازل لحامية جديدة في موقع قرطاج ، بعد هدمها بأربع وعشرين سنة ، الا أن تاريخ هذه المدينة الجديدة - الوارثة للمستعمرة الفينيقية يدخل في تاريخ روما ، وليس في تاريخ قرطاج (٣٠) .

بقت الإشارة الى أهم المستعمرات الفينيقية في الشمال الافريقي ، غير قرطاج ، والتي أهمها :

(١) أوتيكا :

أو « عتيقة بمعنى القديمة أو القديمة ، تميزا لها عن قرطاج بمعنى الحديثة ، وقد سماها «ابن خلدون» (وطائفة) ، وتعتبر أقدم مستعمرة فينيقية في الشمال الافريقي ، على الأرجح ، وقد أسستها صور حوالي عام ١١٠٠ ق م ، وكانت تقع على مرتفع من الأرض عند مصب نهر «بجراداس» أهم أنهار تونس ، الذي يجري في أخصب بقاعها ، وقد تغيرت معالم الموقع اليوم عنها في العصور القديمة ، فغطى الغرين المجرى الأدنى للنهر ، حتى ليرى موقع المدينة الفينيقية الرومانية اليوم فوق مرتفع يحيط به الطمي الفيضى على مبعده ١٠ كيلا من البحر ، ويمكن التعرف على القلعة القديمة عند تل كان يوما ما في داخل البحر ، مع جزيرة الى شرقه ، يفصلها عنه ممر مائي ضيق .

هذا وما تزال هناك ، كما هي الحال في قرطاج ، خرائب رومانية كثيرة ، وان كان من العسير التعرف على آثار بونية ، وقد ترجع أقدم المقابر هنا الى القرن الثامن ق م ، ومكانها على جانبي الممر المائي . أما المقابر من العصر المتأخر فبعيدة الى الغرب والشمال (٣١) .

(٣٠) أنظر : رشيد الناصوري : المرجع السابق ص ٢٤٤ - ٢٨٣ ، ج . كونتنو : المرجع السابق ص ٩٨ - ١٠٠ نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٧٩ - ١٨١ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ١١٦ ، وكذا B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 160-205.

(٣١) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٦٤ ، محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ١٨٥ ، ج . كونتنو : المرجع السابق ص ٩٧ .

(٢) هيو:

وهى بنزرت الحالية ، وكان لها مرفأ عظيم فى بحيرة بنزرت ، وكانت مقبرا ملكيا ، ولذا أعطيت لقب Regius ، وكلمة «هيو» كلمة ليبية ، وتذهب الاساطير الى أن «لييا» وهو الاسم اليونانى لشمال أفريقيا ، كانت فى الاصل اسم زوجة الاله «بوسيدون» اله البحر ، ووالدة «أجينور» ملك فينيقيا •

(٣) لييتس:

وهى المدينة الوحيدة التى اختيرت فى موقع غير مناسب ، بجوار خليج «سرتة» ، ولم يكن لها مرفأ الا مصب نهر •

(٤) وأما أبعد مكان أمكن الكشف عنه على الساحل الافريقى غربا ، فكان الى جنوب مدينة «موجادور» مباشرة ، على شاطئ المغرب بين الدار البيضاء وأجادير ، حيث يصب نهر «كسوب» فى خليج صغير تذود عنه أمواه المحيط جزيرة صغيرة ، طولها ٣ كيلا ، وعرضا ١ كيلا ، وتبعد عن الشاطئ بمسافة تتراوح بين كيلو ونصف ، وثلاثة كيلو مترات ، وقد عثر هناك على ما يؤكد قيام مستعمرة فينيقية بها (٣٢) •

(٣٢) فيليب حتى : المرجع السابق ص ١١٠ ، ج٠ كونتنو : المرجع السابق ص ٩٧ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٦٢ - ١٦٣ •

البَابُ الرَّابِعُ

الْأَرَامِيُّونَ

الفصل الأول

الآراميون

(١) موطنهم الاصلى وهجراتهم :

يذهب فريق من الباحثين الى أن الموطن الاصلى للآراميين ، انما كان في الصحراء العربية السورية^(١) ، ومن ثم فقد ذهب البعض الى اعتبار منطقة الهلال الخصيب هي الموطن الاول للآراميين ، غير أن هناك من يرى أن قيام دولة آرامية أتخذت من دمشق عاصمة لها ، وبسطة نفوذها على شمال الشام ، واقليم الجزيرة ، انما كان من وراء هذا الاتجاه^(٢) ، ولكن المرجح — كما أشرنا من قبل — أن ذلك الموطن انما كان في شبه الجزيرة العربية^(٣) .

هذا وقد توصل «ب • مورتز» بعد دراسة لأسماء الآراميين الى أن القوم ما كانوا إلا عريا ، حيث أن هذه الاسماء قد سبق أن عرفت بأنها كلمات عربية ، ومن ثم فان الآراميين عرب بالمعنى الواسع للاصطلاح الذي استعمله «سبرنجر» بصفته أحدى المجموعات السامية التي اتجهت الى الهلال الخصيب ، وبدون شك فان أسماءهم الفعلية لدليل على جنسهم السامى ، كما أن هذا يشير الى نطق البدوى فيما قبل الآرامية المبكرة ، قبل انتشار اللغة الآرامية في الهلال

1) M. F. Unger, Israel and the Aramaeans of Damascus, London, 1957, P. 38.

A. Dupont - Sommer, Les Aramaeans, Paris, 1949, P. 15.

(٢) حسن محمود : حضارة مصر والشرق القديم — العبرانيون —

ص ٢٤٩ .

(٣) كارل بركلمان : العرب والامبراطورية العربية ص ١٣ ، وكذا

E. G. Kraeling. Aram and Israel, N. Y., 1918, P. 13.

• الخصيب (٤)

وعلى أى حال ، فإن الاراميين انما يمثلون الموجة الثالثة من موجات الهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية ، بعد موجة الاراميين من ناحية الشمال ، ويتحركون الى الشرق من ناحية العراق ، وإلى المغرب من ناحية سورية ، حتى بدأ القوم يستقرون في العراق الاوسط •

وهكذا كان الاراميون — قبل أن يستقروا في مواطنهم الجديدة ويكونوا امارات ودويلات صغيرة — منتشرين في البادية انتشارا واسعا ، حيث كانوا ينتقلون بين نجد في الجنوب ، وحدود الشام في الشمال ، ونهر الفرات في الشرق ، وخليج العقبة في الغرب (٥) •

كانت الجزيرة العربية — كما قلنا آنفا — تقذف بالموجة تلو الموجة الى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجاذبة ، وكان الاراميون احدى هذه الموجات التي خرجت من بلاد العرب في فترات من القحط ، ربما كانت بالغة الفظورة (٦) ، ثم اندفعت نحو الشمال وهبطت سورية وفلسطين ، واستقرت في البقاع والبلدان الخصبة التي تحيط بشبه الجزيرة العربية من الشمال ، ثم سرعان ما بدأت المقاتل الارامية تتوغل في العراق وسورية ، وان كان ذلك بدرجة بطيئة ، بحيث أستغرق هذا التوغل فترة طويلة ، حتى تم للقوم الاستقرار في نهايتها في المناطق التي طابت الاقامة لهم فيها (٧) •

وأما متى تمت هذه الهجرة الارامية ؟ فليس عند العلماء اجابة

4) Paymond, A. Bowman, in JNES, 7, 1948, P. 66-67.

(٥) مراد كامل ومحمد حمدي البكري : تاريخ الادب السرياني من نشأته الى الفتح الاسلامي — القاهرة ١٩٤٩ ص ٣ ، جرجى زيدان : العرب قبل الاسلام ص ٤٤ •

(٦) كارل بروكلمان : المرجع السابق ص ١٣ •

(٧) بولس عياد : الاراميون في مصر ، القاهرة ١٩٧٥ ص ٧ - ٨

وكذا

H. R. Hall, The Ancient History of the near East, London, 1963, P. 400.

يمكن أن تصل الى حد اليقين ، ويؤكد «دوبون - سومير» أنه ليس هناك أى دليل قاطع يبين العصر الذى توغل فيه الاراميون من أراضى الهلال الخصيب أو المنطقة التى خرجوا منها^(٨) وان رأى أستاذنا الدكتور نجيب ميخائيل أنها تمت فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد^(٩) .

٢ - بدء ظهور الاراميين :

كان الاعتقاد السائد من قبل أن نقش الملك الاشورى «أريك - دين ايلو» (١٣١ - ١٣٠٦ ق.م) ، ثم نقش «تجلات بلاسر الاول» (١١١٢ - ١٠٢٦ ق.م) يحتويان على أقدم إشارة الى الاراميين ، ولكن ثبت الآن أن الاراميين يرجعون الى أزمنة موعلة فى القدم : اذ يذكر نقش الملك «نارام - سن» (٢٢٩١ - ٢٢٥٥ ق.م) - ويرجع الى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد - اقليما يدعى «أرام» ويبدو من النص أنه كان يقع فى أعلى بلاد الرافدين ، وان كان تفسير هذا النص ليس مؤكدا على وجه اليقين .

غير أن أرام سرعان ما تذكر من جديد بعد ذلك بقليل ، على لوحة وثائق «درهم»^(١٠) التجارية ، التى ترجع الى حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م . وتشير الى مدينة أو دولة «أرام» ، على مقربة من «اشنونا» (تل الاسمر الحالية) فى وادى دجلة الاسفل ، وثمة لوحة أخرى من لوحات «درهم» ترجع الى بضعة سنوات بعد ذلك . وقد جاء فيها «أرام» علما للشخص ، وقد تكرر هذا الاسم العلم مرة أخرى ، حوالى عام ٧٠٠ ق.م ، فى نصوص «مارى» وحوالى عام ١٤٠٠ ق.م فى نصوص «أوجاريت» .

8) A. Dupont-Sommer, Op. Cit., P. 15.

(٩) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ١٩١/٥ (الاسكندرية ١٩٦٣) .

(١٠) يرى «موسكاتى» «أن درهم» مدينة سومرية قريبة من «نيبور» وكانت تسمى قديما «بزر شد جن» بينما يرى الدكتور محمد عبد القادر أن درهم أو «دريهم» اسم شخص (مبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ١٧٦ - ١٧٩ محمد عبد القادر : المرجع السابق ص ٢٠٠) .

هذه أقدم ما لدينا من إشارات إلى الآراميين ، وبدهى أنها لا تكفى لمعاونتنا على تتبع تاريخهم القديم ، ولكنها تكفى لبيان الحاجة إلى تعديل الرأي الذى كان سائداً فى وقت ما من أن ذلك التاريخ إنما يبدأ فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد^(١١) ، كما أشرنا من قبل ، ومن الجائز أنه قبل استعمال اصطلاح «الآراميين» فإن هذا الشعب إنما كان يعرف بأسماء قبلية مختلفة ، وفى الفترة الآشورية التى تبدأ من عهد «سرجون الثانى» (٧٢٢ — ٢٠٥ ق.م) كان يوجد أكثر من خمسين اسماً لقبائل آرامية .

٣ - اسم آرام والآراء التى دارت حوله :

اختلفت الآراء حول معنى اسم «أرام» فقد ذهب بعض اللغويين إلى أن أصل الاسم مشتق من كلمة «ان ع ام ون» أى «مخلوقات» أو كما فسره أحد العلماء بأنه اسم أو لقب اله ، ولكن «كربلنج» يذهب إلى أن اسم «أرام» إنما هو اسم لشعب ، وليس اسم منطقة ، وأن آرام إنما يعنى سكان البلاد المرتفعة أو العالية ، وحتى هذه التسمية (أى البلاد المرتفعة) إنما كانت موضع خلاف ، فالبعض يرى أنها أطلقت على القوم باعتبارهم من «نجد» ، والبعض الآخر يذهب أن الاسم لم يطلق عليهم حتى إبان إقامتهم فى منطقة «طور عبيد» ، وأن تعبير سكان البلاد المرتفعة أطلق عليهم لإقامتهم فى أعلى الدجلة والفرات ، باعتبار أن هؤلاء كانوا بالنسبة لسكان الوادى (دجلة والفرات) يعيشون فى أماكن مرتفعة^(١٢) .

ولعل علاقة الآراميين بالآخلامو والمكلدانيين^(١٣) ، إنما كانت سبباً فى التوسع فى مدلول لفظ «الآراميين» إذ يطلقها البعض على الشعوب السامية التى تناثرت وتناجست فى منطقة الهلال الخصيب ، ويعلمون ذلك

11) P. A. Dowman, Op. Cit., P. 66-7.

(١٢) بولس عياد : المرجع السابق ص ٨ .

(١٣) فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - الجزء الاول ص

١٥٧ ، ١٧٥ ، ٢٣٨ .

بأن بلاد الاراميين يقال لها عند اليهود آرام ، لان آرام بن سام هو الذي تبوأها وعمرها بنسله^(١٤) .

هذا ويتجه بعض الباحثين الى أن الذين حملوا اسم «أرام» وأطلقوه على السكان الاراميين في سورية ، انما هم «الحيثيون» الذين كانوا على اتصال بأرامى أعالي الدجلة والفرات ، ثم سيطروا على سورية ، وفي تلك الاثناء نقلوا الاسم الى سورية من أعالي الدجلة والفرات ، ولعل هذا هو السبب في أن اسم الاراميين أطلق على «الاخلامو» الذين دخلوا سورية بعد تدهور قوة الحيثيين ، ويرجح «كريلنج» أن هذه القبائل لم تحمل اسم «أرام» حتى اقامتهم في منطقة طور عبيد ، وأن تعبير (أرام النهرين) ظهر حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد^(١٥) ولكن (ميريل أونجر) يشير الى حقيقة هامة ، وهى أن الاسم لم يطلق عليهم الاشوريون عندما سكن الاراميون في منطقة طور عبيد ، بل يرجع الى عهد أسبق من ذلك^(١٦) .

(٤) الاراميون والاخلامو :

هناك من الادلة ما يشير الى أن الاراميين قد ذكروا مع الاخلامو ، بصورة وثيقة في شمال بلاد الرافدين^(١٧) ، وكان تكرار الاسمين مجامعا لفت انتباه العلماء ، فهناك نقش للملك الاشورى (أريك - دين - ايلو) ، يتحدث فيه عن انتصاراته على جماعات (أخلامو) ، كما يرد كذلك نفس الاسم في تاريخ خلفائه ، حتى اذا ما وصلنا الى عهد (تجلات بلأسر

(١٤) تكوين ١٠ : ١٢ ، اقليمس يوسف داود : اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية ، الموصل ١٨٩٨ ص ٧ .

(١٥) بولس عياد : المرجع السابق ص ٨ ، وكذا

Emil G. Kraeling Op. Cit., P. 20-22.

(١٦) M. F. Unger, Op. Cit., P. 39. ثم قارن : تكوين ١٠ : ١٢ ،

أحمد فخرى : دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ١١٦ وما بعدها ، وكذا Sabatino moscati Histoire et civilization des peuples Semitiques Paris, 1955, P. 164.

E. G. Krasling, Op. Cit., P. 21-22.

وكذا

(١٧) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٥٧ ،

(الاول) ، فاننا نجد المعامل الاشوري انما يعلن أنه قد هزم (الاخلامو الاراميين) الذين جاءوا من الصحراء مغيرين على ضفاف الفرات ، وهكذا كان ذكر (الاخلامو) مع (الاراميين) سببا في أن يظن البعض بأن الاراميين فرع من الاخلامو ، وأن كلمة الاخلامو انما تعنى (حلفاء) ، لان أصل الكلمة العربية (خلم) (بكسر فسكون) انما يعنى صديق أو صاحب ، وجمعها (أخلام وخلماء) (١٨) .

غير أن هناك فريقا من العلماء ، انما يذهب الى أن كلمة (خلم) لا تعنى في هذا الموضع (حليف) ، بخاصة وأن صيغة الجمع (أخلامو) انه اترجع الى عصر أحدث (١٩) ، هذا فضلا عن أن هناك أراميين آخرين يحملون اسما آخر أو أسماء أخرى ، كما أن البدو الاسيويين انما كانوا معروفين للمصريين منذ أيام الاسرة الاولى (حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م) تحت اسم (ستيو) (Setia) هذا فضلا عن أنهم قد ذكروا في النقوش الاكدية منذ حوالى عام ٢٧٠٠ ق.م وأنهم قد استقروا على طول الفرات الاوسط في منطقة تدعى (Sutium) (٢٠) .

ويفضل (سبتينو موسكاتى) أن يفسر اسم (أخلامو) على أنه انما كان اسما يطلق على قبيلة من القبائل البدوية ، ثم توسع في استعمال الاسم ، وهكذا يمكن اعتبار كلمة أخلامو ، انما تعنى المتحالفين ، وهنا يبدو أن الاراميين انما كانوا جزءا من هذا التحالف ، الذى تكون ضد (اريك — دين — ايلو) ، وأما بعد أيام (تجلات بلاسر الاول) فاننا نجد في المصادر الاشورية عدة اشارات أخرى الى (الاخلامو) و (الاخلامو — الاراميين) ، ولكن الاسم البسيط (الاراميين) يزداد ورودا ، وأخيرا ينفرد بالاستعمال (٢١) .

(١٨) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ١٧٧ ، ٣٤٤ .

(١٩) محمد عبد القادر : المرجع السابق ص ١٢٠ .

20) R. A. Bowman, JNES, 7, P. 67.

(٢١) موسكاتى : المرجع السابق ص ١٧٧ ، ٣٤٥ .

(٥) الأراميون والعبرانيون :

ان العلاقة بين أرامى ما بين النهرين^(٢٣) وبين العبرانيين — طبقا لمرواية التوراة^(٢٤) — انما هي جد وثيقة ، وطبقا لتقاليد الاءاء الاوائل المتى سجلت فى سفر التكوين ، فقد كان يعيش فى (فدان أرام) وميزوبوتاميا وبیت ایل ولابان قوم يدعون الاراميون ، ويعتبرون من سلالة «ناحور» (أخى ابراهيم الخليل)^(٢٥) ، وينتسب الى هؤلاء مجموعة الاراميين الذين أرسل اليهم ابراهيم يطلب زوجة لولده اسحاق^(٢٦) : كما بعث اسحاق كذلك بابنه يعقوب ليتزوج من هناك — من ابنتى لابان «ليئة وراحيل» ، وكذا من جارتيهما «زلفة وبلهة»^(٢٧) .

وهكذا فمن المجتمع الارامى فى ميزوبوتاميا جاءت النسوة الاراميات ، زوجات يعقوب الاربعة ، واللاثى يعتبرون ، على الاقل طبقا لتقاليد التوراة ، جدات القبائل العبرانية ، ومن هنا فاننا نرى كتابا عبرانيا يعترف بعد ذلك بهذه التقاليد قائلا «أراميا تائها كان أبى»^(٢٨)، وهكذا لم يكن هناك فارق كبير بين العبرانيين والاراميين ، ومن المحتمل أن العنصرين كانا قد امتزجا عند التخوم بينهما من أول وهلة ، وبذا أمكن للقبائل الاسرائيلية الشمالية — مثل نفتالى — أن تتحول بسهولة من قبيلة اسرائيلية الى سورية أو أرامية^(٢٩) .

(٢٢) المقصود بالنهرين هنا الفرات ورافده الخابور ، وليس المدجلة والفرات ، هذا وليس هناك خلاف يذكر بين تعبير «أرام النهرين» و «فدان أرام» ، ذلك لان التوراة تذكر أن عبد ابراهيم اليعاذر الدمشقى أخذ عثرة جمال ، وذهب الى أرام النهرين ، الى مدينة ناحور (نكوين ٢٤ : ١٠ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٧٦) .

(٢٣) تكوين ٢٤ : ١١ .

(٢٤) تكوين ٧ : ١٠ ، ٢٤ : ٤٠ ، ٢٥ : ٢٠ ، ٢٨ : ٢٠ .

(٢٥) تكوين ٢٤ : ٣ — ٤ .

(٢٦) تكوين ٢٩ : ٢٧ — ٣٥ ، ٣٠ : ١ — ٢٤ .

(٢٧) تثنية ١٦ : ٥ ، وكذا

R. A. Bowman, Arameans, Aramaic and the Bible, JNES, 7, 1948. P. 67-68.

28) H. R. Hall, Op. Cit., P. 400.

ولعل هذا هو السبب الذى دفع البعض الى أن يذهب الى أن هناك اتفاق سلام قد عقد بين الاراميين والاسرائيليين منذ أيام يعقوب، ذلك أن جماعة من الاراميين قد استقرت لفترة ما ، الى الجنوب من يبعوق ، والى الشرق من جلعاد ، ومن هنا كان اللقاء التاريخى الاول بين الاسرائيليين والاراميين ، والذى انتهى باتفاق بين الطرفين على اقامة نصب حجرى على جبل جلعاد — ويقع غرب الاردن ويشرف على وادى ميزرعيل — كحد فاصل بينها ، تمهد الطرفان بعدم انتهاكه لاغراض شريفة ، وفى الرواية الشعبية عن هذا الاتفاق كان يعقوب ممثلاً للاسرائيليين — أو بالاحرى للافرايميين الجلعاديين — كما كان «لابان» خاله وأبو زوجته — ممثلاً للاراميين^(٣٦) .

وتمر الايام ويصبح العبرانيون أمة ، ويقاسون المتاعب من جيرانهم الاراميين ، ومن ثم يحاولون قطع الروابط القديمة منتهزين كل فرصة لابعاد تفسير الاعتراف المنسوب لابيهم يعقوب^(٣٧) ، الامر الذى سوف نشير اليه بالتفصيل فيما بعد .

هذا ويستدل من نصوص بلاد النهرين على أن جماعات أرامية قد اجتاحت قسماً كبيراً من هذه البلاد ، وشمال سورية ووسطها ، فى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، وقد سادت العناصر الارامية فيها ، باستثناء بعض الجيوب القليلة التى كان يسيطر عليها الحيثيون ، ولكن الاراميين انما بلغوا ذروة سلطتهم السياسى فى القرنين الحادى عشر والعاشر قبل الميلاد ، نظراً لضعف الامبراطوريات الكبرى فى ذلك الوقت .

(٦) الدويلات الارامية :

لعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن قوة توسع الاراميين ، التى

(٢٩) تكوين ٣١ : ٤٣ — ٤٥ ، وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 159-160.

30) R. A. Bowman, Arameans, Aramic and The Bible, P. 68.

تبرز واضحة في هذه الفترة ، لم تصبحها القدرة على تنظيم فتوحاتهم ، بل لم يصبحها بصفة عامة القدرة على تنظيم دولهم نفسها ، ولم ينشئ الاراميون أبدا وحدة سياسية فعالة ، وكان العامل الاساسي في ضعفهم انقسامهم الى ممالك محلية صغيرة ، مع كثرة الاجناس المتباينة التي اختلطوا بها ، وقد شهدت نهاية القرن العاشر قبل الميلاد نهوض آشور ، واستيلائها على الدويلات الارامية^(٣١) ولعل من الافضل هنا أن نقسم الامارات أو الدويلات الارامية تقسيما جغرافيا ، فننتحدث عن امارات شمال العراق ، ثم شمال سورية ثم وسطها وجنوبها :

(١) في شمال العراق :

غزت القبائل الارامية الجزء الشمالي من أرض الرافدين ، وأسست مجموعة من الدويلات الصغيرة يتكون اسمها من كلمة «بيت» مضافا اليها اسم الجد الاعلى ، لعل أهمها :

(١) دويلة بيت أديني : ومركزها «تل برسب» ، وتقع على الفرات الاعلى ، ومكانها الان «تل الاحمر» وقد سماها «شلمنصر الثالث» (٨٥٩ — ٨٢٤ ق م) «كرشلمنشرد» (قلعة شلمنصر) بعد انتصاره على «أخوني» ملك بيت أديني^(٣٢) . وكانت دويلة بيت أديني (بيت عاديني) تمثل أقوى ولاية في شمال العراق ، وقد شغلت مركزا استراتيجيا على الطريق فيما بين حران وسورية ، ومن ثم فقد كانت تتدخل في اشعال الثورات بين الدويلات الارامية ضد آشور — كما في ثورة بيت خالوب عام ٨٨٤ ق م ، وفي ثورة لاق وخيندان وسوخو عام ٨٧٨ ق م — مما دفع آشور الى تأديب بيت أديني واجبارها على دفع الجزية^(٣٣) ، غير أن الاخيرة لم ترعو الا بعد أن تمكن شلمنصر

(٣١) موسكاتي : المرجع السابق ص ١٧٨ .

32) H. Schmoker, Geschichte des alten Vorderasien, Leiden, 1957, P. 254.

(٣٣) بولس عياد : المرجع السابق ص ١٦ .

E. G. Kraeling, Op. Cit., P. 54-59. وكذا

الثالث من القضاء عليها وضمها الى الامبراطورية الاشورية^(٣٤) — كما
أشرنا آنفا — .

(٢) دويلة بيت بخياني : ومركزها «جوزانا» (تل حلاف) ، هذا
وقد وجدت ولايات أخرى على طول الفرات ورافده فهناك ضاحية
سوخو وولاية خيندان الصغيرة ، واقليم «لاق» الذي به ولاية «بيت
الحلوب»^(٣٥) .

هذا وقد توسعت الى الجنوب من ذلك عدة جماعات أرامية في
الجزئين الاوسط والجنوبي من أرض الرافدين ، وهنا استولى المعتصب
الارامى «أدد — أيل — ادن» على عرش بابل في القرن الحادى عشر
«حوالى عام ١٠٥٠ ق.م»^(٣٦) .

(ب) فى شمال سورية :

توغل الاراميون فى شمال سورية ، مكونين عددا من الولايات
الصغيرة منها «جرجوم» وعاصمتها «موقاش» — وهى مرعى الحالية —
و «سمال» فى كليكياء ، وعاصمتها «سنجرلى» ، و «خاتينا» وعاصمتها
«كوتالوا» و «ياخان» وعاصمتها «ارباد» ، ثم «يمخد» وعاصمتها
«خلبو» (حلب)^(٣٧) ، وفى «حماه» كشفت حفائر «انجهولت» طبقة
أرامية ترجع الى حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م^(٣٨) .

هذا وقد تعرضت هذه الدويلات للضغط الاشورى عدة مرات ،

34) Ibid., P. 60-63.

(٣٥) موسكاتى : المرجع السابق ص ١٧٧ ، بولس عباد : المرجع
ص ١٦ ، وكذا

E. G. Kraeling, Op. Cit., P. 53.

(٣٦) موسكاتى : المرجع السابق ص ١٧٧ — ١٧٨ ، وكذا

G. Roux, Op. Cit., P. 247-249.

H. Schmokel, Op. Cit., P. 203-247.

(٣٧) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ٢٩/٣ ، بولس
عبادة : المرجع السابق ص ١٧ ، وكذا

E. G. Kraeling, Op. Cit., P. 65-66.

(٣٨) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ١٧٨ .

حدث ذلك على أيام «اشور ناصر بال الثاني» (٨٨٤ — ٨٥٨ ق.م) الذي قام بحملة مظفرة على «خاتينا» وأجبر ملكها على الخضوع ودفع الجزية^(٣٩) ، ولكن سرعان ما انتهزت خاتينا — بالاتفاق مع قرقيش وجرجوم وسمال وبيت أديني — فرصة وفاته وانتقال العرش الاشوري الى «شلمنصر الثالث» ، فقامت بالثورة ضد آشور ، الا أن العاهل الاشوري الجديد تمكن في عام ٨٥٨ ق.م من القضاء على الثورة واجبار العصاة على دفع الجزية^(٤٠) ثم كتب له آخر الامر — وفي عام ٨٣٢ ق.م — نجحا بعيد المدى في القضاء نهائيا على الثورة ، وتولية أحد المواليين له عرش «خاتينا» ، وسرعان ما اختفت خاتينا من النقوش وضعفت الولاية جدا ، واقتصرت على العمق لاناكية ، وأصبحت تسمى «أونقي»^(٤١) .

وفي القرن الثامن قبل الميلاد ، عاودت آشور الهجوم ، ففي عام ٧٤٠ ق.م وبعد حصار دام سنوات ثلاث ، وقعت في يد «تجلات بلارس الثالث» (٧٤٥ — ٧٢٧ ق.م) مدينة «أرفده» ، وتدل النقوش المكتشفة في «سوجين» — وتقع على مبعده ٢٥ كيلو مترا الى الجنوب الشرقي من حلب — على أنها كانت مركز المعارضة ضد آشور^(٤٢) .

وكانت دويلة «سمال» آخضر الولايات الامورية التي ظلت تكافح من أجل استقلالها حتى القرن الثامن ق.م ، حين نجح «شلمنصر الخامس» (٧٢٧ — ٧٢٢ ق.م) في القضاء على استقلالها وضمها الى امبراطوريته الواسعة ثم أقام «اسر حدون» (٦٨١ — ٦٦٩ ق.م) شاهدا كبيرا عند مدخل المدينة مجد فيها حكمه ، وعلى أي حال ، فإن ما وجد في «سمال» من بقايا أثرية لهلاك بالنار ، وانقطاع كل ذكر لها في مصادرنا ، يدلان ، فيما يبدو ، على أنها لقيت نهاية فاجعة قبل مرور

39) E. G. Kraeling, Op. Cit., P. 66.

40) Ibid., P. 68-71.

41) Ibid., P. 71-72.

(٤٢) موسكاتى : المرجع السابق ص ١٧٨ .

H. Schmokel, Op. Cit., P. 262. وكذا

زمن طويل (٤٣) .

(ج) في وسط وجنوب سورية :

تحدثنا التوراة عن سبع ولايات أو دويلات أرامية في سورية وشرق الاردن هي :

(١) دويلة أرام النهرين : وتقع هذه الامارة التي تسمى في التوراة (٤٤) «فدان أرام» أو نهريين في السهول المنبسطة بين الجزيرة والشام ، وكان مركزها مدينة «حران» التي أصبحت من مراكز الحضارة الارامية (٤٥) ، وفي هذا الاقليم تقع كذلك مدينتا «نصيبين» و «الرها» اللتين اشتهرتا كمركزين للثقافة والآداب السريانية (٤٦) .

وتعتبر دويلة أرام النهرين أقدم الامارات الارامية في سورية وشرق الاردن ، وأما اصطلاح «أرام النهرين» فقد ظهر — فيما يرى كريلنج — في القرن الثالث عشر ق.م ، غير أن رواية التوراة (٤٧) ، انما ترجع به الى عصر الاباء الاول — عصر ابراهيم وناحور واسحاق ويعقوب — هذا فضلا عن أن الاصطلاح انما استعمل في رسائل العمارنة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد (٤٨) ، وأما النهران فكان المراد بهما من قبل الدجلة والفرات ، ولكن الراجع الان — كما أشرنا من قبل — أنهما الفرات ورافده الخابور — حيث تقع منطقة حاران التي استقر الاراميون فيها في عصر الاباء الاوائل ، ومن هنا بدأت القوة الارامية في الانتشار ، وقد دعا العبرانيون هذه المنطقة «أرام» التي في عبر النهر» واستمرت

(٤٣) موسكاتي: المرجع السابق ص ١٧٩ ، وكذا

A. Dupont-Sommer, Op. Cit. P. 68.

(٤٤) تكوين ٢٤ : ١٦ .

(٤٥) فليب حتي: المرجع السابق ص ١٧٧ .

(٤٦) قاموس الكتاب المقدس ٤٣/١ .

(٤٧) تكوين ٢٤ : ١٠ ، ٢٨ : ٢ ، ٢٩ : ٤ - ٥ .

(48) Samuel A. B. Mercer, The Tell-Amarna Tablets, Toronto, 1939, Vol. 2, P. 898.

هذه الدويلة حتى القرن التاسع قبل الميلاد^(٤٩) .

وكان الاراميون في فدان أرام قد اتخذوا من «حاران» — وتقع على نهر بلخ على مبعدة ٩٦ كيلا من اتصاله بنهر الفرات ، الى الغرب من تل حلفا ، وعلى مبعدة ٤٨ كيلا الى الشمال الشرقي من دمشق — وكانت المدينة مركزا تجاريا على طريق القوافل التي تصل نينوى وآشور وبابل بدمشق وصور والمدن المصرية وقد اتخذت القمر ألها لها تحت اسم «تارح»^(٥٠) ، ثم اتخذها الاشوريون مركزا لهم بعد سقوط نينوى في عام ٦١٢ ق.م ، تحت أيدي البابليين والميديين ولكن «نبوخذ نصر» (٦٠٥ — ٥٦٢ ق.م) استطاع الاستيلاء عليها في عام ٦٠٩ ق.م، والقضاء على بقية الجيش الاشوري ، قبل وصول نجدات ملك مصر «نخاو» (٦١٠ — ٥٩٥ ق.م) لانقاذه^(٥١) .

(٢) دويلة أرام دمشق : وقد تأسست هذه الدويلة التي كانت عاصمتها دمشق في أخريات القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، على رأي^(٥٢) ، وأخريات القرن العاشر على رأي آخر^(٥٣) ، فكانت معاصرة على وجه التقريب لتأسيس مملكة العبرانيين — طبقا للرأي الاول ، وهذا ما نرجحه ونميل الى الاخذ به — ثم سرعان ما تطورت حتى غدت دولة كبرى — بالنسبة الى جيرانها — تمتد الى الفرات من جهة ، والى اليرموك من جهة أخرى ، وكانت متاخمة لارض الإثوريين في الشمال ، ولارض العبرانيين في الجنوب ، وكانت سورية الداخلية شرقي جبل لبنان ، وسورية الشمالية وياشان ، تحت سلطانها في حوالى عام ١٠٠٠ ق.م ، وظل ملوكها يسيطرون على اثنتى عشرة أمة صغيرة من

49) E. G. Kraeling, Op. Cit., P. 21.

(٥٠) قاموس الكتاب المقدس ٢٨١/١ .

M. F. Unger, Op. Cit., P. 455.

وكذا

51) M. F. Unger, Op. Cit., P. 455.

A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 357-358. وكذا

(٥٢) فيلب حتى المرجع السابق ص ١٧٧ .

(٥٣) مراد كامل : المرجع السابق ص ٤ .

حولهم افلحوا في مقاومة ما كان يبذله الاشوريون من جهود لاختضاع سورية لحكمهم^(٥٤) .

وأما علاقة أرام دمشق بالعبرانيين ، فكل دارس للتوراة على معرفة بها وهي — على أى حال — قد بدأت أيام «شاول» (١٠٢٠ — ١٠٠٠ ق م) ، وان كان «داود» (١٠٠٠ — ٩٦٠ ق م) هو الذى استطاع الاستيلاء على المدينة العريقة^(٥٥) ، هذا وقد روت التوراة بالتفصيل قصة الصراع بين الاراميين والاسرائيليين على أيام «أخاب» (٨٦٩ — ٨٥٠ ق م) ، الامر الذى وصل الى أن يحاصر الاراميون «السامرة» عاصمة اسرائيل نفسها ، وان استطاع آخاب أن يصون آخر الامر حدود اسرائيل الشمالية ، وأن يشترك في حلف ضد الاشوريين يقوده عدوه القديم ملك دمشق ، وأن يشترك معه في حرب ضد آشور في موقعة قرقار في عام ٨٥٣ ق م^(٥٦) ، الامر الذى سوف نناقشه بالتفصيل في مكانه من هذه الدراسة .

على أن الصلات بين الاراميين والاسرائيليين لم تكن كلها حربية ، وانما كانت هناك صلات تجارية ، وعلى أى حال ، فلقد بقيت دويلة (أرام دمشق) تقاوم جبروت الاشوريين — على الرغم من أن طول منافستها مع جيرانها من الاراميين والبدو العبرانيين قد أرهقها كثيرا — الى أن استطاع (تجلاتت بلاسر الثالث) (٧٤٥ — ٧٢٧ ق م) ، أن

-
- (٥٤) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٣٢ — ٣٣ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٨١ ، مراد كامل المرجع السابق ص ٤ ، أدى شير : تاريخ كلدو وآثور ، بيروت ١٩١٢ — الجزء الاول . ص ٦٦ ، وكذا R. H. Pfeiffer, Introduction to the Old Testament, N. Y., 1941, P. 687 JNES, 7, P. 70.
- (٥٥) صموئيل ثان ٥:٨ — ٦ ، أخبار أيام أول ٥:١٨ — ٦ ، قاموس الكتاب المقدس ٣٧٥/١ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٣٣ .
- (٥٦) ملوك أول ٢٠ : ١ — ٤٢ ، ٢:٢٢ — ٣٨ ، وكذا A. Dupont-Sommer, Op. Cit., P. 35. A. Lods, Op. Cit., P. 378. E. G. Kraeling, Op. Cit., P. 73, 75.

يستولى عليها في عام ٧٣٢ ق.م ، وأن يقتل ملكها (رصين) وأن يجعلها ولاية آشورية ، ذلك أن العاهل الاشوري كان - وقت طلب أحاز ملك يهوذا للنجدة لانقاذه من قوات دمشق والسامرة - في شمال سورية ، وربما كان مع جيشه في مكان ما في مجاورات دمشق ، ومن ثم فلم يكن في حاجة الى توسلات (أحاز) اليهودي ليقوم بحملاته ضد سورية وفلسطين ، وهكذا استطاع العاهل الاشوري أن يجتاح في عدة حملات الى المغرب دمشق ، بعد حصار دام عامين ، ويسقط دمشق حان الوقت للآشوريين أن يضموا سورية بأكملها ، وانتهت قوة الاراميين السياسية وأصبحت السيادة على الدويلات الارامية لآشور^(٥٧) .

(٣) دويلة ارام صوبية : وكانت مملكة أرامية قوية ، تقع عاصمتها «صوبية» في مكان بلدة «عنجر» في البقاع جنوبى «زحلة»^(٥٨) ، وان كنا للأسف - لا نعرف شيئاً حتى الان عن ملوكها الاوائل ، فيما قبل عهد «حدد عزر» وأما مدى اتساعها فقد وصل في عهد ازدهارها الى حدود حماه في الشمال الغربى^(٥٩) .

وقد وصلت «صوبية» الى ذروة قوتها في عهد «شاؤل» ملك اسرائيل، والذي كانت العدواة بين الدويلات الارامية واسرائيل في أيامه على أشدها ، ومع ذلك فان التوراة لم توضح لنا علاقة شاؤل بالدويلات الارامية ، مما دفع «كريلنج» الى القول بأن علاقة صوبية بالعبرانيين في عهد شاؤل كانت مبهمه^(٦٠) كما ذهب «دييون - سومير» بأن ملوك الاراميين لهذه المنطقة لم يذكروا لانهم كانوا تابع لصوبية^(٦١) .

(٥٧) ملوك ثان ١٦ : ٥ - ١٠ ، بولس عياد : المرجع السابق ص ١٤

M. Noth; Op. Cit., P. 259 F.

E. G. Kraeling, Op. Cit., P. 118-119.

(٥٨) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٥٩) قاموس الكتاب المقدس ٤٣/١ .

(٦٠) بولس عياد : مرجع السابق ص ١٠ ، وكذا

E. G. Kraeling, Op. Cit., P. 40.

61) A. Dupont-Sommer, Op. Cit., P. 26.

و على أى حال ، فلقد استمرت صوبة فى عنفوان قوتها حتى السنوات الأولى من أيام داود (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م) ، الذى نجح فى أن يضمها إليه مؤقتا ، اذ استمر الصراع بين الاراميين والعبرانيين على أيام داود - كما كان على أيام سلفه شاول - وهكذا قامت حروب بين داود و «حدد عزر» ملك صوبة ، ساهمت فيها - الى جانب حدد عزر - معظم الولايات التابعة لصوبة ، كما اشترك فيها اراميو مابين النهرين . ذلك أن العلاقات بين العمونيين وداود عندما بدأت تسوء الى الدرجة التى تهدد بدق طبول الحرب بينهما ، طلبوا معونة جيرانهم الاراميين فى ارام بيت رحوب ، و ارام صوبة ومعك وطوب ، وأتى هؤلاء بحشد كامل من الرجال لمساعدة «ربة» عاصمة عمون ، ضد الهجوم الاسرائيلى الذى أمر به داود تحت قيادة يواكب ، ونجح يواكب فى هزيمة هؤلاء الاراميين ، ويعلم «حدد عزر» ملك صوبة بذلك ، ويشترك فى حرب مع الاسرائيليين - بقيادة داود - ولكنه ينهزم فيها ، ثم سرعان ما بدأت صوبة فى الاضمحلال وأخذت دمشق مكانها بالتدريج ، حتى صارت أعظم الامارات الارامية (٦٣) .

(٤) امارة معكة : وتقع شرق الاردن قرب جبل حرمون (٦٣) وامتدت نحو الاردن غربا ، كما امتدت نحو الجنوب والشرق فى البرية ، وربما كانت «آبل بيت معكة» من بين مدن معكة أو عند حدودها ، واشترك المعكيون مع الاراميين والعمونيين فى الحرب ضد داود ، ولكنه انتصر عليهم (٦٤) .

(٥) امارندجشور : وتقع بين حرمون وباشان ، وإلى الشرق من

(٦٢) صموئيل ثان : ١٠ : ٦ - ١٤ ، وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 194-195.

(٦٣) يشرح ١٢ : ١١ : ١٣٥ ، صموئيل ثان ١٠ : ٦ ، ٨ : ١٠ ، أخبار أول ١٩ : ٦ - ٧ وكذا

M. F. Unger, Op. Cit., P. 673.

(٦٤) صموئيل ثان ١٠ : ٦ - ٨ ، قاموس الكتاب المقدس ٩٠٩/٢ ،

M. F. Unger, Op. Cit., P. 673.

وكذا .

نهر الاردن وبحر الجليل ، وإلى الجنوب من مكة في منطقة منسى^(٦٥) ، وكانت جسور على أيام داود مستقلة ، ومن ثم فقد هرب إليها ولده «أبشالوم» بعد أن قتل أخاه «أمنون»^(٦٦) .

(٦) امارة آرام بيت رحوب : وتقع بصفة عامة في مجاورات جسور ، وإذا وجد هذا المكان بالمكان الذي ذكر في التوراة في سفرى العدد والمقضاة فانها تقع قرب مكة ودان^(٦٧) ، وعلى أى حال ، فمن المرجح أنها كانت تقع بالغرب من مدخل حماة^(٦٨) .

٧ - امارة طوب : وطوب اسم عبرى معناه «طيب» ، وتقع شرق الاردن ، وربما توجد «بالطبية» - على مبعدة عشرة أميال الى الجنوب من جبة أو جدار التي تسمى الان مقيس أو أم قيس - ومن هناك استأجر «عانون» ملك عمون جنودا لحرب داود ، مما يدل على أنها كانت وراء حدود بني اسرائيل^(٦٩) .

اللغة الارامية :

استمر الاراميون كشعب ، بعد أن قضت الدول الكبرى عليهم ككيان سياسى ، وبقيت لغتهم بعد سقوط دويلاتهم في الشرق من غير أن تتأثر باللغات الأخرى ، وانتشرت هذه اللغة في دول الشرق الأدنى القديم ، بدرجة لم تصل اليها واحدة من أخواتها من اللغات السامية^(٧٠) ، إلا

(٦٥) تثنية ١٤:٣ ، صموئيل ثان ٨:١٥ ، ١٣ : ٣٧ .

(٦٦) قاموس الكتاب المقدس ٢٦١/١ .

(٦٧) عدد ١٢:١٣ ، قضاة ٢٨:١٨ .

(٦٨) قاموس الكتاب المقدس ٤٣/١ .

M. F. Unger, Op. Cit., P. 77. وكذا

(٦٩) صموئيل ثان ١٦:١٠ ، قاموس الكتاب المقدس ٥٨١/٢ ، وكذا

M. F. Unger, Op. Cit., P. 77.

(٧٠) قسم العلماء في عام ١٨٦٩ م اللغات السامية الى مجموعتين : الأولى : وتسمى المجموعة السامية الشمالية ، وتشمل اللغات : العبرية والفينيقية والارامية والآشورية والبابلية والكنعانية ، وتسمى الأخرى المجموعة السامية الجنوبية ، وتشمل اللغة العربية بلهجاتها والحبشية ولكن هناك من يقسمها الى ثلاث مجموعات : أولها القسم الشرقى : ويضم

إذا كانت تلك اللغة ، هي اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، التي فاقتها
بغير حدود •

ولعل من أهم أسباب انتشار اللغة الآرامية أنها كانت لغة التجار
الآراميين الرحل ، كما أنها كانت لغة سهلة ، ببساطة أبجديتها وسهولة
نحوها وصرفها ، وبما فيها من سهولة ويسر^(٧١) ، كذلك يلاحظ أن هذه
اللغة كتبت على أوراق البردي كما كتبت على قوالب طينية ، زد على
ذلك أن انتشار الآراميين في المشرق قبل سقوط دويلاتهم أو بعده ، ثم
اشتغالهم في الجندية في بعض الدول وازدياد عددهم المتواصل ، إنما
قد ساعد على انتشار لغتهم هذه^(٧٢) •

ويرى «جيمس هنري برستد» أن الأبجدية الفينيقية الآرامية قد
انتشرت في جميع بلاد آسيا الغربية ، ونقلت من الفرات إلى إيران وإلى
حدود الهند^(٧٣) ، ومما يدل على انتشارها استخدام الآشوريين والبابليين
والفرس والعبرانيين والمصريين لهذه اللغة ، حتى اعتبرها البعض لغة
دولية ، فيما بين القرنين الثامن والخامس قبل الميلاد^(٧٤) ، وهكذا ظلت
اللغة الآرامية سائدة في المنطقة حتى بعد زوال النفوذ السامى وبداية
النفوذ «الهندي - أوربي» ذلك أنها بقيت لغة رسمية حتى عندما انتقل

اللغات البابلية والآشورية والكلدانية الآرامية ، وثانيها القسم الغربي :
ويضم اللغات الكنعانية والآرامية والفينيقية والبنونية والآرامية.
والعبرية والسريانية والتدمرية والنبطية والمؤابية والامورية ، وثالثهما •
القسم الجنوبي ، ويضم فصيلتين ، الأولى العربية ، ويضم العربية القديمة
والقحطانية والحميرية والمعينية والسبئية والعذنانية المضرية أو القرشية
الفصحى والثانية وتضم الحبشية أو الآثيوبية والجعزية والنيجيرية
والتيجرينية والامهرية والهررية (جواد على ٢٢٣/١ ، عبد العزيز ماثم
المرجع السابق ص ٦٢٦) •

(٧١) عبد المنعم حسين : حضارة مصر والشرق القديم - الإيرانيون
القدماء ص ٤٢٩ •

(٧٢) مراد كامل : المرجع السابق ص ٥ ، موسكاتى : المرجع السابق
ص ٢٣ •

73) J. H. Breasted, Ancient Times, 1916, P. 140.

(٧٤) بولس عياد : المرجع السابق ص ٢٣ ، ٢٤ ، وكذا

G. R. Driver, 'Aramaic Documents of the fifth Century, P. 19.

الحكم الى الفرس ، ولاسيما في عهد «دارا الاول» (٥١١ - ٤٨٦ ق.م) في ذلك الجزء من الامبراطورية الفارسية الذي يقسم بين مصر ونهر الفرات ، والامر كذلك بالنسبة الى عهود السلوقيين والفريثيين والساسانيين ، وفي دولتي تدمر والبتراء •

بل ان عرب الشمال ، انما أخذوا أبجديتهم التي كتب بها القرآن الكريم من الارامية التي استعملها الانباط ، وقد أشار العلماء الى ظاهرة انتقال الكتابة النبطية من منطقة مدين الى الحجاز ، وإلى تطور الخط العربي عن الخط النبطي^(٧٤) ، ومن ثم فان الكتابة التي نكتب بها اليوم ، انما هي كتابة متطورة عن الخط النبطي ، وهذا بدوره متطور عن الخط الارامي ، الذي استعمل في شمال شبه الجزيرة العربية ، منذ حوالي القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد كان منذ القرن السادس قبل الميلاد خط كثير من دول المشرق الأدنى القديم^(٧٥) •

هذا وقد استعملت الارامية في كتابة أجزاء من التوراة (العهد القديم) ، ذلك أن اليهود انما بدأوا يتحدثون الارامية تماما أثناء السبي البابلي (٥٥٨٦ - ٥٣٩ ق.م) ، ربما لسهولة تعلمها ، ولتشابه لهجتها بلهجة اللغة العبرية ، حتى أنه كان من أكبر الصعاب في وجه احياء اللغة العبرية بعد العودة من المنفى ، أن جاتبا من الشعب هجر فعلا لغته الاصلية ، وحتى أن الارامية حلت محل العبرية آخر الامر بعد تنازع البقاء الذي وقع بين اللغتين ، وهكذا كان أثر الارامية واضحا في أسفار عزرا ونحميا وإستير ، وأسفار الانبياء يونان وحجي وزكريا وملاخي ودانيال ، وفي غير ذلك مثل سفر الجامعة وبعض المزامير التي أضيفت الى مزامير داود ، فضلا عن آيات معينة في سفر التكوين

75) Marin Sprengling, the Alphabet, its Rise and Development from the Sinia Inscriptions, Chicago, 1931. P. 52.

UIE, I, P. 198.

وكذا

(٧٦) عبد الرحمن الانصاري : لمحات عن القبائل البائدة في الجزيرة العربية ص ٨٩ ، فيلب حتى : تاريخ العرب ١٠٨/١ - ١٠٩ ، ديتلف نلس : المرجع السابق ص ٤٠ - ٤١ ، سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الاسلام ص ١٣٧ •

(٣١ : ٧) واربميا (١٠ : ١١) وعزرا. (٤ - ٦) ودانيال (٢ - ٦) (٧٧) .

وعلى أى حال ، فلقد أدى توحيد الشرق الأدنى فى ظل الأمبراطورية الرومانية ، ثم انتشار المسيحية بعد ذلك ، الى انتعاش حالة الارامية ، فمن ناحية استخدمتها دول صغيرة جديدة يسكنها أقوام من العرب (مثل دولة الحضر) (٧٨) ، ومن ناحية أخرى فان الارامية لما كانت لغة السيد المسيح ، فقد ضارت اللغة الرسمية للكنيسة السريانية ، وبهذه الصفة عاشت قرونا بعد ذلك ، وانتجت أدبا دينيا ضخما (٧٩) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن اسم «الاراميين» بعد ظهور المسيحية أصبح له مدلول وثنى غير مستحب ، ومن ثم فقد سمي القوم أنفسهم بالاسم اليونانى «سوريين» بالنسبة للشعب «سريانى» بالنسبة للغة ، تمييزا لها عن الاراميات الوثنية واليهودية ، ويذهب البعض الى أن هذه التسمية انما ظهرت بعد المسيح على يد الرسل الذين نصروا هذه الديار ، لانهم كانوا جميعا من سورية وفلسطين ، وذلك لان المتنصرين الاوائل كانوا شديدى التمسك بالدين المسيحى ، ومن ثم فقد أحبوا أن يسموا باسم مبشرهم ، فتركوا اسمهم القديم ، واتخذوا اسم «السريان» ليمتازوا عن بنى جنسهم الاراميين الوثنيين ، ولذا أصبحت لفظة الارامى مرادفة للفظه الصابىء والوثنى ، ولفظة السريانى مرادفة للفظه المسيحى والنصرانى .

(٧٧) موسكاتى : المرجع السابق ص ١٨١ ، محمد بدر : الكنز فى قواعد اللغة العبرية ص ٣٧ (القاهرة ١٩٢٦) .

(٧٨) قامت دولة الحضر فى أرض الرافدين الى الشمال الغربى من مدينة آشور ، وعلى مبعده ١٤٠ كيلو مترا جنوبى غربى الموصل ، وفى صحراء سنجار بأرض الجزيرة غرب تكريت ، وقد قامت بعثة المانية بحفائر فى الحضر واشور (١٩٠٣ - ١٩١٣) وقد كشفت عن نقوش أرامية ترجع الى عهد البارثيين (القرن الثانى الميلادى) ، وكانت المدينة تحمل الطابع العربى واليونانى والرومانى فى آن واحد (موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٤٦ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ١٥٩ - ١٦٢)

(R. Dussaud, les Arabes en Syrie avant l'Islam, P. 158.

(٧٩) موسكاتى : المرجع السابق ص ١٨١ .

وهكذا ظهرت اللغة السريانية كلهجة أرامية قديمة في اقليم مدينة «الرها» (اديسا عند الرومان ، و «أورفا» الحالية جنوب شرق تركيا) ثم ظهر الخط السرياني المعروف «بالخط السرنجيلي» عقب الانشقاق المذهبي المسيحي بين سريان الرها في عام ٤٨٩ م ، ثم سرعان ما نشأت لهجتان من السريانية (غربية وتسمى اليعقوبية ، وشرقية وتسمى النسطورية) ، وعلى أي حال ، فلقد أصبحت السريانية لغة حية في العلم والفكر في الشرق حتى القرن العاشر الميلادي وان استمرت لغة الكنائس حتى القرن الثالث عشر الميلادي^(٨٠) .

(٨٠) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١١٠ - ١٢١ ، فيلب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ١٨٤/١ - ١٨٥ ، القس يعقوب الكلداني : دليل الراغبين في لغة الاراميين ص ١٢ ، اقلينس يوسف داود : المرجع السابق ص ١٦ ، حسن محمود : المرجع السابق ص ٣٨٥ .

الباب الخامس

ممالك شرق الاردن

قامت في شرق الارض عدة ممالك ، لعل من أهمها :

(١) الادوميون

ينسب الادوميون الى «أدوم» ، وهو «عيسو بن اسحاق بن ابراهيم الخليل» ، وتطلق التوراة عليهم عادة «أدوم فقط»^(١) وهناك من يعتبرهم — بالاضافة الى المؤابيين والعمونيين — بدوا اشتركوا في المهجرة الارامية ، ولكنهم سبقوا اقرباءهم الاسرائيليين في الرحيل من الصحراء ، وهكذا فان أدوم — أو عيسو — انما ينظر اليه في المصادر المبكرة كأخ أكبر ليعقوب — أو اسرائيل —^(٢) ومن هنا فان الادوميين انما يعتبرون اقرب العناصر دما ولغة الى آل يعقوب ، اذ لم يكن بين الفريقين أقل فرق ، قبل أن يعتنق بنو اسرائيل الموسوية^(٣) ، كما أن الاخريين لم يكونوا من دم عبراني أنقى من الاولين ، فهم مزيج من المهاجرين العبرانيين ، وسكان المنطقة الاصليين والعرب .

وأما موطن الادوميين ، فقد كان في أقصى جنوب بلاد شرق الاردن ، وجنوب وادي الحسا الذي ينساب الى الطرف الجنوبي من البحر الميت ، في الجبال التي تقع شرق الصخرة العظيمة لوادي العربية^(٤) . وتطلق التوراة على هذا الاقليم اسم «سعين» أحيانا^(٥) ، ونقرأ في سفر التثنية أن الادوميين قد طردوا الحوريين منها وسكنوا في مكانهم^(٦) ، وهكذا كانت أدوم تقع في نقطة بعيدة لا تتصل بالاسرائيليين بحدود

(١) عدد ٢٤ : ١٨ ، يشوع ١٥ : ١ صموئيل ثان ٨ : ١٤ .

(٢) تكوين ٢٥ : ٢٤ - ٢٦ ، وكذا

A. Lods, Op. Cit., P. 58.

(٣) اسرائيلي ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ١٠٤ .

4) M. Noth, Op. Cit., P. 154.

(٥) تكوين ٣ : ٣ ، ٨ : ٣٦ ، يشوع ١١ : ٢٤ حزقيال ٣ : ٣٥ ، ١٥ : ٧ .

(٦) تثنية ٢ : ١٢ .

مباشرة ، وبالتالي فلم تكن هناك أسباب للعداوة بينهما^(٧) ، هذا فضلا عن أن أرضهم — طبقا لرواية التوراة — قد حرمها رب اسرائيل على شعبه اسرائيل^(٨) .

ومع ذلك ، فإن الاسرائيليين انما كانوا يعدون الادوميين من أعدائهم حتى أن المنازعات السياسية بين الفريقين قد استمرت عدة قرون ، الى أن انتهى الامر بفساء الادوميين وامتزاجهم باليهود من ناحية ، وبالانباط^(٩) من ناحية أخرى^(١٠) ولعل السبب في ذلك — فيما أظن — يرجع الى عوامل نفسية ، أكثر منها عوامل سياسية ، فالادوميون يحسون أن الاسرائيليين قد سرقوا حقهم في البركة أولا ، ثم في البكرثة ثانيا^(١١) ، هذا ان كانت رواية التوراة بشأنهما صحيحة ، ومن هنا أتى موقف الادوميين من الاسرائيليين أثناء التيه في الصحراء^(١٢) ، مما أثار عليهم حقد بنى اسرائيل ، الامر الذى تظهر آثاره بوضوح ابان التاريخ اليهودى القديم ، ثم يستمر حتى السبى البابلى ليهودا في عام ٥٨٦ ق م ، حيث يستولى الادوميون عليها ، حتى مدينة حبرون ، وفي القرن الخامس قبل الميلاد يستولى النبط على جبل سعين ، ويطردوا الادوميين منه .

وكان الادوميون يحكمون في البداية بأمراء يشبهون رؤساء القبائل، ثم استطاعوا بعد ذلك تكوين مملكة ربما كان ملوكها منتخبين^(١٣) ، وقد جلس على عرشها ثمانية ملوك ، قبل أن يستطيع الاسرائيليون تكوين

7) M. Noth, Op. Cit., P. 155.

(٨) تثنية ٢ : ٤ - ٦ .

(٩) أنظر عن : الانباط : محمد بيومى مهران : دراسات في تاريخ العرب القديم ، الفصل الرابع عشر ، الرياض ١٩٦٧ ص ٤٩٣ - ٥٢٣ .
(١٠) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ، القاهرة ١٩٢٩ ص ١٠٥ .

(١١) تكوين ٢٥ : ١٩ - ٣٤ ، ٢٧ : ١ - ٤٥ .

(١٢) تثنية ١/٣ - ١٤ ، عدد ١٨/٢٠ - ٢٠١ .

(١٣) تكوين ١٥/٣١ - ١٩ ، ٣١/٣٦ - ٣٩ .

M. Noth, Op. Cit., P. 154.

وكذا

مملكة ، وقبل أن يستولى داود على مملكة أدوم^(١٤) ، وليس الى أيام موسى ، الذي يرى فيه «أونجر» أول ملك لاسرائيل ، طبقا لتفسير خاص لبعض نصوص التوراة^(١٥) ، الامر الذي لا نوافقه عليه .

وكانت «سالم» عاصمة أدوم ، ثم تغير اسمها الى «البتراء» وهي واحدة من أشهر مدن العالم القديم ، وقد أصبحت عاصمة للانباط - بعد أدوم - وتقع الى الشرق من وادي عربية في منتصف المسافة تقريبا بين رأس خليج العقبة والبحر الميت ، أو على مبعدة خمسين ميلا الى الجنوب من البحر الميت^(١٦) ، والبتراء - على أى حال - كلمة يونانية تعنى «الصخر»^(١٧) ولعلها ترجمة للكلمة العبرية «سلع» التي جاءت في التوراة^(١٨) ، كما تعنى كذلك «الشق في الصخر» وربما كانت التسمية العبرية أكثر دقة ، لان مدخل البتراء يتسم بوجود أخدود عميق بين جبليين ، يعرف اليوم بالسم «السيق» ، ولعله لفظ نبطى متوارث ، حرفة الناس عن «الشق» في السبئية القديمة^(١٩) ، وأيا ما كان الامر فلقد عرف العرب هذه التسمية كذلك ، وقد ذكر «ياقوت الحموي» (١١٧٨ - ١٢٢٨م) بأن سلع حصن بوادي موسى عليه السلام ، بقرب بيت المقدس^(٢٠) .

وأما الاسم العربى للبتراء فهو «الرقيم» وربما كان هو اسم ثان للبتراء ، كان الاغريق يعرفونها به ، وهو Arke فحرفه العرب الى الرقيم ، وربما أرادوا بالرقيم «خزانة فرعون» بالذات ، وأما اسمها الحديث فوادي موسى^(٢١) .

14) Ibid., P. 185.

(١٥) تثنية ٥:٣٧ ، خروج ١٦:١٨ - ١٩

M. F. Unger, Op. Cit., P. 286. وكذا

(١٦) قاموس الكتاب المقدس ٤٤٥/١ - ٤٤٦ ، جواد على ٥١/٣

17) Pliny, 2, P. 447.

(١٨) اشعيا ١٦ : ١٠ ، ٤٢ : ١١ .

(١٩) لانكستر هاردنج : آثار الاردن ، ترجمة سليمان مرسى ، عمان

١٩٦٥ ص ١١٧ .

(٢٠) ياقوت : معجم البلدان ٢:٦/٣ (بيروت ١١٥٥) .

(٢١) جرجى زيدان : المرجع السابق ص ٧٣ ، ياقوت ٣٤٦/٥ .

ونقرأ في التوراة أن «أمصيا» (٨٠٠ — ٧٨٣ ق م) قد خلف أباه «يهوآش» (٨٣٧ — ١٠٠ ق م) على عرش يهوذا ، وأنه حاول أن يسترد أدوم وسلط وقد فجع في الاستيلاء على الأخيرة ، ومن ثم فقد أطلق عليها اسم «يقنتيل» بمعنى «الخاضع لله» (٣٣) .

وعلى أي حال ، فلقد استمرت البتراء مدينة هامة حتى سقطت في أيدي الرومان في عام ١٠٥ م أو (١٠٦ م) ، ثم سرعان ما أخذت أهميتها تتضاؤل شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت في ذمة التاريخ (٣٤) ، الى أن كشف عنها «بوخاردت» (١٨٦٣ — ١٩٣٨ م) في عام ١٨١٢ م (٣٤) .

ولعل من أهم مدن أدوم — بعد البتراء — مدينة «بصرة» — ومكانها الآن بصيرة الحديثة على مبعدة ٣٣ كيلا الى الجنوب الشرقي من البحر الميت ، ثم «تيمان» على مقربة من البتراء ، ثم «عصيون جابر» — والتي كان يظن من قبل أنها كانت عند «عين الغديان» في قعر وادي العربية ، ثم اكتشفها «نلسون جلوك» في موقع تل الخليفة ، على مبعدة ٥٠٠ قدم من ساحل البحر على الطرف الشمالي لخليج العقبة بالقرب من ميناء «ايلات» (٣٥) .

هذا وقد عرفت بلاد أدوم في اليونانية باسم «أدوميا» وأما «برية

(٢٢) ملوك ثان ١٤ : ١ — ٧ .

وكذا F. Altheim and Rstiehl, Op. Cit., P. 283.

وكذا A.B.W. Kennedy, Petra, its History and monuments, London, 1925, P. 78.

A. Lods, Op. Cit., P. 385-6.

(٢٣) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٣٤٢ — ٣٢٤ ، مكابيون أول ٢٦ : ٥ .

24) J. L. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, London, 1822, P. 418-434.

(٢٥) قاموس الكتاب المقدس ١٧١/١ ، جواد على ٦٣٧/١ ، موسكاتي : المرجع السابق ص ٢٨٠ ، وكذا

J. Finegan, Op. Cit., P. 181.

Nelson Glusck, The other Side of the Jordan, New Haven, 1945, P. 50-113.

أدوم» فهي الواقعة جنوب البحر الميت ، وقد انتهت حياة الادوميين في القرن الثاني قبل الميلاد ، وذلك حين استولى «يوحنا المكابي» على حبرون وغيرها من المدن التي كان الادوميون قد استولوا عليها ، ثم أجبرهم بعد ذلك على الختان واعتناق اليهودية ، رغبة منه في ازالة الفوارق الدينية بينهم وبين اليهود ، وحبا في نشر اليهودية بينهم^(٢٧) .

(٢) المؤابيون

ينسب المؤابيون — طبقا لرواية التوراة — الى مؤاب بن لوط عليه السلام^(٢٨) ويطلق عليهم في التوراة أحيانا «مؤاب»^(٢٩) ، وهم من الشعوب التي تتصل بالعبرانيين بصلة من قرابة عن طريق لوط ابن أخي ابراهيم الخليل ، عليه السلام ، كما أن راعوث جدة داود امرأة مؤابية^(٣٠) .

ويقع اقليم المؤاب شمال الحسا — الذي يفصله عن أدوم بالمعروف في التوراة بوادي زاد — وقد امتدت مملكة مؤاب من ناحية الشرق ، من البحر الميت حتى الصحراء ، واتسعت شمالا حتى وادي الموجب ، وهو نهر أرنون في سفر العدد^(٣١) ، ويتكون من وادي «وله» الذي يأتي من الشمال الشرقي ، ووادي عنقيه الاتي من الشرق ، وسيل الصعدة الاتي من الجنوب^(٣٢) .

وكانت مؤاب — مثل أدوم — حصينة قوية ، ذات مواقع استراتيجية على الحدود في الداخل ، ولهذا فقد اضطر الاسرائيليون أثناء التيه أن يكفوا عن الاستمرار في السير ، «في البرية التي قبالة مؤاب الى شروق

(٢٦) اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ١٠٥ .

(٢٧) تكوين ١٩ : ٣٧ .

(٢٨) عدد ٢٢ : ٣ - ٢٤ ، ملوك ثان ١ : ١ .

(٢٩) راعوث ١ : ٤ .

(٣٠) عدد ٢١ - ١٣ - ١٤ .

(٣١) قاموس الكتاب المقدس ٥٧/١ .

الشمس»، حتى وصلوا الى الجانب الاخر من أرنون (٣٢) ، هذا وتروى التقاليد الاسرائيلية أن منطقة مؤاب هذه انما كانت — بادية ذى بدء — ملكا للاميين فطردهم المؤابيون منها (٣٣) ، أما عربات مؤاب فهي في وادي الاردن بين مصب ييوق والبحر الميت (٣٤) .

وكانت فرصة مؤاب الوحيدة في التوسع ، هي الاتجاه نحو الشمال، فيما وراء أرنون ، ومن هذه المنطقة اتصلوا بالاسرائيليين اتصالا مباشرا ، ومنذ البداية فقد كانت رقعة الارض شمال أرنون ، تبدو كما لو كانت قد شغلت أثناء القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، بكل مجالات النفوذ الصغيرة ، مثل حشبون ، حيث استطاع جيرانهم من قبيلة «جاد» اخضاعها في النهاية .

وعلى أى حال فان أقدم حالة يمكن أن تظن اليها هي أن المؤابيين قد تقدموا بعيدا الى شمال أرنون ، على الأقل على طول الجبال التي كانت تمتد حتى حدود البصر الميت الشرقية ، مفترضة أن المدن البعيدة الى الشرق في وسط رقعة الارض التي كانت ما تزال مستقلة حتى ذلك الوقت ، وهناك تقع قمة بعور — بين حشبون والنهاية الشمالية للبحر الميت — ذلك المزار المشهور لـ «بعل بعور» ، حيث الحدود بين مؤاب ، وقبيلة جاد العبرانية ، وعلى أى حال ، فلقد كان أغلب الجزء الجنوبي من وادي الاردن في وقت من الاوقات ملكا للمؤابيين (٣٥) .

وأما لغة مؤاب ، فهي من اللهجات التي كتبت بها التوراة ، وهي المعروفة عادة بالعبرانية ، والقراية بين اللغتين — المؤابية والاسرائيلية —

(٣٢) عدد ٢١ : ١١ — ١٣ ، وكذا

J. Finegan, Op. Cit., P. 154.

(٣٣) تثنيه ٢ : ١٠ — ١١ ، ثم قارن : تكوين ١٥ : ١٤ ، وأنظر : قاموس الكتاب المقدس ٩٢٨/٢ .

M. F. Unger, Op. Cit., P. 753. وكذا

(٣٤) قاموس الكتاب المقدس ٩٢٨/١ .

35) M. Noth, Op. Cit., P. 155-157.

مؤكددة ، وهى لغة سامية قريبة من العربية كذلك (٣٦) ، ولكنها أشد شبهاً — فى رسمها وقواعدها — باللغة العبرية ، كما يبدو ذلك واضحاً من النقش الموجود على «الحجر المؤابى» (٣٧) ، والذي يقدم أقدم نقش تاريخى مكتوب على النمط السامى الشمالى القديم (٣٨) .

هذا ونعرف من الحجر المؤابى — وكذا من التوراة (٣٩) — أن اله المؤابيين إنما كان يدعى «كيموش» ، وأن القوم قد عرفوا — كما عرف غيرهم من الساميين كالكنعانيين والفينيقيين الاسرائيليين — عادة التضحية البشرية بالابن البكر ، ذلك أن «ميشع» ملك مؤاب كان قد قام بحملة مظفرة نجح فيها فى توسيع ملكه ، على مدى خط العرض من الطرف الشمالى للبحر الميت ، واخضاً المستعمرات الاسرائيلية فى الهضبة الخصبة شمال عرنون (٤٠) ، ثم نهب المعبد الاسرائيلي فى

(٣٦) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٩٧ .
(٣٧) كان المبشر الالماني «الاب ف ١٠٠ كلين» أول من اكتشف هذا الحجر فى عام ١٨٦٨م ، عند العاصمة المؤابية «ديبون» (ذبيان الحالية على مبعدة ثلاثة أميال شمال نهر أرنون ، وشمالى غرب عراير) ولكنه فشل فى الحصول عليه ، وتصادف أن كان الباحث الفرنسى «كلير مونت جانو» ، فى القدس ، فعلم بالامر، وأنطلق مباشرة الى ديبون وأخذ الحجر المؤابى ونقله الى متحف اللوفر بباريس ، والحجر المؤابى عبارة عن قطعة من صخور البازلت الاسود ، عرضها قدمان وثلاث بوصات ونصف ، وطولها أربعة أقدام ، وسمكها نصف بوصة ، وعليها ٢٤ سطراً من الكتابة المؤابية . وقد أقامه «ميشع» ملك مؤاب حوالى عام ٨٥٠ ق م . تخليداً لانتصاره على اسرائيل وشكر لالهة «كيموش» . ولكن هناك من يرى أنه ربما كتب بعد موت ملك اسرائيل «أخاب» (٨٦٩ - ٨٥٠) وربما بعد زوال بيت عمرى تماماً على يد «ياهو» (٨٤٢ - ٧٤٥ ق م) ودخول بنى اسرائيل فى زمن اليأس الذريع (قاموس الكتاب المقدس ١٩٢٩/٢)

J. Fiuegan, Op. Cit., P. 188-189.

وكذا

M. F. Unger, Op. Cit., P. 755-756.

وكذا

W. F. Albright, ANET, P. 320.

(W. Keller, Op. Cit., P. 230-234

38) C. S. Clermont-Ganneau, la Stele de mesa, 1887

G. A. Cook, TBNSI, 1903, P. 1-14.

وكذا

(٣٩) ملوك ثان ٣ : ٩ - ٢٧ .

40) M. Noth, Op. Cit., P. 244-245.

«بنيو» ، وذهب سبعة آلاف من سكانها الى الآلهة «عشتار - كيموش» ،
مما اضطر ملك اسرائيل «يهورام» (٨٤٩ - ٨٤٢ ق.م) الى طلب
العين من يهوذا وأدوم ، ثم القيام بهجوم على مؤاب من الجنوب^(٤١) ،
الامر الذي دفع الملك المؤابي «ميشع» الى أن يضحي بولده البكر لاله
«كيموش» ، حتى ينقذه من هذه القوات المتحالفة^(٤٢) .

هذا وقد كشفت آثار كثيرة في مؤاب ، لعل أشهرها ما كان في
«ربة مؤاب وكرك وماديا ومعين وأم رصاص»^(٤٣) ، وفي عام ١٩٥٠ /
١٩٥١م ، قامت «المدرسة الامريكية للابحاث الشرقية في اورشليم»
بحفائر في «دييون» - عاصمة مؤاب - أثت بنتائج كثيرة ، وكشفت عن
عدد من المباني والفخار الذي يرجع الى عصر البرونز المبكر ، وحتى
العصر العربي المبكر ، ولكنها في الغالب لم تكشف شيئا يتصل بعصر البرونز
المتأخر ، وعلى أي حال فلقد كشف عن عدد من اللوحات الصغيرة التي
يمكن أن تؤرخ - مثلها في ذلك مثل الحجر المؤابي - بالقرن التاسع
قبل الميلاد^(٤٤) .

(٣) العمونيون

تروى التقاليد الاسرائيلية في سفر التكوين أن العمونيين انما
ينسبون الى «بنى عمى» بن لوط^(٤٥) ، وأن المنطقة التي سكنوها «سكن
الرفائيون فيها قبلا ، لكن العمونيين يدعونهم زمزميين ، شعب كبير
وكثير وطويل كالعشاقين ، أبادهم الرب من قدامهم ، فطردوهم
وسكوا مكانهم» ، وأن منطقتهم هذه قد حُرمت على الاسرائيلين^(٤٦) ،

41) S. A. Cook, CHA, III, P. 372.

(٤٢) ملوك ثان ٢ : ٢

(٤٣) قاموس الكتاب اقدس ١٩٢٩/٢ .

44) J. Finegan, Op. Cit P. 189-190.

R. E. Murphy, BASOR, 125, 1942, P. 20-23.

F. V. Winnnett, BASOR, 725, 1952, P. 7-20.

A. D. Tushingham, BASOR, 133, 19554, P. 6-26.

(٤٥) تكوين ١٩ : ٣٨ .

(٤٦) تثنية ٢ : ١٩ - ٢١ .

كما كانوا — كغيرهم من سكان المنطقة — على عدااء مع الاسرائيليين^(٤٧)،
كما ظلوا دائما أعداء لهم قبله السبى البابلي وبعده^(٤٨) .

هذا وقد كان العمونيون في صراع مستمر مع الاموريين الى الشمال
منهم ، خاصة على الحدود الشمالية والشرقية ، واشتهر «سيحون»
الامورى بسلبه قسما كبيرا من اراضيهم^(٤٩) .

وقد استقر العمونيون في الشمال الشرقي من المؤاب ، في الاقليم
الاعلى من ييوق ، وكانت عاصمتهم «ربة» أو «ربة عمون» التي سميت
في العصر الاغريقي «فيلاذ لفييا» ، نسبة الى ملك مصر «ببليوموس»
الثاني فيلاذ لفيوس» (٢٨٤ — ٢٤٦ ق م) ، وهي في موقع تشغله
حاليا عاصمة المملكة الاردنية الهاشمية «عمان» ، حيث يوجد في اسمها
جزء من اسم العمونيين^(٥٠) .

هذا وقد استطاع العمونيون أن يكونوا دولة مستقرة منظمة منذ
فترة مبكرة ، ومن ثم فقد كانوا يحكمون بملك قبل أن تبرز فكرة الملكية
في اسرائيل ، هذا ويدل التحالف الذي أقاموه مع جيرانهم الشماليين
٨٥٣ ق م ، حيثما اشترك ملك عمون في حلف يضم اثني عشر ملكا
على رأسهم بنحدد ملك دمشق ، ضد شلمنصر الثالث^(٥١) ، يدل هذا
التحالف على أنهم كانوا أقوياء .

وأما معبود العمونيين القومي ، فهو «ملكوم» وكانوا يقدمون

(٤٧) قضاة ٣ : ١٣ ، صموئيل أول ١٠ : ١٠ — ١٠ : ٨٣ مزمور ٧٠ .
تثنية ٢٣ : ٣ — ٤ .

(٤٨) نحميا ٣ : ٤ مكابيين أول ٦ : ٣٠ — ٤٣ .

M. F. Unger Op. Cit., P. 45. وكذا

(٤٩) عدد ٢١ : ٢٤ تثنية ٣ : ٢٧ ، قضاة ١١ ، ١٣ ، ٢٣

50) M. Noth, Op. Cit., P. 157-158.

(٥١) صموئيل ثان ١٠ — ١٢ .

52) S. A. Cook, Op. Cit., P. 363.

M. Noth, Op. Cit., P. 245-6.

J. A. Montgomery, Op. Cit., P. 27.

وكذا

وكذا

أبناءهم ذبائح له^(٥٣) ، كما عبدوا كذلك كيموش إله المؤابيين في عهد
يفتاح الجلعادي^(٥٤) ، أحمد قضاة إسرائيل ، هذا وتدل الاسماء
العمونية — كما جاءت في التوراة — على أن لغتهم ، إنما كانت قريبة
من العبرية^(٥٥) .

(٥٣) ملوك أول ١١ : ١٥ ، ٦٣ .
(٥٤) قضاة ١١ : ٢٤ .

55) M. F. Unger, Op. Cit., P.

الباب الساوس

بنو اسرائيل

الفصل الأول

بنو اسرائيل قبل عصر الملكية

(١) العبرانيون والاسرائيليون واليهود والصهاينة :

عرف بنو اسرائيل بأسماء عدة كالعبرانيين والاسرائيليين واليهود والصهاينة^(١) ، وقد ساد كل مصطلح من هذه المصطلحات فترة معينة من تاريخ بنى اسرائيل ، ولعلنا نستطيع القول بحذر أن اسم «العبرانيين» انما ساد الفترة ، فيما بين ابراهيم وموسى عليهما السلام ، كما أصبح اسم «الاسرائيليين» علما على الفترة التي بدأت بخروج بنى اسرائيل من مصر ، ذلك لأن رهط موسى انما كانوا أول من أطلق عليهم اسم « بنى اسرائيل » ، وذلك في سفر الخروج الذي تتحاشى نصوصه كلية ذكر كلمة «عبراني» ، وهى التى كانت علما على القوم طيلة سفر التكوين ، فيه قصر اسم «اسرائيل على شخص بعينه هو يعقوب عليه السلام ، ولم تتسحب قط على أى من أقوام^(٢) ، واستمر الامر كذلك حتى قيام مملكة داود عليه السلام (١٠٠ - ٩٦٠ ق م) ، وطوال عهد سليمان عليه السلام (٩٦٠ - ٩٢٢ ق م) ، حيث بدأ يظهر اسم اليهود .

ومنذ موت سليمان وبداية عهد الانقسام ، ظهر الاسمان معا (اسرائيل ويهوذا) جنبا الى جنب ، وبقيتا كذلك حتى تدمير دويلة اسرائيل فى عام ٧٢٢ قبل الميلاد ، على يد «سرجون الثانى» (٧٢٢ - ٧٠٥ ق م) ثم

(١) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن هذه المصطلحات : أنظر (محمد بجوم مهران : اسرائيل ٢٢/١ - ٤٧) .
(٢) تكوين ٢/٤٩ ، حسين ذو الفقار صبرى : تورااة اليهود ص ٤ (المجلة - العدد ١٥٧ - يناير ١٩٧٠) ، وكذا
Max Dimont, Jews, God and History, New York, 1962, P. 41.

ترك المجال لاسم «اليهود» حتى القرن التاسع عشر الميلادي ، حيث بدأ اسم «الصهيونيين» يظهر الى الوجود كاسم مرادف لاسم «اليهود» .

وليس هذا يعنى بحال من الاحوال تحديدا دقيقا للاسماء المختلفة التى عرف بها اليهود طوال تاريخهم ، ودقة انطباعها على هذه الفترات من تاريخ بنى اسرائيل ، ذلك لان هذه الاسماء انما قد تداخلت فى بعضها البعض الاخر فى كثير من المراحل ، ومن ثم فقد عرف أكثر من اسم واحد فى فترة واحدة من تاريخهم .

لقد عرف اليهود - بادئ ذى بدء - باسم «العبرانيين» ، ثم سرعان ما ظهر للوجود اسم «بنى اسرائيل» أو «الاسرائيليين» ، بجانب اسم «العبرانيين» ، وان كان هذا الاسم يكاد يختفى منذ أيام المملكة ، ليظهر بدلا منه اسم «اليهود» ، وليعرف القوم به - كما يعرفوا باسم الاسرائيليين - فى نفس الوقت ، وان عرفوا باسم «اليهود» فى الغالب الاعم ، وبقي الامر كذلك حتى ظهر اسم «الصهيونيين» فى العصر الحديث - وان كان يرجع فى جذوره الى أيام السبى البابلى - ومع ذلك لم يطمس اسم «الصهيونيين» غيره من الاسم - باستثناء اسم العبرانيين الذى أصبح نادر الاستعمال - ومن هنا كان تقسيمنا للمراحل التاريخية المختلفة تقسيما مجازيا ، فليست هناك فترة من التاريخ فيما بعد «يعقوب» عليه السلام ، عرف فيها بنو اسرائيل باسم واحد (٣) .

(٢) بنو اسرائيل فى مصر :

ينسب بنو اسرائيل الى اسرائيل (وهو الاسم البديل ليعقوب عليه

(٣) انظر : محمد بيومي مهران : اسرائيل - الجزء اول - الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٤٦ - ٤٧ .

السلام ، الذى أمر أن يتخذ به بدلاً من اسمه الاصلى يعقوب^(٤) بن اسحاق بن ابراهيم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وكانوا يعيشون فى كنعان قبل هجرتهم الى مصر بدعوة من الصديق يوسف عليه السلام ، والذى كان قد وصل الى مصر ، كرقيق اشتراه رئيس الشرطة المصرى على أيام الهكسوس^(٥) (١٧٢٥ - ١٥٧٥ ق م) ، ثم تعرض الى امتحان رهيب من تلك التى هو فى بيتها ، انتهى الى أن ألقى به فى السجن حينما من الدهر ، تقبله النبى الكريم صابرا محتسبا ، ثم تشاء ارادة الله أن يصبح الصديق عليه السلام ، على خزائن الارض آمينا ، بعد أن كان فى زوايا الارض سجيناً ، اذ ينال الخطوة عند ملك مصر ، بعد أن فسر رؤياه تفسيراً يتفق ومقام النبوة ، ويتنزه عن تفسيرات حكماء البلاط وكهانه ، فيقلده ما يشبه وزارة التموين فى عصرنا الحاضر على رأى ، ويجعله على خزائن فرعون ومخازنه على رأى آخر ، وان كانت التوراة تجعله أشبه برئيس الوزراء^(٦) .

وتمر الايام ، ويجتاح أرض كنعان (فلسطين) جدد ، فتتفرق الارض وتعم المجاعة ، وتتجه كنعان صوب أرض الكنانة - الطيبة والكريمة أبداً - وينطلق أبناء يعقوب مع المنطلقين ، فقد أصابهم من الجوع ما أصاب غيرهم ، ويتعرف يوسف عليه السلام على أخوته وهم له منكرون ، وتدور بينهم محاورات تنتهى بأن يستدعى يوسف - باذن دن ملك مصر - أباه وأخوته وأهلهم أجمعين ، للإقامة معه فى أرض الكنانة^(٧) ، فى منطقة «جوشن» (جسم أوجاسان ، كما قرئ اسمها فى

(٤) تكوين ٨/٣٢ ، ٢٢ - ٣٢ ، ٩/٣٥ - ١٣ ، وكذا

M. Unger, Op. Cit., P. 541.

A. Lods, Israel, From its Beginning to the Middle of the Eighth Century, London, 1962, P. 155.

(٥) أنظر عن عصر دخول بنى اسرائيل مصر (محمد بيومى مهران :

اسرائيل ٢٤٩/١ - ٢٥٩) .

(٦) سورة يوسف : آية ٢١ - ٥٦ ، قاموس الكتاب المقدس ١١١٦/٢ .

محمد رجب البيومى : البيان القرآنى ص ٢٢٥ ، تكوين ١/٣٩ - ٣٦/٤١

- ٤٥ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٢١٣/١ - ٢٢٣ .

(٧) أنظر : سورة يوسف : آية ٥٨ - ١٠٠ ، تكوين ٥٦/٤١ - ٢٨/٤٥

المصرية) ، وتقع في «وادي طميلات» (والذي يمتد من فرع النيل
البيلاوي ، متجها نحو الشرق حتى بحيرة التماسح) (٨) .

ويعيش بنو اسرائيل في مصر — ما شاء الله لهم أن يعيشوا — فترة
رخاء واسترخاء ، تنتهي بظهور فرعون يصب عليهم من العذاب أشده ،
حتى أنه يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، وإلى هذا يشير القرآن
الكريم في قوله تعالى «ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيما ،
يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم» (٩) وفي قوله
تعالى «واذ نجيناكم من آل فرعون يسوءونكم سوء العذاب ، يذبحون
أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم» (١٠) .

وفي هذه الفترة التي سلب الله فيها فرعون على بنى اسرائيل يذبح
أبناءهم ويستحي نساءهم ، يبعث الله موسى عليه السلام ، رسولا نبيا ،
لاخراج بنى اسرائيل من مصر ، وإطلاق سراحهم من عبودية المصريين —
كما تؤكد ذلك الاصحاحات العشرة الاولى من سفر الخروج — ومن
ثم فالهدف من دعوة موسى عليه السلام ، كما تصورها التوراة ، انما
هو اخراج بنى اسرائيل من مصر ، وأن يقيمهم شر العذاب المهين الذي

(٨) محمد بيومي مهران : اسرائيل ٢٣٣/١ - ٢٣٧ ، وكذا

A. Gardiner, JEA, 5, 1918, P. 262.

A. Lodos, Op. Cit., P. 178.

E. Naville, JEA, 10, 1924, P. 31.

P. Montet, L'Egypt et Bible, 1959, P. 57.

JEA, 5, 1918, P. 18-23.

M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 113.

(٩) سورة القصص : آية ٤ .

(١٠) سورة البقرة : آية ٤٩ ، وانظر : تفسير روح المعاني ٢٥٢/١ -

٢٥٤ ، تفسير البحر المحيط ١٨٧/١ - ١٨٨ ، تفسير الطبري ٣٦/٢ - ٣٩ ،

تفسير الطبرسي ٢٣١/٢ - ٢٣٥ ، تفسير القرطبي ص ٣٢٥ - ٣٣٠ ، تفسير

المنار ٣٠٨/١ - ٣١٣ ، تفسير الدر المنثور في التفسير المأثور ٦٨/١ - ٦٩ ،

تفسير النسفي ٤٧/١ - ٤٨ ، تفسير الكشاف ١٣٧/١ - ١٣٨ ، تفسير ابن

كثير ١٣٦/١ - ١٣٧ ، في ظلال القرآن ٧٠/١ - ٧١ ، صفوة التفسير

٥٧/١ - ٥٨ ، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٥٩/١ - ٦٠ .

كانوا يتعرضون له في مصر ، الأمر الذي يقرره القرآن الكريم في عدة سور ، من ذلك قوله تعالى «وقال موسى يا فرعون انى رسول من رب العالمين ، حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق ، قد جئتك ببينة من ربكم ، فأرسل معى بنى اسرائيل» (١١) ، وقوله تعالى «فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم» (١٢) ، وقوله تعالى «فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين ، أن ارسل معنا بنى اسرائيل» (١٣) .

ويقول صاحب الظلال : وواضح من هذا أن موسى عليه السلام لم يكن رسولا الى فرعون وقومه ليدعوهم الى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته ، انما كان رسولا اليهم يطلب اطلاق بنى اسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون ، وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم اسرائيل ، وهو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام ، فبهت هذا الدين في نفوسهم ، وفسدت عقائدهم ، فأرسل الله اليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون ، ويعيد تربيتهم على دين التوحيد (١٤) .

ويقول في مكان آخر من تفسيره : ان موضوع رسالتهما (أى موسى وهارون) «فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم» ، ففى هذه الحدود كانت رسالتهما الى فرعون ، لاستنقاذ بنى اسرائيل ، والعودة بهم الى عقيدة التوحيد ، وإلى الارض المقدسة التى كتب الله لهم أن يسكنوها الى أن يفسدوا فيها فيدمرهم تدميرا (١٥) .

وأيا ما كان الامر ، فلقد خرج موسى عليه السلام بينى اسرائيل من مصر ، بأمر الله تعالى ، اذ أوحى الله الى موسى أن يسرى بعباده،

-
- (١١) سورة الاعراف : آية ١٠٤ - ١٠٥ .
 - (١٢) سورة طه : آية ٤٧ .
 - (١٣) سورة الشعراء : آية ١٦ - ١٧ .
 - (١٤) فى ظلال القرآن ٢٥٩٠/٥ .
 - (١٥) فى ظلال القرآن ٢٣٣٧/٤ ، ثم قارن : تفسير البحر المحيط ٣٥٦/٤ .

وأن يرحل بهم ليلا ، بعد تدبير وتنظيم ، ونباه أن فرعون سيثبّعهم بجنده ، وأمره أن يقود قومه الى ساحل البحر ، وبدهى أنه ليس بعد قول الله تعالى قول ، وبالتالي فإن خروج بنى اسرائيل من مصر ، انما تم بأمر الله تعالى^(١٦) ، وليس بأمر موسى أو فرعون ، كما تقول توراة يهود^(١٧) .

هذا وقد اختلف المؤرخون في الفرعون الذى خرج بنو اسرائيل من مصر على عهده ، وفي تاريخ الخروج ، وبالتالي في تاريخ الاستقرار الذى تلاه في فلسطين ، ومن ثم فقد قدموا لنا نظريات مختلفة ، يصل الفرق بين أقدمها وأحدثها الى أربعة قرون ، وعلى أى حال ، فإن أهم الاراء التى دارت حول تاريخ الخروج خمسة ، أولها : رأى يذهب أصحابه الى أن الخروج انما تم أثناء طرد الهكسوس من مصر على أيام أحمس الاول ، حوالى عام ١٥٧٥ ق.م ، وثانيهما : أنه تم على أيام تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) أو ولده «أمنحتب الثانى» (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م) وثالثهما : أنه تم في أعقاب أيام «اخناتون» (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) ، وربما في الفترة فيما بين موت اخناتون ، وتولية «احور محب» العرش ، حوالى عام ١٣٣٥ ق.م ، ورابعها : أنه تم على أيام رمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) .

وأما خامس الاراء ، فإنه تم على أيام «مرنبتاح» (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م) ، فاذا كان هذا الرأى صحيحا - وهذا ما نميل اليه ونرجحه - فإن الخروج لابد وأن يكون في العام الاخير من حكم «مرنبتاح» ، سواء كان هذا العام العاشر من الحكم (حوالى عام ١٢١٤ ق.م) أو أن يكون العام الثامن من الحكم (حوالى عام ١٢١٦ ق.م) ، على خلاف في الرأى ، ذلك لان التوراة^(١٨) ، والقرآن العظيم ، انما يقولان أن

(١٦) أنظر : سورة طه : آية ٧٧ ، سورة الشعراء : آية ٥٢ ، سورة الدخان : آية ٢٣ - ٢٤ .

(١٧) خروج ١٧/١٣ - ١٨ ، ١٤ / ١١ - ١٢ ، عدد ١٤ / ٣ - ٤ .

(١٨) خروج ٢٦/١٤ - ٣١ ، ١٥ / ١ - ٥ ، الرسالة الى العبرانيين

٢٩/١٥ .

الفرعون قد غرق في البحر ، وإن أضاف القرآن الكريم أن جثة فرعون إنما قد انتشلت لتكو آية لن خلفه (١٩) .

على أن هناك آراء أخرى ، ذهب أولها إلى أن الخروج تم على أيام «السيدي الثاني» (١٢١٤ - ١٢٠٨ ق م) ، وذهب ثانيها إلى أنه كان في نهاية الاسرة التاسعة عشرة (١٢٠٨ - ١١٨٤ ق م) ، وأما ثالثها فقد تأخر به إلى ما بعد عهد رمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق م) ، ثاني ملوك الاسرة العشرين (١١٨٤ - ١٠٨٧ ق م) (٢٠) .

(٣) بنو إسرائيل في التيه :

تميزت الفترة التي قضاها بنو إسرائيل في سيناء ، منذ انفلاق البحر ، وحتى موت موسى عليه السلام بالردة والتمرد :

فأما عن الردة : فإن القرآن الكريم قد انفرد - من دون التوراة - بإخبارنا بأن بنى إسرائيل ما كادوا يمضون مع موسى ، بعد خروجهم من البحر ، ونجاتهم من آل فرعون ، وقالوا ، فيما حكاه القرآن عنهم ، «وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا يا موسى اجعل لنا إلها ، كما لهم آلهة ، قال انكم قوم تجهلون ، ان هؤلاء متبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعظمون» (٢١) .

وأكبر الظن أن هذه الاصنام التي رآها بنو إسرائيل ، وطلبوا أن تكون لهم آلهة مثلها ، ربما كانت تماثيل المعبودة «حاتحور» (٢٢) ، ربة

(١٩) سورة يونس : آية ٩٠ - ٩٢ ، وأنظر : تفسير القرطبي ص ٣٢١٨ - ٣٢٢٠ تفسير ابن كثير ٦٦٥/٢ - ٦٦٨ ، تفسير المنار ٣٨٧/١ - ٣٩٠ ، الطبري ١٩٤/١٥ - ١٩٨ ، في ظلال القرآن ١٨١٧/٣ - ١٨١٨ ، مسند الامام أحمد ٣٠٩/١ ، تحفة الاحوذى ٥٢٥/٨ ، محمد بيومي مهران : إسرائيل ٤٢١/١ - ٤٢٢ .

(٢٠) أنظر عن تاريخ الخروج وفرعون وموسى والآراء التي دارت حولهما (محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٢٢٣/٢ - ٣٣٢ ، إسرائيل ٣٥٧/١ - ٤٣٩ ، مصر الجزء الثالث - ص ٤٤٥ - ٥٠٨) (٢١) سورة الاعراف : آية ١٣٨ - ١٣٩ .

(٢٢) أنظر عن «حاتحور» (محمد بيومي مهران : الحضارة المصرية - الجزء الثاني ص ٣٣٧ - ٣٤١) .

الفيروز ، والتي كان قد أقيم لها معبد في مناجم الفيروز ، التي كانت
تكثر في وادي مغارة وسرابيط الخادم منذ أيام الدولة الوسطى ، حيث
كان يتعبد لها عمال المناجم هناك^(٢٣) ، ويذهب المفسرون والمؤرخون
المسلمون الى أن الاصنام التي وجدها بنو اسرائيل بعد انفلاق البحر ،
انما هي تماثيل بقر (حيث كانت تصور حاتحور بكبرة) ، ويذهب الامام
البيضاوي الى أن ذلك أول عبادة العجل ، ويقول الامام الطبري : ان
القوم كانوا يعبدون أصناما على صور البقر ، فلما عجل السامري
شبه اليهم أنه من تلك البقر ، ومن ثم فقد أثار ذلك شبهة لهم في عبادة
العجل بعد ذلك^(٢٤) .

غير أن الردة الكبرى انما كانت «عبادة العجل» ، ذلك أنه لم يمض
وقت طويل على انفلاق البحر ، وعلى محاولة عبادة البقر في صورة
حاتحور — أو عبادة حاتحور في صورة بكرة — حتى كانت الردة الكبرى
وعبادة العجل ، كما جاء في التوراة^(٢٥) والقرآن العظيم^(٢٦) .

وهكذا بقيت الوثنية راسخة في قلوب بني اسرائيل ، حتى بعد
انفلاق البحر لهم ، وحتى بعد أن جاوزوه على ييس ، وحتى بعد أن من
الله عليهم بالمن والسلوى ، وحتى بعد أن استسقوا موسى فضرب
الحجر بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، لكل سبط من أسباطهم
الاثني عشر ، مشربهم ، وحتى بعد أن نزلت عليهم شريعة تحذرهم من
اتخاذ آلهة أخرى ، غير الله سبحانه وتعالى ، حتى بعد هذا كله ، فانهم

23) A. Gardiner, A. T. Peet, and J. Cerny, The Inscription of Sinai,
II, London, 1955, P. 41.

(٢٤) أنظر : تفسير البحر المحيط ٣٧٧/٤ - ٣٧٨ ، تفسير الطبري
٨٠/٣ - ٨٤ ، تفسير البيضاوي ٢٥/٣ ، الدر المنثور في التفسير بالأنوار
١١٤/٣ ، تفسير النسفي ٧٤/٢ ، تفسير ابن كثير ٣٨٧/٢ ، محمد بيومي
مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٣٣٥/٢ - ٣٤٢ .

(٢٥) خروج ١/٣٢ - ٢٨ .

(٢٦) سورة البقرة : آية ٥١ ، ٥٤ ، ٩٢ ، ٩٣ ، سورة النساء : آية
١٥٢ ، سورة الاعراف : آية ١٤٨ - ١٥٢ ، سورة طه : آية ٨٣ - ٩٨ .

سرعان ما زاعوا عن الصراط المستقيم ، وكفروا بالله الواحد الاحد^(٢٧) ، وهو نفس ما سوف يفعلونه في دويلة اسرائيل على أيام «يربعام الاول» (٩٢٢ - ٩٠١ ق م) وبعد موت سيدنا سليمان عليه السلام في عام ٩٢٢ ق م مباشرة ، وذلك حين أقام يربعام الاول مكانين لعبادة العجل الذهبي ، الواحد في «بيت ايل» والاخر في «دان» ، بل ان عاصمتهم «السامرة» انما قد زودت أيضا بعجل ذهبي^(٢٨) .

وأما التمرّد : فقد بدأ بعد عبور البحر بقليل بسبب قلة الماء العذب مرة أخرى^(٢٩) ، غير أن أخطر الثورات — من وجهة النظر العقديّة — كانت حين طلبوا من موسى أن يروا الله — تعالى عن ذلك علوا كبيرا — جهرة ، وكأنهم بعد كل هذه المعجزات لم يؤمنوا بموسى ور بموسى فيطلبون من نبي الله — في مقابل ايمانهم — أن يروا الله جهرة ، قال تعالى «واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون» ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون^(٣٠) . ثم هناك ثورة أخرى ضد موسى تزعمها أحد اللاويين ، سبط موسى نفسه ، تتهم موسى وهارون بالترفع على جماعة الرب ، من بنى اسرائيل^(٣١) ، ثم ثورة الثالثة تنكر على موسى خروجه ببني اسرائيل من مصر^(٣٢) .

وعلى أية حال ، فان موسى عليه السلام ، سرعان ما يأمر قومه الاسرائيليين بدخول الارض المقدسة التي كتب الله لهم — سواء أكانت هذه الارض هي فلسطين بعامة أو القدس أو أريحا فيما يرجح البعض —

(٢٧) سورة البقرة : آية ٦٠ - ٦١ ، سورة الشعراء : آية ٦٠ - ٦٨

(٢٨) خروج ٧/٣٢ - ٨ ، ملوك أول ٢٥/١٢ - ٣٢ ، هوشع ٥/٨

٦ وكذا

(٢٩) خروج ٢٣/١٥ - ٢٥ ، ٢/١٦ - ٣ ، وانظر : سورة البقرة :

آية ٦٠ - ٦١ .

(٣٠) سورة البقرة : آية ٥٥ - ٥٦ .

(٣١) عدد ١/١٦ - ٥ .

(٣٢) عدد ٥/٢١ - ٩ .

تنفيذا لأمر الله تعالى «يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين»^(٣٣) ، على أن الغريب أن يمتنع بنو اسرائيل عن دخول كنعان ، لان دخولها انما يعنى الحرب مع سكانها الاصليين ، رغم أن موسى عليه السلام بدأ يحرضهم على القتال ، ولكنهم مع كثرتهم «تصسبهم جميعا وقلوبهم شتى»^(٣٤) ، فقد كانوا يخافون الحرب ، ويهابون القتال ، ومن ثم فلم يستجب لموسى ، الا هارون أخاه ، ومن ثم فقد حكم الله تعالى عليهم بالتشرد والته في الارض أربعين سنة^(٣٥) .

والى هذا يشير القرآن الكريم ، في قوله تعالى «يا قوم ادخلوا الارض المقدسة ، التي كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فانا داخلون ، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، أدخلا عليهما الباب فإذا دخلتموه فأنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ، ان كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا انا هنا قاعدون ، قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فانا محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض ، فلا تأس على القوم الفاسقين»^(٣٦) .

وهكذا انتهت قصة بنى اسرائيل مع موسى عليه السلام ، وطبقاً

(٣٣) سورة المائدة : آية ٢١ .

(٣٤) سورة الحشر : آية ١٤ .

(٣٥) أحمد ضياء الدين مهران ، دراسة تاريخية للعلاقات بين مصر وبنى اسرائيل أثناء الالف الاول قبل الميلاد - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ١٢٦ - ١٢٨ .

(٣٦) سورة المائدة : آية ٢١ - ٢٦ ، وأنظر : تفسير النسفى ٢٧٨/١ - ٢٨٠ ، تفسير المنار ٢٦٥/٦ - ٢٧٩ ، تفسير البيضاوى ١٤٨/١ - ١٥٠ ، تفسير روح المعانى ٢٦٤/١ - ٢٦٩ ، تفسير ابن كثير ٥٨/٢ - ٦٥ ، تفسير الطبرى ١٦٧/١٠ - ٢٠٠ ، تفسير القرطبى ص ٢١٢٠ - ٢١٣٠ ، صفوة التفاسير ٣٣٥/١ - ٣٣٧ ، فى ظلال القرآن ٨٦٩/٢ - ٨٧١ .

لرواية التوراة ، فمن رأس الفسجة ، التي يفترض أنها جزء من جبل «نبو» ، على مبعدة ٤ كيلا من نهر الاردن ، نظرت موسى الى أرض الميعاد ، ودفن في أرض مؤاب (٣٧) .

(٤) دخول بنى اسرائيل كنعان :

آل أمر بنى اسرائيل بعد موت موسى عليه السلام الى يشوع بن نون - خادم موسى وفتاه - (٣٨) وسرعان ما بدأ يخطط لغزو فلسطين فعبّر الاردن عند المخاضة المعروفة بالمغطس أو الحجلة ، على مبعدة ٣ كيلا جنوبى كوبرى اللنبى ، في وقت كان النهر فيه ضحلا على أيام الربيع ، وان ذهبت رواية أخرى أن المياه المنحدرة من فوق وقفت ، وقامت ندا واحدا بعيدا جدا عن «أدام المدينة» (٣٩) فسار القوم في الأرض الجافة ، على أن هناك من يذهب الى أنه في منطقة «أدام» (تل الدامية على مبعدة ٢ كيلا جنوبى اتصال نهر ييوق بالاردن) يوجذ جرف من الحجر الجيرى يكون عند الزلازل شقا في النهر يسده تماما لفترة ، ويمنع تدفق مياه الاردن لمدة تزيد عن ٢٠ ساعة ، كما حدث عام ١٩٣٧م (٤٠) .

وأيا ما كان الامر ، فلقد عبر بنو اسرائيل الاردن ، وعسكروا في «الجلجال» عند تخم «أريحا» الشرقى ثم احتلوا أريحا بعد سبعة أيام ، عن طريق خيانة امرأة زانية تدعى «رحاب» ثم أشعلوا النيران في المدينة فحرقوها بمن فيها وما فيها ، ما عدا الذهب والفضة وآنية النحاس (٤١) ،

(٣٧) تثنية ٣٧/٣ ، ١٢/٣٤ ، ٨ ، وأنظر

S. Saller, The Memorial of Moses on Mount Nobo 2 Vols, London, 1941.

(٣٨) خروج ١٣/٢٤ ، عدد ١٢/٢٧ - ٢٣ ، تثنية ٢٨/١ .

(٣٩) يشوع ١٥/٣ - ١٦ .

40) J. Finegan, Light from The Ancient Pasct, The Archaeology back Ground of Judaism and Christianity, Princeton, 1969, P. 155.

(٤١) يشوع ١٩/٤ - ٢٤ ، ١٠/٦ - ٢٧ .

وان ذهب البعض الى أن سقوط أريحا إنما كان بسبب زلازل وقعت في المدينة ، وليس بسبب خيانة امرأة ، وضرب كهنة يهود بأبواقهم حول المدينة^(٤٣) .

وكانت الضربة التالية من نصيب «عاي» (وهي التل الحالية على مبعدة ٢٠ كيلا شمال غرب أريحا) التي سقطت بسبب خدعة يهودية^(٤٣) وان كانت حفائر «جوديث ماركيت كروز» في موقع «عاي» تشير الى بقايا مدينة من عصر البرونز المبكر قد دمرت تماما حوالي عام ٢٢٠٠ ق.م ، كما أن اسم عاي بمعنى الخراب ، ومن ثم فالتفسير المحتمل لرواية للتوراة هو الخلط بين عاي وبيت ايل (بيتين = على مبعدة ٣ كيلا من عاي)^(٤٤) .

وتقدم يشوع فاستولى على «جبعون» (الجيب الحالية على مبعدة ١٣ كيلا شمال غرب القدس) ولبننة (تل بورناط شمالى غرب بيت جبرين) وجازر (تل الجزر على مبعدة ٢٥ كيلا جنوب شرق حيفا) وعجلون (خربة عجلان قرب أربد) وحبرون (مدينة الخليل الحالية) ودبير (تل بيت مرسيم على مبعدة ١٧ كيلا جنوب غرب الخليل) وحاصور (تل القدح على مبعدة ١٢ كيلا شمال بحر الجليل) ، ثم تزعم التوراة بعد ذلك أن يشوع قد استولى على أملاك ٣١ ملكا في كنعان ، وأنه «أخذ كل الاراضى حسب ما كلم الرب موسى ، وأعطاهها ملكا لبني اسرائيل»^(٤٥) .

42) J. Fingan, Op. Cit., P. 158.

T. R. Glover, The Ancient World, 1968, P. 134.

(٤٣) يشوع ٣/٧ - ٢٩/٨ .

44) W. F. Albright, AJA, 40, P. 158, BASO, 118, P. 31.

Judith Marquet-Krause, les Voulles de Ay (ca-Tell), 1933-1935, 2 Vols, 1949.

J. Finegan, Op. Cit., P. 159-160.

(٤٥) يشوع ٣/٩ - ٧ ، ١٠/١ - ١١ ، ١١/١١ - ٢٣ ، ١٢/١ - ٢٤ ،

محمد بيومى مهران : اسرائيل ٦١٢/٢ - ٦٢٢ ، وكذا =

على أن العلماء انما يجمعون — أو يكادون — على أن غزو كنعان (فلسطين) انما كان بعيدا عن التمام على أيام يشوع ، وذلك لأن كثيرا من المدن الحصينة في طول البلاد وعرضها لم تخضع لبنى اسرائيل ، فضلا عن مجموعات القبائل ، ثم ان احتلال كنعان — حين تم — انما تم بجهود كل سبط في الدفاع عن منطقته ، وأن ذلك قد استغرق أكثر من قرن ، وليس في جيل واحد ، فضلا عن أن يكون في خمسة أو سبعة أعوام ، كما تزعم التوراة ، وانما استمر أيضا طوال عهد القضاة وحتى بحاية عصر الملوك الاوائل ، حيث تم الاستيلاء على اورشليم (القدس) ومجدو وتعنك وبيت شان (بيسان) ومنطقة دور ، وجبازر ، وطبقا لرواية التوراة ، فان القدس لم يتم الاستيلاء عليها الا على أيام داود ، وجبازر على أيام سليمان ، وبقوات مصرية بأمر من فرعون^(٤٦).

(٥) عصر القضاة :

يبدأ عصر القضاة بموت يشوع ، وينتهي بقيام الملكية على يد طلوت (شاول) وتستغرق هذه المرحلة ما بين قرن وأربعة قرون على اختلاف في الرأي^(٤٧) ، وانى لأميل الى أنها لا تعدو القرن ونصف القرن ، اذا اعتمدنا على الرأي الذي يرجح الخروج على أيام «مرنبتاح» حوالى

A. Lods, Op. Cit., P: 332.

J. B. Pritchard, BA, 19, 1956, P. 65-75.

J. Finegan, Op. Cit., P. 106-164.

(٤٦) يشوع ١٠/١٤ — ١١ ، صموئيل ثان ٦/٥ — ٩ ، ملوك أول ١٦/٩ ، وكذا

A. Lods, Op. Cit., P. 229-231.

I. Epstein, Judaism, 1970, P. 33.

O. Roux, Ancient Iraq, 1966, P. 242.

(٤٧) أعمال الرسل ٢٠/١٣ ، شاهين مكاريوس : تاريخ الامة الاسرائيلية — القاهرة ١٩٠٤ ص ١٨ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٩٥ ، باروخ سبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة — القاهرة ص ٢٩٠ — ٢٩٤ (مترجم) ، وكذا

J. Gray, Op. Cit., P. 112.

O. Eissfeldt, The Period of The Judges, in CAH, II, Part, 2, 1975, P. 553.

عام ١٢١٤ ق م ، وقيام الملكية على يد «طالوت» حوالي عام ١٠٢٠ ق م ، آخذين في الاعتبار فترة التيه وعهد يشوع بن نون .

هذا وكانت القبيلة — أو السبط — هي أساس النظام الاجتماعي عند بني اسرائيل ، وطبقا لرواية التوراة ، فقد كانت الارض المفتوحة تقسم على احدى عشرة قبيلة ، بينما وزعت القبيلة الاثني عشر — وهي قبيلة اللاويين رهط موسى وهارون — على القبائل الاخرى للخدمة الدينية ، كما كانت القبائل بدورها تقسم الى عشائر ، ولكنها تتجمع حول هيكل مركزي في شيلوه (سيلون الحالية على مبعده ١٤ كيلا شمالي بيت بيت ايل ، ٢٥ كيلا شمالي القدس) (٤٨) .

هذا وقد قارن بعض العلماء هذا النظام القبلي العبراني بمجلس «الامفكتيون» Amphictyony اليوناني ، والذي يقوم على مبدأ مماثل من المركز الدينية (٤٩) ، وكانت سلطة الكاهن الاكبر عظيمة ، ولكن من المبالغة أن نزعهم وجود حكومة ثيوقراطية ، فان سلطته لم تكن سياسية ، اذ كان يتصدر القوم أثناء الازمات زعماء محليون هم «القضاة» (٥٠) ، وقد ظل هؤلاء القضاة يحكمون بني اسرائيل طوال القرن ونصف القرن التاليين لدخولهم فلسطين ، وكانت سلطة القضاة عارضة محدودة المدى والمدة ، وهي في هذا النظام تذكرنا بسلطة زعماء النظام البدوي الذي تتميز به الحياة السامية الاقدم عهدا (٥١) .

(٤٨) يشوع ١/٨ - ١٠ ، موسكاتى : المرجع السابق ص ١٤٠ ، وكذا
M. Unger, Op. Cit., P. 1015.

(٤٩) موسكاتى : المرجع السابق ص ١٤٠ ، وكذا
M. Noth, Das System der Zwölf Stämme Israels, 1930, P. 39-60.
(٥٠) القضاة هم : عثنيئيل بن قناز ، أهود ابن جبرا ، شمجرين بن عناة ، دبورة النبيه القاضية ، جدعون ، أبيمالك ، تولع بن فواه ، يائير الجلعادي ، أبسان ، عبدون بن هليل ، شمشون ، عالي ، صموئيل النبي (صموئيل أول ١/١ - ٢١/٤ ، محمد بيومي مهران : اسرائيل ٦٣٠/٢ - ٦٥٧) .

(٥١) يشوع ١/٨ - ٨ ، موسكاتى : المرجع السابق ص ١٤٠ - ١٤١ ، وكذا
M. Noth, Op. Cit., P. 39-60.
وكذا
M. Unger, Op. Cit., P. 1015.

ولم يكن القضاة قضاة بالمعنى المفهوم ، ولم يكونوا مشرعين بالمعنى القديم ، وإنما كانوا طبقة من الرجال المصاربين والمنقذين : أقامهم الرب «ليخلصوا بنى اسرائيل من ناهبيهم» ، ولم يكونوا خلفاء لبعضهم البعض ، بل اننا لنشهد أكثر من واحد في وقت واحد ، ولم يكن هناك ملوك في بنى اسرائيل في ذلك الوقت ، ومن ثم فقد كان الواحد من هؤلاء القضاة يطلق عليه أحيانا لقب ملك أو قاض^(٥٣) ، كما أن واحدا منهم لم يستطع أن ييسط سلطانه على جميع بنى اسرائيل ، فكل واحد من هؤلاء القضاة أو الشيوخ إنما كان يتسلم قيادة زمرة واحدة ، عندما كانت هذه الزمرة تهدد تهديدا مباشرا ، وهو إذا ما كتب له النصر ، لم يحتفظ حتى بقيادة تلك الزمرة^(٥٣) .

وعلى أية حال ، فلقد انتهى عصر القضاة على أيام «عالي» الكاهن، حيث استطاع الفلسطينيون هزيمة بنى اسرائيل في «أفيق» (تل المخمر على مبعده ٥ كيلا شرقي حيفا) ، واستولوا على «تابوت العهد»^(٥٤) ، وكانت نتيجة الهزيمة مروعة ، فلقد دمر الفلسطينيون المعبد الرئيسى في شيلوه ، فضلا عن اخضاع بنى اسرائيل لسلطانهم ، واقامة الثكنات العسكرية الفلسطينية في المناطق الاسرائيلية ، واحتلال الجبال الرئيسية في غرب الاردن ، واقامة النصب التذكارى لنصرهم في «جعبة بنيامين» (تل الفول على مبعده ٥ كيلا شمالي القدس) ، هذا فضلا عن تعيين موظفين من الفلسطينيين لجمع الضرائب المفروضة على الشعب المهزوم ، كما كانوا يراقبونهم من مراكز المراقبة الثابتة ، وأخيرا فلقد نزعوا سلاح بنى اسرائيل حين منعوهم من صناعة أسلحة جديدة ، وهكذا عمل الفلسطينيون على تقوية امتيازاتهم السياسية عن طريق تفوقهم في

(٥٢) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٣٢٥ .

(٥٣) جوستاف كويون : المرجع السابق ص ٣٥ .

(٥٤) صموئيل أول ٤/٤ - ١/١٠ ، وكذا

O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 571.

M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 165-166.

C. Roth, A Short History of The Jewish People, London, 1969, P. 14.

السلّاح ، وضعف أعدائهم فيه ، بل منعه عنهم ، فضلا عن التّجّاء على
شكرة الثورة ضدّهم بين بني إسرائيل (٥٥) .

(٥٥) صموئيل أول ٤/٤ - ١/١٠ وكذا
O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 571.

الفصل الثاني

عصر داود عليه السلام

أولا - قيام الملكية وعصر طالوت

(١) أسباب قيام الملكية الاسرائيلية :

يذهب الباحثون الى أنه بعد هزيمة «أفيق» المروعة ، في الربع الأخير من القرن الحادى عشر ، تجمعت كل العوامل الضرورية لانتهاء حكم القضاة وقيام الملكية عند بنى اسرائيل ، والتي كان منها (أولا) ضغط الفلسطينيين على بنى اسرائيل ، وقد كان ذلك من أقوى العوامل لتجميع قوى بنى اسرائيل وقيام مملكة ، بل ربما كان الاصح أن تهديد الفلسطينيين للكيان الاسرائيلى من أساسه هو السبب في قيام الملكية الاسرائيلية ، ومنها (ثانيا) أن بنى اسرائيل كان لهم أقطاب أشبه بالملوك كما كان للدوميين والعمونيين والمؤابيين ملوك ، وكان للفلسطينيين ممالك مدن ، الامر الذى دفع بنى اسرائيل للمطالبة بملك يحارب حروبهم ويكون لهم قاضيا كذلك ، ومنها (ثالثا) أن الكهنوت الاسرائيلى كانت قد تسلمته أياد ضعيفة منذ أيام «فنتاص» ، حتى أن «عالى» الكاهن كان من غير «بيت العازار» الابن الاكبر لسيدنا هارون عليه السلام ، والذى يجب - طبقا للنظام الاسرائيلى - أن تستمر الكهانة في نسله ، وانما كان من بيت الابن الاصغر «ايثار» ♦

ومنها (رابعا) أن هناك نصا في التوراة يجعل الحكم في بنى اسرائيل ملكيا ، ومنها (خامسا) التهديد العمونى لحدود اسرائيل الشرقية ، ولعل هذا السبب - بجانب التهديد الفلسطينى ، وتدمير الكثير من مدن بنى اسرائيل - كان السبب المباشر لقيام الملكية

الاسرائيلية^(١) .

(٢) ملكية طالوت :

وهكذا أدى التهديد الخارجى ، والاضطراب الداخلى الى أن يضطر شيوخ اسرائيل الى الاجتماع ، والمطالبة بتتويج ملك على شعب اسرائيل ، ومن ثم فقد اختار لهم «صموئيل النبى» ملكا هو «طالوت» (شاول بن قيس من سبط بنيامين فى التوراة) ، ومع ذلك فرواية التوراة تشير الى تردد صموئيل كثيرا فى اجابة قومه الى ما يطلبون ، بل «لقد ساء الامر فى عيني صموئيل» ، وحذر قومه من غضب الرب ، ان هو رضى فملك عليهم ملكا ، ولكن بنى اسرائيل أصروا على طلبهم ، ورغم ذلك ، فما كان عند النبى صموئيل النية فى اقامة ملك مستقل حقيقة ، وكل ما كان يرجوه أن يكون هذا الملك قائدا حربيا ، وزعيما وسندا لكل بنى اسرائيل ، يخلصهم من سيطرة الفلسطينيين ، ثم يخضع بعد ذلك لصموئيل طوال حياته^(٢) .

على أن القرآن الكريم — وهو أصدق المصادر وأصحها قاطبة — انما يخبرنا أن الملأ من بنى اسرائيل انما قد طلبوا من نبيهم أن يختار لهم ملكا يقاتلون معه عدوهم ، فحذرهم نبيهم من أن السوابق التاريخية انما تشير الى أن بنى اسرائيل ليس لهم صبر على القتال ، ولا يملكون شجاعة يقفون بها أمام أعدائهم ، ومع ذلك فقد أخبرهم أن الله قد اختار لهم «طالوت» ملكا ، بسبب مميزاتة العلمية والجسمانية^(٣) .

(١) تثنية ١٤/١٧ - ١٥ ، صموئيل أول ٢٢/٣ - ٢٥ ، ماير : حياة صموئيل النبى - القاهرة ١٩٦٧ ص ٣٥ - ٦٥ (مترجم) ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٦٦١/٢ - ٦٦٧ ، وكذا

S. Mowinkel, General Oriental and Specific Israelite Elements in The Israelite Conception of The Sacral Kingdom, 1 59, P. 60.

(٢) صموئيل أول ١/٨ - ٢٢ ، حسن ظاظا : الفكر الدينى الاسرائيلى - ص ٤٠٠ ، وكذا

H. R. Hall, Op. Cit., P. 242 .

(٣) أحمد ضياء الدين مهران : المرجع السابق ص ١٣٧ - ١٣٨ .

والى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى «ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى ، اذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ، قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين ، وقال لهم نبىهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا أنى يكون له الملك علينا ، ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ، قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم ، وقال لهم نبىهم ان آية ملكه أن يأتىكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ، ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين» (٤) .

ومن عجب أن يزعم الحاخام الدكتور «أبشتين» أن اختيار «شاول» (طالوت) ملكا على بنى اسرائيل انما يعتبر أول ملك دستورى فى التاريخ لانه تم برضى عام من بنى اسرائيل (٥) ، وفى الواقع أن ما ذهب اليه «أبشتين» ليس صحيحا ، فالنبي صموئيل هو الذى اختاره ، وليس بنو اسرائيل ، وذلك اعتمادا على سلطته الدينية ، حيث فرضه كممثل معتمد لربهم «يهوه» ، هذا فضلا عن أن بنى اسرائيل لم يقبلوه جميعا ، وطبقا لرواية التوراة ، فلقد رفضه «بنو بليعال» وازدروه ، «وقالوا : كيف يخلصنا هذا فاحتقروه ، ولم يقدموا له هدية ، فكان كأصم» (٦) ، وكما يقول الذكر الحكيم «قالوا أنى يكون له الملك علينا ، ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال» (٧) .

(٤) سورن البقرة : آية ٢٤ - ٢٤٨ - وانظر : تفسير المنار ٣٧٢/٢ - ٣٧٣ ، فى ظلال القرآن ٢٦٦/٢ - ٢٦٩ ، تفسير النسفى ١٢٤/١ - ١٢٥ ، تفسير الطبرى ٢٩١/٥ - ٣٢٨ ، تفسير الطبرسى ٢٧٥/٣ - ٢٨٤ ، تفسير ابن كثير ٤٤٩/١ - ٤٥٢ ، تفسير القاسمى ٦٤١/٢ - ٦٤٧ ، تفسير الفخر الرازى ١٨١/٦ - ١٩٣ .

5) I. Epstien, Judaism, 1970, P. 35.

(٦) صموئيل أول ١١/١٠ - ٢٧ .

(٧) سورة البقرة : آية ٢٤٧ .

هذا فضلا عن أن اختيار «طالوت» إنما كان — فيما يرى كثير من الباحثين — إنما كان تجنباً لحرب أهلية كان يمكن أن تنشب ، لو وقع الاختيار على واحد من القبائل القوية دون الأخرى ، ومن هنا كان اختياره من سبط بنيامين ، أضعف أسباط بني إسرائيل ، وكان هذا اختياراً موفقاً ، لأنه لا يسبب له حقداً من الأسباط الأخرى ، فضلا عن أن خيامه ، إنما كانت تقع بين أفرام ويهوذا ، أى في مكان وسط بين القبائل الشمالية والجنوبية^(٨) .

وعلى أية حال ، فلقد فشلت ملكية طالوت فشلاً ذريعاً ، لأنها كانت تطورا مباشرا من حياة البداوة الى حياة الاستقرار ، كما أن طالوت إنما كان مهيتاً — بطبيعته وبتكوينه العقلي وظروفه الاجتماعية — للنجاح في ظروف عصر القضاة ، والفشل في أحوال عصر الملوك ، فقد كان ذا شخصية محاربة متهورة طاغية ، حظها من الروح الدبلوماسية قليل ، وهذا هو السر في مصيره المحزن ، فقد وفق توفيقاً رائعا في توحيد القبائل تقريبا تحت زعامته ضد الفلسطينيين وقادها الى النصر فكوفي على ذلك بالملكية ، ولكن عجزه عن السيطرة على الفئات المعارضة داخل مملكته منعه من توطيد انتصاراته ، فضلا عن سلطته ، وأدى الى سقوطه ، وكان نزاعه مع داود عليه السلام ، زوج ابنته وقاتل جالوت الفلسطيني ، من أهم عوامل سقوطه ، فانهايار ما بينه وبين داود ، أبعد عنه تأييد رجال الدين الاقوياء^(٩) .

وسراعان ما دارت معركة جبل جلبوع (حوالى عام ١٠٠٠ ق.م) ، وانتهت بهزيمة ساحقة لبني إسرائيل ، وفقدوا ولدا طالوت حياتهما ، وانتصر طالوت حيا ، وأجبرت الاقلية التي كانت تسكن بيسان ومدن سهل يزرعيل الأخرى على الهجرة ، وسقط وسط فلسطين تحت السيادة

(٨) صموئيل أول ١٦/٩-٢ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٦٦٨/٢ - ٦٧٤ ، وكذا

W. Keller, The Bible as History, 1967, P. 179.

(٩) سبتينوموسكاتى : الحضارات السامية القديمة ص ١٤٢ .

الفلسطينية مرة أخرى^(١٠) ، وهكذا احتل الفلسطينيون الخليل وبلاد شرق الاردن ، وبدأت مشكلة السيادة على فلسطين ، كما لو كانت قد استقرت لصالح الفلسطينيين هذه المرة ، وفي كل المرات^(١١) .

هذا وقد اختلف المؤرخون حول فترة حكم طالوت ، فهناك من يراها في الفترة (١٠٢٠ - ١٠٠٠ ق.م)^(١٢) ومن يراها في الفترة (١٠٣٠ - ١٠٠٤)^(١٣) ، ومن يراها في الفترة (١٠٢٥ - ١٠١٣ ق.م)^(١٤) ، ومن يراها في الفترة (١٠٠٠ - ٩٨٥ ق.م) ، ومن يراها في الفترة (١٠٢٠ - ١٠٠٤ ق.م)^(١٥) .

ثانيا : عصر داود عليه السلام

(١) داود فيما قبل الملكية :

تروى التوراة أن داود عليه السلام ، كان حامل سلاح شاول (طالوت) ، كما كان طلق اللسان فصيحاً ، خفيف الروح ، شجاعاً ، بل مقاتلاً جباراً ، وداود هو : داود بن يسي من سبط يهوذا ، موطنه «بيت لحم» (على مبعده خمسة أميال جنوب القدس) ، ونسبه ينتهي الى يهوذا بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام ، وقد أرسله الله حين غضب على شاول ليكون ملكاً على بني اسرائيل ، مختاراً

10) H. R. Hall, The Ancient History of The Near East, London, 1963, P. 359.

(١١) محمد بيومي مهران : اسرائيل ٦٨٠٢ - ٦٩٢ ، وكذا

M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 178.

(١٢) محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعونية ص ٢٠٣ .

13) O. Eissfeldt in CAH, II, Part, 2, Cambridge, 1975, P. 575.

14) W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, London, 1949, P. 120.

(١٥) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، وكذا

I. Epstein, Judaism, 1970, P. 35.

W. Keller, Op. Cit., P. 181.

Historical Atlas of The Holy Land, New York, 1959, P. 81.

اياه من بين أولاد أبيه «يسى» الستة على رأى ، والسبعة على رأى آخر ، بل والثلاثة عشر ، فيما تروى المصادر العربية ، وكان أشقر مع حلاوة العينين ، وحسن المنظر ، وفي المصادر العربية — عن وهب بن منبه — كان قصيرا أزرق العينين ، قليل الشعر ، طاهر القلب نقيه^(١٦) .

وكان قبل اشتراكه في الحرب ضد جالوت وقومه مكلفا بالقيا مبرعى غنم أبيه ، وقد أظهر في مهمته هذه اخلاصا نادرا ، وشجاعة فائقة ، فقد قتل أسدا ودبا هاجما القطيع^(١٧) ، ويروى الطبرى في تاريخه أن أباه أتاه ذات يوم فقال : يا أبتاه ما أرمى بقذاهتى شيئا الا صرمته ، قال : أبشر يا بنى ان الله جعل رزقك في قذاهتك ، ثم أتاه مرة أخرى فقال : يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسدا رابضا فركبت عليه وأخذت بأذنيه فلم يعجنى ، فقال أبشر يا بنى ، فان هذا خير يعطيكه الله ، وكان داود راعيا ، وكان أبوه خلفه يأتى الى أبيه والى أخوته بالطعام^(١٨) .

وقد بدأ نجم داود يسطع بين قبائل بنى اسرائيل منذ أن قتل جالوت، ففقرت به عين الملك ، ووعد به بأن يزوجه ، ابنته الكبرى «ميرب» ولكنه زوجها الى «عديثيل المحولى» ولما أحبته أختها «ميكال» وعده بها على أن يمهره اياها مائة غلقة من الفلسطينيين^(١٩) ، ولكن يبدو أن الشعبية التى اكتسبها داود قد جعلت الملك يعدل عن الاصرار اليه ، وان كانت البرواية العربية تذهب الى أن طالوت رجع فأنكح داود ابنته ، وأجرى خاتمه في ملكه ، فمال الناس الى داود وأحبوه^(٢٠) ، ومن ثم فقد بدأ طالوت يخاف داود وصار «شاؤل» (طالوت) عدوا لداود لكل

-
- (١٦) صموئيل أول ١/١٦ - ١٢/١٧ ، أخبار ايام اول ١٥/٢ ، تاريخ الطبرى ٤٧٢/١ ، ٤٧٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٠/٢ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ١٢٣/١ .
 (١٧) صموئيل أول ٣٤/١٧ - ٣٦ .
 (١٨) تاريخ الطبرى ٤٧٢/١ ، تاريخ ابن الانير ١٢٣/١ .
 (١٩) صموئيل أول ٧/١٨ - ٢٩ .
 (٢٠) تاريخ الطبرى ٤٧٣/١ ، تاريخ ابن الاثير ١٢٤/١ .

الايام»^(٢١) بل «وكلّم ، شارل يوناثان ابنه وجميع عبيده أن يقتلوا داود» ، ولكنه سرعان ما يعفو عنه نتيجة توسلات ولده يوناثان ، صديق داود ، غير أنه سرعان ما يغير رأيه مرة أخرى ويفكر في قتل داود ، فيطعن بالرمح ولكنه يخطئه ، فيفر داود من أمامه ، فيزداد غضب طالوت ، وتتأجج نار الغيرة في صدره فيرسل الى داود من يقتله في بيته «فأخبرت داود ميكال امرأته قائلة ان كنت لا تتجو بنفسك هذه الليلة فانك تقتل غدا ، فأنزلت ميكال داود من الكوة فذهب هاربا ونجا» ، ووضعت في مكانه على الفراش الترافيم ولادة المعتري وغطته بثوب^(٢٢) ، وفي الرواية العربية أن داود لما علم أن طالوت يريد قتله ، جعل في مضجعه زق خمر وسجاء ، ودخل طالوت الى منام داود ، وقد هرب داود ، فحضر الزق ضربة خرقة فوقع قطرة من الخمر في فيه فقال : يرحم الله داود ما كان أكثر شربه الخمر^(٢٣) ، فلما أصبح طالوت علم أنه لم يصنع شيئا ، فخاف داود أن يغتاله فشد حجابيه وحراسه ، ثم ان داود أتاه من المقابلة في بيته وهو نائم ، فوضع سهمين عند رأسه وعند رجله ، فلما استيقظ طالوت بصر السهام فقال : يرحم الله داود هو خير مني ، ظفرت به وأردت قتله وظفر بى فكف عنى ، وأذكى عليه المعيون فلم يظفروا به ، وركب طالوت يوما لمرأى داود يركض في اثره ، فهرب داود منه واختفى في غار في جبل^(٢٤) .

وهكذا اضطر داود للفرار من مكان الى آخر ، معرضا حياته للخطر ، ومع ذلك فلم يذهب الى موطنه في بيت لحم (ه أميال جنوب القدس) وانما ذهب الى صموئيل النبی في الرامة (رامة الله) ومن هناك الى «نوب» (مدينة الكهنة) حيث يعيش «أخيمالك» الكاهن ، الذى دفع حياته ، وكذا مدينته بما فيها من رجال ونساء وأطفال وماشية ، ثمنا

(٢١) صموئيل أول ٢٩/١٨ .

(٢٢) صموئيل أول ١/١٩ - ١٧ .

(٢٣) تاريخ الطبرى ٤٧٣/١ ، تاريخ ابن الاثير ١٢٤/١ .

(٢٤) تاريخ الطبرى ٤٧٣/١ ، تاريخ ابن الاثير ١٢٤/١ .

لايوائه داود^(٢٥) ، وهكذا ضيق طالوت الخناق على داود ، حتى اضطره أن يودع أباه وأمه عند ملك مؤاب ، وأن يلجأ الى ملك «جت» الفلسطينى وحين لم يأمن مكره ، لجأ هو ، الى مغارة «عدلام» حيث جمع هناك من حوله أربعمائة رجل من مريديه^(٢٦) .

٢ - اختيار داود ملكا على يهوذا :

سرت الانباء من كل أرجاء البلاد ، كما تسرى النار في الهشيم ، بأن طالوت قد مات ، وأن أولاده الثلاثة (يوناثان وأبيناداب وملكيشوع) لقوا نفس المصير ، وأن الاسرائيليين قد هزموا شر هزيمة في معركة جبل جلبوخ (حوالى عام ١٠٠٠ ق.م) وأن البلاد قد عادت مرة أخرى تحت النير الفلسطينى^(٢٧) ، وقد أدى ذلك الى قيام صراع مرير بين القبائل الاسرائيلية على السلطة ، خاصة وأن صموئيل النبى كان قد مسح داود أثناء حياته خليفة لطالوت ، وان لم ينسأ به ملكا على اسرائيل ، وفي نفس الوقت كان «ايشبعل» بن شاول (طالوت) قد اعتبر نفسه الخليفة الشرعى لابييه بعد وفاته ، فضلا عن وفاة اخوته الكبار ، وكان يسانده في ذلك «أبنير» قائد جيش أبيه ، وأحد امراء بيته ، ومن ثم فقد نودى به ملكا في «محنيم» (شمالي عجلون بميلين) عاصمة منطقة أفرايم في أرض جلعاد ، جنوب ييوق ، حيث ذكرى أعمال أبيه شاول الجرئية منذ سنوات مضت ماتزال باقية هناك ، وعلى أية حال ، فقد شملت ملكية ايشبعل مناطق غير محددة لقبائل الجبال في شرق الاردن وفي الجليل والسامرة ، وقد أطلق ايشبعل على نفسه ، كما فعل أبوه من قبل ، لقب «ملك اسرائيل» وادعى أنه يحكم كل القبائل الاسرائيلية ، ولكن بما أن القبائل الجنوبية قد انفصلت (تحت حكم

(٢٥) صموئيل أول ١٨/١٩ - ٢٣/٢٢ ، قارن : تاريخ الطبرى ١/ ٢٧٣ ، تاريخ ابن الاثير ١٢٤/١ .

(٢٦) صموئيل أول ١٠/٢١ - ١٥ ، ١/٢٢ - ٥ ، وانظر : محمد بدوى مهران : اسرائيل ٦٩٧/٢ - ٧٠١ .

27) H. R. Hall The, The Ancient History of the Near East, 1963, P. 359, CAH, III, 1965, P. 426.
M. Noth, Op Cit, P. 177-180.

داود) عن القبائل الاخرى ، فان المتصور السياسي لاسرائيل تحت حكم «ايشبعل» انما كان يشمل فقط الجزء الاكبر من القبائل فحسب (٢٨) .

وفي نفس الوقت كانت يهوذا قد مسحت داود ملكا على بيت يهوذا في حبرون (مدينة الخليل) أو ممرا (٢٩) ، وليس هناك من شك في أن شخصية داود نفسه كان لها دور كبير في اغراء القبائل الجنوبية لاتخاذ هذه الخطوة ، فقد كان لتأثيره الشخصي أثر كبير ، ما في ذلك من ريب ، كما أنه كحامل لدرع طالوت قد جعل منه شخصا محبوبا لكل من حوله ، وهو بالنسبة للقبائل الجنوبية رجل من دائرتهم ، وقد برهن بنفسه ، بعد انفصاله عن طالوت ، أنه بالتاكيد رجل من القبائل الجنوبية ، وان كان النظم الملكي قد انتهى سريعا ، فان طالوت هو الملام لفشله ، وقد ساهم المركز الخاص والثابت للقبائل الجنوبية بدور أساسي في الموقف دون شك ، وقد استغل داود هذا الموقف لصالحه ، كما كانت شخصية داود وعلاقاته وحاشيته الحربية ، هي الاساس في تنصيبه ملكا على كل بيت يهوذا ، هذا فضلا عن أن رجال الدين كانوا مواليين له ، كما أن اختيار النبي صموئيل له من قبل ، قد لاقى قبولا حسنا من غالبية القوم (٣٠) .

وأما الفلسطينيون ، أعداء بنى اسرائيل ، فكانوا يرقبون الموقف عن كثب ، وكان يهمهم بالدرجة الاولى أن تظل فلسطين تحت سيادتهم تماما ، وربما رأوا في قيام مملكتين اسرائيليتين منفصلتين مما يحقق أغراضهم ، بل ربما كان الفلسطينيون من وراء قيام هاتين المملكتين ، الواحدة في حبرون ، وعلى رأسها داود ، والاخرى في الشمال ، وعلى رأسها «ايشبعل» وربما كانت هذه المملكة الشمالية تحت الهيمنة الفلسطينية ، وفي كل الحالات فان الوضع الجديد كان في مصلحة

28) M. Noth, Op. Cit., P. 181-184.

(٢٩) صموئيل ثان ٤/٢ .

30) H. R. Hall, CAH, III, Cambridge, 1965, P. 427.

M. Noth, Op. Cit., P. 182-183.

وكذا

الفلسطينيين الذين ما كانوا أبداً بكارهين أن يروا أعداءهم الاسرائيليين ضعافاً عن طريق الانقسام الداخلي^(٣١) ، والذي يقضى بالتأكيد على تحالف القبائل الاثنى عشر ، كوحدة سياسية وحربية ، خاصة وأن داود ، ومن ورائه القبائل الجنوبية كانوا يعملون على استمرار هذا التحالف ، ومن هنا فقد سكت الفلسطينيون مؤقتاً على ما يجري من أحداث ، لانهم لم يجدوا سبباً لمساعدة طرف على آخر ، كما كانوا قانعين بترك مواليتهم من بنى اسرائيل يحطم بعضهم البعض الاخر^(٣٢) .

٣ - داود وتوحيد اسرائيل :

كان طموح داود أعظم وأكبر من أن تكفيه منطقة ضئيلة في أقصى جنوب فلسطين ، كالتى اعترفت بسلطانه ، فبدأ يرنوا بناظره الى الشمال ، الذى استقل تحت حكم ايشبعل الضعيف ، وكان الصدام بين الحزبين المتنافسين أمراً لا مفر منه ، وهكذا بدأ داود يعد عدته سياسياً وعسكرياً لاستعادة وحدة اسرائيل ، ومن ثم فإنه لا يكتفى بعلاقاته الودية مع القبائل الجنوبية ، ولكنه يمدّها الى شرق الاردن ، ومن ثم فقد تزوج من ابنة ملك «جشور» الارامى ، لان مملكته كانت مجاورة لايابيش جلعاد ، حيث لجأ ايشبعل وتحصن هناك ، كما أنه دخل في حلف مع ملك عمون ، ليطبق كمائسته على ايشبعل ، ونقرأ في التوراة أن داود بدأ يتفاوض مع رجال عدوه ويدفعهم الى الانضمام اليه ، وقد أجابه كثيرون ، وهكذا أصبح الموقف العام في يهوذا ضد اسرائيل ، بل وبدأت يهوذا تستغل مشاكل اسرائيل لمصلحتها^(٣٣) .

31) M. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, 1970, P. 240.

The Jewish Encyclopedia, 1903, P. 452.

وكذا

32) M. Noth, Op. Cit., P. 183.

32) H. R. Hall, Op. Cit., P. 427.

وكذا

(٣٣) صموئيل ثان ٨/٢ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٧٠٦/٢ -

٧١٠ ، اسماعيل راجى الفاروقى : أصول الصهيونية في الدين اليهودى

- القاهرة ١٩٦٤ ص ٤٤ - ٤٥ ، وكذا

S. A. Cook, CAH, II, 1931, P. 373.

ثم سرعان ما لبثت يهوذا واسرائيل ، تحت حكل داود وايشبعل ، أن غرقتا في اشتباكات عسكرية في منطقة الحدود ، وعندما قرر «ابنير» قائد جيش ايشبعل ، غزو مملكة داود الصغيرة ، وضمها لمملكة اسرائيل ، فقد هزم في «جبعون» على يد «يوآب» قائد جيش داود^(٣٤) ، وقد كشفت البعثات الامريكية عام ١٩٥٦م أسوار مدينة «جبعون» (٧ أميال شمالي القدس) ، كما اكتشفت كذلك مشهد المعركة الدموية في تلك الايام الخوالي من بداية الالف الاول قبل الميلاد ، وطبقا لرواية التوراة ، فخلد حدث قتال عنيف في هذه البقعة يدا بيد بين أعوان المتنافسين^(٣٥) ، وسرعان ما قتل ايشبعل ، وخلص حكم بني اسرائيل لداود وحده ، ودانت له الاسباط جميعا^(٣٦) «وجاء جميع شيوخ اسرائيل الى الملك ، الى حبرون ، فقطع الملك داود معهم عهدا في حبرون أمام الرب ، ومسحوا داود ملكا على اسرائيل ، وكان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك ، وملك أربعين سنة ، في حبرون ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر ، وفي اورشليم ملك ثلاثا وثلاثين سنة على جميع اسرائيل ويهوذا»^(٣٧) ، وقد أشرنا من قبل الى الاراء المختلفة التي دارت حول تحديد الفترة التي حكم فيها داود عليه السلام ، وارتضينا أن نأخذ بما ذهب اليه «وليم أولبرايت» من أنها في الفترة (١٠٠ - ٩٦٠ ق م)^(٣٨) .

٤ - داود والفلسطينيون :

لم يتقبل الفلسطينيون عن رضى اتحاد قوى اليهودية واسرائيل في

34) W. Keller, Op. Cit., P. 188.

(٣٥) صموئيل ثان ١٣/٢ - ٣٢ ، وكذا

J. B. Pritchard, BA, 19, 1956, P. 62-75, UMB, 21, 1957, P. 3-26.

W. Keller, Op. Cit., P. 188.

(٣٦) صموئيل ثان ١٣/٢ - ١٢/٤ ، وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 186.

The Jewist Encyclopaedia, 4, P. 461.

(٣٧) صموئيل ثان ٣/٥ .

38) W. F. Allwright, Op. Cit., P. 120-122.

دولة واحدة ، تحت زعامة داود ، البطل الجديد ، ومن ثم فقد بدأوا يفكرون في مقاومة هذه الوحدة ، التي كانت ، دونما ريب ، تمثل تهديدا خطيرا لسيطرتهم على فلسطين»^(٣٩) ، ونقرأ في التوراة «وسمع الفلسطينيون أنهم مسحوا داود ملكا على اسرائيل ، فصعد جميع الفلسطينيين ليفتسوا على داود ، واحتلوا وادي الرفائيين»^(٤٠) (وادي البقاع جنوب غربي القدس على الأرجح) ذلك لان منطقة القدس هي التي تفصل المنطق التي تحتلها اسرائيل عن تلك التي تحتلها يهودا ، وبهذا قطعوا اتصال داود بالاسباط الشماليين أو على الأقل عملوا على منع تجميع جيوش المملكتين •

وشرع داود يستعد بفرقته من الجنود المحترفين ، وربما قام بهجوم مفاجيء قرب وادي جبعون ، نجح فيه في قهر الفلسطينيين تماما ، وهزيمتهم باستخدام أسلوبهم الحربي ، فلم يواجههم ، كما فعل طالوت ، بالجانب الاكبر من قواته ، وانما بفرقة من المحترفين التي ربما كانت قد عززت وتطورت أثناء حكم داود في يهودا^(٤١) ، وكان

39) M. Noth, Op. Cit., P. 187.

(٤٠) صموئيل ثان ١٧/٥ - ١٨ •

(٤١) كان جيش اسرائيل على أيام داود يتكون من عنصرين هما : (١) السبا (Saba) أي أفراد الحرس الملكي ، وهم جماعة من رجال القبائل الاقوياء يستدعون بصوت النفير ، ويرفع الاعلام أو اشعال النار على التلال ، وهي قوات بدون زى موحد كان تجميعها ووضعها تحت السلاح يعتمد على الارادة الفردية الجيدة ، وكان داود يستخدمهم ضد الشعوب المجاورة في شرق الاردن ، وكانوا يحملون مع التابوت الى أرض المعركة ، ومن الواضح أن داود كان ينظر الى التابوت بأهمية كبيرة ، فهو الى جانب قيمته الدينية ، انما كان يمثل تحالف القبائل الاسرائيلية جمعا • (٢) الجبوريم (Gibborim) وهي القوات الدائمة وقد تكونت نواتها الاولى من ستمائة مقاتل كانوا قد تجمعوا حول داود عندما هرب من طالوت ، وكانوا يسمون «رجال داود الاقوياء» وان لم يكونوا جميعا من بني اسرائيل ، بل أن معظمهم من شعوب أجنبية (ومنهم أوريا الحثي) وكانوا ينتمون الى داود شخصيا ، وليس الى القبائل الاسرائيلية ، وكانوا سلاحه في خطواته الاولى نحو عرش اسرائيل ، وقد أحرز بهم انتصارات هامة ، كانتصاره على الفلسطينيين واحتلاله «دولة المدينة أورشليم» •

لديهم الفهم المحترف لفن الحرب ، وهكذا هزم داود الفلسطينيين بهذا الجهاز السريع الحركة ، وبمهارته المنقطعة النظير^(٤٢) ، ولكن سرعان ما قام الفلسطينيون بمحاولة ثانية ، بعد أن قدروا ، نتيجة للجولة السابقة ، القوة والمهارة الحربية لداود ، ولم يعدوا كل قوتهم لمواجهة ، ومن ثم فسرعان ما ظهروا في وادي رفائيم ، وهزمهم داود مرة أخرى في مكان تصفه التوراة بأنه «مقابل أشجار البكا»^(٤٣) ، وربما أطبق داود بقواته عليهم من الشمال ، من جانب دولة اسرائيل ، هجأة ، كما حدث من قبل ، وعلى أية حال ، فطبقا لرواية التوراة ، فلقد قام داود «بضرب الفلسطينيين من جبع الى مدخل جازر» وان ذهبت رواية أخرى الى أنه ضربهم «من جبعون الى جازر ، مقتفيا أثرهم حتى حدود بلادهم»^(٤٤) .

وهكذا كتب لداود النصر المبين على أقوى أعدائه ، وأكثرهم أهمية ، كما كتب له نجما بعيد المدى في طردهم من المناطق الاسرائيلية بل اننا لنسمع عن حرب دقت طبولها عند «جت» ، احدى المدن الخمس الرئيسية في الاتحاد الفلسطيني ، بل وقد أصبت مدينة «جت» فيما بعد مدينة اسرائيلية تحت حكم داود^(٤٥) .

غير أن تلك الانتصارات التي حققها داود ضد الفلسطينيين ، كما جاءت في التوراة ، لم تجعل الفلسطينيين تابعين لداود سياسيا ، صحيح أنها أجبرتهم على الاعتراف بسيادة داود على الجزء الأكبر من فلسطين ، ولكنه صحيح كذلك أنهم بقوا في اقليمهم الصغير على ساحل البحر المتوسط ، القوة الوحيدة التي لم يقدر لداود أن يخضعها ، ولعل السبب في ذلك فيما يرى بعض الباحثين ، أن مصر ، رغم أنها كانت تمر بفترة ضعف في تلك الآونة ، قد أعطت الفلسطينيين من تأييدها

42) M. Noth, Op. Cit., P. 187-188.

(٤٣) صموئيل ثان ٢٣/٥ .

(٤٤) صموئيل ثان ٢٥/٥ ، أخبار أيام أول ١٦/١٤ ، وكذا M. Noth, Op. Cit., P. 188-189.

45) A. Lods, Op. Cit., P. 360.

مايمنع داود من ضمهم الى نفوذه ، بل ان السهل الساحلى الفلسطينى لم يصبح أبدا جزءا من الاملاك الاسرائيلية ، هذا فضلا عن أن الفلسطينيين سرعان ما يظهرون مرة أخرى كجماعة مستقلة فى القرن الثامن والسابع قبل الميلاد (٤٦) .

٥ - داود ومؤاب وعمون وأرام وأدوم :

كانت مؤاب أول قوة ، من أعداء اسرائيل القدامى ، هوجمت وهزمت وأصبحت ولاية تابعة لداود عليه السلام ، وطبقا لرواية التوراة ، فلقد «أصبح المؤابيون عبيدا لداود يقدمون هدايا» ، وان استمر النظام الملكى فيها قائما كما كان من قبل ، مع الاعتراف بالتبعية لداود عليه السلام (٤٧) .

وكانت عمون هى القوة التالية التى ضربها داود ، ولعل السبب المباشر للصدام بين داود و«بن عمون» انما هو اساءة العمونيين لرسول داود الذين كانوا فى مهمة ودية بمناسبة تغيير السلطة فى عمون ، حيث قام «حانون» ملك عمون الجديد «فأخذ عبيد داود وحلق أنصاف لحاهم وقص ثيابهم من الوسط الى استاهم ، ثم أطلقهم» (٤٨) ، ومن ثم فقد أدرك العمونيين ، بعد فعلتهم هذه ، أن الحرب مع بنى اسرائيل أصبحت أمرا لا مفر منه ، ومن هنا فقد بدأوا يطلبون معونة جيرانهم الاراميين فى «أرام بيت رحوب» وأرام «صوبة» وفى معكة وطوب (٤٩) ، وأتى هؤلاء بحشد كامل من الرجال والمعدات لمساعدة العمونيين ضد الهجوم الاسرائيلى المرتقب ، وقد نجحت قوات داود بقيادة «يؤاب»

(٤٦) صموئيل ثان ١٧/٥ - ٢٥ وكذا

K. M. Kenyon, Op. Cit., P. 244.

M. Noth, Op. Cit., P. 194.

(٤٧) صمويل ثان ٢/٨ ، وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 194.

H. R. Hall, Op. Cit., P. 430.

(٤٨) صموئيل ثان ١/١٠ - ٥ .

(٤٩) انظر عن هذه الولايات الارامية فى شرق الاردن (محمد بيومى

مهران : اسرائيل ٥٣٩/٢ - ٥٤٢) .

في هزيمة هؤلاء الاراميين ، ثم «رجع يئوب عن بنى عمون وأتى الى اورشليم»^(٥٠) .

ويعظم «هدد عزر» ملك صوبية بذلك ، فيستدعى «أرام الذي في عبر النهر» الى «حيلام» (ربما كانت عليم أو علمه في سهل حوران) ويتقدم قائده «شوبك» لملاقاة بنى اسرائيل ، وينجح داود ، الذي كان على رأس جيشه هذه المرة ، في احراز النصر ، وفي العام التالي يأمر داود قائده «يئوب» بالاتجاه نحو عمون ، وسرعان ما يحاصر يئوب «ربة» (ربة عمون)^(٥١) ، غير أنه لا يستطيع اخضاعها ، ومن ثم يطلب نجدة من داود ، الذي يسرع لانتقاذ قائده بنفسه ، فيستولى على قلعة المدينة ، ويعاقب العمونيين بقسوة ، وطبقا لرواية التوراة ، فان داود أمر بحرق المغلوبين ، وسلخ جلودهم ووشرهم بالمنشار ، بعد أن وضعهم تحت نوارج وفؤوس من حديد (وبدهى أن ذلك من تحريفات التوراة ، فما كان النبي الاواب يفعل ذلك أبدا) ، ثم وضع التاج العموني ، بما فيه من ذهب وأحجار كريمة ، على رأسه ، وبعبارة أخرى ، فلقد أصبح داود ملكا على عمون^(٥٢) .

ثم اتجه جيش داود بعد ذلك الى أدوم ، وطبقا لرواية التوراة ، «فان يئوب وكل اسرائيل أقاموا في أدوم ستة أشهر ، حتى أفنوا كل ذكر في أدوم» ، وهكذا هزمت قوات اسرائيل أدوم ، وقتل «حداد الثاني» ، وهو الملك الثامن من سلسلة ملوك أدوم ، ولكن ولده «هدد» ، والذي كان ربما كانت أمه مصرية ، قد استطاع الهروب الى مصر، حيث

(٥٠) صموئيل ثان ٦/١ - ١٤ وكذا

M. Noth, the History of Israel, London, 1965, P. 195.

(٥١) ربة أوربة عمون : هي عاصمة العمونيين ، وقد سميت في العصر الاغريقي «فيلادلفيا» ، نسبة الى ملك مصر «بطليموس الثاني فيلادلفيوس» (٢٨٤ - ٢٤٦ ق.م) ، وهي في موقع تشغله حاليا عاصمة المملكة الاردنية الهاشمية «عمان» حيث يوجد في اسمها جزء من اسم العمونيين (محمد بيومي مهران) اسرائيل ٥٥٧/٢ .

(٥٢) صموئيل ثان ٢٦/١٢ - ٣١ ، وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 195.

تزوج هناك من أميرة مصرية «أخت تحفنعيس الملكة» ، وعاش ضيفا على فرعون إلى أن مات داود عليه السلام ، حيث بدأ الأمل يعاوده في استعادة حقه الشرعى فى عرش أدوم^(٥٣) .

وقد نجح داود الى حد بعيد فى تنظيم أدوم ، كولاية تحت امرته، ورغم أنها كانت بعيدة نسبيا عن دولته ، إلا أنها كانت مهمة بالنسبة اليه ، فهي تمكنته من الوصول الى خليج العقبة ، ومن ثم الى البحر الأحمر ، هذا فضلا عن أنها كانت تحتوى على كثير من الرواسب المعدنية على حدود وادى العربى ، ومن هنا كانت أدوم ذات أهمية اقتصادية كبيرة بالنسبة الى داود ذلك لان الصحراء العربيه ، والتي تمتد من نهاية جنوب البصر الميت ، وحتى خليج العقبة انما كانت غنية بمعدنى النحاس والحديد ، وقد استغل داود ذلك أفضل استغلال ، «وهيا داود حديدا كثيرا للمسامير لمصاريع الابواب وللوصل ونحاسا كثيرا بلا وزن^(٥٤)» .

٦ - دولة داود ومدى اتساعها :

لا ريب فى أن داود عليه السلام قد كتب له نجاحا بعيد المدى فى أن يخلص قومه الاسرائيليين من النير الفلسطينى ، وفى أن يحقق لهم الاستقلال التام ، بل وأن يوجد لنفسه نفوذا فى مؤاب وأدوم وعمون، وفى أن تقدم له الهدايا — وليس الجزى — من أرامى دمشق ، وفى أن يقيم علاقات المودة مع «توعى» ملك حماة ، ضد عدوهما المشترك «هدد عزر» ملك الاراميين فى صوبه ، ومع ذلك فعلينا ألا نبالغ كثيرا فى تقدير سعة مملكة داود عليه السلام ، فنطلق عليها وصف «امبراطورية» ، كما أراد أن يصفها بعض المؤرخين المحدثين^(٥٥) ، أو نبالغ فى حدودها كما

(٥٣) صموئيل ثان ١٣/٨ ، ملوك أول ١٤/١١ - ٢٢ ، وكذا H. R. Hall, Op. Cit., P. 431.

W. M. F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, P. 65.

(٥٤) أخبار أيام أول ٤/٢٢ ، وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 196.

W. Keller, Op. Cit., P. 188.

55) O. Eissfeldt, The Kingdom, in CAH, II, Part, 2, Cambridge, 1975, P. 583.

فعل بعض الكتاب المصريين المحدثين ، فجعلها تمتد من نهر الفرات الى البحر المتوسط ، ومن دمشق الى الخليج العربي^(٥٦) ، بل ان هناك من زعم ، دونما أى دليل ، أن داود وسليمان عليهما السلام قد أقاما دولة تشمل الشام كله ، والجزيرة العربية كلها^(٥٧) ، (الامر الذى يدعونا الى مناقشته بشيء من التفصيل عند الحديث عن دولة سليمان عليه السلام) •

وعلى أية حال ، فربما كان تحديد الدكتور الحاخام «أبشتين» أقل ميالغة من غيره ، فقد ذهب الى أن دولة داود كانت تمتد من فينيقيا (لبنان) في الغرب ، الى حدود الصحراء العربية في الشرق ، ومن نهر العاص (الاورنت) في الشمال الى خليج العقبة في الجنوب^(٥٨) ، وأما التوراة فقد ذهبت الى أن مملكة إسرائيل كانت في أقصى اتساع لها «من دان الى بئر سبع»^(٥٩) ، ومن ثم فالتوراة التى اشتهرت بمبالغاتها فيما يتصل بمملكة إسرائيل ، انما تحدد لها من الشمال مدينة «دان» وتقع عند سفح جبل حرمون عند تل القاضى حيث منابع الاردن على مبعدة ثلاثة أميال غربى بانياس^(٦٠) ، ومن الجنوب «بئر سبع» الحالية ، ولم تشر التوراة الى حدود لاسرائيل من الغرب أو الشرق ، هذا وقد ذهب المسعودى الى أن ملك داود انما كان على فلسطين والاردن ، كما جاء في مروج الذهب (٧٠/١) •

ولعل من الجدير بالاشارة أن فينيقيا كانت — وخاصة على أيام «حiram» (٩٨٠ — ٩٣٦ ق م) الذى عاصر داود وسليمان وكان ذا نشاط كبير في الاقتصاد والفن والعمارة في إسرائيل — دولة مستقلة ، وليست هناك أية اشارة في التوراة أو الوثائق التاريخية الى أن حiram

(٥٦) على امام عطية : الصهيونية العالمية وأرض الميعاد ص ٦٣ •
(٥٧) جمال عبد الهادى ووفاء رفعت : ذرية ابراهيم عليه السلام وببيت المقدس — الرياض ١٩٨٦ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٧٠ •
58) I. Epstein, Judaism, 1970, P. 35.

(٥٩) قضاة ١/٢٠ ، صموئيل أول ٢٠/٣ ، صموئيل ثان ١٥/٢٤ اخبار أيام أول ٢/٢١ ، وكذا

M. F. Unger, Op. Cit., P. 236.

(٦٠) قاموس الكتاب المقدس ٣٥٦/١ — ٣٥٧ •

كان خاضعا لداود ، كما أن هناك ما يشير الى محاولة داود توطيد علاقاته بحماة من أقصى الشمال ، فضلا عن الفلسطينيين في الغرب ، وأن السيطرة الاسرائيلية على أيام داود لم تكتمل بالاستيلاء على كل فلسطين ، وحتى الجزية ، فيما يبدو ، لم تكن ترسل الى القدس ، أضف الى ذلك أن الفلسطينيين الجنوبيين قد وضعوا أنفسهم ، راغبين ، لا مكرهين ، تحت حماية فراعين مصر الشماليين في تانيس ، والذين كانوا يتبعون سياسة نشطة في فلسطين في تلك الايام ، حتى ان « شيشنق مؤسس الاسرة الثانية والعشرين ، عندما غزا يهوذا بعد موت سليمان عليه السلام ، لم يذكر المدن الفلسطينية ، مما يدل على أنها كانت تحت الحكم المصري من قبل » (٦١) .

ومن ثم يذهب « هربرت ويلز » الى أن أرض الميعاد (المزعومة) لم تقع يوما — ولن تقع ، في قبضة العبرانيين ، هذا فضلا عن أن ما وطد ملك داود ، وهياً له شيئاً من الاتساع ، أن أمور مصر كانت في عهده مرتبكة ، فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام ، وكانت أمور آشور مرتبكة كذلك ، وقد منح هذا كله لداود عليه السلام شيئاً من الحرية والنشاط وممارسة السيادة (٦٢) .

وأياً ما كان الامر ، فإن حكم داود — وكذا سليمان ، عليهما السلام ، انما يمثل فترة الرخاء الوحيدة التي قدر للشعوب العبرانية أن تعرفها على مر الدهور ، وهي تقوم على محالفة وثيقة الاواصر مع مدينة « صور » الفينيقية التي يلوح أن ملكها « حيرام » كان رجلاً قد أوتي نصيباً كبيراً من الذكاء والقدرة على المغامرة ، وكان يبغي أن يكفل للتجار في البحر الاحمر طريقاً آمناً عبر منطقة التلال العبرانية ، وكان الاصل في التجارة الفينيقية أن تذهب الى البحر الاحمر عن طريق مصر ، بيد

(٦١) ج . كونتنو : الحضارة الفينيقية — ترجمة محمد عبد الهادي
سعيه ص ٧١ ، وكذا

H. R. Hall, Op. Cit., P. 431.

62) H. G. Wells, the Outline of History, London, 1965, P. 279.

أن مصر كانت في تلك الفترة تمر بحالة من الفوضى ، هذا وقد أنشأ حيرام أوثق العلاقات مع داود وسليمان عليهما السلام ، وقد أنشئت بمساعدة حيرام أسوار اورشليم وقصرها ومعبدتها ، وفي مقابل ذلك بنى حيرام سفنه على البحر الاحمر وسيرها فيه ، وأخذ سيل جسيم من التجارة يتدفق خلال اورشليم نحو الشمال والجنوب^(٦٣) ، بخاصة وأن داود عليه السلام قد سيطر تماما على طرق القوافل القادمة من بلاد العرب الجنوبية والتي كانت تمر في مملكته عند النهاية الشمالية لخليج العقبة على الجانب الشرقي لوادي عربة ، وحتى غوطة دمشق ، ثم ترتبط بالطرق المؤدية الى شمال سورية فأسيا الصغرى ، وتلك التي كانت تمر بالصحراء الغربية الى «ميزوبوتاميا» ، مما كان له أكبر الأثر في حالة دولة داود الاقتصادية ، بل ان هناك من يذهب الى أن حروب داود انما كانت لهذا الغرض ، على الرغم من أن المصادر المتبقية من عهده لا تعطى أهمية لذلك^(٦٤) ، وهذا ما نرفضه تماما ، ذلك أن داود، وإن كان ملك اليهود القدير ، فهو قبل ذلك وبعده نبي الله ورسوله ، وما كان الانبياء أبدا يحاربون من أجل أسباب اقتصادية ، وانما كانت حروبهم كلها جهادا في سبيل الله ونشر كلمة «لا اله الا الله» .

٧ - وراثة العرش والخلافات العائلية :

لم تكن هناك قاعدة عامة قد وضعت بعد لخلافة العرش في دولة اسرائيل الجديدة ، ولكن مما لا شك فيه أن الابن الأكبر كان صاحب الحق في ذلك ، الا أن مكانة الام ورغبة الملك واختيار الشعب والمواقفات الدينية قد تكون سببا في اختيار أحد أخوته الصغار^(٦٥) .

ويذهب بعض الباحثين الى أنه ربما كانت فكرة داود عليه السلام عندما طلب «ميكال» ابنة طالوت «شاول» لتكون زوجة له ، انما كان يعني من وراء ذلك أن الابن الأكبر من هذا الزواج تكون له الافضلية على

63) H. G. Wells, A Short History of The World, P. 76.

64) O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 583.

65) A. Lods, Op. Cit., P. 364.

بقية اخوته من علات ميكال ، وربما يستطيع هذا الابن المرتقب أن يجذب اليه عواطف هؤلاء الذين كانوا يؤيدون بيت شاول ، بصفته حفيدا لشاول ، ولكن «لم يكن لميكال بذت شاول ولد الى يوم موته»^(٦٦) وهكذا ضاع الامل في أن يكون خليفته داود هو في نفس الوقت حفيد شاول (طالبوت) ، وأما بالنسبة لبقية أبناء داود فطبقا للقانون الاسرائيلي — كما قررته التوراة في سفر التثنية^(٦٧) ، فإن للابن الاكبر نصيب الاسد من ميراث أبيه ، بصرف النظر عن مكانة الام بين علاتها من زوجات الأب ، ومن هنا كان من الطبيعي أن يخلف داود على عرش إسرائيل أكبر ولده ، ولكن هنا في حالة داود عليه السلام ، مؤسس الملكية والبيت المالك ، فإن الابن الاكبر ، الذي ولد بعد اعتلائه العرش مباشرة ، ربما كانت له أفضلية خاصة ، ولكن أبناء داود أنفسهم ماكانوا يعيرون المظهر الاخير أية أهمية خاصة ، وانما كانوا يعتبرون أنفسهم جميعا خلفاء محتملين للعرش ، طبقا لترتيب أعمارهم^(٦٨) .

وهناك في التوراة قائمة بستة أبناء ولدوا في حبرون أثناء فترة ملكية داود على يهوذا وهم «وكان بكره أمنون من أخينو عم اليزرعيلية ، وثانيه كيلاّب من أبيجايل ، والثالث أبشالوم ابن معكة بنت تلماي ملك جشور ، والرابع أدونيا بن جحيث ، والخامس شفتيا بن أبيطال ، والسادس يثر عام من عجلة»^(٦٩) ، ولكن نظرا لان داود كانت له زوجتان على الأقل ، يعتبران أقدم من الاخريات (أخينوعم وأبيجايل) ، وطبقا لرواية التوراة في صموئيل الاول (٤٣/٢٥ — ٤٣) فربما كان البعض من هؤلاء الابناء أكبر قليلا من الآخرين ، وأن القائمة السابقة كانت اضافة لاحصاء أبناء داود الذين ولدوا في اورشليم^(٧٠) ، وهم

(٦٦) صموئيل ثان ٢٣/٦ .

(٦٧) تثنية ٥/٢١ — ١٧ ، وانظر عن «البكورية» عند بني اسرائيل (تكوين ٣١/٢٥ ، تثنية ١٧/٢١ ، خروج ٢٩/٢٢ ، قاميس الكتاب المقدس ١٨٧/١ ، محمد بيومي مهران : اسرائيل ١٨٩/١ — ١٩٢) .

(٦٨) M. Noth, Op. Cit., P. 200.

(٦٩) صموئيل ثان ٢/٣ — ٥ .

(٧٠) M. Noth, Op. Cit., P. 200.

طبقا لرواية صموئيل الثانى (١٣/٥ - ١٦) : شموع وشوياب ونائان
وسليمان وبيجار واليشوع ونافج ويافيع واليشمع واليداع وأليفط •

هذا ويوصف «أمنون» صراحة فى سفر صموئيل الثانى (٢/٣) بأنه
ابن داود البكر ، ومن ثم فقد اعتبر نفسه ، كما اعتبره اخوته كذلك ،
وليا للعهد أو الملك القادم ، غير أنه لم يكن حكيما بما فيه الكفاية ، كما
لم يكن كريما ولا عفيفا ، وطبقا لرواية التوراة فى صموئيل الثانى
(اصحاح ١٣ - ١٤) فقد اعتدى على أخته غير الشقيقة ، مما دفع
أبشالوم الى أن يثار لعرض شقيقته «ثامار» فيقتله ، ثم هرب عند
أخواله فى جشور ، وبقي هناك ثلاث سنوات^(٧١) ، ومن ثم فقد أصبح
كيلا ابن الثانى لداود وليا للعهد ، ولكنه سرعان ما يختفى لسبب
لا ندرية على وجه اليقين ، ومن ثم فقد أصبح أبشالوم الابن الثالث
لداود وليا للعهد ، ولكنه بدوره سرعان ما يختفى فى ثورة دامية ، كما
سدرى ، ومن ثم تصبح ولاية العهد من حق الابن الرابع «أدونيا» ،
ولكنه لم يصل الى العرش أبدا ، حيث سيكون ذلك من نصيب سليمان ،
الابن العاشر كما سنشير الى ذلك بالتفصيل فيما بعد •

٨ - ثورة أبشالوم :

بدأ أبشالوم يعد العدة لاعتلاء عرش أبيه ، وكان أول ما فعله أن
حصل - بمساعدة يواب - على عفو أبيه المطلق عن جريمته بقتل أخيه
أمنون ، ومن ثم فقد عاد أبشالوم من جشور الى اورشليم ، وبدأ بيت
المدعوة لنفسه بين المقربين اليه ، ثم سرعان ما نجح فى اكتساب عطف
وتأييد القبائل الاسرائيلية وخاصة يهوذا قبيلة أبيه ، وحين استوثق من
النجاح ذهب الى حبرون باذن من أبيه ، بحجة الوفاء بنذر كان قد نذره
ابان اقامته فى «جشور» ، وهناك فى حبرون أعلن عصيانه ونادى بنفسه
ملكا على اسرائيل ، ومن أسف أن القوم سرعان ما انضموا اليه ضد

(٧١) انظر ن قصة أمنون وأخته ثامار (صموئيل ثان ١٣/١ - ٣٩ .
محمد بيومى مهران : اسرائيل ٢١١/٣ - ٢١٣) •

داود ، بل ان ثورة أبشالوم سرعان ما ضمت اليها « أخيتوفل » وهو واحد من مستشاري داود المقربين (٧٢) .

وتعلك بعض المصادر الاسلامية سرعة استجابة اليهود لأبشالوم ، بأن قصة امرأة أوريا الحثي كانت سببا في ازالة طاعة داود عن بني اسرائيل واستخفوا بأمره ووثب عليه ابن يقال له «ايشسا» وأمه ابنة طالوت ، فدعى الى نفسه ، فكثر أتباعه من أهل الزينج من بني اسرائيل، فلما تاب الله على داود اجتمع اليه طائفة من الناس ، فحارب ابنه حتى هزمه ، ووجه اليه بعض قواده وأمره بالرفق به والتلطف لعله يأسره ولا يقتله ، وطلبه القائد وهو منهزم فاضطره الى شجرة فقتله ، فحزن عليه داود حزنا شديدا وتكرر لذلك القائد (٧٣) .

ويذهب بعض المؤرخين المحدثين الى أن القبائل الاسرائيلية ربما كانت غير راضية عن اتساع أملاك داود التي بدأت تمتد الى ما وراء مناطقها ، ذلك لان ضم اسرائيل لعدد من المدن المستقلة ذات المستوى الحضارى المتقدم ، والتي تمتلك صناعات هامة ، فضلا عن سيطرتها على اراض كبيرة وغنية تمر خلالها طرق القوافل ، كل ذلك أدى الى رخاء مفاجيء في اسرائيل ، تمتعت به طبقة خاصة صغيرة من رجال البلاط وكبار الموظفين وقادة الجيش والتجار ، بينما لا يتمتع العامة من القوم ممن كانوا يعملون جنودا عاديين في الجيش بمثل هذا الرخاء ، مما جعلهم غير راضين عن الوضع الجديد المفاجيء ويتقبلون دعاوى أبشالوم ضد أبيه (٧٤) ، أضف الى ذلك ، فيما يرى البعض ، التوتر القائم بين يهوذا واسرائيل ، والذي ظل قائما أبدا ، ورغم أنه لم يكن السبب الرئيسى للثورة ، الا أنه لعب دورا هاما فيها ، بخاصة وأن يهوذا حيث قامت

(٧٢) صموئيل ثان ٢٩/١٣ ، ١/١٤ - ٣ ، ٧/١٥ - ١٠ ، ماير : حياة داود ص ٣٦٢ (مترجم) ، وانظر : تاريخ اليعقوبى ٥٣/١ .
(٧٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ١٢٧/١ ، وانظر : تاريخ الطبرى ٤٨٤/١ .

74) O. Eissfeld, Op. Cit., P. 585-586 A. Alt, Die Staatenluidung der Israeliten in Palastina, Munchen, 1953, P. 56 Fl.

الثورة في حبرون ، بدأت تحس أن داود بدأ يفضل إسرائيل عليها^(٧٥) ، وأخيراً فلعل من أسباب الثورة ذلك الاتجاه العدائي من القبائل الإسرائيلية ، التي اعتادت النظام القبلي ، ضد سياسة المركزية التي بدأت تسير عليها مملكة داود^(٧٦) .

ومع ذلك فإن أسباب ثورة أبشالوم مازالت تنتظر مزيداً من الوضوح ، ذلك لأن حركة السخط التي قام بها «شبع بن بكرى» من سبط بنيامين^(٧٧) (سبط طالوت) ضد داود ، بعد انتصاره على ولده أبشالوم ، إنما قد استمدت قوتها من المعارضة الدائمة بين قبائل الشمال والجنوب ، ورغم أن داود عليه السلام قد كتب له نجحاً بعيد المدى في القضاء على كليهما ، وأن القضاء على ثورة شبع كان أسرع من القضاء على ثورة أبشالوم ، فالذي لا شك فيه أن الأمور في إسرائيل ربما كانت سوف تتغير كثيراً بسبب هاتين الثورتين ، لولا وجود شخصية داود القوية^(٧٨) ، ذلك لأن التنافس بين قبائل الشمال والجنوب كان أقوى عوامل هدم مملكة إسرائيل ، وهو تنافس لم يقض عليه أبداً ، بل هو نفسه الذي قضى على الدولة^(٧٩) .

وأياً ما كان الأمر ، فإن ثورة أبشالوم إنما كانت جداً خطيرة ، حتى أن داود عليه السلام لم يجد بجواره غير حرسه الخاص وحتى اضطر إلى أن يعبر الأردن إلى «محانيم» تحت حماية التابوت مع رجاله ، حتى لا يفاجأ بأبشالوم وأتباعه في العاصمة أورشليم^(٨٠) ، بل إن بعض المصادر العربية جعلته يلحق بأطراف الشام ، بل إن الخيال ذهب بهم إلى أن يصلوا به إلى خيبر وما إليها من بلاد الحجاز^(٨١) ، بينما ذهب

75) Eissfeldt, Op. Cit., P. 586.

76) W. Albright, Archaeology and Religion of Israel, P. 158.

• صموئيل ثان ١/٢٠ - ٢٢ .

78) O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 586.

• (٧٩) سبتينو موسكاتي : المرجع السابق ص ١٤١ .

• (٨٠) صموئيل ١٤/١٥ - ١٤/١٦ .

• (٨١) تاريخ ابن خلدون ١١١/٢ (بيروت ١٩٨١) .

آخرون الى أن داود هرب ماشيا على رجله حتى صعد عقبة طور سيناء، وبلغ منه الجوع حتى لحقه رجل معه خبز وزيت فأكل منه ، ودخل أبشالوم مدينة أبيه ، وصار الى داره وأخذ سرارى أبيه فوطئهن وقال : ملكنى الله على بنى اسرائيل ، وخرج معه اثنا عشر ألفا فطلب داود ليقبضه ، فهرب داود حتى جاز نهر الاردن^(٨٢) ، وهكذا يبدو واضحا مدى اضطراب الروايات فى تحديد المكان الذى لجأ اليه داود عليه السلام ، فهو فى رواية لجأ الى محانيم فى عبر الاردن ، وهو فى رواية ثانية انما يلجأ الى خيبر فى شمال غرب الجزيرة العربية ، وفى رواية ثالثة صعد الى عقبة طور سيناء ، بل ان نفس الرواية سرعان ما تعكس الاتجاه وتذهب به الى الشرق ، فتعبر به الاردن ، وبدهى أن اضطراب هذه الروايات انما يقلل من قيمتها التاريخية، ويجعلها فى مظان الشك وهواتف الريبة ، فضلا عن الشك فى القصة من أساس ، وهذا ما نميل اليه ونرجحه ♦

وعلى أية حال ، فإن أبشالوم ، طبقا لرواية التوراة ، قد استطاع أن يستولى على اورشليم ، وأن يغتصب عرش أبيه بل انه حتى لم يتورع عن أن ينتهك عرض أبيه بمشورة أخيتوفل على رأى من الناس «فانصبوا لابشالوم الخيمة على السطح ، ودخل أبشالوم الى سرارى أبيه أمم جميع اسرائيل»^(٨٣) غير أن بنى اسرائيل بدأوا بعد ذلك يعودون الى داود والانضمام الى جيشه تدريجيا ، ربما نتيجة لما بذله بعض المخلصين له من حبرون ، وربما نتيجة لغرور أبشالوم وأخطائه الكثيرة ، واصغائه للأحمقى من المقربين اليه ، وما ترك ذلك من آثار سيئة فى نفوس الناس ♦

وأيا ما كان السبب ، فإن أبشالوم قد حاول بكل ما وسعته المحاولة من أن يمنع عودة أبيه الى اورشليم ، ومن ثم فقد جمع أنصاره قبل تفاقم الامر ، وزحف بهم الى شرق الاردن ، حيث كان أبوه فى جلعاد هو قد

(٨٢) تاريخ اليعقوبى ٥٣/١ (بيروت ١٩٨٠) .
(٨٣) صموئيل ثان ٢٢/١٦ وانظر : تاريخ اليعقوبى ٥٣/١ .

اجتمع اليه عدد كبير من الانصار ، وهكذا بدأ القتال في «وعر افرائيم» قرب مغانيم على الارجح ، وأثبت رجال داود أنهم أعلى كعبا من رجال القبائل الاسرائيلية الذين التفوا حول أبشالوم ، ودارت الدائرة على أبشالوم الذي أمر الملك بعدم قتله ، «وكانت هناك مقتلة عظيمة في ذلك اليوم ، قتل عشرون ألفا ، وكان القتال هناك منتشرا على وجه كل الارض ، وزاد الذين أكلهم الوعر من الشعب على الذين أكلهم السيف في ذلك اليوم» ، وقتل أبشالوم أثناء هروبه ، على الرغم من أوامر الملك المصريحة على ملا من الشعب بعدم قتله ، وكما يقول الطبري : وجه داود في طلبه قائدا من قواده (يؤاب) وتقدم اليه أن يتوقى حتفه ، ويتلطف لأسره ، فطلبه القائد وهو منهزم ، فاضطره الى شجرة فركض فيها ، وكان ذا جمّة ، فتعلق بعض أغصان الشجر بشعره فحبسه وولحقه القائد فقتله مخالفا لأمر داود ، فحزن عليه داود حزنا شديدا - وتكر للقائد ، وربما طبقا لرواية التوراة أن رجلا رأى أبشالوم معلقا من رأسه في شجرة كبيرة ملتفة الأغصان فأخبر القائد يؤاب الذي أمره بقتل أبشالوم على أن يعطيه عشرة من الفضة ومنطقة ، لكن الرجل رفض أن يقتل ابن الملك ، بعد أن سمع الملك يوصي بعدم قتله ، ولو أعطاه ألفا من الفضة ، ومن ثم فقد تقدم يؤاب «وأخذ ثلاثة سهام بيده ونشبهها في قلب أبشالوم ، وهو بعد حي في قلب البطمّة ، وأحاط بها عشرة غلمان حاملوا سلاح يؤاب وضربوا أبشالوم وأماتوه» ، وقد أدى ذلك كله الى حزن داود المرير على ولده ، حتى «صعد الى عليّة الباب وكان يبكي ويقول ، وهو يتمشى ، يا ابني يا أبشالوم يا ابني يا ابني أبشالوم ، ياليتني مت عوضا عنك يا أبشالوم ابني يا ابني» ، وهكذا لم يعد أمام القبائل الاسرائيلية سوى المناداة بداود ملكا عليها مرة ثانية (٨٤) .

(٨٤) صموئيل ثان ١/١٨ - ٤١/١٩ ، تاريخ الطبري ٤٨٤/١ ، تاريخ ابن خلدون ١١١/١ ، تاريخ اليعقوبي ٥٣/١ ، الكامل لابن الاثير ١٢٧/١ .

٩ - التعداد العام ونتائجه :

تروى التوراة أن رب اسرائيل غضب على شعبه اسرائيل «فأهاج عليهم داود قائلا : امض واحص اسرائيل ويهوذا ، فقال الملك ليؤاب رئيس الجيش الذى عنده : طف فى جميع أسباط اسرائيل من دان الى بئر سبع وعدوا الشعب فاعلم عدد الشعب» ، ويقوم يؤاب بالمهمة التى تستغرق ستة أشهر وعشرين يوما • «وكان اسرائيل مئة ألف باس مستل السيف ، ورجال يهوذا خمس مئة ألف رجل» ، غير أن رب اسرائيل سرعان ما يرسل جاد النبى ليخير داود بين «سبع سنى جوع فى أرضك ، أم تهرب ثلاثة اشهر بين أعدائك ، أم يكون ثلاثة أيام وباء فى أرضك» ، ويترك داود الخيرة لربه «الذى يجعل وباء فى اسرائيل من الصباح الى الميعاد فمات من الشعب من دان الى بئر سبع ، سبعون ألف رجل ، وبسط الملاك يده على اورشليم ليهلكها ، فندم الرب^(٨٥) عن الشرهوقتل للملاك الملك للشعب كفى ، الان رويدك»^(٨٦) •

ومن عجب أن التوراة لم تقدم لنا هنا سببا مقنعا لغضب يهوه على شعبه ، وان أشارت أن ذلك انما كان بسبب خطايا داود ، ومن ثم فهو يقول ، ملتصقا عفو ربه ورحمته بشعبه «ها أنا أخطأت ، وأنا أذنبت ، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا ؟ فلتكن يدك على وعلى بيت أبى» ، ثم تعود مرة أخرى فتروى نفس الرواية ، ولكنها تقدم أرقاما للاحصاء تختلف عن المرة الاولى «فاسرائيل كان ألف ألف ومئة ألف مستلى السيف ، ويهوذا أربع مئة وسبعين ألف رجل مستلى السيف» ، هذا

(٨٥) من المؤلم أن توراة اليهود ، وليست توراة موسى ، كثيرا ما تصور يهوه (الله) ليس معصوما ، وأنه كثيرا ما يقع فى أنخطا ثم يندم على خطئه ، حدث ذلك عندما فكر فى اهلاك اليهود عن بكرة أبيهم ، مما اضطر موسى الى أن ينصحه فينتصح ، ثم هناك ندمه على اختيار شاول (طالبوت) ملكا ، غير أن شنع أخطائه خلقه الانسان ، ثم ندم على ذلك (انظر : تكوين ٦/٦ ، خروج ١٤/١٢ ، ١٠/٣٢ ، صموئيل أول ١٥/١١ ، ارميا ٧/١٨ - ١٠ ، عاموس ١/٧ - ٦ ، يونان ٣/٩ - ١٠ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ١٢/٤ - ١٤) •
(٨٦) صموئيل ثان ١٠/٢٤ - ١٧ •

بمخلاف سبطى لاوى وبنيامين^(٨٧) ، والتعارض هنا بين نصوص التوراة ليس أمرا جديدا علينا فنظائره كثيرة •

وعلى أى حال ، فإن التوراة تجعل التعداد الذى قسام به داود . بأمر من رب اسرائيل ، سببا فى البلايا التى أنزلها رب اسرائيل باسرائيل ، وإن كتبنا لا ندرى لم يغضب رب اسرائيل من قيام ملك اسرائيل بهذا التعداد ، الذى تقوم به شعوب كثيرة^(٨٨) ، حتى يفرض عليه واحدة من بلايا ثلاثة : أقلها وباء يروح شخصيته سبعون ألف رجل؛ غير أن الامام الطبرى يروى عن «وهب بن منبه» أن سبب غضب الرب أن داود فعل ذلك دون أمر من ربه ، فعتب الله عليه ذلك وقال : قد علمت أنى وعدت ابراهيم أن أبارك فيه وفى ذريته حتى أجعلهم كعدد نجوم السماء ، وأجعلهم لا يحصى عددهم ، فأردت أن تعلم عدد ماقلت ، انه لا يحصى عددهم ، فاختاروا بين أن أبتليكم بالجوع ثلاث سنين أو أسلط عليكم المعد ثلاثة أشهر أو الموت ثلاثة أيام ، فاستشار داود فى ذلك بنى اسرائيل فقالوا : ما لنا بالجوع ثلاث سنين صبرا ، ولا بالعدو ثلاثة أشهر ، فليس لهم بقية ، فإذا كان لابد فالموت بيده لا بيد غيره ، فذكر وهب أنه مات منهم فى ساعة من نهار ألوف كثيرة ، لا يدرى ما عددهم ، فلما رأى داود ذلك شق عليه ما بلغه من كثرة الموت ، فقتل الى الله ودعاه فقال : يارب أنا أكل الحماض (أى ما فى جوف الاترجة) وبنو اسرائيل يمرضون ، أنا طلبت ذلك فأمرت بنى اسرائيل ، فما كان من شئ فبى ، واعف عن بنى اسرائيل ، فاستجاب الله لهم ورفع عنهم الموت»^(٨٩) •

(٨٧) أخبار أيام أول ٥/٢١ - ٦ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٧٣٨/٢ - ٧٤٠ •

(٨٨) لعل أول شعوب العالم التى قامت بعمل تعداد عام إنما هم المصريون ، وقد قام به الملك «دن» (وديمو) رابع ملوك الاسرة الاولى الفرعونية ، وذلك قبل عام ٣٠٠٠ ق.م ، ولأول مرة فى التاريخ ، وبالمناسبة فإن آخر تعداد تم فى مصر كان فى نوفمبر عام ١٩٨٦ ، وبلغ سكان مصر أكثر من ٥٠ مليون •

(٨٩) تاريخ الطبرى ٤٨٥/١ ، وانظر تاريخ اليعقوبى ٥٥/١ - ٥٦ ، تاريخ ابن خلدون ١١١/١ •

والغريب في هذه الرواية أنها تتناقض رواية التوراة في أمور ، منها أن التعداد هنا كان بأمر داود ، مع أن رواية التوراة صريحة في أن الذي أمر بالتعداد إنما هو رب داود ، وليس داود ، ومنها أن بنى إسرائيل هنا دم الذين اختاروا الموت عقابا لهم ، وفي رواية التوراة أن داود ترك المشيرة لأمر ربه ، فاختار لهم الموت ، ومنها أن عدد القتلى هنا غير معروف وإن كان ألوفا كثيرة ، مع أنه في رواية التوراة قد حدد بسبعين ألفا ، ومنها أن داود اعتذر هنا بأنه يأكل الحمض وبنو إسرائيل يضرسون ، وفي رواية التوراة اعتراف صريح «ها أنا أخطأت وأنا أذنبت ، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا» والاعجب أننا ما ندري لوهب ابن منبه مصدرا في روايته هذه غير التوراة ، ولم يقل لنا الامام الطبري أو وهب بن منبه ، عن مصدر آخر غير التوراة اعتمد عليه في روايته هذه ، فما بالك بالتوراة نفسها موضع شك كبير .

١٠ - وفاة داود عليه السلام :

وتنتهي أيام داود ، النبي الاواب ، في هذه الدنيا ، وينتقل عليه السلام الى جوار ربه ، راضيا مرضيا عنه من ربه الكريم ، «واضطجع داود مع آبائه ودفن في مدينة داود» ، وفي الواقع فان دفن النبي الاواب في مدينة اورشليم^(٩٠) (مدينة داود) لأمر غريب ، ذلك لان هناك عبارة طالما تكررت في التوراة ، وهي أن فلانا قد انضم الى قومه أو «انضم الى آباءه»^(٩١) ، وربما لا تعدو أن تكون اشارة الى عقيدة القوم في أن الموتى من أسرة ما ، يجب أن يدفنوا في مكان واحد ، ليقبوا كما كانوا على قيد الحياة^(٩٢) ، ومن هنا فقد كان من المنتظر أن يدفن داود في مقابر أسرته في «بيت لحم» ، وهو المريح على التقاليد ، والتي يستطيع قارئ التوراة أن يقدم الكثير من الادلة عليها ، بل ان داود لينقل عظام شاول ، وكذا ولديه ، من يابيش جلعاد ، ليدفنوا في أرض

(٩٠) يذهب ابن خلدون في تاريخه (١١٢/١) الى أن داود دفن في بيت لحم .

(٩١) تكوين ٨/٢٥ ، قضاة ١/٢ .

92) S. Yeipin, JNES, 7, 1948, P. 30.

بنيامين في صيلع في قبر قيس أبيه»^(٩٣) ، ومع ذلك غاب داود نفسه الذي كان مخلصا للمعادن والتقاليد الى هذا الحد ، لم يدفن في مقبرة أسلافه في بيت لحم ، وإنما في مقبرة جديدة في القدس (مدينة داود) ، وقد يقال ان ذلك تم بدون رغبة منه أو أنه لم يترك تعليمات فيما يختص بمكان دفنه ، ولكن هناك عبارات في التوراة يفهم منها أن الرجل المحتضر كان يوصي أقرباءه بدفنه في مقبرة الأسرة^(٩٤) ، وأن داود الذي أعطى تعليماته النهائية لولده وخليفته سليمان فيما يختص بأعدائه لم ينس بطبيعة الحال التعليمات الخاصة بمكان دفنه^(٩٥) .

ويذهب بعض الباحثين الى أن السبب في دفن داود في القدس ، وليس في بيت لحم ، والامر كذلك بالنسبة الى خلفائه المباشرين الاثنى عشر ، هو تقليد الملك داود لجيرانه من الملوك ، ذلك أنه منذ القرن الثالث عشر ، وحتى القرن السادس أو السابع قبل الميلاد على الاقل كان العرف السائد في كل حوض البحر المتوسط هو أن يدفن المذرك في قصورهم ، أو على مقربة منها ، وليس داخل أسوار مدنتهم فحسب^(٩٦) ، وانى لأظن ، وليس كل الظن اثما ، أن المؤرخين قد أخطأوا كثيرا في تفسير الاحداث الخاصة بـداود عليه السلام ، فهم يتعاملون معه على أنه ملك إسرائيل فحسب ، ونسوا ، أو تناسوا ، أنه قبل ذلك وبعده نبي الله ورسوله ، وطبقا لهذه الحقيقة التي يتغافل عنها البعض ، يمكننا تفسير مكان دفن داود عليه السلام في القدس ، وليس في بيت لحم ، اعتمادا على ما روى عن سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ من أن الانبياء يدفنون حيث يموتون ، فلقد حدث أبو بكر الصديق أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «ما قبض نبي الا دفن حيث قبض» ، وفي رواية «ما مات نبي الا دفن حيث قبض» .

(٩٣) قضاة ٣٢/٨ ، صموئيل ثان ٣٧/١٩ - ٣٨ ، ١١/٢١ - ١٤ .

(٩٤) تكوين ٢٩/٤٩ - ٣٣ .

95) S. Yeivin, The Sepulchers of the Kings of the House of David, JNES, 7, 1948, P. 31.

96) S. Yeivin, Dp. Cit., P. 36-38.

هذا وكان عمر داود عليه السلام ، فيما وردت به الاخبار عن رسول الله ﷺ مائة سنة (٩٧) ، فقد جاء في الاحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره ، فرأى فيهم الانبياء عليهم السلام ، ورأى فيهم رجلا يزهر فقال أى رب من هذا ، قال ابنك داود ، قال أى رب كم عمره ، قال ستون عاما ، فقال رب زد في عمره ، قال لا الا أن أزيده من عمرك ، وكان عمر آدم ألف عام ، فزاده أربعين عاما ، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت ، فقال بقى من عمري أربعون سنة ، ونسى آدم ما كان وهبه لولده داود ، فأتىها الله لآدم ألف سنة ، ولد داود مائة سنة (رواه الامام أحمد عن ابن عباس ، والترمذي عن أبي هريرة وصححه ، وابن خزيمة وابن حبان ، ورواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط مسلم) (٩٨) ، وقال الطبري : وأما بعض أهل الكتاب فإنه زعم أن عمره كان سبعا وسبعين سنة (٩٩) ، وأما رواية التوراة فتجعل عمره سبعين عاما «كان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك ، وملك أربعين سنة» (١٠٠) وبدهى أن رواية التوراة ، وكذا رواية بعض أهل الكتاب كما نقلها الطبري وغيره ، غير صحيحة ، أو كما يقول ابن كثير فهذا غلط مردود عليهم ، وأما مدة ملكه ، وهى أربعون سنة (١٠١) ، فقد يقبل منهم ، لأنه ليس عندنا ما ينفيه ولا ما يقتضيه (١٠٢) .

-
- (٩٧) تاريخ الطبري ٥٨٤/١ .
 (٩٨) ابن كثير . البداية والنهاية ٨٧/١ - ٨٨ ، ١٦/٢ .
 (٩٩) تاريخ الطبري ٥٤٨/١ ، وانظر : تاريخ اليعقوبى حيث يذهب الى أن داود عليه السلام مات وله مائة وعشرون سنة ، وكان ملكه أربعين سنة (تاريخ اليعقوبى ٥٦/١) .
 (١٠٠) صموئيل ثان ٤/٥ .
 (١٠١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٦/٢ ، الكامل لابن الاثير ١٢٨/١ ، تاريخ المسعودى ٧٠/١ ، تاريخ الطبري ٤٨٥/١ .
 (١٠٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٦/٢ ، الكامل لابن الاثير ١/١٢٨ ، تاريخ المسعودى ٧٠/١ ، تاريخ الطبري ٤٨٥/١ .

الفصل الثالث

عصر سليمان عليه السلام

(١) السياسة الداخلية :

ورث سليمان داود في مملكته ، ومن ثم فقد أصبح ملكا في اورشليم (القدس) وحاكما على مملكة اسرائيل ، هذا ويتفق المؤرخون على أن سليمان قد حكم في القرن العاشر قبل الميلاد ، ولكنهم يختلفون في تحديد فترة حكمه من هذا القرن العاشر ، فهناك من يرى أنها في الفترة (٩٧٤ - ٩٣٢ ق.م)^(١) ، ومن يرى أنها في الفترة (٩٧٣ - ٩٣٦ ق.م)^(٢) ، ومن يرى أنها في الفترة (٩٧٠ - ٩٣٣ ق.م)^(٣) ، ومن يرى أنها في الفترة (٩٦٣ - ٩٢٣ ق.م)^(٤) ، ومن يرى أنها في الفترة (٩٦١ - ٩٢٣ ق.م)^(٥) ، ومن يرى أنها في الفترة (٩٦٣ - ٩٢٩ ق.م)^(٦) ، ومن يرى أنها في الفترة (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م)^(٧) ، وهذا ما نميل اليه ونرجحه ، وسنسير عليه في هذه الدراسة .

-
- (١) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٣٤ .
 - (٢) حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ٨٤ .
 - (٣) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٢٠٥ .
 - (٤) نفس المرجع السابق .
 - (٥) سبتينو موسكاتي : الحصارات السامية القديمة ص ١٤٣ (مترجم) وكذا
 - E. W. Heaton, The old Testament Prophets, London, 1969, P. 172.
 - (6) I. Epstein, Judaism, 1970, P. 36.
 - (7) Historical Atlas of the Holy Land, 1959, P. 81.
 - (8) W. F. Albright, The Biblical Period from Abraham to Ezra, N. Y., 1963, P. 120-122.

هذا وكان اختيار سليمان بعد أبيه داود ، عليهما السلام ، ملكا على بنى اسرائيل ، انما يرجع الى كفاءته الشخصية ، فهو لم يكن أبدا أكبر أبناء داود الكثيرين ، كما أنه لم يكن حتى أكبر الابناء الذين ولدوا بعد اعتلاء داود عرش اسرائيل ، وأيا ما كان الامر ، فلقد خلف سليمان أباه دونما أية صعوبات أو ثورات داخلية ، ثم سرعان ما عمل على القضاء على منافسيه والتخلص من مؤامراتهم ، وما قد يحيكون له من دسائس^(٩) ، ثم اتجه بعد ذلك الى تدعيم عرشه في الداخل ، فاستخدم معظم موارد دولته في تقوية دعائم الحكومة ، وتجميل العاصمة اورشليم ، ومن ثم فقد أقام سليمان كثيرا من الحصون ، كما رمم القديم منها ، ووضع حاميات في المواقع ذات الاهمية الاستراتيجية ، ليرهب بها الثائرين والغازين على السواء •

ثم عمل سليمان بعد ذلك على القضاء على طموح البطون والعشائر التي كانت تسعى للاستقلال ، ذلك لان سليمان انما كان يعرف تماما أن أخطر المشاكل التي واجهت أبوه داود من قبل ، انما كانت طموح بعض القبائل الى التمتع بحكم ذاتي ، ولاشك أن هذه الرغبة انما كانت تتعارض كثيرا مع رغبة سليمان في الحكم المركزي ، ومن ثم فقد ركز كل جهوده في تفتيت أى تحالف يقوم بين هذه القبائل ويهدد الوحدة الاسرائيلية العامة ، وهكذا قسم سليمان مملكته الى اثنتى عشرة محافظة ، على كل واحدة منها محافظ يتولى الضرائب ، كما فرض على كل محافظة اعاشة الملك وحاشيته وجيشه وخيله شهرا في السنة ، ذلك لان سليمان كان في حاجة الى تزويد الجنود ، وكذا الخيول ، الموجودة في الحصون التي أقامها ، بالمؤون والعلف ، فضلا عن اعاشة رجالات القصر الذين زاد عددهم عن أيام أبيه كثيرا^(١٠) •

(٩) ملوك أول ١/١ - ٥٣ ، ٣/٢ - ٤٨ ، ١٢/٣ - ١٣ ، تاريخ الطبرى ٤٨٥/١ ، الكامل لابن الاثير ١٢٧/١ (بيروت ١٩٧٨) .
(١٠) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٣٧ ، اندريه ايمار ، وجانين ابوايه : المرجع السابق ص ٢٦٦ ، صموئيل ثان ٩/٩ ، ٢٣/١٣ ، ١/١٦ وما بعدها ، وكذا

O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 371.

وأيا ما كان الامر ، فلقد كانت حدود المناطق الجديدة ، باستثناء أربع أو خمس حالات ، ليست متطابقة مع حدود القبائل الاسرائيلية ، مما يتفق وهدف سليمان من تحطيم البناء الحكومى الاقليمى المستقل ، وبالتالي يمكن أن يضعف النزعة الانفصالية بين القبائل الاسرائيلية ، وأن يؤلف منهم شعبا واحدا^(١١) ، وعلى أى حال ، فلقد كان على كل منطقة من المناطق الجديدة «مشرفا» أو «وكيلا» عليه توزيع المسؤولية الخاصة بالمؤونة بين الملاك المختلفين ، وأن يراقب وصولها في الوقت المحدد ، وأن يجمعها في مدن الصوامع ، ثم يسلمها في اورشليم في الشهر المعين ، وكان على رأس هذا النظام موظفا أعلى يسمى «رئيس الوكلاء» لم تظهر وظيفته على أيام داود ، وانما ظهرت لأول مرة بين الموظفين الكبار في عهد سليمان ، ومن هنا كان الصدام بما يسمى حرية القبائل الاسرائيلية ، وذلك عن طريق التصرف في انتاج زراعتهم ونتاج مواشيهم بطريقتهم الخاصة أو على حسب هواهم^(١٢) .

ويبدو أن المدن الكنعانية التي كانت قد احتفظت باستقلالها حتى ذلك الوقت ، مثل دور ومجدو وتعنك وبيسان ، قد ضمت الى مملكة اسرائيل ، أما منطقة يهوذا ، أو على الاقل الاقليم الجبلى منها ، فلا يبدو أنها كانت تكون جزءا من أى اقليم من الاقاليم الاثنى عشر ، الامر الذى يرى فيه بعض الباحثين دلالة على أن سليمان قد أعفى هذه القبيلة الملكية من الواجبات المفروضة على غيرها ، وبالتالي كان سببا في تذمر قبائل الشمال عندما فرض عليهم العمل في تحصين العاصمة ، وقد أخذم التذمر ، وأجبر زعيمه «يربعام» الى الهروب الى مصر^(١٣) ، على أن كثيرا من الباحثين يرون أن يهوذا ، لا بد وأنها قد كلفت بعمل آخر ، لانه

(١١) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣٣٤ ، وكذا

A. Lods, Op. Cit., P. 371.

12) M. Noth, Op. Cit., P. 212-213.

13) A. Lods, Op. Cit., P. 371-72.

، ثم قارن : تاريخ ابن خلدون ٢/ ٢١٤ .

من غير المقبول أن تترك بدون أى التزام مالى نحو الدولة^(١٤) ، فضلا
عن أن سليمان ، وهو الملك النبى ، ما كان فى حاجة الى اجبار بنى
اسرائيل للعمل فى تحصين العاصمة ، وقد سخر الله له الجن «يعملون
له ما يشاء من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب وقدور راسيات»^(١٥) .

14) O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 591.

وكذا

W. F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, Baltimore,
1963. P. 140.

(١٥) سورة سبأ : آية ١٣ .

(٢) السياسة الخارجية :

كان سليمان عليه السلام سياسيا حكيما ، كما كان محاربا عظيما ، واداريا قديرا ، ورغم أنه قد أدرك بفطرته السليمة أنه من الضروري أن يكون له جيش قوى يحمى مملكته^(١) ، ويساعده في تبليغ الدعوة ، فسليمان كما كان ملكا عظيما ، فقد كان كذلك رسولا نبيا ، فقد أدرك في نفس الوقت بتفكيره السليم أن مملكته الصغيرة في مساحتها لن تعيش في سلام الا بالتفاهم مع جيرانها ، وأن من وسائل هذا التفاهم ، وربما من وسائل نشر الدعوة أيضا ، أن يرتبط برباط المصاهرة مع جيرانه من الملوك والامراء ، ومن ثم فقد تزوج من بنات أمراء العمونيين والمؤابيين والاراميين والكتعانين والحيثيين^(٢) وغيرهم ، بل وقد تخطت مصاهراته حدود الشام ، فصاهر فرعون مصر ، ومن ثم فقد أصبحت الاميرة المصرية السيدة الاولى في مملكته^(٣) .

ونقرأ في التوراة أن فرعون «قد صعد وأخذ جازر وأحرقها بالنار، وقتل الكتعانين الساكنين في المدينة ، وأعطاهم ميرا لابنته امرأة سليمان»^(٤) ، ونطالع هذه الامور ، فيما يرى جاردنر ، وكأنها تاريخ حقيقي ، ولكننا لا نلتقي بما يؤكداه من الجانب المصري ، وأما الشك من الناحية التاريخية في هذا الزواج ، فانه ، وان حصر في حدود ضيقة نسبيا ، الا أنه يكفي للتشكيك في أى الفراعين هو المقصود هنا ، هذا الى أن اسم «تحنيس» (Tahpenes) لا يستطاع مطابقته على نظير له

1) O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 589.

(٢) ملوك أول ١١/١ - ٢ .

(٣) ملوك أول ١/٣ ، وكذا O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 601. ، وانظر : تاريخ ابن خلدون ١١٢/٢ ، تاريخ اليعقوبى ٥٧/١ ، ثم قارن : H. G. Wells, The Outline of History, N. Y., 1965, P. 280.

(٤) ملوك أول ١٦/٩ .

بالهروغليفية^(٥) ، ومن ثم فقد اختلف الباحثون في اسم هذا الفرعون الذي صاهر سليمان عليه السلام ، فمن يرى أنه «سى أمون»^(٦) ، ومن يرى أنه «بسونس الثاني»^(٧) ، ومن يرى أنه آخر ملوك الاسرة الحادية والعشرين^(٨) (١٠٨٧ - ٩٤٥ ق.م) أو ما قبل الاخير من ملوك هذه الاسرة^(٩) ، بل ان هناك من اقترح «شيشنق الاول» مؤسس الاسرة الثانية والعشرين^(١٠) (٩٤٥ - ٧٣٠ ق.م) ، وعلى أى حال ، فأيا كان فرعون مصر هذا ، الذى تنسب التوراة اليه مصاهرة سليمان عليه السلام ، فالذى لا شك فيه أن هذا الزواج ، فيما يرى المؤرخ اليهودى سيسل روث ، قد ساعد سليمان عليه السلام في أن يضيف الى مملكته اقليم جازر ، وهى القلعة الكنعانية القديمة ، وواحدة من أهم المراكز التجارية في الشرق الادنى القديم ، ومن ثم فقد اكتسب مملكة اسرائيل موطئ قدم على البحر المتوسط^(١١) ، وان كنا لا نرى أبدا أن سليمان كان في حاجة الى عون فرعون ، وقد سخر الله له طائفة من الجن ومردة الشياطين يعملون له الاعمال التى يعجز عنها البشر ، كما أشرنا من قبل ، فضلا عن أن جند سليمان انما كان مؤلفا من الانس والجن والطير ، قال تعالى «وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون»^(١٢) .

- 5) A. H. Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, Oxford, 1964, P. 329.
- (٦) عبد الحميد زايد : الشرق الخالد - القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٨٩ ،
O. Eissfeldt, *Op. Cit.*, P. 588. وكذا
- A. Malamat, *Aspects of the Foreign Policies of David and Solomon*, JNES, 22, 1963, P. IF.
- (٧) محمد أبو المحاس عصفور : المرجع السابق ص ٢١١ ، وكذا
W. F. Petrie, *Egypt and Israel*, London, 1925, P. 66.
- (٨) من المفروض أن «بسونس الثاني» هو آخر ملوك الاسرة الحادية والعشرين ، غير أن هناك من يرى أنه (بسونس الثالث) (أنظر :
H. Gauthier, *Le Livre des Rois d'Egypte*, III, Paris, (1907, P. 301.
(A. Gardiner, *Op. Cit.*, P. 447.
- 9) A. Lods, *Op. Cit.*, P. 368.
- 10) W. O. E. Oesterley, *Op. Cit.*, P. 226.
J. H. Breasted, *A History of Egypt*, 1946, P. 529. وكذا
- 11) C. Roth, *Op. Cit.*, P. 21.
- (١٢) سورة النمل : آية ١٧ .

(٣) التنظيمات العسكرية :

يجمع المؤرخون أو يكادون ، على أن خليفة داود ، عليهما السلام ، المحارب الشجاع ، انما قد أدرك جيدا ضرورة تكوين جيش قوى للدفاع عن دولته ، فضلا عن دعوته ، وربما تجارته كذلك ، ومن ثم فان المصادر التاريخية انما تنسب الى سليمان عليه السلام استعمال « العربات الحربية » ، ولأول مرة في جيش اسرائيل ، ونقرأ في التوراة أن داود عليه السلام عندما هزم مملكة «أرام صوبية» قد استولى على مئات الخيول^(١) ، غير أن داود لم يكن يملك عربة حربية واحدة ، رغم أنه قد أدرك بنفسه أهمية هذا السلاح أثناء حروبه مع الاراميين ، هذا فضلا عن أن المصريين قد استخدموا هذا السلاح منذ مئات السنين^(٢) ، وكذا فعل الكنعانيون.

وهكذا ما أن ورث سليمان ملك أبيه داود ، عليهما السلام ، حتى أدخل هذا السلاح «العربات الحربية» في جيشه بل انه انما جعل منه القوة العسكرية الرئيسية في هذا الجيش ، وربما كان السبب المباشر في ذلك ، أن الاراميين في دمشق قد عملوا على استرداد نفوذهم المفقود بعد مو تداود مباشرة ، وفي أوائل أيام سليمان ، ومن ثم فقد أصبحت دولة «أرام دمشق» نتيجة استخدامها لهذا السلاح ، انما تمثل تهديدا مباشرا لاسرائيل^(٣) ، وطبقا لما جاء في التوراة^(٤) ، فان سليمان انما كان

(١) صموئيل ثان ٣/٨ - ٥ .

(٢) محمد بيومي مهران : حركات التحرير في مصر القديمة - دار المعارف - الاسكندرية ١٩٧٦ م ص ١٤٠ - ١٤٣ ، ص ١٩٧ - ١٩٨ .

3) O. Eissfeldt, The Hebrew Kingdom, in CAH, II, Part, 2, Cambridge 1975, P. 583-589.

(٤) ملوك اول ٢٦/١٠ .

يملك ما بين ١٤٠٠ ، ٤٠٠٠ حصانا^(٥) ، وأما عن مباني الثكنات العسكرية الخاصة بفصائل العجلات الحربية ، وطبقا لما جاء في سفر الملوك الاول^(٦) فقد اكتشف في «مجدو» وغيرها اسطبلات للخيول ، وحظائر للعربات مع بعضها ، وكانت تلك التي في «مجدود» تسع ١٥٠ عربية ، ٤٥٠ حصانا^(٧) .

هذا وكان قائد العربة يتلقى تدريبات طويلة شاقة ، ويظل في الخدمة طالما كان قادرا على أداء وظيفته ، أو على الأقل لعدة سنوات ، ومن ثم ثم فإنه يصبح جنديا محترفا ، وعندما زاد عدد العربات أصبح من الضروري استخدام عدد لا بأس به من الجنود غير المحترفين ، ذلك لان عددا قليلا من الاسرائيليين الذين كانوا مكلفين بالخدمة العسكرية كانوا يصبحون جنودا محترفين ، وليس هذا يعنى أن هؤلاء الاسرائيليين المجندين بالجيش ، ولا يعملون في سلاح العربات الحربية ، قد أعفوا من القيام بالمهام العسكرية ، بل على العكس من ذلك ، فقد كان الواحد منهم اذا لم يستدع للخدمة في الجيش ، فقد كان يكلف بالعمل في بناء التحصينات والحظائر الخاصة بالعربات ، فضلا عن العمل في المشاريع البنائية الاخرى ، ومن ثم فمن الافضل أن نطلق على العمل الذي اشتهر خطأ باسم «السفرة» ، اسم خدمة الاعمال العامة وصيانة التحصينات الدفاعية وخدمة الجيش^(٨) ، وكان الرجال المكلفون بالخدمة العامة يستدعون طبقا لكشوف ثابتة ، تحدد الاعمال التي يمكنهم القيام بها في

5) W. F. Albright, Op. Cit., P. 135 F.
O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 589.

وكذا

(٦) ملوك أول ١٩/٩ ، ١٦/١٠ .

7) W. F. Albright, From the Stone Age to Christianity, P. 127, 233.
Y. Yadin, New Light in

وكذا

C. Watzinger, Denkmaler Plastines
on Salomon's Megiddo, BA, 23, 1960, P. 62 F.
Leipzig, 1933, P. 67 F. fig. 80-81.

وكذا

W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, P. 124. وكذا

8) O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 590.

المجال الزراعى والصناعى ، وكانوا بطبيعة الحال يتأثرون من هذا الاستدعاء فى أعمالهم الخاصة^(٩) ، وطبقا للتقاليد الخاصة بانقسام مملكة اسرائيل بعد موت سليمان ، فلقد تحملت اسرائيل ، وليس يهوذا ، العبء الاكبر من هذه الخدمة العامة^(١٠) .

9) Ibid., P. 590.

(١٠) ملوك أول ٦/٤ ، ٢٧/٥ - ٣٠ ، ٢٠/١١ - ٢٣ ، وكذا
O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 591.

(٤) النشاط التجارى :

امتاز عهد سليمان عليه السلام بنشاط تجارى عظيم ، فلقد احتلت التجارة من اهتمامه وتدبيره مكانا عظيما ، حتى أن فصائل العربات انما كانت فى خدمة التجارة ، عندما لا تكون فى خدمة الدفاع عن الدولة^(١) ونشر الدعوة ، وقد ساعد على نجاح التجارة سيطرة سليمان عليه السلام على الطرق التجارية فى سورية وفلسطين والتي كانت قائمة منذ عهد أبيه ، وليس هناك من ريب فى أن سليمان قد احتفظ بحقوق كاملة على طرق القوافل التى كانت تمر عبر أراضى الادوميين^(٢) ، ومن هنا نراه يهتم بتحصين المراكز التى كانت تسيطر على الطرق التجارية الهامة التى كانت تمر بمملكته ، حتى أصبحت فلسطين قنطرة بين آسيا وأفريقيا ، كما استغل سليمان علاقاته الودية من ناحية ، ومهارته السياسية من ناحية أخرى ، فضلا عن أن حدوده الجنوبية انما كانت آمنة بسبب صلاته الطيبة مع مصر ، هذا الى أن تحالفه مع «حiram» ملك صور أقوى الامراء الفينيقيين ، قد حمى مواصلات سليمان مع المكن الفينيقية ، وهكذا تمكنت القوافل من السفر ، بصفة دائمة ، من أرض مصر الى بلاد الرافدين ، ومن فينيقيا الى الجزيرة العربية ، فى أمان وسلام ، وهكذا نجح سليمان عليه السلام فى السيطرة على مصدر الثروة العائد من التجارة^(٣) ، ولعل الذى دفع سليمان الى الاتجاه الى التجارة ، أن فلسطين انما كانت بلدا زراعيا خاليا من الصناعة مما اضطره أن يحضر الصناع من صور والنجارين من جبيل (ببلوس) عندما بنى بيت المقدس ، كما أن فلسطين لم تكن تملك سلعا للتصدير يمكن أن تقوم عليها تجارة ناجحة ، ولكنه فى موقع يمكن التصرف منه كوسيط ، وقد استغل هذا

1) Ibid., P. 596.

2) Ibid., P. 587.

3) H. R. Hall, Op. Cit., P. 433.

الموقع أحسن استغلال^(٤) ، فالى جانب العمل فى التجارة ، فقد عيبت الطرق وزودت ببعض المحطات ، وهكذا كانت القوافل الاتية من الجزيرة العربية^(٥) ، والمحطة بالتوابل ، خاضعة لدفع الرسوم عندما كانت تمر بتلك الطرق والمحطات التى تقع فى فلسطين^(٦) .

ونقرأ فى التوراة أن سليمان عليه السلام كان شغوفا بالخيل^(٧) ، رغم أن رب اسرائيل ، فيما تروى التوراة - كان قد حذر ملوك اسرائيل من الخيل والنساء والذهب^(٨) ، غير أن سليمان انما كان يرى أن «الفرس معدة ليوم الحرب» وان كانت «المنصرة من الرب»^(٩) ، ومن ثم فقد اهتم سليمان عليه السلام بالخيل كثيرا ، لانها أداة الجهاد فى سبيل الله ، فضلا عن أنها وسيلة كسب ، ومن ثم فان دولة سليمان انما كانت فى تلك الفترة تحتكر تجارة الخيل تماما ، ذلك لان كل طرق القوافل الهامة بين مصر وسورية وآسيا الصغرى كانت تمر بمملكة سليمان^(١٠) .

وكانت مصر المصدر الرئيسى للخيل والمركبات ، ونقرأ فى التوراة «وكان مخرج الخيل التى لسليمان من مصر ، وجماعة تجار الملك أخذوا جليية بثمن ، وكانت المركبة تصعد وتخرج من مصر بست مئة شاقل من

4) A. Lods, Op. Cit., P. 370.

(٥) أهم طرق القوافل هذه طريقان : الاول : الطريق الجنوبى الشمالى : ويبدأ من عدن وقنا فى بلاد اليمن وحضرموت ، ثم مارب الى نجران فالطائف ثم مكة ويترب وخيبر والعلا ومداين صالح ، وهنا ينقسم الى فرعين ، فرع يتجه الى تيماء صوب العراق ، ويمتد الفرع الآخر الى البتراء ثم غزة فالشام ومصر ، وأما الطريق الثانى فهو طريق «جرها - البتراء» ويبدأ من الهفوف ثم الى شمال اليمامة فى موقع مدينة الرياض الحالى ، ثم يتجه غربا الى بريدة ثم حائل ثم تيماء فالبتراء (محمد بيومى مهران : دراسات فى تاريخ العرب القديم - الرياض ١٩٧٧ ص ١٣٣ - ١٣٦) .

(٦) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٢٠٧ ، فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٢٨ .

(٧) ملوك أول ٢٦/١٠ - ٢٩ ، أخبار أيام ثان ١٤/١ - ١٧ .

(٨) تثنية ١٦/١٧ - ١٧ .

(٩) سفر الامثال ٣١/٢١ .

10) Werner Keller, The Bible A History, 1967, P. 207.

الفضة ، والفرس بمئة وخمسين»^(١١) ، أى أن قيمة الحصان انما كانت تساوى ربع قيمة العربية ، وربما كان ذلك لأن سليمان كان يتمتع في مصر بامتياز خاص ، ولأن صناع المركبات المصريين انما كانوا على درجة عالية من المهارة في صنع المركبات ذات العجلتين الخاصة بالصيد والحرب ، كما كانوا يستوردون الخشب المتين من فينيقيا وسورية ، وهذا يفسر لنا الفرق بين سعر المركبة والفرس في مصر^(١٢) ، وعلى أية حال ، فهناك مصدر آخر للخيل ، هو Koa وهو اسم دولة في سيليسيا كانت تقع في السهل الخصيب بين جبل طوروس والبحر الابيض المتوسط ، وتشتهر بتربية الخيول ، وطبقا لرواية «هيرودوت» فان الفرس كانوا يحصلون على احسن خيولهم من سيليسيا^(١٣) ، وأما سوق هذه التجارة فقد كان عند ملوك الاراميين والحيثيين^(١٤) .

وهناك ما يشير الى أن سليمان قد أقام حظائر للخيل في جهات متعددة ، وقد ألفت بعثة الصفائر الامريكية في «مجدو» الضوء على هذه الحظائر ، حيث عثر على بقايا من عدة أجزاء كبيرة من اسطبلات الخيول، والتي كانت دائما تنتظم حول فناء دائري مبلط بملاط من الحجر الجيري ويخترق كل اسطبل ممر عرضه عشرة أقدام ، وقد رصف بصخور خشنة ليحول دون انزلاق الخيل ، وقد وضعت على كل جانب وراء نتوءات الاحجار ، مرابط فسيحة عرض كل منها عشرة أقدام ، وما يزال الكثير من هذه الاسطبلات محتفظا بمعالف طعام الخيل ، كما لا تزال كذلك أجزاء من معدات السقى ظاهرة ، ولعل مما يثير الانتباه فضاومة تلك الاسطبلات حتى بالنسبة لظروف الحياة الحاضرة ، فضلا عن العناية الفائقة التي بذلت بوفرة في المباني والخدمات ، والتي يمكن الحكم عن

(١١) ملوك أول ٢٨/١٠ - ٢٩ .

12) H. Breasted, The Dawn of Conscience, 1939, P. 355.

O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 593.

وكذا

W. F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, P. 135.

13) W. Keller, Op. Cit., 207.

M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, P. 1036.

(١٤) ملوك أول ٢٩/١١ .

طريقها بأن الخيول انما كانت مرغوبا فيها في تلك الايام ، وعندما تم الكشف عن المبني بأكمله ، قدر بعض الباحثين لكل اسطبل ٤٥٠ حصانا ولكل حظيرة ١٥٠ عربة ، هذا وقد اكتشفت نظائر لهذه الاسطبلات في بيسان وحاصور وتعنك وأورشليم^(١٥) ، كما أشرنا من قبل ، وأما تاريخ هذه الاسطبلات ، فهناك من يرجعها الى عهد «أخاب» (٨٦٩ — ٨٥٠ ق.م) أكثر من عهد سليمان^(١٦) (٩٦٠ — ٩٢٢ ق.م) ، غير أن أكثر الدراسات أهمية في مدينة «مجدو» انما تضع الطبقة الرابعة التي وجدت بها هذه الاسطبلات جزئيا على الاقل في عهد الملك سليمان ، وأن بقايا هذه المباني المشهورة انما ترجع حقيقة الى عهد سليمان ، دون غيره^(١٧) .

-
- 15) W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, P. 124.
C. Watzinger, Op. Cit., P. 67 F.
M. Burows, what Mean These Stones New-Haven, 1941, P. 127 F.
W. Keller, Op. Cit., P. 195.
- 16) J. W. Crowfoot, PEQ, 1940, P. 143-147.
- 17) W. F. Albright, Op. Cit., P. 124.
G. E. Wright, BA, 13, 1950, P. 44.
R. M. Engberg, BA, 4, 1941, P. 12 F.
AJA, 44, 1940, P. 546-550.

(٥) النشاط البحري

اتجه سليمان أيضا نحو البحر ليفتح لبلاده أبواب التجارة مع البلاد الواقعة على البحر ، ولكن قومه العبرانيين ، لم يكونوا قد ألفوا ركوب البحر من قبل ، كما أنهم لم يكونوا على خبرة ، أيا كانت ، بثئون بناء السفن وملاحتها ، ومن هنا بدأ سليمان يعمل على تأمين الطرق عبر وادي عربة ، ثم الاتفاق مع «حيرام» ملك صور ، على إنشاء أسطول في ميناء «عصيون جابر» تستغل فيه المهارة الفينيقية ، هذا وقد ركزت التوراة على التجارة البحرية في عهد سليمان أكثر من التجارة البرية ، وقد أنبئت الحفريات مما يؤكد كثيرا من النصوص الخاصة بهذه التجارة البحرية^(١) ، ونقرأ في التوراة «وقد عمل سليمان سفنا في عصيون جابر التي بجانب آيلة على شاطئ بحر سوف في أرض أدوم»^(٢) ، وقد كشف في ند الخليفة «عصيون جابر»^(٣) مسامير كبير من الحديد أو النحاس المزوج بالحديد ، وقطع حبال غليظة وكتل من القار لضم السفن، وأخرى

1) O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 593.

(٢) ملوك أول ٢٦/٩ .

(٣) كان يظن من قبل أن «عصيون جابر» تقع عند «عين الغديان» في قعر وادي العربة ، غير أن بعثة أمريكية ، برئاسة نلسون جلوك ، قد كشفت موقعها في «تل الخليفة» على مبعدة ٥٠٠ مترا من ساحل البحر على الطرف الشمالي لخليج العقبة على مقربة من ميناء «ايلات» الحالي ، في منتصف الطريق بين مدينة العقبة والطرف الشرقي من خليج العقبة ، و «أم الرشراش» على الطرف الغربي ، وقد عرفت عصيون فيما بعد باسم «برنسيا» Perenice ، فيما يرى البعض ، ثم أعاد «عزايا» ملك يهودا بناءها باسم ايلات (انظر :

N. Glueck, The other side of the Jordan, New-Haven, 1940, P. 50-113.

W. J. Hastings, Op. Cit., P.253.

Albright, The Archaeology of Palestine, P. 44, 127, 128.

J. Homell, Antiquity, 21, 1947, P. 66.

من الصمغ لطلائها ، وكان من الممكن قطع الاخشاب اللازمة من غابات
البلوط التي كانت توجد في أدوم في ذلك الوقت^(٤) ، ومع ذلك ، ورغم
وجود غابات كثيرة من النخيل في مجاورات هذا المكان ، إلا أنه لا توجد
الاششاب اللازمة لأغراض البناء ، ومن ثم فقد أرسل «حيرام» الصوري
الاششاب التي حملها ثمانية آلاف من الرجال ، بنى بها أسطول من عشر
سفن ، وقد عرفنا الكثير عن هذا الاسطول حتى أسماء ربانيه من
الفينيقيين^(٥) ، كما عرفنا كثيرا عن أسطول منفصل لحيرام ، أبحر مع
أسطول سليمان الى «أوفير» ، وأتى من هناك بالذهب والاششاب النادرة
والاحجار النفيسة ، وكل ما هو نادر وغريب^(٦) ، هذا وقد اكتشف قرب
«تل أبيب» (Tel - Aviv) عن «أوستراكا» ترجع الى ما بين عامي ٩٠٠ ،
٨٠٠ قبل الميلاد ، وعليها نص يقول : «ذهب أوفير من أجل بيت
حورن»^(٧) .

(٤) جورج فضلو حوراني ، المرجع السابق ص ٣٤ .
5) W. Keller, Op. Cit., P. 201.

(٦) ملوك أول ١١/١٠ - ١٢ .

7) B. Maller, Two Hebrew Ostraca from Tell-Qasile, JNES, 10, 1951,
P. 265 F.

(٦) النشاط الصناعي

لم تكن عصيون جابر ميناء تجاريا فحسب ، ولكنها كانت كذلك مركزا صناعيا ، وفي الواقع فلقد كان اختيار موقعها اختيارا موفقا ، في مكان لم يسكن من قبل ، بين تلال أدوم من الشرق ، وتلال فلسطين من الغرب ، حيث يمكن الاستفادة الى أقصى الحدود من الريح التي تهب من الشمال ، حيث تبلغ غاية سرعتها في وسط وادي عربة ، وذلك للانتفاع بها في تأجيج النار اللازمة للتكرير ، هذا فضلا عن أدوم ، وكل المنطقة الواقعة بين البحر الميت وخليج العقبة ، غنية بالنحاس والحديد^(١) ، ونقرأ في التوراة عن «أرض حبارتها حديد، ومن جبالها تحفر نحاسا»^(٢) ومن هنا كانت عصيون جابر ، بجانب وادي عربة والنقب ، مركزا لصهر الحديد والنحاس في عهد سليمان ، حتى كانت فلسطين في عهده من أكبر مصدري النحاس في العالم القديم^(٣) .

هذا وقد كشف «بتري» في «جمّة» معامل لاستخراج النحاس ، أصغر كثيرا من تلك التي في عصيون جابر ، ويبدو أن داود عليه السلام قد نازع الآدوميين احتكار الحديد ، واستولى عليه بعد هزيمتهم ، ومن ثم فإن مخزونات النحاس والحديد قد استخرجت وصهرت في عهد سليمان عليه السلام بدرجة كبيرة ، حتى أنه لم يعثر حتى الآن في أي

(١) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢٨٠ ، وكذا
J. Finegan, Op. Cit., P. 181.
Eissfeldt, Op. Cit., P. 594.

(٢) تثنية ١٢/٨ .

3) W. F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, Baltimore, 1963, P. 133 F.
N. Glueck, Op. Cit., P. 89 F.
NGM, 85, 1944, P. 233-236.

وكذا
وكذا

مكان آخر في العالم القديم على ما يضاهاى معامل تنقية النحاس في
عصيون جابر ، ولعل أفضل هذه المعامل من جهة الاعداد والبناء ما وجد
في الطبقة (ط) التى تحوى مخلفات أقدم للفترات الخمسة الرئيسية
لعمران هذا الموقع^(٤) .

(٤) وليم أولبرايت : آثار فلسطين ص ١٢٨ ، فيلب حتى : المرجع
السابق ص ٢٠٧ وكذا
W. Keller, Op. Cit., P. 198-199.

(٧) مملكة سليمان ومدى اتساعها

اختلف المؤرخون ، ومايزالون مختلفين ، حول اتساع مملكة سليمان عليه السلام ، فرأى يذهب أصحابه من المؤرخين المحدثين الى أن المملكة التي ورثها سليمان عن أبيه داود عليهما السلام ، أكبر من تلك التي ورثها سيدنا سليمان لمن أتوا بعده من ملوك بيت يهوذا واسرائيل ، وذلك لان الامور في خارج فلسطين لم تكن تسير في نفس المجرى الذي اتخذته في الداخل^(١) ، وقد بدأت المتاعب ضد دولة سليمان تظهر على الحدود ، ذلك أن «يوآب» قائد جيش داود كان قد اجتاحت «أدوم» قبل ذلك بنصف قرن ، وقتل كل ذكورها بحد السيف ، وقد استطاع «هدد» وهو طفل أدومي من الاسرة المالكة ، أن يهرب الى مصر ، وحين اشتد ساعده وجد رضا في عين فرعون الذي زوجه من «تحنيس» (تحنيس) أخت زوجه الملكة ، ثم عاد هدد الى أدوم ، بغير موافقة فرعون ، وأصبح العدو اللدود لسليمان مدى الحياة^(٢) ، ونقرأ في التوراة أنه « أصبح ملكا على أدوم»^(٣) ، وربما قد حدث ذلك في فترة مبكرة من عهد سليمان ، وطبقا لرواية أخرى في التوراة^(٤) ، فقد كان لسليمان مدخل الى خليج العقبة وميناء «عسيون جابر» ، عبر وادي عربة ، أي عبر الجزء الاساسي الهام من أدوم ، ويفترض بعض المؤرخين أن سليمان قد عقد اتفاقا مع «هدد» بتوسط من فرعون الذي ما كان يريد أن تفسد علاقاته الودية مع

1) M. Noth, Op. Cit., P. 206.

A. Lods, Op. Cit., P. 268.

وكذا

2) A. Lods, Op. Cit., P. 368.

C. Roth, Op. Cit., P. 231.

M. Noth, Op. Cit., P. 250-256.

H. R. Hall, Op. Cit., P. 433.

(٣) ملوك أول ١٤/١١ - ٢٢ وكذا

A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1961, P. 329.

(٤) ملوم أول ٢٥/١١ .

صهره سليمان، ان صحت روايات التوراة، وان لم تعد لسليمان سيطرة على ولاية أدوم ، كما أنه ليس هناك ما يدل على أن سليمان قد اتخذ من الخطوات ما يجعله يستعيد سيطرته على أدوم مرة أخرى^(٥) .

ونقرأ كذلك في التوراة «أن الله أقام لسليمان خصما آخر ، هو (الرزون بن اليداغ) (رصين) الذي هرب من سيده «هدد عزر» ملك صوبة ، وأقام مملكته في دمشق ، وكان خصما لاسرائيل كل أيام سليمان مع «هدد»^(٦) ، وهكذا نمت المملكة الارامية في دمشق ، ثم تطورت بعد فترة قصيرة حتى غدت أقوى سلطة في سورية ، الامر الذي أدى الى أن ما أوجده داود من نفوذ في دمشق قد ضاع الان^(٧) .

هذا وفي نفس الوقت كانت مصر قد بدأت حالتها في الانتعاش ، وبالتالي فقد بدأت تحاول اعادة سيطرتها في غربى كنعان فهناك مايشير الى حملة ضد الفلسطينيين شعوب البحر في جنوب غرب كنعان ، فقد عثر في «تانيس» على نقش بارز على جدران مبنى شيده «بسوسنس الاول» و «سيامون» (سى آمون) من الاسرة الحادية والعشرين، جنوب معبد آمون الرئيسى ، يصور فيه «سيامون» ، وهو يضرب عدوا راکما أمامه ، وقابضاً في يده على فأس للحرب مزدوجة من ذلك النوع الذى كان يتخذه الايجيون من أسلحة الحرب^(٨) هذا فضلا عن أن هناك مايشير الى أن سيامون قد أرسل جيوشه لمحاربة الفلسطينيين في جنوب غرب كنعان ، وأن مدينة أشدود قد غزيت ، وأن هناك آثارا في تل «فرعة» لنفس الفرعون^(٩) ، بل ان هناك من يذهب الى أن سيامون قد فكر في غزو اسرائيل نفسها^(١٠) .

5) A. Lods, Op. Cit., P. 268.
M. Noth, Op. Cit., P. 206.

(٦) ملوك اول ٢٣/١١ - ٢٥ .

7) M. Noth, Op. Cit., P. 206.

8) P. Montet, Osorkon, II, P. 36, PL. 1.

9) A. Malamat, Aspects of the Foreign Policies of David and Solomon, in JNES, 22, 1963, P. 12, No. 48-49.

10) Ibid., P. 13, 16 F.

أضف الى ذلك أن أعداء سليمان قد نشطوا كثيرا ، ونجحوا في استعادة بعض المبعث التي كانت خاضعة لداود ، وأصبح ملك سليمان في غرب الاردن فقط^(١١) (فلسطين) ، وأصبح الفلسطينيون الهنود أوربيون في غزة وما بعدها في نجوة من سلطانه ، هذا فضلا عن أن ممالك وملوك شعوب شرق الاردن انما كانوا يمارسون سلطانهم المحلي بعيدا عن قبضة سليمان ، مما يدل على أن هذه الممالك والشعوب التي كان داود قد أخضعها في شرق الاردن وسورية الارامية قد تفلتت من سيادته ، كما تفلت الفلسطينيون منها كذلك^(١٢) .

وعلى أي حال ، فإن النبي الكريم ما أن يفتقل الى جوار ربه مرضيا عنه ، حتى يستولى «شيشنق الاول» أول فراغة الاسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ - ٧٣٠ ق م) على اورشليم ، ويأخذ معظم ما فيها من كنوز^(١٣) ، وسواء أكانت حملة شيشنق هذه ، فيما يرى البعض^(١٤) ، بسبب استنجد «يربعام» زعيم الثوار الاسرائيليين بمصر ، ضد بيت سليمان ، أو أنها كانت ، فيما يرى آخرون ، لاعادة سورية وفلسطين الى حظيرة الامبراطورية المصرية^(١٥) ، فإن التدخل المصري في اسرائيل ، في أعقاب موت النبي الكريم ، انما أدى الى احتلال معظم مدن فلسطين ، والاستيلاء على خزائن معبد سليمان وقصره^(١٦) ، بل ان التوراة نفسها^(١٧) انما تشير الى خضوع «يهوذا» التي كانت من نصيب رحبعام ابن سليمان ، للامبراطورية المصرية ، أو على الاقل ، فإن معظم المدن هناك انما كانت تقوم بدفع الجزية لمصر ، وأما الدويلة الاخرى (اسرائيل)

-
- 11) C. Roth, A Short History of the Jewish People, 1969, P. 21.
 (١٢) محمد عزة دروزة : المرجع السابق ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .
 13) H. G. Wells, A Short History of the World, 1965, P. 76-77.
 14) H. R. Hall, Op. Cit., P. 436-437.

- A. Lods, Op. Cit., P. 374.
 15) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 329-330.
 (١٦) ملوك اول ٢٥/١٤ - ٢٧ .
 (١٧) أخبار أيام ثان ١٨/١٢ .

فقد أصبحت تحت النفوذ المصرى تماما (١٨) .

على أن فريقا آخر يذهب أصحابه من المؤرخين المسلمين الى ملك واسع لسليمان عليه السلام ، وربما بغير حدود ، بل ان المصادر الاسلامية انما تزعم لدولة سليمان ما لم تزعمه لها المصادر اليهودية نفسها ، ذلك أن التوراة رغم المبالغات المعروفة عنها ، انما تذهب الى أن مملكة اسرائيل فى أقصى اتساع لها ، وفى أزهى عهدها ، انما كانت «من دان الى بئر سبع» (١٩) (ودان تقع عند سفح جبل حرمون عند تل القافى ، على مبعده ثلاثة أميال غربى بانياس) (٢٠) من الشمال الى الجنوب ، وأما من الشرق الى الغرب ، «فمن النهر (الاردن) الى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر» (٢١) ، وهى حدود تشمل فلسطين بالكاد ، ومع ذلك فان بعض المصادر العربية تجعل سليمان عليه السلام واحدا من أربعة ملوك الدنيا كلها (نمرود وبختنصر وهما كافران ، وسليمان بن داود وذو القرنين وهما مؤمنان) (٢٢) ، بل ان الخيال ليذهب بالبعض الآخر الى أن يجعل عاصمة سليمان بعيدا فى ايران ، حيث اتخذ من «اصطخر» (التي ينسبون اليه أو الى الجن المسخر بأمره ، أمر بنائها) ، مقرا لحكمه ، بينما يذهب فريق ثالث الى أن ملك سليمان انما قد وصل الى اليمن (٢٣) .

وفى عام ١٩٨٦م صدر كتابان ، يزعم الاول منهما أن دولة داود

18) S. A. Cook, Op. Cit., P. 359.

(١٩) قضاة ١/٢٠ ، صموئيل أول ٢٠/٣ ، صموئيل ثان ١٥/٢٤ ، أخبار أيام أول ٢/٢١ ، وكذا

M. F. Unger, Op. Cit., P. 236.

(٢٠) قاموس الكتاب المقدس ٣٥٦/١ - ٣٥٧ .

(٢١) ملوك أول ٢١/٤ ، ثم قارن ملوك أول ١١/٩ .

(٢٢) أنظر : تاريخ الطبرى ٢٣٤/١ ، الكامل لابن الاثير ٥٤/١ ، البداية والنهاية ١٤٨/١ ، ثم أنظر مناقشتنا لهذا الاتجاه (محمد بيومى مهران ، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١١٦/١ - ١١٩) .

(٢٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان ٢١١/١ (بيروت ١٩٥٥) ، دائرة المعارف الاسلامية ٤٥٨/٣ - ٥٦٩ (دار الشعب - القاهرة ١٩٧٠) على امام عطية : الصهيونية العالمية وأرض الميعاد ص ٧١ - ٧٢ .

وسليمان عليهما السلام انما قامت في غرب شبه الجزيرة العربية (من الطائف وحتى نجران) ، وليست في فلسطين ، وكما تقول التوراة «من دان الى بئر سبع» غير أن «دان» فيما يزعم المؤلف ، ليست هي المدينة التي تقع عند سفح جبل حرمون عند تل القاضى ، حيث منابع الاردن، على مبعده ثلاثة أميال من بانياس ، كما هو معروف، وانما عى «الدنادنة» في تهامة زهران ، وأن «بئر سبع» ليست هي المدينة المعروفة في جنوب فلسطين ، وانما هي الشباعة في مرتفعات خميس مشيط ، ومن ثم فان دولة داود وسليمان ، فيما يزعم المؤلف ، انما تمتد من «الدنادنة» في تهامة زهران جنوب وادى أضمر ، وحتى شباعة في مرتفعات خميس مشيط ، شرقى جبال ألح ، وأما عاصمة الدولة القدس (أورشليم) فيذكر المؤلف رواية التوراة أن داود عليه السلام نقل عاصمته من حبرون الى أورشليم ، لكنه يزعم أن هناك خمسة أماكن تسمى «حبرون» مائتال تحمل اسم «خربان» على المنحدرات البحرية لمسير ، ومن الامكنة الخمسة يختار المؤلف قرية «الخربان» الحالية في منطقة المجاردة ، كعاصمة أولى لداود ، وهى نفسها ، فيما يزعم ، حبرون ابراهيم عليه السلام ، وليست «حبرون» المشهورة في فلسطين ، وهى مدينة الخليل الحالية ، على مبعده ١٩ كيلا شمال القدس ، وأما «أورشليم» فهى ليست ، فيما يزعم ، مدينة القدس الحالية (حيث المسجد الاقصى) وانما هى قرية «آل شريم» الحالية، على مبعده ٣٥ كيلا شمالى بلدة «النماص» في سراة عسير ، شمال مدينة أبها (٢٤) .

وأما الكتاب الثانى فيزعم صاحبا أن سليمان عليه السلام قامت على عهده ، وعهد أبيه (داود عليه السلام) دولة اسلامية عاصمتها بيت المقدس ، وحدودها من المؤكد كانت تشمل بلاد الشام الحالية (سورية وفلسطين) وتشمل الجزيرة العربية كلها ، وأنهما يعتبران ذلك من تمكين

(٢٤) كمال سليمان الصليبي : التوراة جاءت من جزيرة العرب - ترجمة عفيف الرزاز - ط ثانية - بيروت ١٩٨٦ - مؤسسة الابحاث العربية ص ١٧٥ - ١٩٣ .

الله لسليمان فأعطاه ملكا لم ولن ينبغى لأحد من بعده^(٢٥) ، ثم يقولان بعد ذلك ، وفي نفس الكتاب : لا يعقل أن تكون هناك أمة مشركة في عهد سليمان الذي طويت له الأرض ، ويمكن له فيها ، وأوتى من كل شيء^(٢٦) ، فضلا عن أنهما زعما في كتاب آخر أن سليمان عليه السلام كان نبيا عربيا^(٢٧) ، بينما يذهبان في كتاب آخر أنه من سلالة إسرائيل عليه السلام^(٢٨) .

ولعل من الأفضل هنا ، أن نرد أولا على هذه الآراء الالفة الذكر . قبل أن نتعرض لرأى المفسرين في تفسيرهم لقوله تعالى : «قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى أنك أنت الوهاب»^(٢٩) ، فأما أصحاب الرأى الاول ، والذي يذهب الى أن المملكة التي ورثها سليمان عن أبيه داود عليهما السلام أكبر من تلك التي ورثها سليمان لمن أتوا بعده من ملوك يهوذا وإسرائيل ، وذلك بسبب عودة «هدد» أمير أدوم من مصر واستقلاله بدولته ، وبسبب «رصين» الذي أقام مملكته في دمشق وقضى على نفوذ إسرائيل فيها ، وبسبب حالة الانتعاش في مصر والتي صاحبت عهد سليمان ، فذلك رأى بالغ أصحابه فيه كثيرا . فضلا عن اعتمادهم في الدرجة الاولى على التوراة ، فيما يتصل بهدد ورصين ، والتوراة ، كما هو معروف ، مصدر غير موثوق فيه ، وأقل ما يوصف به أنه نص محرف^(٣٠) ، ومن ثم فلا يمكن الاعتماد عليه ، ما لم تؤيده مصادر أخرى ، وهذا ما لم يثبت حتى الآن ، ثم ان كل الدلائل ، الدينية والتاريخية ، تشير الى أن سليمان قد مكن له ، كما

-
- (٢٥) جمال عبد الهادى ووفاء محمد رفعت : ذرية ابراهيم عليه السلام وبيت المقدس - دار طبية - الريض ١٩٨٦ ص ٢٥٦ ، ٢٥٩ .
 (٢٦) نفس المرجع السابق ص ٢٧٠ .
 (٢٧) جمال عبد الهادى ووفاء رفعت : جزيرة العرب ج١ ص ٨٠ .
 (٢٨) جمال عبد الهادى ووفاء رفعت : ذرية ابراهيم عليه السلام وبيت المقدس ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .
 (٢٩) سورة طه : آية ٣٥ .
 (٣٠) أنظر : سورة البقرة آية ٧٩ ، ١٥٩ ، آل عمران : آية ٧٨ ، النساء : آية ٤٦ ، المائدة ١٣ ، ١٥ ، محمد بيومى مهران : إسرائيل ١٣٦/٣ - ٣٧٩ .

مكن لأبيه من قبل ، وأما الانتعاش المصرى والرغبة فى إعادة السيادة المصرية على غربى كنعان ، فأدلة أصحاب هذا الرأى تعتمد على آثار تشير الى حملات مصرية ضد الفلسطينيين الهندوأوربيين ، والذين كانوا يسكنون المنطقة ما بين يافا وغزة على ساحل البحر المتوسط ، وليس هناك دليل واحد يشير الى حملات مصرية ضد مملكة سليمان ، بل ان الأدلة كلها تشير الى علاقات ودية بين مملكة سليمان ومصر ، وأن فرعون كان حريصا على أن لا يفسد العلاقات الودية بينه وبين صهره سليمان ملك إسرائيل ، كما رأينا من قبل ، وأما حملة «شيشنق» على فلسطين، والتي يعتبرها البعض دليلا على ضعف مملكة سليمان ، فيكفى القول ان هذه الحملة كانت بعد موت سليمان بأعوام خمسة ، ومن ثم فهي غير ذى موضوع بالنسبة لعهد سليمان ، كما أنها كانت بعد انقسام مملكة سليمان بين ولده رحبعام والثائر يربعام *

وأما ما ذهب اليه «برستد» من أن سليمان كان واليا تحت النفوذ المصرى⁽³¹⁾ ، فيكذبه أن صاحبه لم يقدم دليلا واحدا على صحته ، وهى سقطة لا شك فيها من المؤرخ الكبير ، كما أن مصر على أيام سليمان لم يكن لها نفوذ فى فلسطين من أى نوع ، والاهم من ذلك كله : هل يقبل عاقل أن يكون نبي أى نبي ، تابعا لملك كافر ، ولماذا يتبعه ، هل ليكون ملكا على فلسطين ، ولكن ما قيمة ملك فلسطين ، بجانب شرف النبوة ، فما بالك اذا كان هذا النبي هو سليمان ، الذى وهبه الله ، بجانب النبوة ، ملكا لا ينبغي لأحد بعده ، اللهم انا نبرأ من قول كهذا ، ونسألك أن تلهمنا جانب الصواب والادب مع أنبيائك ورسلك ، وأن تحميننا من أن ننساق دون أن ندري ، فى تيار كتبة التوراة ، أو فى تيار قلة من المؤرخين المحدثين ممن يلقون التهم جزافا على سيدنا سليمان عليه السلام ، وبدعى أن خضوع سليمان للنبي لفرعون من الفراعين تهمة لا شك فيها ، نبرأ الى الله منها ، وأخيرا فان أصحاب هذا الرأى تسقط كل حججه بالرجوع الى قصة سليمان مع ملكة سبأ ، كما جاءت فى القرآن الكريم،

31) J. H. Breasted, A History of Egypt, N. Y., 1946, P. 529.

فان الذى يهدد ملكة سبأ ، أعظم دول الجزيرة العربية ، وهى بعيدة عن مملكة سليمان بألاف الكيلومترات ، لايمكن بحال من الاحوال ، أن تكون دولته ضعيفة ، يهددها أمثال أمير أدوم أو دمشق أو غيرهم من النكرات التى كانت تعيش فى سورية وفلسطين تحت ظلال دولة سليمان ، ثم ان سليمان الذى سخر الله له طائفة من الانس والجن والطيور والشياطين، لن يعجز عن كبح جماح قوم من ضعاف المشركين، ولا ريب فى أن من سخر له من يأتية بعرش ملكة سبأ قبل أن يتردد اليه طرفه ، يمكن أن يسخر له ، ما يستطيع به القضاء على كل أعدائه .

وأما أصحاب الرأى الذى يعطى سليمان عليه السلام ملكا واسعا، ربما بغير حدود ، ويجعل عاصمته فى «اصطخر» ويملكه بلاد اليمن ، فأما عن «اصطخر» فليت الذين ذهب بهم الخيال الى هذا الحد يعرفون أن اصطخر لم يبدأ الفرس فى بنائها الا حوالى عام ٥٢٠ ق.م ، على أيام دارا الاول (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) ، ولم يتم البناء الا فى عهد «أرتخششتا الاول» ، حوالى عام ٤٦٠ ق.م ، أى بعد وفاة سليمان (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م) بحوالى أربعة قرون (٣٣) ، وأما ملك اليمن فأمره عجيب ، فالبعض خلط بين اسلام ملكة سبأ وبين خضوع دولتها لسليمان ، والبعض أعطى سليمان ملك اليمن ٣٣٠ سنة ، مع أن المؤرخين ، ومنهم صاحب هذا الرأى ، يجمعون على أن ملك سليمان لم يزد عن أربعين سنة ، وأنه مات ، وله اثنتان وخمسون سنة (٣٣) ، وأما اسلام ملكة سبأ فقد كان لله مع سليمان «قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» ، وهكذا اهتدى قلبها واستنار ، وعرفت أن الاسلام لله وحده ليس استسلاما لأحد من خلقه ، حتى وان كان هو سليمان ، النبى الملك صاحب المعجزات ، انما الاسلام اسلام الله رب العالمين ، ومصاحبة للمؤمنين به والداعين الى طريقه على سنة المساواة «وأسلمت مع سليمان

(٣٢) أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ص ٢٢٩ ، آرثر كريستنس : ايران فى عهد الساسانيين ص ٨٠ .
(٣٣) تاريخ اليعقوبى ٦٠/١ ، ١٩٦ .

الله رب العالمين» وقد سجل السياق القرآني هذه اللفظة الأخيرة وأبرزها، للكشف عن طبيعة الايمان بالله والاسلام له ، فهي العزة التي ترغس المغلوبين الى صف الغالبين ، بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله لا غالب منهما ولا مغلوب ، وهما أخوان في الله رب العالمين على قدم المساواة^(٣٤) ، ثم ان الذين يقولون بضم اليمن الى مملكة سليمان انما يخطئون في فهم دعوة الرسل ، فهم لا يريدون ملك الناس ودنياهم ، وانما يريدون هدايتهم الى عبادة الله وحده ، والى الايمان بشرائعه . كما أشرنا الى ذلك من قبل في قصة سليمان مع ملكة سبأ .

وأما الدكتور الصليبي فلم يقدم لنا في دعواه أية أدلة علمية يمكن أن تؤيد مزاعمه التي تمس الدين والوطن ، سوى الزعم بأن هناك قرى في غرب الجزيرة العربية ، يمكن أن تتشابه أسماءها مع أسماء أماكن جاءت في توراة يهود ومن ثم زعم أن غرب الجزيرة العربية هي أرض التوراة ، وليست فلسطين ، وفي الواقع لو طبقنا مزاعمه هذه على الولايات المتحدة الأمريكية مثلا ، لكان الكثير من مدنها ، اعتمادا على تشابه أسماء بعض المدن ، انما هي مدن عربية ، كان يسكنها العرب في العصور القديمة ، ناهيك عن تشابه أسماء بعض المدن والقرى في البلاد العربية نفسها ، الامر الذي يمكن أن يتفق وما زعمه الدكتور الصليبي من مسخ للحقائق الدينية الثابتة ، فضلا عن الحقائق التاريخية والجغرافية المتعارف عليها منذ آلاف السنين .

وأما دعوى الدكتور جمال عبد الهادي والدكتورة وفاء رفعت من أن سليمان قامت على عهده ، وعهد أبيه داود ، عليهما السلام دولة اسلامية عاصمتها القدس ، وحدودها من المؤكد أنها كانت تشمل الشام كله والجزيرة العربية كلها ، فلست أدري من أين جاء بدعواهما أن داود كون دولة شملت الشام كله والجزيرة العربية كلها ، وليس في القرآن الكريم والحديث الشريف ولا في المصادر العربية أو اليهودية ما يشير

(٣٤) في ظلال القرآن ٢٦٤٣/٥ .

الى ذلك من قريب أو بعيد ، وأما ملك سليمان لليمن فقد ناقشناه من قبل ، وليس هناك من دليل يثبت استيلاء سليمان على اليمن وضمها الى مملكته ، فضلا عن ضم الجزيرة العربية كلها ، واليمن جزء من الجزيرة العربية ، وليس كل الجزيرة العربية ، ثم يقول المؤلفان أن الله مكن سليمان فأعطاه ملكا لم ولن ينبغي لاحد من بعده ؟ فهل ملك الشام والجزيرة العربية يعتبر هو الملك الذي لم ينبغ لأحد من بعد سليمان ، أم أن هناك آخرون ملكوا أكثر من الشام والجزيرة العربية ، فمثلا الاسكندر المقدوني في التاريخ القديم ، والدولة الاسلامية على أيام الراشدين والامويين والعباسيين ، ناهيك عن الامبراطوريات الاوربية في العصر الحديث .

وأما القول بأنه لا يعقل أن تكون هناك أمة مشركة في عهد سليمان الذي طويت له الارض ومكن له فيها ، وأوتى من كل شيء ، فلمست أدري ماذا يعنى المؤلفان بذلك، وهل لم تبق حقا أمة مشركة في عهد سليمان بعد ايمان ملكة سبا ، وهل أصبحت مصر الفرعونية أو العراق القديم مثلا، وهما أقرب الى فلسطين مقر مملكة سليمان من اليمن ، من الهم المسلمة في عهد سليمان ؟ ثم ، وهذا في منتهى الاهمية ، هل بعث سليمان للناس عامة ، أم أنه بعث الى قومه خاصة ، ذلك أنه من المعروف أن كل نبي انما كان يبعث الى قومه خاصة ، وأن سيدنا محمد رسول الله ﷺ هو وحده الذي بعث الى الناس كافة بشيرا ونذيرا «قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا» ، «وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا» ، وفي الصحيحين عن جابر قال رسول الله «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلى ، نصرب بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا ، فأيا رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبی يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة» (٣٥) .

(٣٥) تفسير ابن كثير ٨٥٧/٣ .

ثم ان المؤلفين مضطربان في نسب سليمان عليه السلام ، فهو مرة نبي عربى ، وهو مرة أخرى من بنى إسرائيل من سلالة يعقوب (إسرائيل) بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وهذا هو الصحيح ، ثم كيف يكون سليمان نبيا عربيا ، وسيدنا رسول الله ﷺ يقول في حديث أبى ذر المشهور : وأربعة من العرب ، هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر^(٣٦) ، وفي رواية : «وأربعة من العرب ، هود وصالح وشعيب ومحمد عليه السلام»^(٣٧) .

بقى الآن أن نتحدث عن رأى المفسرين والمؤرخين في قوله تعالى : « رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى انك أنت الوهاب»^(٣٨) ، اذ ترى جمهرة كبيرة من المفسرين والمؤرخين أن سياق الايات الكريمة تفيد أن الزيادة التى أوتيتها سليمان عليه السلام فى ملكه المعبر عنها بقوله تعالى : «ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى» إنما هى ايتاؤه بعض المعجزات التى لم تكن لغيره من الانبياء عليهم السلام ، بدليل التعقيب عليه بقوله تعالى : «فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الاصفاد»^(٣٩) ، المتضمن استجابة الله تعالى لدعائه ، مفتتحا بالفاء الدالة على الربط والتعقيب والترتيب^(٤٠) ، وهذا ما نميل اليه ونرجحه ، ويقول ابن الاثير أن سليمان عليه السلام سأل الله أن يؤتیه ملكا لاينبغى لأحد من بعده ، فاستجاب الله وسخر له الانس والجن والشياطين والطير والريح ، فكان اذا خرج من بيته الى مجلسه ، عكفت عليه الطير ، وقام له الانس والجن حتى يجلس^(٤١) ، ويقول الطبرى^(٤٢) : وسخرت

(٣٦) البداية والنهاية تفسير ابن كثير ١/٨٩١ - ٨٩٢ (بيروت ١٩٨٦) .

(٣٧) تفسير النسقى ١/٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٣٨) سورة ص : آية ٣٥ .

(٣٩) سورة ص : آية ٣٦ - ٣٧ .

(٤٠) عويد المطرفى : المرجع السابق ص ١١٤ - ١١٥ .

(٤١) الكامل لابن الاثير ١/١٢٨ .

(٤٢) تاريخ الطبرى ١/٥٠١ .

له الريح والشياطين يومئذ ، ولم تكن سخرت له من قبل (أى بعد أن جلس الشيطان على كرسیه) وهو قوله تعالى : «وہب لى ملكا لا ینبغى لأحد من بعدى انك أنت الوہاب»^(٤٣) ، ومن هنا فقد ذهب المسعودى الى أن ملك سليمان كان أربعين سنة على فلسطين والاردن^(٤٤) ، ويقول ابن خلدون : ان سليمان قد ضرب الجزية على جميع ملوك الشام مثل فلسطين وعممون وكتعان ومؤاب وأدوم والارمن (أى الاراميين) وهذا لا یعدو أيضا فلسطين وشرق الاردن^(٤٥) .

واذا ما رجعنا الى كتب التفسير لرأینا الاستاذ سيد قطب ، طيب الله ثراه ، يقول فى تفسير الآية الكريمة : «رب اغفر لى وہب لى ملكا لا ینبغى لأحد من بعدى انك أنت الوہاب» ، ان أقرب تأویل لهذا الطلب من سليمان عليه السلام لم یرد به أثره ، وانما أراد الاختصاص الذى يتجلى فى صورة معجزة ، فقد أراد به النوع ، أراد به ملكا ذا خصوصية تميزه عن ملك كل ملك آخر یأتى بعده ، وذا طبيعة معينة لیست مكررة ولا معهودة فى الملك الذى یعرفه الناس ، وقد استجاب الله له ، فأعطاه فوق الملك المعهود ، ملكا خاصا لا یتكرر^(٤٦) ، ثم یحدد صاحب الظلال هذا الملك المعهود بأنه لا یتجاوز ما یعرف الان بفلسطين وسورية ولبنان والعراق الى ضفة الفرات^(٤٧) ، أى الشام بمعنی آخر ، لا أكثر ولا أقل ، أو لا ینبغى لأحد أن یسلبه منى بعده هذه السلبه (یعنى الشيطان الذى جلس على كرسیه) أو لا یصح لأحد من بعدى لعظمته^(٤٨) ، ويقول النفسى أن سليمان عليه السلام سأل ملكا بهذه الصفة (لا ینبغى لأحد

-
- (٤٣) سورة ص : آية ٣٥ .
 - (٤٤) مروج الذهب للمسعودى ٧٠/١ (بیروت ١٩٦٥) .
 - (٤٥) تاریخ ابن خلدون ١١٢/٢ .
 - (٤٦) فى ظلال القرآن ٣٠٢٠/٥ .
 - (٤٧) فى ظلال القرآن ٢٦٣٥/٥ .
 - (٤٨) الدر المنثور ٣١٣/٥ .

من بعدى^(٤٩) ليكون معجزة له ، لا حسدا^(٥٠) ، وكان قبل ذلك لم يسخر له الريح والشياطين ، فلما دعا بذلك سخرت له الريح والشياطين ولن يكون معجزة حتى يخرق العادات^(٥١) .

ويقول ابن كثير في تفسير الآية الكريمة : قال بعضهم : معناه لا ينبغي لأحد من بعدى ، أى لا يصح لأحد أن يسلبني بعدى ، كما كان من قضية الجسد الذى ألقى على كرسيه ، لا أن يحجر على من بعده من الناس ، والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكا لا يكون لأحد من بعده من البشر ، وهذا هو ظاهر السياق من الآية ، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ ، قال البخارى عند تفسير هذه الآية ، حدثنا اسحاق ابراهيم أخبرنا روح ومحمد بن جعفر عن شعبة عن محمد بن زياد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «أنى عفريتاً من الجن تفلت على البارحة ، أو كلمة نحوها ، ليقطع على الصلاة ، فأمكنى الله تبارك وتعالى منه ، وأردت أن أربطه الى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا اليه كلكم ، فذكرت قول أخى سليمان عليه الصلاة والسلام : «رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى» ، قال روح : «فردّه خاسئاً» ، وكذا رواه مسلم والنسائى من حديث شعبة به^(٥٢) .

هذا وقد قدم لنا الامام الطبرى عدة روايات في تفسير الآية

(٤٩) تفسير البيضاوى ١٩/٥ .

(٥٠) جاء في تفسير الطبرى (١٦٤/٢٣ ط بيروت ١٩٨٤) ذكر عن الحجاج بن يوسف الثقفى أنه قرأ قوله تعالى : «رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى» فقال : «انه كان لحسودا ، فان ذلك ليس من أخلاق الانبياء ، قيل : أما رغبته الى ربه فيما رغب اليه من الملك ، فلم تكن ان شاء الله به رغبة فى الدنيا ، ولكن ارادة منه أن يعلم منزلته من الله فى اجابته فيما رغب اليه فيه ، وقبول توبته ، واجابته دعائه» .

(٥١) تفسير النسقى ٤٣/٤ .

(٥٢) تفسير ابن كثير ٥٦/٤ - ٥٧ (ط بيروت ١٩٨٦) وانظر : صحيح البخارى ١٥٦/٦ ، صحيح مسلم ٧٢/٢ ، سنن النسائى ١٣/٣ ، مسند الامام أحمد ٨٣ .

الكريمة ، منها أن الله تعالى سخر لسليمان الريح والشياطين يومئذ ، ولم تكن سخرت له من قبل ذلك ، وهو قوله : «وهب لى ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى» ، لا يسلبنيه أحد ، كما سلبنيه قبل هذا الشيطان ، ومنها يقول تعالى ذكره : «فاستجبنا له دعاءه فأعطيناه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، « فسخرنا له الريح » مكان الخيل التى شغلته عن الصلاة .«تجرى بأمره رخاء» يعنى رخوة لينة ، وهى من الرخاوة ، عن الحسن : أن نبى الله سليمان عليه السلام لما عرضت عليه الخيل ، فشغله النظر اليها عن صلاة العصر «حتى توارت بالحجاب» فغضب الله ، فأمر فعمرت ، فأبدله الله مكانها ، سخر الريح تجرى بأمره رخاء حيث شاء ، ومنها ما روى عن الضحاك فى قوله تعالى : «وهب لى ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى» ، فإنه دعا يوم دعاء ، ولم يكن فى ملكه الريح ، وكل بناء وغواص من الشياطين فدعا ربه عند توبته واستغفاره ، فوهب الله له ما سأل ، فتم ملكه ، وعن الضحاك أيضا «والشياطين كل بناء وغواص» قال هذا لم يكن هذا فى ملك داود ، أعطاه الله ملك داود ، وزاده الريح ، «والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الاصفاد» ، يقول فى السلاسل ، ويقول الامام الطبرى : وأولى الاقوال فى ذلك عندى بالصواب ، القول الذى ذكرناه عن الحسن والضحاك من أنه عنى بالعماء ما أعطاه الله تعالى ذكره من الملك ، وذلك أنه جل ثناؤه ذكر عقيب خبره عن مسألة نبيه سليمان ، صلوات الله وسلامه عليه ، اياه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، فأخبره أنه سخر له ما لم يسخر لأحد من بنى آدم ، وذلك تسخير له الريح والشياطين على ما وصفت ، ثم قال عن ذكره : هذا الذى أعطيناك من الملك ، وتسخير ما سخرنا لك عطاؤنا ، ووهبنا لك ما سألتنا أن نهبه لك من الملك الذى لا ينبغي لأحد من بعدك «فأمنن أو أمسك بغير حساب» (٥٣) .

ويقول الامام الفخر الرازى فى التفسير الكبير فى تفسير الآية : أن الملك هو القدرة ، فكان المراد أقدرنى على أشياء لا يقدر عليها غيرى

(٥٣) تفسير الطبرى ١٥٨/٢٣ - ١٦٣ (ط بيروت ١٩٨٤) .

البتة ، ليصير اقتتداری عليها معجزة تدل على صحة نبوتی ورسالتی ، والدلیل على صحة هذا الكلام أنه تعالى قال عقیبه : «فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب» ، فكون الريح جاريا بأمره قدرة عجيبة وملك عجيب ، ولا شك أنه معجزة دالة على نبوته ، فكان قوله : «هب لى ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى» هو هذا المعنى لان شرط المعجزة أن لا يقدر غيره على معارضتها ، فقوله : «لاينبغي لأحد من بعدى» يعنى لا يقدر أحد على معارضته ، وهناك وجه آخر أنه عليه السلام لما مرض ثم عاد الى الصحة ، عرف أن خيرات الدنيا صائرة الى الغير بارث أو بسبب آخر ، فسأل ربه ملكا لا يمكن أن ينتقل منه الى غيره ، وذلك الذى سأل به قوله : «ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى» ، أى ملكاً لا يمكن أن ينتقل عنى الى غيرى^(٥٤) .

وهكذا يبدو واضحا أن جمهرة المفسرين لا يذهبون الى أن سليمان عليه السلام بمسأله الله ملكا واسعا بمعنى مساحات واسعة من الارضين، وإنما سأل الله تعالى ملكا معجزا لا يكون لأحد غيره من بعده ، فكانت هذه المعجزات من تسخير الريح بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الاصفاد ، الى غير ذلك من معجزات لم يشاركه فيها أحد ، كما أشرنا الى ذلك فى مكانه من هذه الدراسة ، ومن ثم فلا مكان للربط بين ملك شاسع المساحات ، كما ذهبت الى ذلك بعض المصادر العربية ، وبين نبوة سليمان عليه السلام ، وكأن مكانة النبى الكريم لا تكون الا بملك الدنيا كلها ، كما ذهب البعض ، حيث جعلوا من سليمان عليه السلام ، واحدا من أربعة (نمرود وبختنصر وخنو القرنين وسليمان) ملكوا الدنيا بأسرها ، بل ان سليمان ، فيما يقولون ، «كان لا يسمع بملك فى ناحية من الارض الا أتاها حتى يذله» ، ونسوا ، أو تناسوا ، أن سليمان عليه السلام ، لم يكن ، ولن يكون ، جبارا فى الارض ، وإنما كان رسولا نبيا ، وهاديا الى الله بأذنه ومبشرا ونذيرا ، ونسوا كذلك أن النبوة أشرف وأكرم من ملك الدنيا وما فيها ،

(٥٤) تفسير الفخر الرازى ٢٠٩/٢٦ - ٢١٠ .

وإن جمع الله لسليمان ، كما جمع لأبيه من قبل ، بين النبوة والملك ، ونسوا أيضا أنهم ربطوا سليمان بملوك أربعة ، منهم على الأقل كافرين ، فإذا كان هذا الملك الواسع المساحات هو المراد من دعاء النبي الكريم : «رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي» ، فهم إذن قد ساووا بين سليمان عليه السلام ، وبين هؤلاء الثلاثة (نمرود وبختنصر وذو القرنين) في هذا الملك الواسع العريض ، وهذا ما لم يقل به أحد .

وهكذا يبدو واضحا أن سياق الآيات الكريمة ، كما أشرنا من قبل ، إنما يشير إلى أن الزيادة التي أوتيها سليمان عليه السلام في ملكه والمعبر عنها بقوله : «ملك لا ينبغي لأحد من بعدي» هي إيتاؤه بعض المعجزات التي لم تكن لغيره من الأنبياء عليهم السلام ، بدليل التعقيب عليه بقوله تعالى : «فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين في الأصفاد» ، المتضمن استجابة الله تعالى لدعائه ، مفتتحا بالفاء الدالة على الربط والتعقيب والقرتيب^(٥٥)

(٥٥) عويد المطرفي : المرجع السابق ص ١١٤ - ١١٥ .

(٨) القدس عاصمة سليمان :

تقع القدس على مبعدة ١٤ ميلا الى الغرب من البحر الميت ، ٣٣ ميلا الى للشرق من البحر المتوسط ، وقد عرفت بأسماء كثيرة ، حيث أطلقت عليها التوراة أو العهد القديم اسم «أريئيل» (اشعيا ١/٢٩) ومدينة العدل (اشعيا ٢٦/١) والمدينة (مزمور ١٦/٧٣) ومدينة الله (مزمور ١/٤٨) ومدينة الحق (زكريا ٣/٨) ومدينة القدس (نحميا ١/١١) وجبل القدس (اشعيا ١٣/٢٧) والمدينة المقدسة (متى ٥/٤) ومدينة داود ، وأما أسماؤها العربية فهي : بيت المقدس والمقدس والقدس الشريف ، أما الاسم الغالب فهو «القدس» ، والذي يبدو أنه رافق المدينة منذ بداية تاريخها ، غير أن أشهر اسمين للمدينة انما هما القدس وأورشليم .

هذا ويظن كثير من الناس خطأ أن اسم «أورشليم» اسم عبري أو يهودي ، والحقيقة غير ذلك تماما ، ذلك لان أقدم النقوش التي ورد فيها اسم المدينة المقدسة انما هو نقش مصري ، يرجع الى أخريات القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وربما الى أيام «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨ — ١٨٤٣ ق.م) أو بعده بقليل ، وربما قبله بقليل ، حيث ذكرت المدينة تحت اسم أورساليوم (Ursalimum) على رأي^(١) ، وإلى أيام الاسرة الثالثة عشرة المصرية (١٧٨٦ — ١٦٥٠ ق.م) فيما عرف بنصوص اللعنة تحت اسم «أوشاميم» (Aushamem) على رأي آخر^(٢) ، ونقرأ في رسائل

1) M. F. Unger, Op. Cit., P. 576.

(٢) أحمد فخري : المرجع السابق ص ٣٣٥ وكذا

J. Wilson, ANET, 1966, P. 329 W. Ward, Egypt and The East Mediterranean in the Second Millennium B. C., Orientalla, 30, Roma, 1961, P. 32.

العمارة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد^(٣) ، في رسالة من نائب
الفرعون اخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) ويدعى «عبد خييا» أمير
القدس وكانت تدعى «أورساليم» يقول فيها «لا أبى ولا أمى وضعانى
في هذا المكان ، بل يد الملك القوية هى التى وضعتنى في بيت آبائى»^(٤) ،
وبقيت المدينة تدعى «أورساليم» ، حتى استقل بها اليبوسيون في فترة
الضعف التى انتابت الامبراطورية المصرية ، وسموها «يبوس»^(٥) ، حتى
جاء داود عليه السلام (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م) واستولى عليها منهم ،
ثم اتخذها عاصمة لدولته ، ونقل اليها «تابوت العهد» ، وأطلق عليها
اسم «مدينة داود» ، ومن ثم فقد أصبحت المدينة المقدسة مركزا للحياة
السياسية والدينية معا ، هذا ويختلف الباحثون في أسباب تغير اسم
المدينة القديم ، فمن قائل لان اسمها القديم كان غريبا على العبرانيين ،
ومن قائل لان فيه تنجيذا لللاهوت أجنبى ، ومن قائل لان داود عليه
السلام أراد أن يخلد اسمه على المدينة أو حتى على جزء منها ، ذلك
لان اليهود أطلقوا على المدينة أيضا اسم «يورشالايم» أو «أورساليم»
بإضافة لاحقة عبرية كى تصبح عبرية النطق ، وأيا كان السبب فإن
الاسم الجديد لم يحل محل الاسم القديم ، الذى له جذور عميقة في
الوعى الشعبى^(٦) .

هذا وقد دعت المدينة في النقوش الاشورية باسم «أورسالييمو»
(Ursalimmu) وفي النقوش اليونانية باسم «هيروسوليميا» (Hierosolyma)^(٧) .

(٣) أنظر عن رسائل العمارة (محمد بيومى مهران : اخناتون -
الاسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٣٣ - ٢٤٥) .
4) S. A. B. Mercer, The Tel-El-Amarna Tablest, II, Toronto, 1939,
P. 486-489.
W. F. Albright, ANET, P. 487-489.

(٥) ١١ - ١٠/١٩ .
(٦) صموئيل ثان ٩/٥ ، ١٢/٦ - ١٣ ، ١٧/٨ - ١٨ ، ٢٥/٢٠ -
٢٦ ، عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ص ٥٦ - ٥٧ ، وكذا
Y. Yeivin, JNES, 7, 1948, P. 10.
M. Noth, The History of Israel, 1965, P. 191.
7) M. F. Unger, Op. Cit., P. 576.

هذا ولم يذكر «هيريودوت» (٤٨٤ ب - ٤٣٠ ق.م) في تاريخه اسم «أورشليم» ولكنه ذكر مدينة كبيرة في الجزء الفلسطيني من الشام ، وسماها «قديتس» ، مرتين في الجزء الثاني والثالث من تاريخه ، ويقول المستشرق اليهودي «سالون مونك» في كتابه «فلسطين» أن هذا الاسم على الأرجح هو «القدس» ، مصرفا في اليونانية عن النطق الرامي «قديشتا» (٨) .

وأما معنى «أورشليم» فموضع خلاف ، ولعل أرجح الآراء من الفاحية العلمية ، أنها مركبة من «أور» بمعنى مدينة أو موضع ، ومن «شالم» وهو اله وثنى لسكان فلسطين الأصليين هو «اله السلام» ، فالمدينة إذن كانت مكرسة لاله «السلام» ، وهناك من يقول أن كلمة «أور» معناها «الميراث» ، فتكون أورشليم بمعنى «ميراث السلام» أما أخبار اليهود فيدعون أن «سام بن نوح» قد سماها «سلم» أى السلام ، وأن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقد سماها «يرآه» ، وهى باللغة العبرية بمعنى «الخوف» ، فقرر الله أن يسميها بالاسمين معا ، «يرآه - سلم» أى «أورشليم» بمعنى «الخوف والسلام» ، وبنوا على هذه التخريجات الفلوكورية عقائد رهيبة حول السلام المتولد عن الرعب ، وقيل أيضا أن «مرو» يمكن أن تكون في اللغات السامية بمعنى «اله» ، ويكون اسم المدينة بكل بساطة «مدينة اله. السلام» (٩) .

وأيا ما كان الامر ، فما أن يأتى الرومان ، وتحدث مذبحة «هيريان» (١١٧ - ١٣٨م) عام ١٣٥م ، حتى تكون ختاما نهائيا لليهود في فلسطين سياسيا ومكانيا ، ثم يغير الرومان اسم المدينة الى «ايليا كابيتولينا» أو «ايليا» فقط ، ويصبح لفظ أورشليم لفظا تاريخيا ، يطلق فقط على المدينة التى كانت على عهد الملوك والانبياء من بنى اسرائيل ، وظلت المدينة تسمى «ايليا» ولا يسكنها اليهود حتى القرن السابع الميلادى ، وفي العام الخامس عشر المهجرى يفتح المسلمون المدينة المقدسة ،

(٨) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ٨ ، قاموس الكتاب المقدس ١٣٥/١ .

(٩) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ٩ .

ويعيدون اليها اسمها «القدس» ، وان استرط أهلها ألا تسلم مدينتهم
الا للخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، رضوان الله عليه ، وأن يمنحهم
الامان لدينهم وكنائسهم ، ويقبل الخليفة أن يتسلم المدينة بنفسه ،
ويأتى الى القدس فى عام ١٥ هـ (أو عام ١٦ هـ = ٦٣٦/٦٣٥ م) ويتسلم
المدينة من البطريرك «صفرنيوس» ، ويمنح أهلها النصارى الامان فى
دينهم وأموالهم وأعراضهم ، لا يضار أحد منهم بسبب دينه ، ولا يكره
على شىء فى أمره ، ولا يسكن معهم أحد من اليهود^(١٠) ، وبينما كان
الخليفة الراشد فى كنيسة القيامة مع البطريرك أدركته الصلاة ، فطلب
اليه أن يصلى بها فرفض حتى لا يتبعه المسلمون اذ يرون أن عمله سنة
مستحبة ، فاذا فعلوا أخرجوا النصارى من كنيساتهم وخالفوا عهد
الامان ، واعتذر للسبب نفسه عن الصلاة بكنيسة قسطنطين المجاورة
لكنيسة القيامة^(١١) ، وانما صلى فى مكان قريب من الصخرة المقدسة ،
وخط المسجد الذى عرف باسمه^(١٢) .

(١٠) هناك رواية أخرى تذهب الى أن الفارق عمر رفض الموافقة
على استمرار القرار الرومانى بمنع اليهود من النزول بالمدينة ، معذرا
بان القرآن الكريم قد حدد لاهل الكتاب مالهم وما عليهم ، وليس فيه
شىء يسمح بهذا ، ولكنه تعهد للنصارى بالا يدخل أحد من اليهود الى
مقدساتهم أو يسكن فى حاراتهم (حسن ظاظا : المرجع السابق ص ٣٠) .
(١١) يقول المسعودى : أن سليمان عليه السلام بعد أن بنى المسجد
الاقصى ، بنى لنفسه بيتا فى الموضع الذى يسمى فى وقتنا هذا (أى وقته
هو) كنيسة القيامة ، وهى الكنيسة العظمى ببيت المقدس عند النصارى
(مروج الذهب ٧٠/١) وهى الكنيسة التى بنتها «هيلانة» أم الامبراطور
قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ م) فى عام ٣٢٦ م ، فى المكان الذى يعتقد النصارى
أن جثمان المسيح عليه السلام قد دفن فيه ، ثم رفع الى السماء ، وهذا
خطأ لان المسيح لم يقتل ولم يصلب ، قال تعالى : «وقولهم اننا قتلنا
المسيح عيسى بن مريم وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وان الذين
اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه
يقينا ، بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما» (سورة النساء : آية
١٥٧ - ١٥٨) .

(١٢) تاريخ الطبرى ٦٠٧/٣ - ٦١٣ ، الواقدي : فتوح الشام ٢/٢٦
٢٦ ، ٢٤٤ ، ٢٦٧ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤٤ - ١٤٥ ، حسن
ظاظا : المرجع السابق ص ٣٠ ، عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ص
١٧٣ - ١٧٥ ، البداية والنهاية ٦٠/٧ - ٦٧ .

(٩) مبانى سليمان :

لا ريب فى أنه كان للقدس نصيب الاسد فى المباني التى شيدت فى عهد سليمان عليه السلام وطبقا لما جاء فى التوراة فقد شيد سليمان سور المدينة وقلعتها ، وان كان بناء المسجد الاقصى وقصر سليمان انما يمثلان أعظم انجازات الملك النبى المعمارى ، وأما المسجد الاقصى فقد خصصنا له فصلا مستقلا من بعد ، وأما القصر فقد اختيرت له الهضبة الغربية ، وطبقا لرواية التوراة ، فلقد أقيم القصر على المنطة الصخرية التى تدعى «تل موزيا»^(١) ، ويذهب المسعودى ، كما أشرنا آنفا ، أنه فى مكان كنيسة القيامة^(٢) ، وكان القصر يتكون من عناصر ثلاثة : «بيت وعربان» ، وكان يستخدم كترسانة أسلحة^(٣) وربما كان كمكان للمالية فى نفس الوقت^(٤) ، ويحتمل كذلك أنه استخدم كحوش للاستقبلات ، وأما «صالة الاعمدة» فلم يعرف الغرض الذى استخدمت من أجله، وأما «غرفة الاجتماعات الكبيرة» ، فقد استخدمت كمكان للقضاء ، فضلا عن الاحتفالات الرسمية^(٥) ، هذا وقد وجد الى جانب هذا القصر الكبير من ناحية الغرب مباشرة ، قصر آخر أحيط بجدار فاصل ، وقد اتخذ مكانا لسكنى الملك وسيدات القصر ، هذا وقد وجد أيضا ، الى الشمال مباشرة ، وفوق هضبة مرتفعة ، مبنى آخر أحيط بسور خاص ، اتخذ كمصلى ، وأمامه مذبح لحرق الاضاحى^(٦) .

(١) أخبار أيام ثان ١/٣ .

(٢) مروج الذهب ٧٠/١ .

(٣) ملوك أول ١٦/١٠ - ١٧ .

(٤) ملوك أول ١٧/١٠ - ٢٠ .

(٥) ملوك أول ١٨/١٠ - ٢٠ ، وكذا

O. Bissfeldt, Op. Cit., P. 596.

6) Ibid., P. 596.

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الروايات التي وصلتنا عن مباني سليمان انما تضعه في مرتبة أعلى البنائين المشهورين ، ومن ثم فقد نسبت اليه مبان كثيرة في منطقة الشرق الادنى القديم ، حتى أن بعض تلك المباني انما كانت تقع بعيدا جدا عن منطقة نفوذه^(٧) ، وقد ناقشت المصادر العربية المصادر اليهودية في نسبة مبان كثيرة الى سليمان^(٨) ، ومع ذلك ، فالذى لاشك فيه أن لسليمان انجازات معمارية كثيرة ، وقد ذكرنا من قبل تشييده لكثير من التكنات لفصائل عجلاته الاحربية ، والتي أطلقت عليها التوراة «مدن المركبات» و «مدن الفرسان» وكذا «مدن المخازن»^(٩) التي أقيمت للمؤن والعلف التي تحتاجها المعسكرات والمحطات التي أقيمت على الطرق التجارية ، وذلك لأن «مدن المخازن التي بناها سليمان في حماة»^(١٠) انما قد خدمت الهدفين وبالتالي فربما أمكن القول أن الاماكن المحصنة التي أقيمت في مجاوراته مجدو وتدمر وحماة وأورشليم انما كانت «مدن مخازن»^(١١) .

هذا وقد كشف عن بعض مبان لسليمان في حاصور^(١٢) (تل قدح على مبعدة ٥ كيلا جنوب غرب بحيرة الحولة) وفي «عصيون جابر» اكتشف «جلوك» حصنا يرجع الى أيام سليمان ، وكذا في «قادش برينغ» ، وهي خربة القضيرات أو عين قديس ، على مبعدة ٥٠ ميلا جنوب بئر سبع^(١٣) ، ونقرأ في التوراة أن سليمان «بنى جازر وبيت حورن السفلى وبعلة وتدمر في البرية»^(١٤) ، أما «جازر» فهي المدينة

7) Ibid., P. 594.

(٨) ياقوت الحموي : معجم البلدان ١٧/٢ (بيروت ١٩٥٧) .

(٩) ملوك أول ١٩/٩ .

(١٠) أخبار أيام ثان ٤/٨ .

11) O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 595.

(١٢) ملوك أول ١٥/٩ .

(١٣) قاموس الكتاب المقدس ٧٠٨/٢ - ٧٠٩ ، وكذا

O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 595.

W. F. Albright, Recent Discoveries in Bible Land, N. Y., 1955, P. 86 F.

٥٩٥ وكذا

(١٤) ملوك أول ١٧/٩ - ١٨ .

الكنعانية الواقعة على مبعدة ١٨ ميلا شمال غرب اورشليم ، وقد أشرنا من قبل الى أن فرعون قد استولى عليها وقدمها مهرا لابنته امرأة سليمان ، ويبدو أن سليمان قد أعاد بناء المدينة بعد ذلك^(١٥) ، وأما «بيت حورن السفلى» فتقع على مبعدة ١٢ ميلا شمال اورشليم، وتسمى حاليا «بيت عور السفلى» وهي أقدم من عصر سليمان ، ومن ثم فيبدو أن سليمان قد حصنها ولكنه لم يبنها^(١٦) ، وأما «بعله» فهي مدينة في منطقة «دان» لا يعرف الآن مكانها على وجه التحقيق ، ويرجح أن سليمان حصنها ولم يبنها كذلك^(١٧) .

وأما مدينة «تدمر» فهي مدينة «تمر» التي قام سليمان ببنائها في البرية ، وقد أشارت التوراة ويوسف بن متى أن سليمان قد أقام مدينة تدمر^(١٨) ، ولا شك في أن وجهة النظر اليهودية هذه خاطئة ، ذلك لأن مدينة تدمر انما ظهرت للمرة الاولى في التاريخ على أيام الملك الاشوري «تجلات بلاسر» (١١١٦ - ١٠٩٠ ق.م) في صورة «تدمر أمورو»^(١٩) أي قبل أن يولد النبي الكريم ، وكذا بفترة تسبق ما دون في التوراة بشأنها بأكثر من سبعة قرون ، ومن هنا يذهب العلماء الى أن الرواية التوراتية بشأن بناء سليمان لمدينة تدمر ، اما أنها من نوع المبالغة ، ومن ثم فقد نسبت الى سليمان بناء مدينة تقع في منطقة بعيدة عن حدود دولته إسرائيل^(٢٠) ، وأما أن هناك خطأ وقع فيه كاتب الحوليات العبراني حين خلط بين «تامارا» (تمر) التي بناها سليمان في جنوب

(١٥) ملوك أول ١٥/٩ - ١٧ ، قاموس الكتاب المقدس ٢٤٢/١٣ وكذا

M. F. Unger, Op. Cit., P. 401.

(١٦) ملوك أول ١٧/٩ ، قاموس الكتاب المقدس ٢٠٢/١ .

(١٧) ملوك أول ١٨/١١ ، قاموس الكتاب المقدس ٨٢/١ .

(١٨) ملوك أول ١٨/٩ ، أخبار أيام ثان ٤/٨ ، وكذا

E. Dhorme, Palmyra dans les Textes, El, III, P. 1020.

Assyriens, RB, 1924, P. 106.

19) E, 17. P. 161.

E B, 17, 488, E. Dhorme, Op. Cit., P. 106.

El, III, P. 1020.

(٢٠) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٣٢ ، جواد على ٧٧/٣ ،

J. Hastings, Op. Cit., P. 889.

وكذا

شرق يهوذا^(٢١) ، وربما كانت الشهرة التي اكتسبتها «تدمر»^(٢٢) على أيام كتبة الاسفار العبرانيين هي السبب في نسبة بنائها الى النبي الكريم ، ومن ثم فقد ذهب هؤلاء الكتبة الى أن المدينة التي بناها سليمان هي «تدمر» وليست «ثامار» ، وسرعان ما انتقلت تلك الرواية الى المصادر العربية ، عن طريق مسلمة أهل الكتاب ، فأخذوها بغير تدقيق ولا تحقيق ، فضلا عن أن آثار المدينة ربما أدهشتهم ومن ثم فقد نسبوا بناءها الى الجن ، بأمر من سليمان عليه السلام^(٢٣) .

هذا وقد ناقش الاستاذ «ايسفلت» الموضوع عام ١٩٧٥ م بشئ من التفصيل ، وخلص الى أن «تدمر» المشار اليها في التوراة انما هي «تمر» ، وتقع بالقرب من «عين الرس» ، على مبعده ٥ كيلا الى جنوب النهاية الجنوبية للبحر الميت ، وليست تدمر التي تقع على مبعده ١٥٠ كيلا شمال شرق دمشق ، في منتصف المسافة بين دمشق والفرات وعلى أى حال ، فان بناء «تمر» انما كان جزءا من مشروع أكبر لخدمة الاغراض التجارية التي كانت دولة سليمان ميدانا لها^(٢٤) .

(٢١) حزقيال ١٩/٤٧ ، قاموس الكتاب المقدس ٢٨٢/١ .
 (٢٢) عن «تدمر» أنظر (محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ العرب القديم - الرياض ١٩٧٧ ص ٥٣٣ - ٥٤١) .
 (٢٣) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٣٢ ، جواد على ٧٨/٣ ، الالوسي : بلوغ العرب ٢٠٩/١ - ٢١٠ ، ياقوت ١٧/٢ - ١٩ ، البكري ٣٠٦/١ - ٣٠٧ ، ثم قارن المسعودي ٢٤٤/٢ - ٢٤٥ (بيروت ١٩٧٣) .
 (٢٤) ملوك أول ١/٣ ، ١٥/٩ ، وكذا

O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 592-593.
 EB, 17, P. 161.

(١٠) بناء المسجد الاقصى :

المسجد الاقصى أو بيت المقدس ، موطن العديد من الانبياء والمرسلين ، ابتداء من أبيهم ابراهيم وحتى عيسى ابن مريم عليهم السلام ، وثاني مسجد وضع في الارض بعد الكعبة للبيت الحرام^(١) وأولى القبلتين^(٢) وثالث الحرمين^(٣) ، ومسرى النبي الاعظم سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ ، وصدق الله العظيم حيث يقول : «سبحان الذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ»^(٤) ، وليس هناك من شك في أن هذا الاسراء أو هذه الرحلة المباركة من المسجد الحرام في مكة المكرمة الى المسجد الاقصى في القدس الشريف انما هي رحلة مختارة من اللطيف الخبير ، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام الى محمد ﷺ رسول الله وخاتم النبيين ، وتربط بين الاماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعا ، وكأنما أريد بهذه الرحلة المباركة اعلان وراثة النبي الخاتم محمد ﷺ لمقدسات الرسل قبله ، واشتمال رسالته على هذه المقدسات ، وارتباط رسالته بها جميعا ، ولهذا فقد جمعوا له هناك كلهم فأمهم في محلتهم ودارهم ، فدل على أنه هو الامام الاعظم،

-
- (١) صحيح البخارى ١٧٧/٤ ، صحيح مسلم ٣٧٠/١ ، ١٥٣/٢ - ١٥٤ ، مسند الامام أحمد ١٥٠/٥ ، ١٦٧ ، تفسير القرطبي ص ١٣٧٩ ، تفسير المنار ٦/٤ - ٧ .
- (٢) انظر : سورة البقرة : آية ١٤٢ - ١٤٤ ، صحيح البخارى ٢٥/٦ - ٢٧ ، صحيح مسلم ١٦٠/٢ - ١٦٢ ، مسند الامام أحمد ٢٤٦/٥ - ٢٤٧ ، مجمع الزوائد للهيتمي ١٣/٢ .
- (٣) انظر : صحيح مسلم ٥٤١/١ (القاهرة ١٩٧١) ، الزركشى : اعلام الساجد باحكام المساجد ص ٢٨٧ .
- (٤) سورة الاسراء : آية ، وانظر : تفسير القرطبي ص ٣٨١٩ - ٣٨٢٨ ، تفسير ابن كثير ٥/٣ - ٤١ ، فتح الباري ١٥٩/٧ - ١٧٣ ، صحيح البخارى ٦٦/٥ - ١٤٠/٦٩ .

والرئيس المقدم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومن ثم فقد كانت رحلة الاسراء ترمز الى أبعد من حدود الزمان والمكان ، وتشمل آملا وأفاقا أوسع من الزمان والمكان ، تتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تتكشف عنها النظرة الاولى^(٥) .

أخرج الامام أحمد وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والنسائي (واللفظ له) بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قال : ان سليمان بن داود عليهما السلام ، لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل خلا لا ثلاثة ، سأل الله عز وجل حكما يصادف حكمه فأوتيته ، وسأل الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيته ، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه الا الصلاة فيه ، أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه^(٦) .

وروى البخارى ومسلم عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله أى مسجد وضع فى الارض أول ، قال المسجد الحرام ، قلت ثم أى ، قال المسجد الاقصى ، قلت كم كان بينهما ، قال أربعون سنة ، ثم أينما أدركتك الصلاة بعده ، فان الفضل فيه^(٧) ، وفى رواية عن أبي ذر أيضا قال : قلت يا رسول الله أى مسجد وضع فى الارض أول ، قال المسجد الحرام ثم قلت أى ، فقال المسجد الاقصى ، قلت كم بينهما ، قال أربعون سنة ، وأينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد^(٨) . هذا وقد أثار هذان الحديثان الشريهان جدلا بين العلماء ، على أساس أن

-
- (٥) فى ظلال القرآن ٢٢١٢/٤ ، تفسير ابن كثير ٥/٣ .
 (٦) سنن النسائي ٤٣/٢ ، سنن ابن ماجه ٤٥١/١ ، انظر : جامع الاصول ج٩ حديث ٦٣٠٧ ، صحيح الجامع الصغير : حديث ٢٠٨٦ ، البداية والنهاية ٢٦/٢ ، تفسير ابن كثير ٥٨/٤ .
 (٧) صحيح البخارى ١٧٧/٤ ، صحيح مسلم ٣٧٠/١ .
 (٨) صحيح مسلم ١٥٣/٢ - ١٥٤ (القاهرة ١٩٧١) ، مسند الامام أحمد ١٥٠/٥ ، ١٦٧ ، تفسير الطبرى ٢٢/٧ ، تفسير ابن كثير ٦٣/٢ ، تفسير القرطبي ص ١٣٧٩ ، تفسير المنار ٦/٤ - ٧ .

ابراهيم عليه السلام هو باني البيت الحرام ، وأن سليمان عليه السلام هو باني المسجد الأقصى ، وبينهما ما يقرب من ألف عام^(٩) ، ومن ثم فقد ذهب أبو جعفر الطحاوي بأن الوضع غير البناء ، والسؤال عن مدة ما بين وضعهما ، لا عن مدة ما بين بنائهما ، فيحتمل أن يكون واضح المسجد الأقصى بعض الانبياء قبل داود وسليمان ، ثم بنياء بعد ذلك^(١٠) ، ولعل قريبا من هذا ما ذهب اليه ابن الجوزي والقرطبي بأنه ليس المراد أن ابراهيم عليه السلام هو الذي أسس بناء الكعبة المشرفة^(١١) ، ولا أن سليمان عليه السلام بنى بناء بيت المقدس ، وإنما هما جددا ما كان قد أسسه غيرهما^(١٢) ، كما ذهب برهان الدين الزركشي الى أن سليمان عليه السلام ، انما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه^(١٣) على أن الاستاذ رشيد رضا يذهب الى أن هذا التفسير ضعيف لانه سماه بيتا ، ولو جعل المكان مسجدا ولم يبين فيه لما سمي بيتا ، بل مسجد أو قبلة ، ثم ان ذلك مبنى على القول بأن ابراهيم هو الذي بنى أول مسجد للعبادة في أرض بيت المقدس ، وذلك معقول ، وان لم يكن عندنا نص صريح^(١٤) .

-
- (٩) الواقع أن الفترة بين وفاة ابراهيم وولادة سليمان عليهما اسلام ، لا تصل أبدا الى ألف عام ، فابراهيم عاش في الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق م) وسليمان عاش في الفترة (٩٧٣ - ٩٢٢ ق م) .
 (١٠) صحيح مسلم ١٥٣/٢ (هامش/٢) .
 (١١) الرأي عندى أن الكعبة المشرفة ترجع في بنائها الى ابراهيم وولده اسماعيل عليهما السلام ، دون غيرهما من العالمين ويرى ابن كثير وغيره من العلماء أنه لم يجرى في خبر صحيح عن المعصوم عليه السلام أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام ، ومن تمسك في هذا بقوله مكان البيت فليس بناهض ولا ظاهر ، لان المراد مكانه المقدر في علم الله المقرر في قدرته ، المعظم عند الانبياء موضعه من لدن آدم الى زمن ابراهيم (ابن كثير : البداية والنهاية ١/١٦٣ ، ٢/٢٩٨ ، تفسير المنار ١/٤٦٦ - ٤٦٧ ، الكشف ١/٤٤٦ ، تفسير الطبري ٣/٧٠ ، محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية في القرآن الكريم ١/١٨٣ - ١٨٥) .
 (١٢) فتح الباري ٦/٤٠٨ ، تفسير القرطبي ٤/١٣٨ .
 (١٣) الزركشي : اعلام الساجد بأحكام المساجد ص ٣٠ .
 (١٤) تفسير المنار ٤/٧ (القاهرة ١٩٧٣) .

هذا ويذهب ابن قديم الجوزية الى أن الذى أسس بيت المقدس إنما هو يعقوب عليه السلام ، وأن سليمان كان مجددا له ، وإلى هذا ذهب ابن كثير أيضا ، حيث يقول : وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذى أسس المسجد الأقصى^(١٥) ، وهو مسجد ايليا بيت المقدس شرفه الله ، وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث (يعنى حديث أبى ذر المشهور) فعلى هذا يكون بناء يعقوب ، وهو اسرائيل عليه السلام ، بعد بناء الخليل وابنه اسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء^(١٦) كما ذهب الى نفس الرأى الزركشى فى اعلام المساجد^(١٧) ، والحميرى فى الروض المعطار^(١٨) ، وأخيرا فلقد ربط البعض بناء المسجد الأقصى ، كما ربطوا بناء المسجد الحرام من قبل ، بالملأكة ، وربطه آخرون بآدم عليه السلام ، بل ان فريقا رابعا ربطه بسام بن نوح عليه السلام^(١٩) ، وجاء فى تفسير القرطبى أن آدم هو الذى بنى المسجد الأقصى ، بعد بنائه للبيت العتيق بأربعين عاما ، وأن يعقوب قد أقام قواعده وجددته فقط ، بعد أن رفع جده ابراهيم عليه السلام

-
- (١٥) يذهب أهل الكتاب ، كما جاء فى العهد القديم ، الى أن داود عليه السلام ، كان أول من فكر فى بناء المسجد الأقصى ، بل وقد اشترى مكانه من رجل ييوسى يدعى «أرنان» (أرونا أو أرونة) كان قد اتخذه جونا أو بيدر ، وكان قد عرض على داود أن يأخذ المكان بلا مقابل ، فرفض داود واشتراه منه ، وكذا بقرا ليقدمه محرقة للرب ، بخمسين شاقلا من الفضة ، وتذهب الرواية الى داود قد منع من بناء البيت ، لان ذلك سيكون من نصيب ولده سليمان ، ولكنها قد سجلت معاونة داود الفعالة لولده سليمان فى اقامة البيت ، وذلك بتجهيز المواد اللازمة للبناء ، فضلا عن كميات من الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها (صموئيل ثان ١٦/٢٤ - ٢٥ ، أخبار أيام ثان ١/٢٢ - ١٩ ، محمد بيومى مهران: اسرائيل ٨٤٣/٢ - ٨٤٤ ، تاريخ ابن خلدون ١١١/٢ - ١١٢) ثم قارن : تفسير ابن كثير ٥٨/٤ (ط بيروت ١٩٨٦) .
- (١٦) ابن كثير : البداية والنهاية ١٦٣/١ ، ٢٩٨/٢ .
- (١٧) الزركشى : المرجع السابق ص ٣٠ .
- (١٨) الحميرى : الروض المعطار فى خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ ص ٥٥٦ .
- (١٩) مجير الدين الحنبلى : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل النجف ١٣٨٨ هـ ، الجزء الاول ص ٨ ، فتح البارى ٤٠٩/٦ ، الزركشى : المرجع السابق ص ٣٠ .

• للقواعد من البيت العتيق (٢٠) •

ويذهب الدكتور عويد المطرفى الى أن أقرب الروايات الى المعقول أن الذى بنى المسجد الاقصى تأسيسا ، إنما هو سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام ، بعد فراغه من بناء الكعبة المشرفة ، ورجوعه الى مستقرة بالشام (٢١) ، كما استظهر ذلك أبو حيان فى تفسيره لقوله تعالى : «ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين» (٢٢) ، من أن ابراهيم عليه السلام ، كما وضع الكعبة ، وضع بيت المقدس (٢٣) •

وفى الواقع فإن كثيرا من المفسرين والمؤرخين انما يذهبون الى أن سليمان عليه السلام هو الذى بنى بيت المقدس ، ففى تفسير أبى السعود أن سليمان لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج ، وهناك فى مكة كان يذبح كل يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة ، وخمسة آلاف بقرة ، وعشرين ألف شاة (٢٤) ، ويقول الحافظ السهيلي : وبيت المقدس بناء سليمان عليه السلام ، وكان داود عليه السلام قد ابتدأ مبناه فأكمّله ابنه سليمان عليه السلام ، واسمه ايلياء ، وتفسيره فى العربية : بيت الله (٢٥) ، ذكره البكرى ، وفى الصحيح أنه وضع للناس بعد البيت المحرام بأربعين سنة ، وهذا يدل على أنه قد كان بنى أيضا فى زمن اسحاق ويعقوب عليهما السلام ، ولكن بنيانه على التمام وكمال الهيئة كن على عهد سليمان عليه السلام (٢٦) ، ويقول الطبرى فى التاريخ : وأصاب بنى اسرائيل فى زمان داود طاعون جارف ، فخرج بهم الى موضع بيت المقدس يدعون الله ويسألونه كثف ذلك البلاء عنهم ،

-
- (٢٠) تفسير القرطبي ١٣٨/٤ ، فتح الباري ٤٠٨/٦ - ٤٠٩ •
 (٢١) عويد المطرفى : المرجع السابق ص ١٤٩ •
 (٢٢) سورة آل عمران : آية ٩٦ •
 (٢٣) تفسير البحر المحيط ٣/٣ •
 (٢٤) تفسير أبى السعود ٢٧٨/٦ ، وانظر تاريخ ابن خلدون ١١٣/٢
 (٢٥) قارن : (محمد بيومى مهران : اسرائيل الجزء الثانى ص ١١٥٥ - ١١٥٨ ، الاسكندرية ١٩٧٩) •
 (٢٦) مختصر تفسير ابن كثير ٣٥٤/٢ ، هامش ١/ •

فاستجيب لهم ، فاتخذوا ذلك الموضع مسجدا ، وكان ذلك فيما قيل ، لاحدى عشرة سنة مضت من ملكه ،وتوفى قبل أن يستتم بناءه ،فأوصى الى سليمان باستتمامه ، وقتل القائد الذى قتل أخاه (يعنى يوأب الذى قتل أبشالوم كما ذكرنا من قبل) فلما دفنه سليمان نفذ لامره فى القائد وقتله واستتم بناء المسجد ، ثم يتحدث الامام الطبرى بعد ذلك عن التعداد الذى قام به داود فى بنى اسرائيل ، والبلايا التى حاقت بالقوم بسببه ، كما أشرنا من قبل ، وأن داود استغفر ربه وطلب العفو عن بنى اسرائيل ، فاستجاب الله لهم ورفع عنهم الموت ، فرأى داود الملائكة سالين سيوفهم يغمدونها ، يرتقون فى سلم من ذهب عن الصخرة الى السماء ، فقال داود : هذا مكان ينبغى أن يبنى فيه مسجد ، فأراد داود أن يأخذ فى بنائه ، فأوحى الله اليه أن هذا بيت مقدس ، وأنت قد صبغت يديك فى الدماء ، فلست بباينة ، ولكن ابن لك أملكه بعدك أسميه سليمان أسلمه من الدماء ، فلما ملك سليمان بناء وشرفه (٢٧) : ويتفق ابن الاثير فى روايته مع الطبرى تماما (٢٨) .

ويقول المسعودى : وابتدأ سليمان ببنيان بيت المقدس ، وهو المسجد الاقصى ، الذى بارك الله عز وجل حوله (٢٩) ، ويقول اليعقوبى ، وابتدأ سليمان فى بيت المقدس وقال : ان الله أمر بى داود أن يبنى بيتا وأن داود شغل بالحروب ، فأوحى الله اليه أن ابنك سليمان يبنى البيت باسمى ، فأرسل سليمان فى حمل خشب الصنوبر وخشب السرو ، ثم بنى بيت المقدس بالحجارة ، فأحكمه ولبسه الخشب من الداخل ، وجعل الخشب منقوشا ، وجعل له هيكلا مذهبا ، وفيه آلة الذهب ثم أصدت تابوت المسكينة فجعله فى الهيكل ، وكان فى التابوت اللوحان اللذان وضعهما موسى (٣٠) ، ويقول ابن خلدون : ولأربع سنين من ملكه

(٢٧) تاريخ الطبرى ١/٤٨٤ - ٤٨٥ ، ثم قارن : صموئيل ثان ١/٧ - ١٧ ، ٢٤/١٦ - ٢٤ .
 (٢٨) الكامل لابن الاثير ١/١٢٧ - ١٢٨ .
 (٢٩) مروج الذهب للمسعودى ١/٧٠ ، وانظر ١/٦٩ .
 (٣٠) تاريخ اليعقوبى ١/٥٨ .

(أى سليمان) شرع في بناء بيت المقدس بعهد أبيه إليه بذلك ، وقد تم
بناء الهيكل في سبع سنين^(٣١) .

هذا وقد أشرنا من قبل الى الحديث الشريف الذي يقول فيه سيدنا
رسول الله ﷺ : «ان سليمان عليه الصلاة والسلام لما بنى بيت المقدس
سأل ربه عز وجل خلا لا ثلاثا ، سأل الله عز وجل حكما يصادف حكمه
فأوتيه ، وسأل الله عز وجل ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه ،
وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه
الا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه»^(٣٢) ، وعن رافع
بن عمير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله عز وجل لداود
عليه الصلاة والسلام ابن لى بيتا فى الارض ، فبنى داود بيتا لنفسه
قبل البيت الذى أمر به فأوحى الله اليه يا داود نصبت بيتك قبل بيتى ،
قال يا رب هكذا قضيت من ملك استأثر ، ثم أخذ فى بناء المسجد فلما
تم السور سقط ثلاثا فشكا ذلك الى الله عز وجل ، فقال يا داود انك لا
تصلح أن تبني لى بيتا قال ولم يا رب ، قال لما جرى على يدك من
الدماء ، قال يا رب أو ما كان ذلك فى هواك ومحبتك ، قال بلى ولكنهم
عبادى وأنا أرحمهم ، فشق ذلك عليه فأوحى الله اليه لا تحزن فانى
ساقضى بناءه على يدى ابنك سليمان ، فلما مات داود أخذ سليمان فى
بنائه ، ولما تم قرب القرايين وذبح الذبائح وجمع بنى اسرائيل ، فأوحى
الله اليه قد أرى سرورك ببنيان بيتى ، فسلمنى أعطك ، قال أسألك ثلاث
خصال ، حكما يصادف حكمك ، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى ، ومن
أتى هذا البيت لا يريد الا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ،
قال رسول الله ﷺ : أما الثنتان فقد أعطيهما ، وأنا أرجو أن يكون
قد أعطى الثالثة»^(٣٣) .

(٣١) تاريخ ابن خلدون ١١١/٢ - ١١٣ ، ثم قارن ملوك أول
١/٦ - ٢٥/٩ .
(٣٢) سنن النسائى ٤٣/٢ ، سنن ابن ماجه ٤٥١/١ ، تفسير ابن
كثير ٥٨/٤ .
(٣٣) تفسير ابن كثير ٥٨/١ (ط. بيروت ١٩٨٦) .

وانطلاقاً من كل هذا ، فاننى أميل ، حدسا عن غير يقين ، الى أن ابراهيم عليه السلام ، هو الذى وضع الاسس للمسجد الاقصى ، على أساس أن رواية مسلم انما تتحدث عن أول مسجد ، وليس أول بيت ، وهى العقبة التى احتج بها صاحب تفسير المنار ، وعلى أساس ما جاء فى الاحاديث الشريفة من أن سليمان هو الذى بنى بيت المقدس ، وعلى أساس ما ذهب اليه جمع كبير من المؤرخين من أن سليمان قد بنى المسجد الاقصى بعهد أبيه اليه بذلك ، وعلى أساس أن ابراهيم عليه السلام ، طبقا لرواية العهد القديم^(٣٤) ، انما قد زار القدس ، وأنه قد أقام المحاريب لله فى فلسطين ، وخاصة فى شكيم وبيت ايل وبلوطات ممر ، ومن ثم فليس هناك ما يمنع من أن يكون أبو الانبياء قد فعل الشيء نفسه فى القدس ، هذا فضلا عن أنه اذا ما كان صحيحا ما ذهبنا اليه فى هذه الدراسة وغيرها من أن ابراهيم عليه السلام كن يعيش فى الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م) وأنه قد بنى الكعبة البيت الحرام حوالى عام ١٨٣٤ قبل الميلاد^(٣٥) ، ومن ثم فان بناءه أو وضعه لأسس المسجد الاقصى بعد ذلك بأربعين عاما ، أى حوالى عام ١٧٨٤ قبل الميلاد ، يكون أمرا مقبولا ، وأن ذلك قد تم قبل أن يولد حفيده يعقوب عليه السلام بأربع سنوات ذلك لانه طبقا لما جاء فى هذه الدراسة ، وكما أشار العهد القديم^(٣٦) ، فان الخليل عليه السلام قد رزق بولده اسحاق عليه السلام ، وقد أكمل المائة من عمره (بعد أن رزق باسمايل وهو فى السادسة والثمانين من عمره) وقد عاش اسحاق ١٨٠ عاما ، ومن ثم فهو كان يعيش فى الفترة (١٨٤٠ - ١٦٦٠ ق.م) ، وأن يعقوب كان يعيش فى الفترة (١٧٨٠ - ١٦٣٣ ق.م) على أساس أنه ولد لابيه اسحاق ، وهو فى الستين من عمره ، وأنه عاش ١٤٧ سنة ، وأن بنى اسرائيل قد دخلوا مصر حوالى عام ١٦٥٠ قبل الميلاد ، حين

(٣٤) تكوين ١٢/٩ ، ١٤/١٩ - ٢٠ .
(٣٥) انظر عن بناء الكعبة المشرفة (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١٨٣/١ - ١٩٧) .
(٣٦) تكوين ١٧/١٧ ، ٢٦/٢٥ ، ٢٨/٣٥ ، ٤٧/٩ ، ٢٨ .

كان يعقوب في الثلاثين بعد المائة من عمره^(٣٧) ، وأما سليمان فهو الذي بدأ بناء المسجد الأقصى ، الذي وضع إبراهيم أسسه ، في عام حكمه الرابع ، حوالي عام ٩٥٧ قبل الميلاد^(٣٨) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا بإيجاز الى رواية العهد القديم عن بناء المسجد الأقصى ، والذي تدعوه بيب الرب ، حيث تذهب الى أن مكان البيت إنما كان على جبل المريا في بيدر أرونة اليبوسى ، فاشتراه منه داود ومعه بقر للقرايين بخمسين شاقلا من الفضة^(٣٩) ، هذا وتشير الرواية بوضوح الى أن داود عليه السلام إنما كان أول من فكر في إقامة بيت للرب ، إلا أن فكرته هذه لم تجد قبولا حسنا من رب إسرائيل ، الذي كان يدخر هذا العمل لولده سليمان^(٤٠) ، ومع ذلك فإن داود عليه السلام ، قبل أن ينتقل الى جوار ربه ، راضيا مرضيا عنه ، أراد أن يسجل معاونته الفعالة لولده سليمان في إقامة بيت الرب ، فأخذ يجهز المواد اللازمة للبناء ، وكان القوم في عصره ما يزالون في بداءة بدائية ، يندر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة أو علم من علوم الدنيا ، وسرى أن الاعتماد على الفينيقيين كان الحل الوحيد الممكن أمام داود وسليمان حتى يرتفع هيكل الرب ، ونقرأ في التوراة أن داود قد «أمر بجميع الأجانب الذين في أرض سرائيل فاتخذ نحاتين

(٣٧) انظر : محمد بيومى مهران : إسرائيل ٨٠/١ - ٨٢ ، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١٩٤/١ - ١٩٥ .

(٣٨) انظر : محمد بيومى مهران : إسرائيل ٨٤٠/٢ - ٨٦٠ .

(٣٩) من عجب أن بعض الروايات العربية التي تنسب الى أبي بن كعب تذهب الى أن صاحب المكان غلام إسرائيلي ، وليس يبوسبا كنعانيا ، وأن داود أراد أن يغتصبه منه ، فنهاه ربه عن ذلك ، ومن ثم فقد اشتراه بتسعة قناطير من الذهب (السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ٣٤٣/١ ط القاهرة ١٣٢٠ هـ) والثمن جهد مغالا فيه ، بل إن رواية التوراة جعلت ثمنه هو والبقر ، خمسين شاقلا من الفضة صموئيل ثان (٢٤/٢٤) .

(٤٠) صموئيل ثان ١/٧ - ١٧ ، ٢٤ - ٢٦/٢٤ ، ملوك جول ٢/٢ ، وانخر : تفسير ابن كثير ٥٨/١ ، تاريخ اليعقوبى ٥٨/١ ، تاريخ ابن خلدون ١١١/١ ، ابن الاثير ١٢٧/١ - ٢٢٨ .

لنحت حجارة مربعة لبناء بيت الله ، وهياً داود حديدا كثيرا للمسامير لمصاريح الابواب والاوصال ، ونحاسا كثيرا بلا وزن ، وخشب أرز لم يحدد له عدد» ، هذا فضلا عن كميات كبيرة من الذهب والفضة والنحاس والمديد والخشب^(٤١) .

وهكذا ، وفي ربيع السنة الرابعة من عهد سليمان (حوالى عام ٩٥٧ ق م) وضع الحجر الاساسى لبناء بيت المقدس الذى استمر العمل فيه قائما على قدم وساق سبعة أعوام ، ثم واصل مهرة الصناع والفعلة العمل ثلاثة عشر عاما بعد ذلك ليشيّدوا صرحا أكبر يسكن فيه سليمان ونسأوه^(٤٢) .

هذا ولم يقدم لنا موقع المعبد أى دليل يمكن الاعتماد عليه لتحقيق تصميمه ، ومن هنا فإن أية محاولة فى هذه المجال لا تزيد عن كونها مجرد اجتهاد^(٤٣) ، غير أن المعلومات التى يوفرها سفر حزقيال (٤٠ - ٤٤) للمعبد الجديد ، ربما تجعل من الامكان استعادة تخطيطه ، كما يمكن قول شئ عن شكله الخارجى وتنظيمه الداخلى^(٤٤) ، ومن ناحية أخرى فإن المعلومات التى جاءت فى سفر الملوك الاول (١/٦ - ٣٨) انما تشير بوضوح الى التأثير المصرى والعراقى ، رغم الاشادة المستمرة بالمساعدة الفينيقية وبضخامة الانفاق^(٤٥) .

ونقرأ فى التوراة أن سليمان عليه السلام ، انما أقام حفلا كبيرا بمناسبة الانتهاء من بناء المسجد الاقصى ، دعا اليه شيوخ اسرائيل وكل رؤوس الاسباط «لأصعاد تابوت عهد الرب من مدينة داود ، وأن

(٤١) أخبار أيام أول ٢/٢٢ - ١٦ ، أخبار أيام ثان ١٧/٢ - ١٨ .

(٤٢) ملوك أول ١/٦ - ٢ ، ٣٧ - ٣٨ ، ٢/٧ ، وانظر : تاريخ

ابن خلدون ١١٢/٢ - ١١٣ .

43) J. L. Myres, Reconstructing Solomon's Temple and other Buildings and works of Art, PEQ, 80, 1948, P. 14 F.

P. L. Garlier, Reconstructing Solomon's Temple, BA, 1951, P. 2 F.

44) O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 598.

(٤٥) أندريه ايمار وجانين أو بوايه : المرجع السابق ص ٢٦٧ .

الجميع ، وعلى رأسهم سليمان ، قد اجتمعوا أمام التابوت «يذبحون من الغنم والبقر ما لا يحصى ولا يعد من الكثرة ، وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب الى مكانه في محراب البيت ، في قدس الاقداس ، وهنا ملا الغمام بيت الرب ، حتى أن الكهنة ، ما كانوا بقادرين على أداء الطقوس الدينية ، يعلن سليمان أن الرب انما يسكن في الضباب»^(٤٦) ، ونقرأ في سفر الملوك الاول (٢٢/٨ - ٥٣) دعوات سليمان الحارة الى الله تعالى ، ثم ينهض من أمام المذبح ، ويداه مبسوطتان الى السماء ، ليعلن أمام خراف بيت اسرائيل الضالة «ليعلم كل شعوب الارض أن الرب هو الله ، وليس آخر ، فليكن قلبكم كاملا لدى الرب الهنا ، اذ تسيرون في فرائضه ، وتحفظون وصاياهم»^(٤٧) ، ثم يشكر الرب على أنعمه التي أسبغها عليه وعلى بيت أبيه من قبل ، سائلا اياه سبحانه وتعالى أن يجيب دعوات بنى اسرائيل حين يدعونه في هذا البيت ، وأن يغفر لهم خطاياهم^(٤٨) ، ثم تنتهي الاحتفالات بتقديم الذبائح لرب اسرائيل ، والتي بلغت عددا كبيرا جدا ، وصل الى «اثنين وعشرين ألفا من البقر ، ومن الغنم مئة ألف وعشرين ألف ، فُدشن الملك وجميع بنى اسرائيل بيت الرب»^(٤٩) .

وعلى أية حال ، فان المسجد الذي بناه سليمان انما قد دمر تماما أثناء غزو «نبوخذ نصر» للقدس عام ٥٨٦ ق.م ونهب الغزاة القدس وأشعلوا فيها النيران وأحرقوا القصر الملكي والمسجد ، وهكذا ضاع كل أثر للمسجد ، ومعه البقية الباقية من التابوت الذي كفت الروايات عن ذكره بعد نقله لمعبد سليمان^(٥٠) ، ولم يستطع القوم إعادة البناء الا

-
- (٤٦) ملوك أول ١/٨ - ١٣ .
 - (٤٧) ملوك أول ٦٠/٨ - ٦١ .
 - (٤٨) ملوك أول ٢٥/٨ - ٣٤ .
 - (٤٩) ملوك أول ٦٢/٨ - ٦٥ ، وانظر : تاريخ ابن خلدون ١١٣/٢ .
 - (٥٠) محمد بيومي مهران ، اسرائيل ٩٩٧/٢ - ١٠٠٤ ، وكذا K. M. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, P. 291.
 - M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 287.

عام ٥١٥ ق.م ، على أيام الملك الفارسي «دارا الاول» (٥١) ، ثم دمر المعبد الثاني هذا عام ٧٠م على يد القائد الروماني تيتوس ، وأُصرمت النيران في المدينة ، وهدم المعبد وضاعت آثاره تماما ، حتى أن الناس قد نسوا فيما بعد ، إذا كان هذا المعبد على التل المشرقي أو الغربي من المدينة المقدسة (٥٢) .

وفي عام ١٣٥م استولى الروم على القدس ، ثم أمر الامبراطور «هيريان» (١١٧ - ١٣٨ م) بتدمير المدينة تماما وبني فوقها مدينة جديدة باسم «ايليا كابيتولينا» (Aelit Capitolina) وأبدل المعبد القديم بمعبد الرومان بمذبحة نهائية ختمت مصير اليهود في فلسطين ، كدولة وكقومية ، وانتهت بذلك علاقة اليهود بفلسطين سياسيا وسكانيا ودينيا (٥٣) .

-
- (٥١) محمد بيومي مهران : اسرائيل ١٠٣٦/٢ - ١٠٤٩ ، وكذا : عزرا ٧/٣ ، ١٥/٦ ، قاموس الكتاب المقدس ١٠١٤/٢ ، وكذا
C. Roth, A Short History of the Jewish People, London, 1969, P. 54-55.
M. Noth, Op. Cit., P. 314.
S. A. Cook, Op. Cit., P. 409.
- (٥٢) محمد بيومي مهران : اسرائيل ١١٥٠/٢ - ١١٥٥ ، وكذا
C. Roth, Op. Cit., 103-107.
W. Keller, the Bible as History, 1967, P. 388.
- (٥٣) محمد بيومي مهران : اسرائيل ١١٥٥/٢ - ١١٥٨ ، وكذا
H. Strathmann, PJB, 23, 1927, P. 92 F.
M. Noth, Op. Cit., P. 453-454.
A. Schulten, ZDPV, 56, 1933, P. 180 F.

(١١) سليمان وملكة سبأ

جاءت قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ في التوراة^(١) والانجيل^(٢) والقرآن العظيم^(٣) ، وان اختلفت الكتب الثلاثة في سردها للقصة تبعا للمهدف من القصة لكل منها ، غير أنها جميعا لم تذكر اسم ملكة سبأ ، أو الارض التي كانت تقيم فيها ، الا اذا كان المراد بكلمة سبأ هنا تلك الدولة التي قامت في الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية^(٤) . ومن عجب أن يذهب بعض النقاد ممن تعرضوا لقصص التوراة بالنقد ، الى أن قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان عليه السلام ، انما هي اسطورة من الاساطير دونها كتبة التوراة لبيان عظمة سليمان وحكمته^(٥) ، ولو تريت هؤلاء البعض من النقاد بعض الشيء ، لما وقعوا في هذا المنزلق الخطير ، وربما خيل لهؤلاء المتحذلقين من أدعياء التاريخ الذين يجمعون التمهيص كله في الإنكار ، أنه خبر يسهل إنكاره بغير حجة ، وكأن المنكر لا يطالب بحجة ، ولا يعاب على النفي الجراف ، والحق أن إنكارنا لأمر تجمع عليه التوراة والانجيل والقرآن العظيم ، لا يتفق ومنهج البحث العلمي ، فضلا عن تعارضه مع إيماننا بما جاء في كتب السماء باجماع ، أضف الى ذلك أنه ليس في زيارة ملكة سبأ لسليمان عليه السلام أمرا مستحيلا ، أو تصرفا شاذا يستوجب الاستنكار ، كما يجنح الى ذلك بعض الباحثين^(٦) ، وخاصة اذا كان

(١) ملوك أول ١٠/١ - ١٣ ، أخبار أيام ثان ١/٩ - ٩ .

(٢) انجيل متى ٢٢/١٢ .

(٣) سورة النمل : آية ٢٠ - ٤٤ .

(٤) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن تاريخ دولة سبأ في أدوارها الاربعة (محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ العرب القديم - الرياض ١٩٧٧ ص ٢٦١ - ٣٦٨) .

5) J. Hastings, A Dictionary of the Bible, Edinburg, 1963, P. 843.

(٦) محمد عزة دروزة : تاريخ بنى اسرائيل من أسفارهم - بيروت ١٩٦٩ ص ١٦٢ - ١٦٣ .

هؤلاء الباحثون لهم دراية بقصص القرآن •

على أن هناك فريقا آخر من الباحثين انما يذهب الى أن هذه القصة لا يمكن فهمها جيدا ، الا اذا قدرنا أن السبئيين انما كانوا يقطنون في شمال بلاد العرب^(٧) ، ولعل أصحاب هذا الرأي ممن يذهبون الى أن السبئيين انما ترجع أصولهم الاولى الى شمال بلاد العرب ، في بلاد الجوف أو قريبا منها ، وليس في جنوبها^(٨) ، وأن دولتهم الحقيقية لم تبدأ في جنوب بلاد العرب ، الا حوالي عام ٨٠٠ قبل الميلاد^(٩) ، أي بعد هذه الاحداث بما يقرب من القرن ونصف القرن من الزمان ، ومن ثم فان هذه الملكة التي زارت سليمان عليه السلام ، لم تكن ملكة سبأ الشهيرة في اليمن ، وانما كانت ملكة على مملكة صغيرة في أعالي شبه الجزيرة العربية ، كان سكانها من السبئيين القاطنين في الشمال ، أو هي ملكة على الحكومات المحلية في منطقة معان والعلا ، والتي ورثها السبئيون عن المعينيين^(١٠) ، ويستدلون على ذلك بأدلة منها (أولا)

-
- (٧) فريتزهومل : التاريخ العربي القديم ص ٦٣ (مترجم) .
 (٨) انظر عن : السبئيين والآراء التي دارت حول موطنهم الاصلى (محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ العرب القديم ص ٢٦٥ - ٢٧٠) .
 (٩) يرى بعض الباحثين أن عصر مملكة سبأ انما يبدأ حوالي عام ٧٥٠ ق.م ويرى آخرون أنه كان حوالي عام ٨٠٠ ق.م ، ويذهب فريق ثالث الى أنه كان في القرن التاسع قبل الميلاد ، والرأي عندى أنه كان في القرن العاشر ، أو قبله بقرن ، اعتمادا على علاقة ملكة سبأ بسليمان عليه السلام ، والذي كان ، فيما يجمع المؤرخون ، يعيش في ، القرن العاشر قبل الميلاد (انظر : محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٢٧١ - ٢٧٣ ، جواد على : الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٢/٢٦٩ ، وكذا BASOR, 173, 1955, P. 38.
 R. Bowen and W. Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, 1958, P. 37.
 A. Grohmann, Arabien, Munchen, 1963, P. 122.

(١٠) كثيرا ما تخلط الوثائق الاشورية بين ملك معين أو سبأ في جنوب غرب بلاد العرب ، وبين الوالى المقيم في العلا ومعان نائباً عن ملك معين أو سبأ ، ومن ثم فقد كان الاشوريون يذكرون هذا الوالى كما لو كان هو الملك الجنوبي ، وهذا يفسر لنا الاشارات التي ترد في الوثائق السريانية والعبرية عن المعينيين والسبئيين وتذكرهم كما لو كانوا يقيمون في الجنوب

العثور على أسماء ملكات عربيات مثل زبيبة وشمس^(١١) عيشي (ياتي) وتلخونو (تلخونو) وتاربو (تبوءة)^(١٢) وبائلة (با ايلو) وغيرهن في النصوص الاشورية ، في حين أن العلماء لم يعثروا حتى الان على اسم أية ملكة في النصوص العربية الجنوبية ، غير أن هذا السبب في حاجة الى اعادة نظر ، ذلك لان هؤلاء الملكات اللاتي ذكرن آنفا انما عشن في فترة متأخرة زمنيا عن عصر سليمان عليه السلام ، كما أن عدم العثور حتى الان على أسماء ملكات في اليمن لا يعنى بالضرورة عدم وجود ملكات في تاريخ سبأ ، كما أنه من المعروف أنه لم تجر حتى الان حفريات كافية تثبت عدم وجود ملكات في سبأ ، ومن يدري فقد تكشف لنا المحفريات في وقت قريب أو بعيد عن أسماء ملكات في اليمن ، فعلم ذلك عند علام الغيوب .

ومنها (ثانيا) صعوبة تصور زيارة ملكة عربية جنوبية لسليمان عليه السلام ، وتعجبها من بلاطه وحاشيته وعظمة ملكه ، مع أن بلاط أورشليم (القدس) يجب الا يكون شيئاً بالنسبة الى بلاط ملوك سبأ ، ومن ثم يجب ألا تكون هذه الملكة التي زارت سليمان ، في نظر هذه

الشرقى للبحر الميت ، وقد أدى هذا الخلط الى أن يظن البعض أن الملكين الاشوريين سرجون الثاني وسنحريب قد وصل نفوذهما الى سبأ نفسها ، ومع أن المراد في النصوص الجاليات المعينية والسبئية في العلا ومعان ، وان أطلق الاشوريون على حكامها لقب ملك (محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٢٧٥ - ٢٧٨ وكذا

A. Musil, The Northern Hegas, 1926, P. 295.

J. B. Philly, the Background of Islam, P. 141.

F. Hommel, Grundriss, P. 580.

11) A. Musil, Op. Cit., P. 477.

N. Abbot, Pre-Islamic Queens, AJSL, 58, 1941, P. 4.

A. L. Dppenhein, ANET, 1966, P. 288.

12) D.D. Luckenbill, ARAB, II, 1927, P. 518.

A. L. Oppenheim, Op. Cit., P. 291.

A. Musil, Arabia Deserta, 1938, P. 480.

الجماعة من علماء التوراة وبعض العلماء المحدثين^(١٣) ، الا ملكة عربية صغيرة ، لم تكن بعيدة عن عاصمة دولة سليمان في فلسطين فقد تكون في جبل شمر ، وتقع بين الحافة الجنوبية للنقود الكبير ، وفي وادي الرمة وتتكون من سلسلتي جبال أجا وسلمى ، وقد تكون في نجد أو في الحجاز^(١٤) .

والرأى عندي ، أن من لجأوا الى المقارنة بين بلاط سليمان عليه السلام ، وبلاط ملكة سبأ ، للوصول الى رأى بشأن ملكة سبأ ، وهل هي ملكة عربية جنوبية أو شمالية ، انما قد أخطأوا الطريق ، فالمقارنة هنا لا تجدى نفعا ولا تحل المشكلة ، كما أنها لا تعقدها ، بل ان المقارنة لاتصح هنا أصلا بحال من الاحوال ، وذلك لان بلاط سليمان ، فيما نرى ونؤمن به الايمان كل الايمان ، انما يمثل معجزة نبي ، وليس عظمة ملك من الملوك ، فالحديث هنا عن سليمان النبي عليه السلام ، وليس سليمان الملك ، والذي يقرأ الايات الكريمة التي تحدثت عن القصة ، كما جاءت في سورة النمل ، والتي سنوردها هنا بنصها كاملا فيما بعد ، ليعرف تماما أن الملك سليمان ما كان في استطاعته مثلا أن يفعل بعرشها ما فعل ، وانما الذي يستطيع ذلك ، باذن الله ، انما هو سليمان النبي ، ذلك لان ما حديث انما كان يمثل معجزة للنبي الكريم ، سيدنا سليمان عليه السلام ، وصدق الله العظيم حيث يقول تعالى ، على لسان

(١٣) انظر عن هذه الاراء :

C. Roth, Op. Cit., P. 21-23.

M. Noth, Op. Cit., P. 206.

A. Lods, Op. Cit., P. 368-375.

A. Malamat, JNES, 22, 1963, P. 21, No. 48-9, 13-16.

J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 529.

H. G. Wells, Op. Cit., P. 76-77.

(١٤) جواد على : المرجع السابق ٦٣٦/١ ، ٢٦٢/٢ ، عبد الفتاح

شحاته : تاريخ الامة العربية قبل ظهور الاسلام ص ٨٣ - ٨٩ وكذا

J. Montgomery, Arabia and the Bible, Philadelphia, 1934, P. 181.

R. Dussaud, Les Arabes en Syria avant L'Islam, Paris, 1907, P. 10.

E. Dhorm, Revue Biblique, P. 105.

سليمان ، «فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر
أم أكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني
كريم» (١٥) .

أضف الى ذلك أن سليمان عليه السلام ، كما رأينا من قبل ، قد
منحه الله تعالى كثيرا من المعجزات ، فقد علمه الله منطق الطير وسائر
لغات الحيوان ، فكان يفهم عنها ما لا يفهمه سائر الناس ، وربما تحدث
معه ، كما كان الامر مع الهمد والنمل ، كما كان جند سليمان عليه
السلام مؤلفا من الانس والجن والطير ، وقد نظم لهم أعمالهم ورتب
لهم شؤونهم ، فإذا خرج خرجوا معه في موكب حافل يحيط به الجند
والخدم من كل جانب ، فالانس والجن يسرون معه ، والطير تظله
بأجنحتها من الحر ، هذا فضلا عن تسخير الريح له ، بل وتسخير طائفة
من الجن ومردة الشياطين يعملون له من الاعمال ما يعجز عنها البشر ،
كبناء الصروح الضخمة والقصور العالية والقصور الراسيات والجفان
التي تشبه الاحواض ، وأخيرا ، وليس آخرا ، لكما الان الله الحديد
لداود أبيه ، فقد أسال له عين القطر (١٦) ، وكل تلك أمور من معجزات
النبي سليمان عليه السلام ، وما كان ولن يكون أبدا للملكة سبأ ، أيا
كانت ، شيء من ذلك ، ومن ثم فالمقارنة بين البلاطين غير ذي موضوع .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أننا نستطيع أن نقدم ، من آى
المذكر الحكيم ومن دراستنا لتاريخ العرب القديم ، كثيرا من الادلة التي
تشير بوضوح الى أن ملكة سبأ التي زارت سليمان عليه السلام ، انما
كانت ملكة عربية جنوبية ، وأنها كانت تجلس على عرش مملكة سبأ
المشهورة في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية والتي منها (أولا) أن
الذى يفهم صراحة من القصة القرآنية أن سليمان عليه السلام ، لم

(١٥) سورة النمل : آية ٣٨ - ٤٠ .

(١٦) انظر سورة الانبياء : آية ٨١ - ٨٢ ، النمل : آية ١٥ - ٣١ ،

سبأ ١٢ - ١٣ ، ص : آية ٣٠ - ٤٠ .

يكن يعرف شيئاً عن هذه الملكة سواء من ناحية دولتها أو ديانتها^(١٧) ، ومن هنا نراه يقول للهدد ، بعد أن أعلمه خبرها قال : «سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين»^(١٨) ، وليس من المقبول أن يكون سليمان ، وهو الملك العظيم ، كما هو النبي الكريم ، لا يعرف شيئاً عن ملكة سبئية تقيم في مجاورات فلسطين ، وعلى تخوم دولته ، خاصة وأن هناك علاقات تجارية بين سبأ وفلسطين ، تتولى أمرها الجالية السبئية في العلا ومعان . كما أن فلسطين مقر دولة سليمان ، إنما تقع في نهاية طريق القوافل التي تشرف عليها الجالية السبئية في واحة «ديدان» (العلا) ومعون (معان) ، هذا فضلاً عن أن «عصيون جابر» (تل الخليفة على الطرف الشمالي لخليج العقبة) وكانت نقطة بداية تحرك أسطول سليمان التجاري ، إنما كانت تمثل محطة هامة في طريق القوافل التجارية القادمة من جنوب بلاد العرب الى وادي عربة وشرق الاردن حتى سورية ، وهو طريق ذو أهمية خاصة للملك سليمان^(١٩) ، فكيف لا يعرف سليمان شيئاً عن هذه الملكة الشمالية ، سواء كانت ملكة لمملكة مستقلة أو على الجاليات السبئية في العلا ومعان ، الامر الذي يشير بوضوح الى أن هذه الملكة التي زارت سليمان إنما كانت ملكة في جنوب بلاد العرب حيث تقع دولة سبأ المشهورة .

ومنها (ثانياً) أن النص القرآني صريح في أن الملكة إنما كانت ملكة دولة سبأ ، قال تعالى : «وجئتك من سبأ بنبأ يقين» فالاية الكريمة تحدد هنا مجيء الهدد من سبأ ، ولا يعرف التاريخ دولة بهذا الاسم غير دولة سبأ المعروفة في جنوب غرب بلاد العرب ، ومنها (ثالثاً) أن وصف القرآن الكريم لملكة سبأ بها «أوثيت من كل شيء ولها عرش عظيم»^(٢٠) ، يجعلها يقينا ملكة جنوبية ، وليست شمالية ، بخاصة وأن القرآن الكريم

(١٧) سورة النمل : آية ٢٢ - ٢٦ .

(١٨) سورة النمل : آية ٢٧ .

19) O. Eissfeldt, the Hebrew Kingdom, in CAH, II, Part, 2, Cambridge, 1975, P. 593.

(٢٠) سورة النمل : آية ٢٣ .

يصف قومها بالقوة والبأس الشديد»(قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد) ، ويصف هذه الملكة بأنها صاحبة الأمر والنهى في دولتها •
«والامر اليك فانظري ماذا تأمرين»(٢١) ، ومن ثم فإن ما جاء في هاتين الايتين الكريمتين من أوصاف لهذه الملكة وقومها ، لا يمكن أن ينطبق على ملكة صغيرة في شمال شبه الجزيرة العربية ، وانما على ملكة عظيمة تجلس على عرش دولة عظيمة تدعى سبأ ، ولا يعرف التاريخ دولة بهذه الاوصاف سوى مملكة سبأ المشهورة في جنوب غرب بلاد المغرب ، وبعبارة أخرى ، فإن هذه الملكة انما هي ، على وجه اليقين ، ملكة جنوبية ، وليست شمالية •

ومنها (رابعا) أنه من المعروف أن العرب الشماليين انما كانوا يعبدون الاصنام ، بينما سادت عبادة الكواكب عند العرب الجنوبيين ، وخاصة عبادة ذلك الثالوث المشهور ، والمكون من القمر والشمس والزهرة (وكانت الشمس تمثل فيه دور الام ، ويمثل القمر دور الاب ، بينما كانت الزهرة تمثل دور الابن) وقد عبت الشمس بصفة خاصة في ممالك معين وسبأ وحضرموت وقتبان(٢٢) ، والقرآن الكريم صريح في أن ملكة سبأ هذه وقومها انما كان يسجدون للشمس من دون الله ، قال تعالى : «وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله»(٢٣) ، ومن

(٢١) سورة النمل : آية ٣٣ •

(٢٢) كانت آلهة الشمس تسمى عند المعينيين «نكرج» ، وعند السبئيين «ذات غضرون» و «ذات حمى» (ذات حميم) بمعنى ذات حرارة أو (ذات الحمى) ، والحمى الموضع الذى يحمى ، ويخصص للاله أو المعبد أو الملك أو سيد القبيلة ، والمكان الذى يحيط بالمعبد يكون حرما آمنا لا يجوز لاحد انتهاكه ، وتسمى الشمس عند القتبانيين «ذات صهرن» و «ذات رحبن» ، هذا وقد انتسب بعض العرب الى الشمس فسمى «عبد شمس» ، وطبقا لرواية الاخباريين فقد كان سبأ الاكبر ، أول من تسمى بهذا الاسم ، كما كان أول من تعبد للشمس ، ومن ثم فقد دعى «عبد شمس» (انظر عن التفصيلات والمراجع : محمد بيومى مهران : الدبابة العربية القديمة - الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٢٢ - ٢٤ ، ٨٦-٩٠) •
(٢٣) سورة النمل : آية ٢٤ •

ثم فهذا دليل واضح على أن ملكة سبأ التي زارت سليمان عليه السلام
انما كانت ملكة عربية جنوبية ، وليست شمالية .

على أن الغريب من الامر ، أن يزعم المؤرخ اليهودي يوسف بن متى
«أن ملكة سبأ هذه انما هي ملكة أثيوبية ، كما يزعم أن «سبأ Saba»
هو اسم عاصمة الاحباش ، وأن اسم الملكة هو (maukalis) ، ومن
ثم تكون ملكة سبأ حبشية ، وليست عربية^(٢٤) ، وأما الروايات الحبشية
نفسها فتذهب الى أن «منليك» أول ملوك أثيوبيا في القرن العاشر قبل
الميلاد ، انما كان ابنا لبطلة الشمس «بلقيس» (أو مكيدا أو مقيدا) وبطل
القمر سليمان الحكيم ، ومن ثم فقد حمل ملوك الحبشة (أثيوبيا) من
بين القابهم لقب «أسد يهوذا» أو «الاسد الخارج من سبط يهوذا»^(٢٥)
حتى نهاية دولتهم في (٢١ مارس ١٩٧٥) ، على أن الامر بهذه الصورة
جد مضلل ، فليس صحيحا أن اسم عاصمة الاحباش كان «سبأ» كما
زعم يوسف اليهودي ، هذا فضلا عن أن مملكة أكسوم انما قامت في
القرن الاول ق.م ، وليس في القرن العاشر ق.م ، كما تزعم الروايات
الحبشية ، كما أن ملكة سبأ ليست حبشية ، وانما هي ملكة عربية تحكم
دولة عربية في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم فليس هناك
من شك في أن تلك الاساطير نشأت بعد هجرة اليهود الى الحبشة ، في
القرن السادس قبل الميلاد ، أو القرن الاول أو حتى الثاني بعد الميلاد ،
حتى أن «ليتمان» قد قرأ في بعض نقوش الملك الحبشى «عيزانا» عبارة
«ملك صهيون» ، ورغم أن هذا الرجل الذي اعتلى العرش عام ٣٢٥ م ،
قد اعتنق النصرانية ، فربما كانت هناك حركة تبشير باليهودية

24) El, I, P. 720.

(٢٥) الحيمي الحسن بن أحمد : سيرة الحبشة - القاهرة ١٩٥٨ ،
نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ٣٧٨/٣ - ٣٨٥ ، وكذا
J. B. Conelbeaux, Histoire de L'Abyssinie, I, P. 108.
E. A. W. Budge, History of Ethiopia, Nubia and Absyssinia, I,
London, 1928, P. 193.

والتصراعية ، أو بمذهب يجمع بين الديانتين (٢٦) .

على أن هناك وجها آخر للنظر في تفسير الروايات التي تذهب الى أن ملكة سبأ حبشية ، وليست عربية ، أقدمه هنا بحذر ، واعتمد فيه على فرضين ، لا أرجح الواحد على الآخر ، أما أول الفرضين فهو أن تلك الروايات ربما كانت نتيجة انتشار آراء التوراة المضطربة حول أصل السبئيين ، فهم مرة من الساميين (٢٧) ، وأخرى من الحاميين (٢٨) ، ثم ان سبأ مرة من ولد يقطان (٢٩) ، ومرة من ولد يقشان (٣٠) ، ومن ثم فقد ذهب بعض الباحثين ، نتيجة لهذا الاضطراب الى أن هذا دليلا على انتشار السبئيين في آسيا (اليمن) وفي أفريقيا (أريتريا والحبشة) (٣١) ، وأما الفرض الثاني ، فربما كانت نفس تلك الآراء متأثرة بالرأى الذي ينادى بأن ملكة أكسوم نفسها إنما أقامها العرب الجنوبيون (٣٢) .

وتذهب الروايات العربية الى أن ملكة سبأ هذه إنما كانت تسمى «بلقيس» أو «بلقمة أو يلقة» (٣٣) ، ويرى أستاذنا الدكتور أحمد هخري طيب الله ثراه ، ان أحد الاسمين ، وربما كان يلقة ، نتيجة خطأ في النقل عن الآخر ، وربما كان اسم الاله الوثني «الموقاة» (بمعنى ايل قوى ،

26) A. Kammerer, Esia sur L'Histoire Antique D'Abyssinie, Paris, 1926, P. 68.

• تكوين ٢٨/١٠

• (٢٨) تكوين ٧/١٠ ، أخبار أيام أول ٩/١

• (٢٩) تكوين ٢٨/١٩

• (٣٠) تكوين ١/٢٥ - ٣ ، وكذا انظر :

W. F. Albright, The Bible and the Ancient Near East, London, 1961, P. 300.

31) J. Hasting, Op. Cit., P. 40. EB, P. 2564.

(٣٢) جواد على ٤٥١/٣ ، جورج فضلو حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٨٥ (مترجم) ، وكذا

F. Altheim and R. Steihl, Die Arabier in der Alten, Berlin, I, 1964, P. 114.

(٣٣) تاريخ الطبري ٤٨٩/١ ، الكامل لابن الاثير ١٢٩/١ ، البكري ١٢٩٨/٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢ - ٢١ .

أى الله قوى) يدخل تركيية ، أما اسم «بلقيس» الذى تكرر ذكره فى كتب المؤرخين المسلمين ، فلم يرد على الاطلاق بين الاسماء السبئية (على الاقل حتى الان) وهناك احتمال بأنه منقول عن العبرية التى نقلته عن اليونانية ، ومعناه «أمة» ، أو «جارية»^(٣٤) ، وأما أستاذنا الدكتور حسن ظاها ، فالرأى عنده أن اسم هذه الملكة لم يكن يقينا «بلقيس» ، وربما كانت هذه صفة تنطق فى العبرية والاشورية «بلجش» أو «فلجش» ، ومعناه العشيقة أو الزوجة غير الشرعية ، والراجع أن ملكة سبأ وصمت بذلك من الشعب اليهودى الذى لم يكن يستريح الى مثل هذه الصلات بين ملوكه والنساء الاجنبيات^(٣٥) .

وأيا ما كان اسم ملكة سبأ التى زارت سليمان عليه السلام ، وأيا كان السبب فى تسميتها بهذا الاسم أو ذاك ، كما تذكره المصادر العربية والعبرية واليونانية والحشية ، فالتوراة ترعم أن ملكة سبأ انما كانت تهدف من وراء زيارتها هذه الى البحث عن الحكمة وامتحان سليمان ، وأنها حينما تأكدت من حكمته وعظمته ملكه ، سرعان ما قدست له اسرائيل ، الذى جعل سليمان ملكا تجرى على يديه الحكمة وفصل الخطاب ، ثم دعت الله اسرائيل أن يثبت عرشه الى الابد «ليكن مباركك الهك الذى سربك وجعلك على كرسى اسرائيل ، لان الرب أحب اسرائيل الى الابد جعلك ملكا لتجربى حكما وبراً» ، ثم انتهى بأن تبادل الملكان الهدايا ، «وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب وأطيابا كثيرة جدا وأحجار كريمة لم يأت بعد مثل ذلك الطيب فى الكثرة الذى أعطته ملكة سبأ للملك سليمان» ، وأعطى الملك سليمان للملكة سبأ مشتهاها الذى طلبت عدا ما أعطهاها اياه حسب كرم الملك سليمان ، وذهبت الى أرضها هى وعبيدها^(٣٦) .

على أن هناك فريقا من الباحثين انما يجنح الى أن زيارة ملكة سبأ

(٣٤) احمد فخرى : المرجع السابق ص ٧٣

(٣٥) حسن ظاها : المرجع السابق ص ١٣٣

(٣٦) ملوك أول ١/١ - ١٣

لسليمان عليه السلام ، انما كانت لتوثيق العلاقات التجارية وتسهيل التعاون التجاري بينهما ، بل ان هناك من يزعم أن هذه الملكة لم تكن الحاكم الفعلى لمبلادها^(٣٧) ، ولكنها هي التي قامت بالزيارة ، ومن ثم فيمكن الاستنتاج من ذلك أنها هي التي رغبت في القيام بأعمال تجارية مع سليمان ، وربما كان ذلك لتنظيم سير القوافل التجارية والاشراف عليها ، على أن هناك من يرى أن سليمان هو الذى دعا ملكة سبأ لزيارته والاقامة فترة من الزمان في مكاه من هضاب أدوم لمشاهدة عمال الملك وهم يستخرجون النحاس من المناجم الممتدة من هناك^(٣٨) .

وهكذا يبعد هؤلاء الباحثون عن الاهداف الحقيقية لزيارة ملكة سبأ لنبي الله سليمان عليه السلام ، وإيمانها بدعوة النبي الكريم «قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»^(٣٩) ، يبعد الباحثون عن هذا الهدف النبيل من الزيارة فيذهبون الى أن مملكة سليمان انما كانت في نهاية طريق البخور وكان وكلاء سليمان يقومون بالاجراءات الجمركية ، ان صح هذا التعبير ، على البضائع الثمينة ، كما كانوا هم الذين يسمحون للقوافل بالاستمرار في رحلتها الى مصر وفينيقيا وسورية عبر مملكة سليمان في فلسطين ، ومن ثم فليس من الغريب أن تصل شهرة سليمان الى ملكة سبأ^(٤٠) ، وهكذا «فقد أتت اورشليم بموكب عظيم جدا ، بجمال حاملة أطيابا وذهبا كثيرا جدا ، وحجارة كريمة ، وأتت الى سليمان وكلمته بكل ما في قلبها»^(٤١) .

(٣٧) تكذب آيات القرآن الكريم هذا الادعاء ، كما يبدو ذلك واضحا من الايات ٢٣ - ٣٥ ، ٤١ - ٤٢ ، ٤٤ من سورة النمل .
(٣٨) محمد بيومى مهران : اسرائيل ٧٧٢/٢ وكذا
W. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, 1963, P. 124.
K. M. Kenyon, Excavation in Jerusalem, 1962, in PEQ, 95, in PEQ, 95, 1963, P. 7 F.

(٣٩) سورة النمل : آية ٤٤ .

(٤٠) جواد على ٢/٢٦٣ ، وكذا

J. Hastings, Op. Cit., P. 843.

O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 593

(٤١) ملوك أول ٢/١٠ .

والحق كل الحق ، أن القصة كلها انما تتصل بدعوة النبي سليمان عليه السلام ، وليس بالملك سليمان ، ولنقرأ أولاً هذه الايات الكريمة التى تصور القصة أصدق تصوير ، يقول تعالى : «وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى المهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحه أو ليأتينى بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ نبأ يقين ، انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، ألا يسجدون لله الذى يخرج الخبء فى السموات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا اله الا هو رب العرش العظيم ، قال سننظر أصدقتم أم كنتم من الكاذبين ، اذهب بكتابتى هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ، قالت : يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم ، انه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا وأتوني مسلمين ، قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ، قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين : قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ، وانى مرسله اليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون ، فاما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ، قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ، قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين ، قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ، فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أفأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربه غنى كريم ، قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ، وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين ، قيل لها ادخلى المرح فلما رآته حسبته

لجنة وكشفت عن ساقها قال انه صرح ممرد من قوارير ، قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» (٤٢) •

وهكذا تفيد الايات الكريمة ان سليمان عليه السلام ما كان يدرى شيئاً عن ملكة سبا ، وأن الهدد هو الذى اكتشفها ، كما اكتشف أنها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، ومن ثم فقد أرسل اليها سليمان عليه السلام يدعوا وقومها الى الاسلام ، وعندئذ عرضت الملكة الامر على الملأ من قومها ، وبعد اعمال الحيلة والتدبير ، عملت على أن تضع النبي الكريم موضع الاختيار ، لتصل الى رأى تطمئن اليه بشأنه بوهل هو من الهداة المرسلين ، أم من الطغاة الطامعين ، فأرسلت اليه الرسل يحملون الهدايا الثمينة ، وفي الوقت نفسه طلبت منهم أن يقفوا على قوة سليمان ، ومدى ما يمكن أن يقدر عليه من الكيدة وتهديد أمنها وأمن قومها ، ان لم تخضع لدعوته ، وذلك حتى تكون على بينة من أمرها ، وحتى يمكنها اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب •

ويعود رسل الملكة بما يؤكد لها أنها أمام نبي كريم يريد لها ، ولقومها ، الهداية الى سواء السبيل ، وليس رجلاً غرته قوته ، فأراد أن يجعل مملكته جزءاً من دولته ، فتقرر الذهاب بنفسها للقاء النبي الكريم ، وما أن تصل الملكة الى القدس حتى تجد أمامها مفاجئتين ، الواحدة : عرشها وقد نكر لها ، والاخرى : صرح زجاجى تجرى المياه من تحته ، فظهر وكأنه لجنة ، فكشفت عن ساقها لتدخل ، وهنا كشف لها سليمان عن سره فقال «انه صرح ممرد من قوارير» •

(٤٢) سورة النمل : آية ٢٠ - ٤٤ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٤٣/١٩ - ١٧٠ ، تفسير الطبرى ٢٠٨/١٩ - ٢٣٠ ، تفسير روح المعانى ١٨٢/١٩ - ٢١٠ ، تفسير القرطبي ١٧٦/١٣ - ٢١٣ ، تفسير أبى السعود ١٢٧/٤ - ١٣٤ ، فى ظلال القرآن ٢٦٣١/٥ - ٢٦٤٣ ، تفسير الكشف ١٤٢/٣ - ١٥١ ، تفسير البيضاوى ١٧٢/٢ - ١٧٨ ، تفسير النسفى ٢٠٧/٣ - ٢١٥ ، تفسير الفخر الرازى ١٨٨/٢٤ - ٢٠٠ ، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١٠٤/٥ - ١١٢ ، صفوة التفاسير ٤٠٦/٢ - ٤١٢ ، تفسير ابن كثير ٥٧٤/٣ - ٥٨٦ ، تيسير العلى القديم لتفسير ابن كثير ٣٢٠/٣ - ٢٤٠ ، تاريخ الطبرى ٤٨٩/١ - ٤٩٥ ، الكامل لابن الاثير ٢٢٤/١ - ٢٣٨ ، تاريخ ابن خلدون ١١٣/٢ - ١١٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٨/٢ - ٢٤ •

وهنا تأكدت الملكة أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر العاديين ، فرجعت الى الله تعالى ، وناجته معترفة بظلمها لنفسها ، فيما سلف من عبادة غيره ، معطنة اسلامها مع سليمان ، ليس لسليمان ، ولكن ((الله رب العالمين)) •

وهكذا كانت ملكة سبأ عاقلة رشيدة — حتى في اسلامها — فلقد اهتدى قلبها واستتار ، ومن ثم فقد عرفت أن الاسلام لله وحده ، وليس استسلاما لأحد من خلقه ، حتى وان كان هذا الاحد هو سليمان — النبي الملك صاحب المعجزات — انما الاسلام لله رب العالمين ، ومصاحبة للمؤمنين به والداعين الى طريقه على سنة المساواة ((وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)) ، وقد سجل السياق القرآني هذه اللفتة الاخيرة ، وأبرزها ، للكشف عن طبيعة الايمان بالله ، والاسلام له ، فهي العزة التي ترفع المغلوبين الى صف الغالبين ، بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله ، لا غالب منهما ولا مغلوب ، وهما أخوان في الله رب العالمين على قدم المساواة^(٤٣) •

(٤٣) في ظلال القرآن ٢٦٤٣/٥ •

الفصل الرابع

عصر الانقسام

أولا : أسباب الانقسام

في عام ٩٢٢ قبل الميلاد ، ينتقل سليمان عليه السلام الى جوار ربه ، راضيا مرضيا عنه ، ولو كرهت يهود، ولكنه في اللحظة التي دفن فيها، انما دفن معه حلم اسرائيل في أن تكون لها قوة وكيان بين جاراتها من دويلات بلاد الشام ، اذ سرعان ما تفشى الشقاق القبلى القديم بين بنى اسرائيل ومن ثم فقد انقسمت الدولة الى قسمين أو دويلتين ، الواحدة في الشمال، وتدعى اسرائيل ، والاخرى في الجنوب وتدعى يهوذا •

ومن أسف أن التوراة انما ترجع أسباب انقسام المملكة الى سليمان — دون أن تقيم أى اعتبار للنبي الكريم عليه السلام — فيذهب سفر الملوك الاول الى أن الانقسام انما كان بسبب اقبال سليمان على الزواج من نساء كثيرات ، غريبات عن بنى اسرائيل ، وسواء أكان عددهن ألفا، كما تقول التوراة ، أو ستين أو ثمانين ، كما يقول كثير من المؤرخين ، وسواء أراد سليمان من وراء هذه الزيجات أن يزيد من توطيد صلاته بجيرانه ، وخاصة مصر وفينيقيًا ، أو أن الباعث على ذلك ، فيما يرى البعض ، هو نفس الباعث الذى حمل «رعسيس الثانى» على هذا العمل بعينه وهو رغبته في أن يترك وراءه طائفة من الأبناء لهم من القوة الجنسية العظيمة ما كان له شخصيا ، فان سليمان ، فيما ترى التوراة، رغبة منه في مرضاة زوجاته وسراريه ، أو ارضاء للشعوب التى اتصل بها — طبقا لما أملته عليه الظروف السياسية والمحالفات الاجنبية والزواج والعلاقات الاقتصادية — أخذ يقيم هياكل صغيرة لعبادة الالهة الاجنبية،

بجوار هيكل يهوه ، رب اسرائيل ، ومن ثم فقد بات اله اسرائيل ، ليس
الاله الواحد ، أو الاله فحسب ، وانما مجرد اله قومي^(١) .

هذا ويذهب البعض الى أن القوم قد مارسوا في هيكل يهوه طقوس
عبادة الشمس المصرية ، والذبائح والتقدمات الكنعانية ، وحفلات بلاد
ما بين النهرين الدينية ، كالمراثي على تموز ، مما أدى الى تمزق الوحدة
الدينية بين القوم ، الأمر الذي كان بدوره سببا في تمزيق الوحدة
الوطنية^(٢) .

وانطلاقا من كل هذا ، فإن التوراة تذهب الى أن الرب قد غضب
على سليمان — وحاشاه من ذلك — «لأن قلبه مال عن الرب اله
اسرائيل» ، ومن ثم فقد شاء رب اسرائيل أن يمزق مملكة سليمان ،
ولكنه — تقديرا لعبده داود ، ومدينته اورشليم — يؤجل ذلك الى ما بعد
موت سليمان ، بل ويعطى ولده «يربعام» سبطا من أسباط اسرائيل
ليكون عليه ملكا ، وهكذا — وطبقا لرواية التوراة — ما أن يموت سليمان
حتى يمزق رب اسرائيل مملكته بين ولده «يربعام» وعبد «يربعام»^(٣) .

ومن عجب أن هذه النصوص التوراتية التي تجعل انقسام مملكة
اسرائيل بسبب الغضب على سليمان من رب اسرائيل ، تعارضها نصوص
— توراتية أيضا — تذهب الى أن رب اسرائيل قد منع داود من أن يقيم
له هيكلًا لأنه سفك دماء كثيرة ، وأن الذي سيقوم له الهيكل هو ولده
سليمان لأنه كما يقول الرب ، «يكون لى ابنا ، وأكون له أبا ، وأثبت
كرسى مملكته الى الابد»^(٤) .

(١) ملوك أول ١١/١ - ١٣ ، ول ديورانت : قصة الحضارة ٢/٣٣٣ ، وكذا

I Epstein, Judaism, 1970, P. 37.

(٢) حبيب سعيد : أديان العالم ص ١٧٢ ، وكذا

I. Epstein, Op. Cit., P. 37.

(٣) ملوك أول ١١/١ - ١٣ .

(٤) أخبار أيام أول ٦/٢٢ - ١٠ .

وهكذا نرى التوراة تكيل المديح لسليمان عليه السلام في نص ، بينما تلقى التهم على داود أو سليمان ، عليهما السلام في نص آخر ، وان كان النبيان — فيما أؤمن به كل الايمان — براء من كل تهم بنى اسرائيل ، وشطط يهود ، فهما من تلك الصفوة من أئمة البشرية ، دعاة الوحدةانية والهدى والعدالة والحق ، هذا فضلا عن أن التوراة انما تمتلئ صفحاتها بمديح سليمان ، بل ان هناك الكثير من أسفارها التي يطلق عليها علماء التوراة اسم «الاسفار الخفية» مثل أسفار : أمور سليمان وحكمة سليمان وغيرها •

ومع ذلك ، فان التوراة ، فضلا عن بعض المؤرخين ، انما يحملون النبي الكريم مسئولية انقسام مملكة اسرائيل الى دويلتين ، الواحدة اسرائيل ، والاخرى يهوذا ، ناسين أو مقتنسين أن سليمان العظيم ، هو الذي جعل من اسرائيل شعبا معروفا في التاريخ ، وسليمان هو الذي مد شهرة الاسرائيليين ، وصنع لهم كيانا ، وسليمان هو الذي أنشأ لهم معبدا ظل قرونا طويلة ، الهيكل الوحيد لهم ، وملاذهم في وقت الضيق ، كان سليمان نقطة تحول في حياة اسرائيل ، ذلك لانه علم شعبه فضل الثانون والنظام ، وبث في النفوس مبادئ الوحدة ، وأهمية الالتفات الى الصناعة ، فزادت الثروة ، وتضاعفت بفضل تشجيعه للتجارة والتجار الفينيقيين ، بتسيير قوافلهم داخل أرض فلسطين وإنشاء أسطول البحر الاحمر ، واغرائه حيرام على استخدام هذا الطريق (بدلا من طريق مصر) للتجارة مع بلاد العرب وافريقيا^(٥) •

وانطلاقا من هذا ، فالرأى عندي أن أسباب انقسام دولة سليمان بعد موته مباشرة ، انما ترجع — في الدرجة الاولى — الى ظروف المملكة الاسرائيلية نفسها ، وليس الى التهم البذيئة تارة ، والظلمة تارة أخرى والمبالغ فيها جد المبالغة تارة ثالثة ، التي تلصقها التوراة بالنبي الكريم — صلوات الله وسلامه عليه — •

(٥) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ٣/٢٧٧ - ٣٧٨ (الاسكندرية ١٩٦٦) •

كان الانقسام الخاتمة الحتمية لظروف هذه المملكة ، فمن المحقق — فيما يرى سيجموند فرويد — أن ثمة عناصر متباينة قد ساهمت في تكوين الشعب اليهودي ، غير أن الحقائق البارزة انما تثبت أن الامة اليهودية انما تكونت من اتحادين لفريقين مختلفين ، أو قل من اتصاد فريقين ، وطبقا لهذه الحقيقة فقد أقدمت الامة اليهودية — بعد فترة قصيرة من الوحدة السياسية — على الانقسام مرة أخرى الى جزئين ، الواحد يهودا ، والاخر اسرائيل^(٦) ، وهكذا كان اجتماع هذه المجاميع المتنافرة ، في بادئ الامر ، أمرا يثير العجب حقا ، وكان من الطبيعي بعد أن اختفى العنصر الذي يستطيع أن يضم بعضهم الى بعض ، أن يعودوا الى ما كانوا عليه من قبل ، كانت حاجيات الدفاع عن النفس سببا في اقامة وحدة سياسية بين القبائل العبرية في وقت كان فيه الموقف التاريخي موافقا على نحو فريد لاقامة مملكة وتوسيعها ، ولكن تلك المملكة كانت قائمة على أساس غير ثابت .

ولم تستطع سياسة التركيز والتوطيد التي اتبعتها ملوك اسرائيل العظام — كداود وسليمان ، عليهما السلام — القضاء تماما على عوامل الهدم في داخلها ، وكان أقوى عوامل الهدم هذه ، التنافس بين قبائل الشمال وقبائل الجنوب ، وهو تنافس لم يقض عليه أبدا ، بل قضى هو نفسه على دولة اسرائيل^(٧) ، اذا لاذمتهم آفتهم القديمة ، الدائمة أبدا ، بعد اقامة المملكة وتعاقب العروش ، فلم يفارقوا نظام القبيلة ، بعد محاكاتهم لجيرانهم في نظام الدولة ، ولبتوا في دولتهم — كما لبتوا في هجرتهم — قبيلة معزولة عن الامم ، بل سبطا معزولا عن سبط في داخل القبيلة وظلت لهم شريعة «العصبية القبلية» دستورا يصلح لهم وحدهم في تقديرهم ، ولكنه لا يصلح لتنظيم الدولة التي تجمعهم في كل تقدير ، وظلوا يحصرون العصبية في أضيق حدودها بين الاسباط في القبيلة

6) Sigmund Freud, moes and monotheism, N. Y., 1939, P. 44.

(٧) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ١٤١ .

O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 574-580, 585-586.

وكذا

الواحدة وينتشدون في حصر كل سبط بميراثه الى أعقاب الاعقاب^(٨) .

ونقرأ في التوراة أنه «لا يتحول نصيب اسرائيل من سبط الى سبط ، بل يلزم بنو اسرائيل كل سبط نصيب سبط آبائه ، وكل بنت ورثت نصيبا من أسباط بنى اسرائيل ، تكون لواحد من عشيرة أبيها ، لكي يرث بنو اسرائيل كل واحد نصيب آبائه ، فلا يتحول نصيب من سبط الى سبط آخر ، بل يلزم أسباط بنى اسرائيل كل واحد نصيبه»^(٩) .

أضف الى ذلك الغيرة القديمة بين سبطى يهوذا وأفرايم ، التى ترجع الى وقت دخولهم أرض كنعان^(١٠) ، ومن هنا يتجه البعض الى أن الاسباط التى انتسبت الى يوسف — الى «بيت يوسف» كما يقولون — أفرايم ومنسى ، وأحيانا سبط بنيامين — ذرية يعقوب من زوجه الاثيرة راحيل — ربما كانوا أصلا الاقوام التى تفردت فتمسك وحدها لاحقاب طويلة بلقب «بنى اسرائيل» مما دعى الى أن يتصدى لهم شتيت من كهانة «بيت يهوذا» يستنزلون عليهم اللعنات ، متهمين اياهم بالهروك عن صراط «يهوه» القويم ، فينتزعوا انتحالا لبيت يهوذا ومن لف لفهم ، مكانه «اسرائيل المصدق» ، فهم شرعا — دون شعوب الارض جميعا — أصحاب تلك الحقوق والوعود التى بذلها الرب لمن اصطفى وتخير^(١١) .

بل ان العلاقات بين يهوذا واسرائيل كانت تسودها دائما المشكوك والريبة وسرعان ما تجددت العداوة بينهما ، وادعى رجال الشمال بأن لهم فضل المبكورية على يهوذا ، كما أن قصص القائد «يواآب» — ابن صروية أخت داود ، ورئيس جيشه ، وقاتل أبينير وعماسا — كانت رمزا للغيرة الداخلية

(٨) عباس العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ص ٥٩ — ٦٠ (القاهرة ١٩٦٠) .
(٩) عدد ٣٦ : ٧ — ١٠ .
(١٠) قاموس الكتاب المقدس ٧٠/١ .
(١١) حسين ذو الفقار صبرى : انما الامور بأصولها ، المجلة ، لعدد ١٥١ ، يولية ١٩٦٩ ص ٧ .

العميقة ، التي هزت مرارا وتكرارا المملكتين — الاسرائيلية واليهودية —
في العصور التالية^(١٣) .

هذا فضلا عن أن المملكة انما كانت تنقسم الى قسمين متباينين ،
الواحد في الشمال ، ويسكنه شعب مزارع ، ويعيش في أرض خصبة
تجود بمحاصيل مختلفة ، والاخر في الجنوب ، ويسكنه شعب رعوى
يعيش بقطمائه في المرتفعات الصالحة لرعى هذه القطعان ، كانت اسرائيل
تقيم علاقات تجارية نشطة مع فينيقيا وسورية ، وقد أصبحت بحكم
موقعها على مفترق الطرق المؤدية الى آسيا وما بين النهرين ومصر ، بلدا
تجاريا ، في الوقت الذي بقيت فيه اليهودية الواقعة في القسم الجبلي
الاصعب منالا بلد الرعاة المتخلف^(١٣) وكان هذا في الحقيقة أمر لا بد
منه ، فقد كانت «اسرائيل» متصلة جغرافيا بفينيقييا مباشرة ، والاقطار
الاخرى المتحضرة من ناحية الشمال كذلك ، أما «يهودا» فقد كانت بابا
مغلقة بين اسرائيل — والتي عادة في حالة حرب معها — وبين ممالك عبر
الاردن المحاربة من ناحية الشرق ، والصحراء من ناحية الجنوب^(١٤) .

أضف الى ذلك أن القبائل الشمالية انما كانت أكثر تأثرا بحضارة
الكنعانيين ومزاولة طقوسها الدينية على نمط طقوسهم ، وذلك لانها كانت
أكثر تقبلا لتأثيرات الشعوب غير العبرية ، والتي كانت على اتصال
مستمر بها ، بينما ظلت يهوذا منعزلة في تلالها تعيش عيشة بسيطة ،
وتزاول طقوسا أكثر بساطة ، بالرغم من أن عاصمة سليمان كانت
فيها^(١٥) .

وجاءت الازمة الاجتماعية أكثر عمقا وأشد خطرا ، كانت الحياة
البدوية قد فرضت نظام حياة ، ان لم يكن ديموقراطيا بالمعنى الصحيح ،

12) S. A. Cook, CAH, 11, 1931, P. 363.

(١٣) يورى ايفانوف : احذروا الصهيونية ص ١٣ ، وكذا

V. Scranuiz and mackendich, Ancient World, P. 85.

14) K. M. Kenyon, Op. Cit, 260.

(١٥) أندريه ايمار ، وجانين أوبوايه : المرجع السابق ص ٢٦٧ .

فقوامه المساواة بين الشعب ، وذلك بفضل اشتراكية الاموال والاملاك ، فأزلته الحياة الحضرية رويدا رويدا ، ثم أفصى الاقتصاد التجارى الذى شجعته الملكية الى التفاوت الاجتماعى ، وذلك بوضع الاغنياء والفقراء جنبا ، فهاج فى النفوس الحنين الى الحياة البسيطة ، ولم تستطع تقاليد العبرانيين البدوية أن تكيف نفسها وفق الملكية فى يسر ، فعلى الرغم من أن الملكية كانت أمرا لا مناص منه ، لكى تشغل اسرائيل مكانا فى الميدان السياسى فى الشرق القديم كانت روح أهلها الاستقلالية البدوية تعرقل الملكية وتنازل منها ، وقد استعان معارضوا السلطة الملكية بالسلطة الدينية ، فأوجدوا داخل الدولة ثنائية أخرى ، الى جانب ثنائية الشمال والجنوب ، ولم يلبث «شاول» — أول ملوك اسرائيل — أن اصطدم بالكهنة ، وكان هذا هو السبب الاساسى لسقوطه ، ومجىء «داود» بعده .

وقد أدرك داود وسليمان القسوة المركزية الدينية وسلطة الكاهن الاكبر ، فاتبعوا السياسة التى يتبعها الاباطرة والملوك دائما فى مثل هذه الاحوال ، وذلك أنهما قد بسطا «حمايتهما» على الدين ، وألحقا الكاهن الاكبر ببلاطهما ، وجاهدا ليجعلا الهيئة الدينية ادارة من ادارات الدولة ، وكان أثر هذه السياسة أيضا هو ذلك الاثر الذى أورد لنا التاريخ أمثلة كثيرة أخرى له ، فقد سلك الكهنة بطبقاتهم المختلفة مسلك موظفى الدولة ، فانصببت الكراهية عندئذ على الدولة والدين الرسمى معا ، وحدث صدع بين الدين الرسمى والامال الدينية لأولئك الذين كانوا ينظرون الى الدين نلى أنه أكثر من شكل جامد ، وتطور التوتر الى معارضة ، وكان الانبياء بعد انقسام المملكة لسان هذه المعارضة ، فقيام الانبياء كان مظهرا تلقائيا لما كان يشعر به الناس من سخط على الصورة التى فرضها الحكم الملكى على الدين^(١٦) .

وأيا ما كان الامر ، فان السبب المباشر لانقسام المملكة انما يرجع

(١٦) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ١٤١ .

الى حماقة «رحبعام» بن سليمان ، في مجتمع عام ، حدث ذلك حين اجتمعت قبائل مملكة اسرائيل في «شكيم» — (على مبعده ٦ أميال الى الشمال الغربى من السامرة ، ٣١ ميلا شمال اورشليم) — وأتى «رحبعام» الى هناك ، وأرادت القبائل الاسرائيلية أن تجعله ملكا وخليفة لأبيه سليمان ، أى أن هذه القبائل انما أرادت أن تناقش معه أمر التبيين ، وأن يملوا شروطهم ، وهذا يعنى أن القبائل الاسرائيلية لم نعترف بالوراثة التقليدية التى حدثت فى الحالات الضرورية ، كالتى تبعث سقوط «شاؤل» بسبب نفوذ «أبنير» المهاب ، ومرة أخرى عند وفاة داود ، بسبب قوة سلطته الشخصية العظيمة ، ومثلها كان من قبل فى حالة تنويج «شاؤل» ملكا ، وفوق كل شئ ، عندما اختير داود ملكا على اسرائيل ، وهكذا فانهم انما أرادوا أن يمنحوا التاج بأنفسهم لرحبعام ، وأن يعقدوا معه ميثاقا ، وقد أعطوه أفضلية على غيره ، بصفته الابن الأكبر لسليمان العظيم ، ولكنهم طلبوا منه تأكيدا بإنهاء الاعباء التى أصبحت لا تطاق منذ أيام سليمان ، وبدهى أن من هذه الاعباء الجزية النوعية ، طالما أن المدينة الكنعانية السابقة هى التى احتضنت الحركة ، والامر كذلك بالنسبة الى السخرة (١٧) .

ويبدو أن فريقا من المؤرخين قد وجدوا غرابة فى أن ملكا ، كان له الحق — كما كن لأبيه من قبل ، ولابنه من بعد — فى أن يجلس على العرش بحق الوراثة ، ومع ذلك فهو يرضى بأن يطرح حق وراثته العرش لصديق الشعبى ، ومن هنا فان هذا الفريق من المؤرخين انما يستنتجون أن «اجتماع شكيم» انما كان اجتماعا ثوريا قصد منه الملك محاولة استعادة الاسرائيليين الذين تمردوا من قبل ، وليس لتنصيبه ملكا ، كما تنول النوراة (١٨) ، ولكن حكم الوراثة المطلق لم تكن قد ثبتت أقدامه بعد فى اسرائيل ، حتى يستطيع الملك أن يعفى من متاعب الحصول على المرافقة الشرعية ، سواء فيما يختص بتعاقب الملوك ، وبخاصة فى أوقات

17) M. Noth, Op. Cit., P. 226-227.

(١٨) ملوك أول ١٢ : ١ - ١١ .

المحن (١٩) ، أو حتى في أمور التشريع المهمة (٢٠) .

ومن هنا ، فانه من المسلم به أن الملك — وقد أدرك الحالة القلقة التي كانت تسود الشعور العام وقت ذاك — رأى أنه من الحكمة السياسية أن يبدي اهتماما خاصا برعاياه الشماليين ، وذلك بان يجيء اليهم في عقر دارهم ، ليعلم نفسه ملكا بينهم ، ومع ذلك كله ، فعلينا ألا ننسى أن «اجتماع شكيم» كان يعنى مواجهة من المتمردين للملك ، ومن هنا فعلينا أن نرفض بقية الرواية كلها (٢١) .

وعلى أى حال فان شيوخ القبائل حين تقدموا الى «رحبعام» طالبين منه أن يخفف عنهم عبء الضرائب التي أثقل بها والده كاهلهم ، فانه قد ذهل من هذه المطالب ، وأمهلهم ثلاثة أيام قبل أن يرد عليهم ، وحين انتهت المهلة لم يكن رحبعام موافقا في الرد عليهم ، فقد كان الاخرى به أن يقابل الموقف الخطير بكياسة ولباقة ، ولكنه ركب رأسه في عناد يستره الضعف عادة ، وأجاب شيوخ القبائل جوابا غليظا ، رغم أن الشيوخ من مستشاريه نصحوه بالاستجابة الى مطالب الشعب ، غير أنه لم يستمع . لا الى نصيحة الاحداث من أقرانه ، الذين أوغروا صدره ضد الشاكين ، ومن ثم فقد كان رد «رحبعام» «ان خنصرى أغلظ من متن أبى ، والان أبى حملكم نيرا ثقيلًا ، وأنا أزيدكم على نيركم ، ان أبى أدبكم بالسياط ، وأنا أودبكم بالعقارب» ، وكانت تلك هى اللحظة التي علنت فيها القبائل الشمالية انفصالها عن «بيت داود» ، وهكذا عادت الى الحياة ، مرة أخرى ، كلمة سادت يوما ما موقفا خطيرا في عهد داود ، من أن اسرائيل لم يعد لها دور في عهد أسرة داود اليهودية ، أو على حد قول التوراة : «اي قسم لنا في داود ، ولا نصيب لنا في ابن يسى ، الى خيامك

(١٩) صموئيل ثان ١٦ : ١٨ ، ملوك أول ١ : ٤٠ ، ٢ : ١٥ ، ملوك ثان ١١ : ٤ - ٢٠ ، ٢٣ : ٣٠ .
(٢٠) ملوك ثان ٢٣ : ٢٣ ، ارميا ٣٤ : ٨ - ٢٢ .

21) A. Lods, Op. Cit., P. 372-373.

يا اسرائيل ، الان انظر الى بيتك يادود ، وذهب اسرائيل الى خيامهم» (٢٣) .

وهنا فلسنا ندري شيئاً على وجه التحقيق عن الدور الذي قام به «يربعام» من وراء الستار ، وان كنا ندري تماماً — طبقاً لرواية التوراة في الملوك الاول — أن رجبعام قد أرسل «أدورام» — مسئول التفسير — ليمسك بزمام الموقف ، ولكنه دفع حياته ثمناً لهذا الموقف رجماً بالحجارة ، وعندئذ هرب رجبعام في عربته الى اورشليم ، «وعصى اسرائيل على بيت داود» (٢٤) كما أننا ندري كذلك ، وطبقاً لرواية أخرى في التوراة أن رجبعام رفض أن يمنح رعاياه طلباتهم العادلة ، لان «يهوه» انما أراد أن يحقق وعيده بانشقاق الوحدة القومية (٢٥) .

ويحاول «رجبعام» بعد ذلك أن يستعيد سلطته على كل اسرائيل ، ومن ثم فقد «جمع كل بيت يهوذا وسبط بنيامين ، مئة وثمانين ألف مختار محارب ، ليحاربوا بيت اسرائيل ، ويردوا المملكة لرجبعام بن سليمان ، ولكن «شمعيا» — رجل الله — يتصدى لرجبعام ويعلمه أن تلك ارادة رب اسرائيل ، فيصدع رجبعام بالامر ، وتنتهي المشاكل عند هذا الحد (٢٥) ، وتنقسم اسرائيل الموحدة الى دويلتين ، الواحدة اسرائيل ، وعليها «يربعام» الافرامى ، الذى كان رئيساً للتفسير على أيام سليمان ، والاخرى يهوذا ، وعليها رجبعام بن سليمان غير أن مركز النشاط منذ هذه اللحظة ، وحتى سقوط السامرة في عام ٧٢٢ ق م ، انما سوف ينتقل الى الشمال ، بينما تبدأ يهوذا تغيب نسبياً في غياهب الظلمات (٢٦) .

وهكذا يصدق التاريخ الى حد كبير ، ما ذهب اليه «فرويد» من أن

(٢٢) ملوك أول ١٢ : ١ - ١٦ ، صموئيل ثان ١: ٢٠ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٣٩١ - ٣٩٢ . وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 227.

(٢٣) ملوك أول ١٢ : ١٨ - ١٩ .

(٢٤) ملوك أول ١٢ : ١٥ .

(٢٥) ملوك أول ١٢ : ٢١ - ٢٤ .

(٢٦) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٣٩٣ .

تاريخ بنى اسرائيل انما يقوم على الثنائية ، كان هناك شعبان اندمجا معا في امة واحدة ولم تلبث هذه الامة أن انقسمت الى مملكتين ، وهناك اسمان للاله في أصل التوراة الواحد يهوه ، والاخر ألوهيم — بل كانت هناك عقيدتان في الواقع ، طردت الاولى بواسطة الثانية ، ولكنها لم تلبث أن ظهرت منتصرة في النهاية (٢٧) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى تناقض نصوص التوراة بشأن الاسباط التي تكونت منها كل من دويلتي يهوذا واسرائيل ، فهي تشير مرتين (٢٨) الى أن يهوذا ، انما أصبحت تتكون من سبط يهوذا وحده ، ولكنها تشير مرة ثالثة (٢٩) الى أنها تتكون من سبطي يهوذا وبنيامين، وأن اسرائيل انما تتكون من الاسباط العشرة الباقية (٣٠) ، وفي الواقع أن الامر ليس كذلك ، لان اسرائيل انما كانت تتكون من الاسباط التسعة الشمالية فقط (راؤبين وجاد وأفرائيم ومنسى وأشير ويساكر وزبولون ونفثالي ودان) ، وأن يهوذا انما كانت تتكون من سبطي يهوذا وبنيامين ، فضلا عن سبط «شمعون» ، والذي كانت دياره تقع الى ما وراء حدود يهوذا من جهة الجنوب ، ولم يقل أحد أن دويلة اسرائيل كانت لها ممتلكات الى الجنوب من يهوذا ، وحتى لو صدقنا ما ذهب اليه «مارتن ثوث» من أن قبيلة شمعون كانت تعيش على هامش القبائل الاسرائيلية ، وأنها لم تحتل المكانة التي تجعلها تقوم بدور مستقل في العصر التاريخي المعروف لنا (٣١) ، فإن هذا لا يغير شيئا من الصورة التي قدمناها من قبل .

وأخيرا ، فليعلم من المفيد أن نشير الى أن انضمام بنيامين مع يهوذا ، ضد أفرائيم ، انما كان أمرا غير منتظر من هذا السبط بالذات ، ذلك لان بنيامين من «بيت يوسف» (أفرائيم ومنسى وبنيامين) ، أبناء «راحيل» ،

27) S. Freud, Op. Cit., P. 64.

(٢٨) ملوك أول ١١ : ٣٦ ، ١٢ : ٢٠ .

(٢٩) ملوك أول ١٢ : ٢٣ .

(٣٠) ملوك أول ١١ : ٣٥ .

31) M. Nath. Op. Cit., P. 58.

وليس من «بيت يهوذا» أبناء «ليئة» ، هذا فضلا عن أن أبناء سبط بنيامين كان من المنتظر أن يكونوا هم المنافسون لبيت يهوذا ، على أساس أن عرش اسرائيل انما كان لهم قبل أن يكون لبيت يهوذا ، وذلك منذ اختيار «شاول» كأول ملك لاسرائيل ، ثم ولده «ايشبعل» من بعده ، بل أن الكثيرين من البنيامينيين انما كانوا يعتقدون أن «آل داود» انما قد اغتصبوا حقهم في العرش ، ومن ثم فقد كانوا من أكثر القبائل الاسرائيلية معارضة لبيت داود ، ويذهب المؤرخ اليهودي «سيسل جوزيف روث» الى أن الفضل في ذلك انما يرجع الى المهارة السياسية لداود وولده سليمان ، تلك المهارة التي جعلت بنيامين الان تلقى بكل ثقلها — وبمفردها مع البقية الباقية من سبط شمعون — في جانب يهوذا، ضد رهطهم الالانيين من الالرايين (٣٢) .

وأيا ما كان الامر ، فقد بدأ عصر جديد في تاريخ اليهود ، عصر لم يعرف فيه بنو اسرائيل الامن والسكينة ، اللتين طالما تمتعوا بها على أيام سليمان ، فقد كان موقع فلسطين بين عواصم النيل والدجلة والفرات والذي جاء لليهود بالتجارة على أيام سليمان ، هو نفسه الذي سيجيء اليهم بالحرب في البقية الباقية لهم من ايام في فلسطين . وكم من مرة ضيق على اليهود ، فلم يجدوا لهم مخرجا من ضيقهم الا بالانضمام الى احد الطرفين في الصراع القائم بين الامبراطوريات الكبرى — في مصر والعراق القديم — أو بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون ، وكم من مرة اجتاحت المصطرون بلادهم ، وكان من وراء التوراة ، ومن وراء صراخ أصحاب المزامير والانبياء وعويلهم وطلبهم الغوث من رب السماء ، كان من وراء هذا كله موقع اليهود الذي تتهدده الاخطار ، بين شقى الربحى، من فوقهم دول أرض الجزيرة ، ومن تحتهم أرض النيل (٣٣) .

وأما عن جيرانهم المباشرين ، فان الامارة الالامية التي ظهرت في «دمشق» على أيام سليمان ، سرعان ما أصبحت مركزا لقوة جديدة

32) C. Roth, Op. Cit., P. 23

(٣٣) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣٢١ .

بمذنها القديمة التي انضمت اليها سريعا ، وهكذا أصبحت دمشق عدوا صعب المراس بالنسبة لاسرائيل ، بل وطالما فرضت نفوذها عليها ، وأما «عمون» فقد ضاعت هيبة اسرائيل فيها ، ولم يعد لملك اسرائيل الجديد أية رابطة من أى نوع كان مع مملكة عمون ، والتي اعتبرها داود ذات مرة من أملاكه الخاصة وان كانت مملكة «أدوم» بقيت على صلة لفترة ما بمملكة يهوذا .

وأما مملكة اسرائيل نفسها ، فقد غدت مسرحا لكثير من الفتن ، فشهد القرن الذى أعقب الانفصال أكثر من أربعة أسر (يربعام وبنعشا وعمرى وياهو) تداولت الملك فيما بينها ، وهكذا نجد المجتمع الاسرائيلى لا يخرج من دوامة الا وتتلقفه أخرى ، وتتحول اسرائيل الى مسرح للانقلابات السياسية ، فلا يكاد يتربع على عرشها ملك حتى يقتله آخر ويحل محله ، معتقدا أو مدعيا أنه يحرر الشعب ، ويأخذ بيده الى العزة والرفاهية ، وبينما تسود هذه الاحوال فى داخل اسرائيل ، اذا بجيرانها يهتبلون الفرصة وينتقصون من حدودها ، فتستولى دمشق على الجليل وجلعاد ، وهكذا أخذت اسرائيل تنكمش وتتضاقل بعد أن فقدت نصف مساحتها ، وشرد نصف سكانها ، وتحولت الى مستعمرة صغيرة ممزقة الاوصال ، تنتظر مصيرها المحتوم ، ألا وهو الموت^(٣٤) ، وقد كان ذلك فى عام ٧٢٢ ق.م ، على يد «سرجون الثانى» ملك آشور . (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) .

وأما «يهوذا» فقد غدت دويلة أهميتها السياسية ضئيلة ، وعزلتها بين تلالها فى الجنوب ، جعلتها ترقب تيارات الامبراطوريات دون أن تتحرك ، ولم تجد القوى الاجنبية أية صعوبة فى اقامة علاقات معها ، وأما التجار الاجانب فقد تحولوا عنها بازدراء ، وقد وجهد النفوذ الاجنبى - سواء أكان ذلك فى السياسة أم فى الديانة - فرصة ليمتد

(٣٤) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٤٥ .

الى كل شئونها^(٣٥) ، ثم ليقتضى عليها آخر الامر في عام ٥٨٧ ق م ، على يد العاهل البابلي «نبوخذ نصر» • (٦٠٥ - ٥٦٢ ق م) •

هذا ، ولم يكن هناك وفاق بين الدولتين (اسرائيل ويهوذا) ، فقد كانت الواحدة منها تريق دماء الاخرى في نزاع اثر نزاع ، من أجل الحدود تارة ، ومن أجل سيطرة الواحدة على الاخرى تارة أخرى ، وهكذا منذ البداية ، «كانت حروب بين رحبعام ويربعام كل الايام» ، وقد ظلت الحروب مشتتة الاوار بينهما ، يرثها خلف عن سلف ، «وكانت حرب بين أساويعشا ملك اسرائيل كل أيامها»^(٣٦) ، ومن ثم فقد اضطرت يهوذا أن تقيم «قلعة المصفاة» على الطريق الاستراتيجي الرئيسي من اورشليم الى الشمال ، كما اضطرت كذلك الى تحصين «جبج» - والتي تقع في نهاية حدودها الشمالية ، وعلى مبعده ٦ أميال شرقي اورشليم - وهكذا فقد «حملوا كل حجارة الرأمة وأخشابها التي بناها بعشا» وبنى بها الملك أساجبع بنيامين والمصفاة» ، وكانت تلك هي الحدود النهائية بين الدوليتين اليهوديتين - اسرائيل ويهوذا - (٣٧) •

وقد كشفت بعثة أمريكية من «مدرسة الباسفيك للديانة» تحت اشراف «الدكتور وليم فردريك بيد» في الحفريات التي قامت بها فيما بين عامي ١٩٢٦ - ١٩٣٥ م ، في «نقل النصب» - على مبعده سبعة أميال الى الشمال من اورشليم - بقايا حصن الحدود القديم في «المصفاة» ، وكان سمك الحائط ٣٦ قدما ، ولعل هذا الحائط الدفاعي المهائل يرينا كيف كانت الحرب الاهلية التي استمر أوراها بين اسرائيل ويهوذا ، قاسية مريعة^(٣٨) •

35) C. Roth, Op. Cit., P. 40.

(٣٦) ملوك أول ١٤ : ٣٠ ، ١٥ : ١٦ .

(٣٧) ملوك أول ١٥ : ٢٢ .

38) W. Keller, The Bible As History, 1967, P. 224-225.

J. Muilenburg, in Stulia Theologica, 1955, P. 21-24. وكذا

G. E. Wright, BA, Io, 1947, P. 69-77. وكذا

J. Finegan, Light From the Ancieant past, 1969, P. 175. وكذا

وعلى أى حال ، فإن هذه الحروب بين القبائل الشمالية والجنوبية لم تكن مقصورة على فترة دون أخرى ، ذلك لأننا نسمع دائما عن اقتتال اسرائيل ويهوذا بين الفينة والفينة ، بل ان الفتوراة نفسها كثيرا ما تختتم حديثها عن كل ملكين متعاصرين فى يهوذا واسرائيل بهذه العبارة «وكانت بينهما حرب كل الايام» وصدق الله العظيم ، حيث يقول فى سورة الحشر : «بأسهم بينهم تسديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون»^(٣٩) ، والتاريخ يحدثنا أن نتيجة هذه الحروب انما كانت دائما فى جانب قبائل الشمال ، بل ان دخول ملوك اورشليم فى طاعة أهل الشمال من الوجهة السياسية — انما كان تاما — أو يكاد — قرابة عام ٨٦٠ قبل الميلاد^(٤٠) .

(٣٩) سورة الحشر آية ١٤ ، وأنظر : تفسير القرطبي ص ٦٥١٤ — ٦٥١٥ (دار الشعب القاهرة ١٩٧٠) ، تفسير ابن كثير ١٠٠/٨ (دار الشعب القاهرة ١٩٧٣) .
(٤٠) تيودور روبنسون : تاريخ العالم — اسرائيل فى ضوء التاريخ ، ترجمة عبد الحميد يونس ، ص ١١٢ .

ثانيا : دويلة اسرائيل

(١) أسرة يربعام (٩٢٢ - ٩٠٠ ق.م) :

كان «أخيا الشيلوني» - فيما تروى التوراة - قد تنبأ بأن «يربعام بن ناباط» الافرايمي من «صردة» (دير غسانة على مقربة من عين صردة ، على مبعدة ١٥ ميلا جنوب غرب القدس) سوف يخلف سليمان عليه السلام على عشرة أسباط من أسباط اسرائيل الاثنى عشر، فغضب سليمان ، وهرب «يربعام» الى مصر ، وكانت مصر قد غيرت سياستها نحو سليمان ، أو ربما بدأت ترى أنه لا تعارض البتة بين صداقتها لسليمان ومصاهرتة ، وبين أن تكون في نفس الوقت المأوى الذى يلجأ اليه أعداؤه ، فضلا عن الثائرين عليه ، وهكذا استقبل يربعام بترحاب من فرعون ، الذى أعطاه الامان والحماية ، وساعده في اعتلاء عرش دويلة اسرائيل بعد الانقسام ، خاصة وأن هناك من يزعم أن الرجل انما كان من أم مصرية - كما كانت زوجه كذلك - بل ويزعم أن الغزو المصرى ليهودا - تحت قيادة «شيشنق الاول» ، وسقوط اورشليم تحت أقدام الجيوش المصرية - انما كان في فترة سابقة لثورة اسرائيل على يهوذا^(١) .

وعلى أى حال ، فلقد اختير «يربعام» (٩٢٢ - ٩٠١ ق.م) ملكا على اسرائيل ، بقرار من مجلس شكيم ، الذى اجتمع لمبايعة «رحبعام بن سليمان» على شروطهم ، فضلا عن اختيار سابق من رب اسرائيل (يهوه) على لسان نبيه «أخيا الشيلوني» .

وقد اختار «يربعام» «شكيم» (تل بلاطة شرقي نابلس) عاصمة لها،

1) H. R. Hall The Ancient History of The Near East, London, 1963, P. 436-437.

وأنظر : محمد بيومى مهران : اسرائيل ٨٩١/٢ - ٨٩٢ .

ثم سرعان ما تحول عنها الى «فنوئيل» (تلول الذهب الحالية) ، ولعل هذا التحول السريع من شكيم غرب الاردن الى فنوئيل في شرقه انما يرجع الى اضطراب الامور في اسرائيل ، ربما بسبب تهديد رحبعام لشكيم ، وربما بسبب تهديد مصر لفلسطين ، وان كان هذا الاتجاه يتعارض وتعضيد مصر ليربعام ، ومساندتها لثورته^(٢) ، وعلى أية حال، فلقد اتخذ يربعام من فنوئيل عاصمة له ، ثم سرعان ما عاد مرة أخرى الى غرب الاردن ، حيث اختار «ترزة» (ترصه) عاصمة له — وهي تل الفارعة الحالية على مبعدة ٧ أميال شمال شرق شكيم — واستمرت ترزة عاصمة للملك اسرائيل حتى السنة السادسة من عهد عمري ، الذي نقل عاصمته الى السامرة^(٣) .

وبدا يربعام يفكر في وسيلة للحفاظ على ولاء شعبه له ، وفي نفس الوقت ايجاد نوع من التوازن الديني بين مقدسات القبائل الشمالية وبين معبد اورشليم الذي كان يجذب اليه أبناء القبائل التي كانت تعيش في مملكته اسرائيل ، للحج وتقديم القرابين هناك ، على أساس أنه المحراب الرئيسي للقبائل الاسرائيلية الاثنى عشر ، حتى وان نبذت سلطة آل داود الملكية ، ولم يكن يربعام راضيا عن ذلك لان هذا يعنى أن هناك رابطة غير مباشرة تربط القبائل بأسرة داود ، الامر الذي يخشى منه يربعام عودة الملكية الى بيت داود^(٤) .

ومن ثم فقد استقر رأيه على أن يعيد للمكانين اليهوديين المقدسين القديمين

(٢) ملوك أول ٢٥/١٢ ، قضاة ٦/٩ ، ٢٠ - ٢١ ، وكذا

A. Lods, Op. Cit., P. 344, 374.

M. Noth, Op. Cit., P. 152.

(٣) هـ . وولى : أطلس الكتاب المقدس ص ١٥ ، ٢٢ ، وكذا

J. Finegan, Op. Cit., P. 183-184

C. E. Wright, BA, 20, 1957, P. 1-32, BASOR, 148, 1957, P. 11-28.

M. F. Unger, Op. Cit., P. 843, 1102.

H. Kee and L. Toombs, BA, 20, P. 82-102.

(٤) محمد بيومى مهران : اسرائيل ٨٩٤/٢ ، ملوك أول ١٢/١٢

٢٥ - ٢٧ .

مكانتهما ، وكان الواحد منهما في «بيت ايل» (برج بيتين على مقربة من بيتين الحالية ، على مبعدة ١٠ ميلا شمالي القدس) ، وكان الآخر في «دان» (تل القاضى الحالية على مبعدة ٣ ميلا غربى بانياس عند منابع الاردن) وزود كل منهما «بالعجل الذهبى» وربما زودت السامرة كذلك بعجل ذهبى ، كما جاء في سفر هوشع^(٥) ، وهكذا عمل يربعام على تقويض مركز اورشليم الدينى ، فضلا عن أن يهوز بعضا من الولاء الذى كانت تتمتع به العاصمة القومية^(٦) .

ومع ذلك كله ، فان مراكز العبادة الاسرائيلية ما كانت بقادرة على منافسة تابوت اورشليم ومكانته التقليدية الفريدة في الحياة القبلية ، حتى لو أمدها ملوك اسرائيل بكل المقومات اللازمة ، وبكهنه يعينهم الملك ، وينظم من الاحتفالات كان تقليدا لمثله المرعى في اورشليم^(٧) ، وان كانت عجول يربعام الذهبية قد فتحت الطريق لعبادة البعل ، بعد أن غابت عن البلاد منذ أيام صهوئيل النبى^(٨) .

وعلى أى حال ، فلقد استمر يربعام في اجراءات الانفصال عن يهوذا ، فاختار كهنته من غير اللاويين ، كما اعتنى كثيرا بالاماكن المقدسة المقامة على المرتفعات ، مما دفع الكثير من اللاويين وغيرهم من المتدينين الى الهجرة الى يهوذا ، هذا فضلا عن التغيير الذى أحدثه في «عيد المظال» واحتفالات الحصاد الدينية من الشهر السابع الى الشهر الثامن ، وان رأى البعض أن التغيير قد حدث في يهوذا ، وليس في اسرائيل ، فذلك لان عيد المظال انما كان يتم بمجرد أن تجمع آخر ثمرة من محصول العام في اسرائيل ويهوذا ، على أيام الوحدة بينهما ، وعندما تم الانفصال فقد كان من الطبيعى أن يعقد هذا الاحتفال في يهوذا ، قبله في اسرائيل ،

(٥) ملوك اول ٢٧/١٢ - ٣٣ ، هوشع ٥/٨ - ٦ ، وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 232.

6) C. Roth, Op. Cit., P. 24-38.

7) M. Noth, Op. Cit., P. 232.

8) T. Epstein, Op. Cit., P. 38

لأن الثمار انما كانت تنضج في يهوذا ، قبل أن تنضج في اسرائيل (١٧) .

وجاء «ناداب» (٩٠١ - ٩٠٠ ق.م) بعد أبيه يربعام الاول ، ثم قتل في «جيبثون» (تل الملات على مبعدة كيلا جنوب تمنة) وتصفه التوراة بأنه «قد عمل الشر وأخطأ الى الله مثل أبيه» (١٨) .

(٢) أسرة بعشا : (٩٠٠ - ٨٧٦ ق.م) :

جاء بعشا (٩٠٠ - ٨٧٧ ق.م) على عرش اسرائيل ، بعد أن اغتال «ناداب» ، وبدأ يبيد من بقى من نسل يربعام على قيد الحياة ، وأن يهاجم «أسا» ملك يهوذا ، ويحتل الرامة (على مبعدة ه أميال شمال القدس) وأن يجعل منها حصنا اسرائيليا (١١) مما اضطر «أسا» الى أن يحتوى بملك «دمشق» «بن هدد» والذي قام بمهاجمة اسرائيل «وضرب عيون ودان وآبل بيت معكة وكل كتروت ، مع كل أرض نفتالي» (١٢) ، وكان التجار الدمشقيون يرغبون في هذه المناطق الشمالية من اسرائيل لتأمين اتصالاتهم مع المدن الساحلية (١٣) ، كما استعاد «أسا» الرامة ، والتي أصبحت منذ ذلك الحين حدا ثابتا يفصل بين اسرائيل ويهوذا ، ثم سرعان ما تصبح التلال في منطقة الطريق الرئيسي ، الذي يسير متوازيا مع خط تقسيم المياه ، خط الحدود بين الدويلتين ، وتحتفظ يهوذا بجزء هام من منطقة بنيامين لحماية المدينة الملكية اورشليم (١٤) .

وجاء «ايله» (٨٧٧ - ٨٧٦ ق.م) بعد أبيه «بعشا» ، غير أن «زمرى» سرعان ما يغتاله ، ويأمر بقتل جميع أفراد العائلة المالكة ، حتى

(٩) ملوك أول ٣١/١٢ - ٤٣ ، وكذا

(١٠) ملوك أول ١٠/١٤ - ١٢ ، ٢٥/١٥ ، قاموس الكتاب المقدس ٩٤٦/٢ ، محمد بيومي مهران : اسرائيل ٨٩٥ - ٨٩٦ .

(١١) ملوك أول ١٧/١٥ - ٣١ ، قاموس الكتاب المقدس ١/

١٨١ .

(١٢) ملوك أول ٢/١٥ .

(13) A. Lods, Israël, From its Beginnings to The Middle of The Eighth Century, London, 1962, P. 376.

(١٤) ملوك ثان ٨/٢٣ ، وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 235 - 236 .

لم يبق منهم - على حد تعبير التوراة - «بائِل بصائط» ، ثم يقوم الجيش بمحاصرة «جبثون» الفلسطينية ، ويعطى قائده «عمرى» ملكا على اسرائيل (١٥) .

(٣) أسرة عمرى (٨٧٦ - ٨٤٢ ق م) :

أسرع «عمرى» (٨٧٦ - ٨٦٩ ق م) بعد أن أعلنه الجيش ملكا فى «جبثون» الى «قرزة» وحاصرها ، وأصبح الموقف ميئوسا منه بالنسبة الى «زمرى» ، ومن ثم فقد أشعل النار فى القصر وأحرق نفسه داخله ، وظن عمرى أن الجـاـو قد خلا له ، غير أن «تبغى» و «يورام» ولدى «جينه» ، ومن ورائهما نصف اسرائيل ، قد اتخذوا جميعا موقفا معارضا من تعيين «عمرى» ملكا على اسرائيل ، وأخيرا - وبعد صراع دام أربعة أعوام - أحرز عمرى انتصاره التام ، ومن ثم فقد أصبح مؤسسا للأسرة حكمت اسرائيل فترة تجاوزت الثلاثين عاما ، عرفت فيها اسرائيل فى الوثائق الاشورية باسم «أرض عمرى» أو «أرض بيت عمرى» وحتى بعد سقوط أسرته ، فقد كان ملك اسرائيل بالنسبة اليهم هو «ابن عمرى» وربما يعزى هذا بدرجة ما الى أن بنى اسرائيل قد اتصلوا بآشور لأول مرة ، أثناء عهد أسرة عمرى ، وربما أثناء عهد عمرى نفسه ، ولعله هو نفسه الملك الاسرائيلى الذى أرسل بهداياه الى «آشور ناصر بال الثانى» (٨٨٣ - ٨٥٩ ق م) ، عندما تقدم العاهل الاشورى حتى نهر الكلب ، على مقربة من بيروت (١٦) .

ولعل ما تجدر الاشارة اليه أن اسم «عمرى» - وكذا اسم ولده «أخاب» - لا يبدو أنه اسم اسرائيلى ، وربما كان عمرى ذا أصول عربية ، كما يمكن تفسير اسم أخاب على أنه تسمية عربية كذلك (١٧) ، فضلا عن أسماء «عمرى وزمرى» لها أسماء عربية مماثلة (١٨) ، ومن هنا

(١٥) ملوك أول ١٥/١٦ - ١٧ ،

16) A. Lods, Op. Cit., P. 377.

17) M. Noth, Op. Cit., P. 230.

18) S. A Cook, Op. Cit., P. 361.

فربما كان اسم عمرى ، يدل على أصل عربى ، أو بالاحرى «نبطى»^(١٩) ، وان ذهب البعض الى أنه اسم عبرى ، بمعنى «مفلح»^(٢٠) ، وعلى أية حال ، فاننا لا نعرف شيئا عن أسرة عمرى قبل توليته العرش ، وأنه كقائد «المليشيا» لابد وأنه قد ظهر من بين صفوف المرتزقة ، والتي كانت دائما تتكون من عناصر مختلفة الاصول كلية^(٢١) .

هذا وقد استمر عمرى يحكم من «ترزة» ، ولكنه فى العام السادس من الحكم (حوالى عام ٧٧٠ ق.م) اشترى تلافى قلب الهضبة السامرية من «شامر» بوزنتين من الفضة ، وأقام عليه عاصمة اسرائيل الجديدة ، ولمدة قرن ونصف بعد ذلك ، وسماها «السامرة» (سبسطية الحالية على مبعده ٦ أميال شمال غرب شكيم ، تل بلاطة شرقى نابلس) نسبة الى شامر صاحب التل القديم^(٢٢) ، أو بمعنى «مركز المراقبة»^(٢٣) أو «جبل المراقبة أو الحراسة»^(٢٤) ، وقد أثبت موقع المدينة خبرة من اختاره بالاعتبارات الاستراتيجية فالسامرة تقع على تل منعرل يقرب ارتفاعه من ٣٠٠ قدم ، ويرتفع تدريجيا من واد متسع خصب ، وتحيط به شبه دائرة من الجبال العالية ، كما أن هناك ينبوعا محليا يجعل المكان مثاليا فى حالة الدفاع^(٢٥) . كما أثبتت حفائر أعوام ١٩٠٨/١٩١٠م^(٢٦) مواعوام

(١٩) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٠٩ .

(٢٠) قاموس الكتاب المقدس ٦٣٨/٢ .

21) M. Noth, Op. Cit., P. 230.

(٢٢) ملوك أول ٢٣/١٦ - ٢٤ ، قاموس الكتاب المقدس ٤٤٨/١ -

٤٤٩ .

23) A. Lods, Op. Cit., P. 378.

24) J. Finegan, Op. Cit., P. 185.

وانظر : جون الدر : الاحجار تتكلم - ترجمة عزت زكى - القاهرة ١٩٦٠ ص ٨٦ .

25) W. Keller, Op. Cit., P. 227.

26) G. A. Reisner, C. S. Fisher and D. G. Lyon, Harvard Excavations at Samaria, 1908-1910, 2 Vols, 1924.

١٩٣١/١٩٣٣ ، ١٩٣٥م في الموقع (٢٧) .

هذا فضلا عن أن عمرى انما كان يريد أن يقيم مقرا ملكيا في مدينة ليست على مثال «شكيم» مرتبطة بقبيلة خاصة، وليست تحت ضغط هجوم مفاجيء يمكن أن يقضى عليها ، كما كان الامر بالنسبة الى «ترزة» التي استولى عليها المهاجمون في أقل من أسبوع ، هذا فضلا عن أن «السامرة» انما كانت تقع على الطريق الرئيسى من الشمال الى الجنوب، وفي حماية من أى هجوم يقم عليها من ناحية يهوذا ، وعلى اتصال بسهل فينيقيا في وقت كان فيه «عمرى» راغبا في اقامة علاقات مع مدن فينيقيا — حتى أنه زوج ولده أخاب من «ايزابيل» أميرة صور — والامر كذلك بالنسبة الى الغرب ، حيث تقع أغنى أراضي مملكته ، وهكذا كانت السامرة مركز قوة ، أكثر مما كانت عليه «ترزة» بكثير .

وأخيرا فقد كانت «السامرة» — مثلها في ذلك مثل أورشليم القدس — تتحكم في الطريق الرئيسى من الشمال الى الجنوب ، على امتداد خط تقسيم المياه ، كما أن هناك ممرات صالحة بدرجة مقبولة تؤدي الى الاردن من ناحية الشرق ، وأخرى تؤدي الى الساحل والبحر المتوسط من ناحية الغرب (٢٨) .

وأما في السياسة الخارجية ، فقد كتب لعمرى نجحا بعيد المدى تجاه «مؤاب» ، غير أنه انما قد منى بفشل ذريع تجاه الاراميين في دمشق فقد أصبحت الان مملكة دمشق الارامية أقوى القوى الموجودة في سورية وفلسطين على الاطلاق ، كما أنها أصبحت تحيط بدويلة اسرائيل من الشمال والشرق على السواء ، كما أنها أصبحت تتحكم في البقاع الغنية

27) J. W. Crowfoot, K. M. Kenyon and E. L. Sukenik, The Building at Samaria, 1942.

W. F. Albright, BASOR, 150, 1958, P. 21-25.

وكذا

28) J. Fingan, Op Cit., P. 185.

K. M. Kenyon, Op. Cit., P. 261-262.

وكذا

G. E. Wright, BA, 27, 1959, P. 67-68.

وكذا

بالمعادن ، وقد انتهت الامور بأن يضطر عمرى مرغما على أن يتنازل عن مدن كثيرة في شرق الاردن غالبا ، وأن يخصص أحياء معينة في السامرة للتجار الاراميين ، كما كان ضغط الاراميين هذا من أهم الاسباب التي دفعت عمرى الى أن يرتضى في أحضان الفينيقيين^(٢٩) .

ومن الناحية الادارية ، فلقد أوجد عمرى — وربما ولده أخاب — أقساما ادارية جديدة ، وذلك لان سياسة عمرى أو «بيت عمرى» انما كانت تهدف الى القضاء على النظام القبلى ، وتقوية النفوذ المركزى للسلطة الحاكمة^(٣٠) .

وجاء «أخاب» (٨٦٩ — ٨٥٠ ق.م) بعد أبيه عمرى ، وقد تحدثت التوراة عنه أكثر مما تحدثت عن أى واحد من أسلافه منذ عصر سليمان عليه السلام ، مما يشير الى أهميته في تاريخ اسرائيل ، وعلى أى حال ، فلقد كان «أخاب» يدرك تماما أن موطن الخطر على دولته انما يربض هناك في دمشق ، بخاصة وأن اورشليم انما قد أصبحت الان طرفا في الصراع بجانب دمشق ، وضد اسرائيل ، ومن هنا فقد عقد العزم على اقلمة روابط وثيقة مع مدن الساحل الفينيقى ، التي كانت قد بدأت في هذه الفترة في الشروع في استعمار ناجح في منطقة البصر الابيض المتوسط^(٣١) ، وهكذا اتجه «أخاب» نحو «ايثبل» ملك صور ، الذى مكته من أن يمنع أعداءه من الوصول الى البحر الابيض المتوسط عن طريق فينيقيا ، وساعد على ذلك أن السوريين من جانبهم قد وجدوا لهذا التحالف مع الاسرائيليين مزايا فائقة ، فهم في حاجة الى قمح ومنتجات

(٢٩) ملوك أول ١٤/٢٠ — ١٥ ، ٣٤ ، قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٦٠٧ ، وكذا

A. Lods, Op. Cit., P. 377-378.

30) A. Lods, Op. Cit., P. 378.

31) Noth, Op. Cit., P. 241.

W. F. Albright, in Studies in The History of Culture, 1942, P. 40 F.

شمال فلسطين الاخرى ، فضلا عن أنه سوف يمنع منافسيهم من التجار الاراميين من الوصول الى البحر الابيض المتوسط عن طريق « عكو » (عكا) عبر المنطقة الاسرائيلية^(٣٢) .

وفي نفس هذا الاتجاه السياسى ، اتخذ «أخاب» كذلك عدة خطوات لتحرير مملكته من القلق الذى يعترى حدوده الجنوبية مع يهوذا وتحققا لهذا الهدف الواضح ، فإن الرجل انما جاهد كثيرا لان يضع حدا للكوارث والضغائن العقيمة مع حكام اورشليم ، وهكذا — وبتحالف مازالت بنوده مجهولة — تم الصلح بين «أخاب» و«يوهو شافط» ملك اورشليم (٨٧٣ — ٨٤٩ ق.م) ، وان كان ملحق التحالف يقضى بأن تتعهد يهوذا بمساعدة اسرائيل بكل ماتستطيع من قوة فى حالة نشوب حرب ما يهكذا أصبحت المملكة الجنوبية هى الاضعف ، ثم سرعان ما قويت روابط هذا الحلف بزواج «ييزورام» بن يهو شافط ملك يهوذا ، من «عثليا» ابنة أخاب وايزابيل ابنة ايثبعل أمير صور ، وربما أقيم فى هذه المناسبة معبد «للبعل» فى اورشليم ، وهو اله ملك صور ، العضو الثالث فى المظف^(٣٣) .

وبدأ الصراع بين أخاب والاراميين ، وان لم يكن من السهل علينا ترتيب الاحداث الحربية ، أو تتبع خطى العلاقات الخارجية ، فاننا نستطيع أن نستنتج من رواية المتوراة فى سفر الملوك الاول أن ملك دمشق استطاع أن يحاصر أخاب فى السامرة ، الا أن الاخير تمكن من التغلب على الاراميين ، بل وانتصر عليهم مما كان سببا فى عقد معاهدة بين الملكين الاسرائيلى والارامى ، أصبح لأخاب بمقتضاها الحق فى استرجاع المدن التى كانت دمشق قد استولت عليها من اسرائيل فى عهد سلفه ، كما أصبح له الحق فى أن يكون له سوق فى دمشق ، كما كان لملك دمشق سوقا فى السامرة أثناء حكم عمرى ، وفى العام التالى هزم أخاب الاراميين مرة أخرى فى معركة مريرة عند «أفيق»^(٣٤) .

32) A. Lods, Op. Cit., P. 379-80.

33) A. Lods, Op. Cit., P. 380.

(٣٤) ملوك أول ٢٠ : ١ - ٤٣ .

ورغم ذلك ، فيبدو أن اسرائيل قد لاقت الامر من الهزائم التي منيت بها على أيدي الاراميين ، وهكذا نقرأ في التوراة عن المحاولة العقيمة التي قام بها أخشاب لاسترداد «راموت جلعاد» التي احتلها الاراميون ، وعن الهزائم الساحقة فيها^(٣٥) ، والامر كذلك بالنسبة الى تلك المغارات المفاجئة التي كان يقوم بها الاراميون على اسرائيل ، حتى أن السامرة نفسها حوصرت^(٣٦) .

ومع ذلك كله ، فقد استطاع «أخاب» أن يصون حدود اسرائيل الشمالية ، وأن يشترك في حلف ضد الاشوريين يقوده عدوه القديم ملك دمشق ، ذلك لان الاشوريين انما كانوا قد بدأوا في القرن التاسع قبل الميلاد يظهرون من جديد على مسرح الاحداث في غربى آسيا ، ولأول مرة ، منذ عهد «تجلات بلسر» الاول (١١١٢ - ١٠٧٦ ق.م) يصل ملك آشورى الى البحر الابيض المتوسط ، وذلك حين اندفع «أشور ناصر بال» الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م) الى شمال سورية ، ووصل الى الساحل الفينيقي وتلقى الجزية من عدد من المدن الفينيقية ويقول الملك الاشورى: «لقد استوليت على كل جبال لبنان المتراصة الاطراف ووصلت الى البحر الكبير في بلاد «أمورو» وغسلت أسلحتي في البحر العظيم ، وقدمت قراميني من الماشية للالهة جميعا»^(٣٧) .

ولكن المعامل الاشورى لم يستطع - رغم ذلك - أن يقترب من دمشق والولايات الجنوبية ، وقد جاهد - ومن بعده خليفته شلمنصر الثالث - أن يكسر شوكة الممالك الارامية ، ولكن دمشق - تحت قيادة بن حداد - قد وقفت تمنع تقدمهم نحو الجنوب^(٣٨) ، وأخيرا وفي عام ٨٥٣ ق.م ، يتقدم «شلمنصر الثالث» (٨٥٩ - ٨٢٤ ق.م) الى وسط وجنوب سورية ، ولم تكن الولايات الصغيرة في سورية وفلسطين حينئذ

(٣٥) ملوك اول ٢٢ : ٢ - ٣٨ .

(٣٦) ملوك ثان ٦ : ٨ - ٢٣ .

37) A. L. Oppenheim, A.N.E.T., 1966, P. 276.

38) S. A. Cook, C. A. H. III, 1965, P. 362.

بقادرة على أن تقف أمام هذا الخطر الداهم طويلا ، وكل ما كان في قدرتها أن تقوم به هو أن توحد قواتها ضد الخطر المشترك ، وفي الواقع فإن حكام الولايات جميعا سرعان ما تناسوا خلافاتهم الشخصية واتحدوا من أجل الدفاع عن أنفسهم ، وهنا يدرك الاسرائيليون والاراميون أن الخلاف بينهم ، اذا ما قورن بمقاومة الغزو الاشوري ، فلن يعمدوا أن يكون خلافا على الحدود ، وان عادت الخلافات مرة أخرى ، بمجرده انسحاب شلمنصر الثالث (٣٩) .

وعلى أي حال ، فلقد تجرأ شلمنصر الثالث وهاجم دمشق ، والتي لم تكن صيدا سهلا ، على الرغم من طبول منافستها مع جيرانها من الاراميين ، والبدو والعمانيين ، فعزمت على الوقوف في وجه جيوش الاشوريين (٤٠) ، ومن ثم فقد عملت على تكوين تحالف قوى ، انضم اليه أمير ولاية «موصري» في الشمال الغربي من بلاد العرب ، فضلا عن أمير عربي آخر يدعى «جندب» (جنديو) ، شارك في المعركة القادمة بمجد مجمل على ألف بعير ، إلى جانب ما شارك به أمراء عمون وحماة وارقفات وأرواد واسرائيل وغيرهم (٤١) .

وهكذا ، وفي صيف عام ٨٥٣ ق.م ، تجمع في قرقر (قرقر) حلف من الملوك السوريين والعرب ، يضم اثني عشر ملكا ، على رأسهم «بنحدد» ملك دمشق ، حيث حدثت الموقعة الشهيرة ، ورغم تفاخر شلمنصر بالنصر في موقعة قرقر هذه ، فإن الحقائق التاريخية تقول أن نصره لم يكن حاسما بولم يؤد أبدا إلى استسلام دمشق واسرائيل (٤٢) .

39) M. Noth, Op. Cit., P. 245-246.

(٤٠) عهد العزيز صالح : مصر والعراق ص ٥١٥ (القاهرة ١٩٦٧)

(٤١) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ٢٥٩/٥ - ٣٦٠

S. A. Cook, Op. Cit., P. 263.

وكذا

ANET, P. 278.

وكذا

42) J. Montgomery, Op. Cit., P. 27.

J. Fingan, Op. Cit., P. 24.

وكذا

A. L. Oppenheim ANET, P. 279.

وكذا

ومن عجب أن شيئاً من ذلك لم يرد له ذكر في التوراة ، وعلى أى حال ، فإن كان زمان ذلك يقع قبل هزيمة «ابن حدد» في «أفيق» ، فإن هذا يعنى أن أخاب إنما كان تابعاً لأمير دمشق في «قرقر» ، وأما أن كان ما يشار إليه قد تم في المرحلة ما بين موقعتي أفيق وراموت جلعاد — وهو الأرجح فإن أخاب إنما يكون قد انضم الى ولايات سورية أخرى ضد الاشوريين ، حين أدرك أنهم خطر عام مشترك (٤٣) .

وعلى أى حال ، فإن المسلة السوداء ، والتي اكتشفت في قصر سلمنصر في مدينة نمرود عام ١٨٤٦م ، وموجودة الآن بالمتحف البريطاني (٤٤) — تمثل على وجهها الثاني من أعلى حاملتي الجزية الاسرائيليين وموظفيهم ، في ملابس مشغولة ذات أكمام قصيرة ، وعمامة تشبه غطاء الرأس ، والشكل العام يبعدهم عن أن يكونوا «حيثيين قحاً» وتشهد للتأثير القوي للحيثيين الاراميين ، حيث يمثل نصب «شيشنق» شكلاً آخر ، ينظر اليه كأمرى (٤٥) .

ونقرأ في التوراة عن «بيت العاج» الذي بناء أخاب (٤٦) ، غير أن البعض إنما يتشكك كثيراً في ذلك ، وعلى أى حال ، فإن «أخاب» لم يبن هذا القصر كله ، وإن كان له فيه بعض حجرات قد ملئت بأثاث قد حلّى بالعاج (٤٧) ، وترى الاثرية «مس كاثلين كنيون» أن معظم اللوحات

=

وكذا

Daniel David Luckonbill, Ancient Records of Assyria and Babylon I, Chicago, 1926, No. 611.

James B. Pritchard, The Ancient Near East, Princeton 1950 P. 188.

(٤٣) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ٤٠١/٣ .

44) C. J. Gadd, the Stones of Assyria 1930. P. 48.

A. H. Layard, Nineveh and its Remains, 1849, I, P. 181. وكذا

S. A. Cook, Op. Cit., P. 363. وكذا

45) J. Finegan, Op. Cit., P. 264-205.

(٤٦) ملوك أول ٢٢ : ٣٩ .

47) W. Keller, Op. Cit., P. 228-229.

المصورة مصرية في موضوعها وفي طريقة معالجتها الاساسية ، وان لم تكن واحدة منها مصرية صرفة ، وانما هي أعمال لرجال شاهدوا الاصول المصرية وقلدوها بأسلوبهم الوطني^(٤٨) ، وقد نقشت على ألواح المعاج صور عديدة كزهور اللوتس والزنبق وأوراق البردى ، وصور الحيوانات كالاسود والثيران والغزلان ، وصور لالهة آشورية مجنحة وصور لأبى الهول وبعض الالهة المصرية ، مما يدل بوضوح على تأثير مصر القوي على اسرائيل في تلك الفترة ، ولعل من أجمل الصور ، ذلك النقش الذي يمثل الاله «حور» ، وهو يجلس على زهرة من زهور اللوتس^(٤٩) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الاثاث العاجي لم يكن في تلك الفترة من تاريخ الشرق الادنى القديم ، وخصوص البحر الابيض المتوسط ، مقصورا على أخاب وحده ، فقد اكتشفت بعثة فرنسية في عام ١٩٢٨م ، بقايا سرير من المعاج في شمال سورية بمنطقة «أرسلان تاش» شرقي قرقيش ، تحمل اسم «حزائيل» ملك دمشق ، الذي اعتلى العرش في عام ٨٤٢ ق.م ، كما اكتشف «سير أوستن ليارد» (١٨١٧ — ١٨٩٤م) في عام ١٨٤٩م ، أشياء مشابهة لها ، وتنتمي الى نفس العصر ، في قصر «نمرود» (كالح في التوراة) بآشور ، وكان هذا القصر قد جدد «سرجون الثاني» وينتمي معظم ما به الى هذا العصر ، وعاجياته غير آشورية في أسلوبها والابد أن معظمها قد أتى من نفس المكان الذي أتت منه مثيلاتها التي في «السامرة» وأنها ربما كانت قد نهبت أو دفعت كجزية للعاهل الاشوري «سرجون الثاني» عند استيلائه على السامرة في عام ٧٢٢ ق.م وهذا وقد اكتشف Mallowan حديثا مجموعات ضخمة من العاجيات في نفس قصر نمرود ، تنتمي الى نفس مجموعات عاج السامرة^(٥٠) .

هذا وقد وجدت «جذاذات» في كريت ، وفي أنحاء مختلفة من شرق

48) K. M. Kenyon, Op. Cit., P. 267.

(٤٩) جون الدر : المرجع السابق ص ٨٨ .

50) K. M. Kenyon, Op. Cit., P. 268.

البحر الابيض المتوسط ، بينما قد كشف عن عدد كبير منذ أكثر من نصف قرن في «قرمونة» في جنوب غربى أسبانيا ، وبالرغم من أنه لم يوجد في الواقع أية نماذج في فينيقية نفسها ، الا أنه مما لا شك فيه أن أغلبها قد جاء من «ورش» فينيقية ، أما النماذج الاشورية فقد جاء أغلبها من دمشق وشمال سورية ، وكان التأثير المصرى غالبا ، وأما عاجيات السامرة فتتنمى الى مجموعتين ، يمكن تأريخهما في الوقت الحالى من القرنين الثامن والتاسع قبل الميلاد ، على التوالى ، وان كانت بعض الادلة تشير الى أنها من عصر واحد ، والوحدات الزخرفية اقتباسا مصرى بحث (٥١) .

وتقدم التوراة لنا صورة قائمة لآخاب ، فهمي تشير الى أنه قد اقتترف كل أنواع الشرور ، التي اقترفها أسلافه من قبل ، ولعل السبب في ذلك أن «آخاب» قد تزوج من «إيزابيل» ابنة «إيثبعل» ملك صور ، والتي كانت ذا شخصية قوية ، ومن ثم فقد استطاعت أن تسيطر على زوجها تماما ، ولقد أثار هذا الزواج معارضة قوية في اسرائيل نفسها ، تزعمها النبی «إيليا» ، ذلك لان «إيزابيل» لم تأت في الواقع لاسرائيل بأفكار الحكم المطلق الغريبة عن التصور العبرى التقليدى عن الملكية فحسب (٥١) ، وانما حاولت كذلك احلال آلهة الفينيقيين شيئا فشيئا محل عبادة الله في مملكة اسرائيل (٥٣) ، وليس هناك من ريب في أن إيزابيل وحاشيتها الصورية كانوا يمارسون ديانتهم الصورية في معبد أنشئ في السامرة نفسها من أجل هذا الغرض (٥٤) — كما كان الامر حين بنى سليمان ، كما تزعم التوراة ، محاريب لعبادة زوجاته الاجنبيات على جبل الزيتون في شرقى اورشليم (٥٥) .

51) W. F. Albright, the Archaeology of Palestine, P. 136-137.

• وانظر : الترجمة العربية ص ١٢٤ - ١٣٥ .

52) C. Roth, Op. Cit., P. 25.

(٥٣) ج . كونتنو : المرجع السابق ص ٧٤ .

(٥٤) ملوك أول ١٦ : ٣٠ - ٣٤ .

(٥٥) ملوك ثان ٢٣ : ١٣ .

وعلى أى حال ، فلم تكن هذه الديانات هى طقوس الدولة الرسمية، ذلك لان «يهوه» انما بقى بالتاكيد رب اسرائيل بالنسبة لأخاب ومملكة اسرائيل ، وان كان الملك نفسه — فيما تروى التوراة — «قد عبد البعل وسجد له»^(٥٦) ، الا أن وجود هذه الديانة الاجنبية وعبادتها فى السامرة انما قد أثار مقاومة التقاليد القديمة الصارمة للقبائل الاسرائيلية ، التى كانت خدمة «يهوه» هو هدفها النهائى^(٥٧) ، وقد تزعم «ايليا» النبى الثورة ضد أخاب وزوجه ايزابيل ، اللذين جهدا لالغاء عبادة «يهوه» واحلال عبادة «البعل» فى مكانها ، فهدهما مذابح رب اسرائيل وقتلا أنبياءه ، فاندفع ايليا فى طول البلاد وعرضها كالاعصار مهددا متوهدا ، بأنه لا ظل ولا مطر فى هذه السنين ، وفى السنة الثالثة يقول الرب لايليا : «اذهب وتراء لأخاب فأعطى مطرا على وجه الارض»^(٥٨) .

وجاء «أخزيا» (٨٥٠ — ٨٤٩ ق.م) بعد أبيه «أخاب» ثم تلاه أخوه «يهورام» (٨٤٩ — ٨٤٢ ق.م) وفى عهده استمدت غارات الاراميين على اسرائيل حتى حاصروا «السامرة» ، ثم انتشر الغلاء فى البلاد «حتى صار رأس الحمام بثمانين من الفضة ، وربع القناب من زبل الحمام بخمس من الفضة ، وحتى بدأ القوم يأكلون أطفالهم ، ولم تنته الازمة السياسية — وكذا المجاعة — الا بعد أن هلك الاراميون الحصار عن السامرة ، بسبب أنباء مفاجئة عن هجوم آشورى على بلادهم»^(٥٩) .

وتنتهز مؤاب الفرصة ، وتعلن الثورة على اسرائيل ، وتستولى على الهضبة الخصبة شمال عرنون ، ونقرأ فى التوراة «أن ميشع ملك مؤاب كان صاحب مواش فأدى للملك اسرائيل مائة ألف خروف ، ومائة ألف

(٥٦) ملوك أول ١٦ : ٣١ .

57) M. Noth, Op. Cit., P. 241-242.

(٥٨) ملوك أول ١٧ : ١ — ١٨ : ١ ، ٢١ : ١٩ ، انجيل لوقا ٤ :

٢٥ ، رسالة يعقوب ٥ : ١٧ .

(٥٩) ملوك ثان ٨/٦ — ٢٣ ، ١/٧ — ٢٠ ، وكذا

W. Keller, Op. Cit., P. 230.

كباش بصوفها ، وعند موت أخاب عصى ملك مؤاب على ملك اسرائيل (٦٠) .

وأما نص «الحجر المؤابي» (٦١) فيذهب الى أن عمرى وولده أخاب قد اضطهد مؤاب أربعين عاما ، كان «كيموش» اله مؤاب غاضبا على بلاده أثناءها ، ولكن ما أن يعتلى ميشع العرش حتى يسرع بخلع نير اسرائيل ثم يقوم بحملة مظفرة ينجح فيها في توسيع الحكم المؤابي على مدى خط العرض في الطرف الشمالي من البصر الميت ، واخضاع المستعمرات الاسرائيلية ، والمدن الخاضعة لاسرائيل في الهضبة الخصبة شمال عرنون (٦٢) ، ثم نهب المعبد الاسرائيلي في «نبو» (خربة المخيط على مبعده ٥ أميال جنوبى شرقى حسيبان) ووهب سبعة آلاف من سكانها للاله «عشتار — كيموش» ، وتخليدا لانتصاره فقد كرس المكان العالي للمعبود «كيموش» في «فورخا» (٦٣) .

(٦٠) ملوك ثان ٤/٣ - ٥ .

(٦١) الحجر المؤابي : عثر عليه عام ١٨٦٨م في «ديبون» (ذبيان الحالية) عاصمة مؤاب ، وقد نقله «كلير مونت جانيو» الى متحف اللوفر في باريس عام ١٨٧٣م ، وهو قطعة من صخور البازلت الاسود عليها أقدم نقش تاريخى مكتوب على النمط السامى الشمالى القديم ، وبعد أكثر الاثار اهمية عن تاريخ فلسطين ، ولغته قريبة الشبه في رسمها وقواعدها باللغة العبرية القديمة ، وأسلوبه يدل على أن مؤاب لم تكن بلدا بدائيا ، وانما كانت على درجة حضارية متقدمة ، ويرجع تاريخه الى ما بين عامى ٨٤٠ ، ٨٢٠ ق م ، وربما حوالى عام ٨٣٠ ق م ، وعن ترجمة نص الحجر المؤابي أنظر : (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٩١٩/٢ - ٩٢١ وكذا

W. F. Albright, ANET, 1966, P, 320-321.

S. A. Cook, Op. Cit., P. 372-373.

M. F. Unger, Op. Cit., P. 755-756.

J. B. Pritchard, ANEA, 1958, P. 209.

J. Finegan, Op. Cit., P. 188-189.

C. S. Clermont-Ganneau, La Stele de Moab, 1887.

G. A. Cooke, The Text-Book of North-Semitic Inscriptions, Oxford, 1903, P. 1-14.

R. Dussaud, Le Mounments Palestiniens et Judaiques (Musee du Louvre), 1912, P. 4-22).

62) M. Noth, Op. Cit., P. 244-245.

63) S. A. Cook, Op. Cit., P. 372.

وهنا تضطر اسرائيل الى طلب المعونة من يهوذا وأدوم ، ثم القيام بهجوم على مؤاب من الجنوب ، وهذا يستدعى الدوران حول البحر الميت ، اعتمادا على نبوءة في التوراة ، وهكذا خاطر الحلفاء بالمسير في هذا الاقليم المقفر ، ثم سرعان ما تمكن الحلفاء من نشر الخراب في مؤاب ، وهدموا المدن ، مما اضطر ملك مؤاب الى أن يقدم ولده البكر محرقة على أسوار قلعة المدينة ، استرضاء للاله كيموش ، وبهذه الوسيلة اضطر ملك اسرائيل الى الانسحاب مع حلفائه ، وان كان هذا يعنى في الحقيقة أن الغزاة قد ردوا وطردوا (٦٤) .

هذا ويتفق النصان — التوراتي والمؤابي — أن الحملة قد انتهت بهزيمة اسرائيل وحلفائها ، وان اختلفا في أن النص التوراتي انما قد أطنب فيما أحرزته اسرائيل من نجاح — بادىء ذى بدء — بينما يمر النص المؤابي على ذلك مر الكرام ، وأن التوراة تشير الى النتيجة النهائية (هزيمة اسرائيل) باختصار ، بينما يطنب فيها نص مؤاب ، وأما قول النص المؤابي أن اسرائيل قد أبيدت الى الابد ، فربما كان يعنى بذلك الالابادة الدموية لاسرة عمرى ، هذا الى أن التوراة تجعل ثورة مؤاب بعد وفاة أخاب ، بينما الذى يفهم من النص المؤابي أنها كانت في النصف الثانى من حكم أخاب ، هذا فضلا عن أن النص المؤابي وثيقة تاريخية تتحدث بوضوح عن جهود «ميشع» ملك مؤاب في كفاحه المير ضد اسرائيل وحلفائها من يهوذا وأدوم ، وتخليصه لكثير من المدن المؤابية من النير الاسرائيلى ، فضلا عن الانشاءات المدنية والدينية التى أقامها في هذه المدن بعد طرد يهوذا منها ، بينما نص التوراة لا يعدو أن يكون واحدا من نصوصها الذى يسجل — كما يسجل غيره — أمجاد يهو ، رب اسرائيل ، ورعايته لشعبه ومن تحالف معهم ضد عدوهم ، عن طريق نبوءات لواحد من أنبياء يهود ، تبشر برعاية يهو لهم في صحراوات

(٦٤) ملوك ثان ٣/٣ - ٢٧ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٢ / ٩٢٣ - ٩٢٤ .

شرق الاردن ، ومع ذلك فهذه الرعاية لم يكتب لها أى نجاح — طويل المدى أو قصيره — أمام قوات مؤاب^(٦٥) .

(٤) أسرة ياهو (٨٤٢ - ٧٤٥ ق.م) :

كان «يهوه» (٨٤٢ - ٨٥١ ق.م) رأس الاسرة الثالثة فى اسرائيل التى قامت نتيجة انقلاب عسكرى ، ونقبراً فى التوراة أنه بينما كان الاسرائيليون فى حومة الوغى فى «راموت جلعاد» (تل راميث الحالية فى شرق الاردن) يصابولون استعدادتها من بين أنياب الاسد الارامى القوى ، اذ بأحد ضباط الملك «يهورام» (وهو القائد ياهو) يقوم بانقلاب عسكرى يطيح فيه بأخر ملوك أسرة عمرى ، ويعتلى عرش اسرائيل مكانه ، ثم يتقدم على رأس كوكبة من أتباعه الى «يزرعيل» (يزرعين الحالية) فيقتل الملك «يهورام» ، كما يقتل ملك يهوذا «أخزيا» (حليف يهورام وابن أخته عثليا) ، والذي جاء لمساعدة خاله ملك اسرائيل ضد الاراميين ، ثم يأمر بالملكة «ايزابيل» (أم يهورام ، وجدة أخزيا ، وزوج الملك أخاب) فيقذف بها من نافذة القصر الملكى فى يزرعيل ، ثم يطؤها تصت حوافر خيله ، ثم يختم «ياهو» المأساة المروعة بأن يقوم بمذبحة همجية ، تراق فيها دماء اثنين وأربعين من أمراء آل بيت داود ، أتوا من اورشليم فى زيارة ليزرعيل ، ولكنها رغم بشاعتها — لا تروى ظمأ المتعطش للدماء البشرية ، فيرسل الى السامرة يطلب من نبلائها أن يأتوا له برؤس سبعين أميراً^(٦٦) ، ثم يتقدم ياهو الى السامرة ، وهناك فى معبد بعل «جمع أنبياء البعل وكل عابديه وكل كهنته» ، وفى لحظة من المتعصب الاعمى ، ذبح «ياهو» كل من اتخذ البعل ربا ، ودمر معبده ، وربما أراد بذلك أن يجعل انقلابه العسكرى ، انقلاباً دينياً وسياسياً فى آن واحد ، وبالتالي فقد قضى على أسرة عمرى تماماً ، كما أباد أتباع

(٦٥) محمد بيومى مهران : اسرائيل ٩٢٣/٢ - ٩٢٤ .
(٦٦) ملوك ثان ١/٩ - ١٧/١٠ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٩٢٤/٢ - ٩٢٦ ، وكذا

A. Lods, Op. Cit., P. 383.

البعث في مذبحه بقيت في ذاكرة القوم مروعة ، ولغثرة طويلة بعد ذلك^(٦٧) .

وبدأ «ياهو» يتخذ سياسة جديدة لا تؤمن بالمبدأ القائل بأن سورية «دولة حاجزة» Buffer State — بين اسرائيل ودولة آشور القوية ، وأن بقاءها ، كما هو خير لدمشق ، فهو خير لاسرائيل كذلك ، ومن هنا فهو لم يرسل بقواته لمساعدة «اسرائيل» ملك دمشق ، عندما قام «شلمنصر الثالث» (٨٥٩ — ٨٢٤ ق م) بحملة جديدة على دمشق ، بل انه يسرع في إرسال بجزيته الى الملك الاشوري المنتصر ، كما يبدو ذلك واضحا على المسلة السوداء^(٦٨) ، وهذا في الوقت الذي كانت علاقة «ياهو» بجيرانه سيئة للغاية ، فلقد أدت ثورته التي راح ضحيتها أفراد البيت الملكي — وخاصة ايزابيل — الى قطع العلاقات الودية مع صور ، ومنوراتها المدن الفينيقية الاخرى ، كما أن وجود «عثليا» — ابنة أخاب وايزابيل ، وأم أخزيا الذي قتله ياهو في يزرعيل — ممسكة بزمام الامور في دويلة يهوذا ، أفقد اسرائيل عطفها ، وحولها الى دولة معادية ، ولم تكن اسرائيل وقت ذاك دولة قوية بالدرجة التي تستطيع معها أن تجعل يهوذا مجرد تابع لها ، وهناك في شرق الاردن ، كانت مؤاب ماتزال تدق طبول فرح انتصارها على اسرائيل^(٦٩) .

وهكذا وجد «ياهو» نفسه وحيدا في الميدان الشامى كله ، ومن ثم فقد اتجه الى آشور يطلب عونها أو حمايتها ، ولكن آماله خابت حين أرسلت آشور في عام ٨٣٩ قبل الميلاد ، حملة الى دمشق ، ثم غابت عن الميدان ، فلم يشعر بوجودها أحد في بلاد الشام قرابة ثلاثين عاما ، اما بسبب ضعف ألم بآشور نفسها ، واما لانشغالها بحروب على الحدود الاخرى^(٧٠) .

(٦٧) ملوك ثان ١٥/١٠ — ٢٨ ، هوشع ٤/١ ، وكذا

C. Roth, Op. Cit., P. 26.

68) A. L. Oppenheim, ANET, 1966, P. 281.

A. Lods, Op. Cit., P. 384.

A. H. Layard Op. Cit., P. 282.

69) A. Lods, Op. Cit., P. 384.

70) Ibid., P. 384.

وكذا

وكذا

وهكذا بدأ «حزائيل» ملك دمشق يتجه الى اسرائيل ليعيد سيادة الاراميين عليها ، وليحقق نبوءة «اليشع» — النبي الاسرائيلي — من حرق مدن اسرائيل وقتل الشباب والاطفال وبقر بطون الحوامل من نسوة اسرائيل ، ورغم أن التوراة لا تقدم تفصيلات عن هذه المعارك ، فإن النبي «عاموس» حين تطلع الى الوراء ، فإننا نراه يذكر أن الاراميين قد خربوا أرض جلعاد (٧١) .

ونقرأ في التوراة أن اسرائيل قد فقدت كل ممتلكاتها في شرق الاردن، حيث استولى «حزائيل» على جميع أرض جلعاد الجادين والرؤابين والمنسيين من عروعر التي على وادي أرنون وجلعاد وباشان (٧٢) ، هذا وقد شجعت انتصارات دمشق أعداء اسرائيل القدامى على مهاجمتها ، وأيد حزائيل الفلسطينيين في نزاعهم مع اسرائيل ويهوذا على المسواء ، واستغل العمونيون الفرصة في غزو أرض جلعاد ، جنوب ييبوق ، لتوسيع حدودهم ، وطبقا لما جاء في سفر عاموس ، فقد دمروا جلعاد ، وبقروا بطون الحوامل هناك (٧٣) .

وجاء «يهو أهاز» (٨١٥ — ٨٠١ ق م) بعد أبيه «ياهو» ، ووصلت دويلة اسرائيل في عهده الى الحضيض ، حتى أصبحت مجرد تابع لأرام (٧٤) ، ثم حوصرت السامرة ، ولم ينقذها الا رعب فجائي في معسكر عدوها (٧٥) ، وهكذا أصبحت أحوال اسرائيل على أيام «يهو أهاز» أسوأ مما كانت على أيام أبيه ، وأذاقها ملك دمشق «حزائيل» من الذلة والمهانة ما لم تتعرض لمثيله من قبل ، بل وقام «حزائيل» بحملة على دويلة يهوذا ، فاستولى على «جت» ، بل وكاد أن يهاجم اورشليم نفسها ، لولا أن قدم له «يهو آش» ملك يهوذا ، كل كنوز خزائنه (٧٦) .

(٧١) ملوك ثان ١٢/٨ ، عاموس ٣/١ .

(٧٢) ملوك ثان : ٣٢/١٠ — ٣٣ .

(٧٣) عاموس ١٣/١ .

74) I. Epstein, Op. Cit., P. 42.

75) C. Roth, Op. Cit., P. 27.

(٧٦) ملوك ثان ١٧/١٢ — ١٨ ، ٧/١٣ ، وكذا

A. Lods, Op. Cit., P. 385.

وهكذا أصبحت دمشق تسيطر على مملكتي العبرانيين (اسرائيل و يهوذا) ، ويتوغل الاراميون الى تخوم السامرة نفسها ، وخيل يومئذ أنها وشيكة الانحلال ، ولكن ساعة اسرائيل لم تكن قد دنت بعد ، وكان مقدرها لها أن تصحو مرة أخرى من هذه الاغفاءة ، الى أن يجيء يوم دمارها وفنائها (٧٧) .

وجاء «يهوآش» (٨٠١ - ٧٨٦ ق م) على عرش اسرائيل بعد أبيه «يهوآحاز» ، وسرعان ما يقوم الملك الاشوري «أدد - نيرارى الثالث» (٨١٢ - ٧٨٢ ق م) بحملة على دمشق ، ويجبرها على الخضوع ودفع الجزية وتنتهز اسرائيل الفرصة ، ويتمكن «يهوآش» من هزيمة الاراميين ثلاث مرات في «أفيق» ، ويسترد المدائن التي فقدها أبوه في غرب الاردن (٧٨) .

وجاء «يربعام الثاني» (٧٨٦ - ٧٤٦ ق م) بعد أبيه «يهوآش» ، وظل يحكم اسرائيل نحواً من أربعين عاماً ، كانت عودة قصيرة للأيام الهادئة في حياة اسرائيل ، فقد كانت آشور في شغل عن فلسطين بمشاكلها الداخلية ، ولم تعد دمشق منافساً خطيراً ، واهتبلت اسرائيل الفرصة لاستعادة الاقاليم المفتوحة ، واستغلال الموقف لصالحها ، ونقرأ في التوراة أن يربعام «رد تخم اسرائيل من مدخل حماة الى بحر العرب» (٧٩) (البحر الميت) ورغم ما في هذا النص من غموض ومبالغة ، فإن اسرائيل على أيام يربعام الثاني كانت من أقوى الولايات الفلسطينية (٨٠) .

وهكذا بدا في الاتفاق أن يربعام هو المخلص الحقيقي لاسرائيل، فقد كانت القوة والرخاء في عهده مصحوبين بانتعاش ديني ، فاحتشدت المحاريب ، وتدفقت القرابين ، وحافظ على الاعياد بدقة ، غير أن هذه المظاهر الخارجية للديانة قد لوثت بالوثنية ، فلم تتجه الى عبادة يهوه .

(٧٧) حبيب سعيد : الانبياء الاقدمون يتكلمون ص ١٤ .

(٧٨) ملوك ثان ٢٥/١٣ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٢٤ .

(٧٩) ملوك ثان ٢٥/١٤ .

(٨٠) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٩٣٠ - ٩٣١ .

وانما للتوفيق بينها وبين عبادة العجول الذهبية^(٨١) ، مما جعل عاموس النبي يثور على هذه الاوضاع^(٨٢) .

هذا وقد سار الانحطاط الخلقي في نفس الطريق الذي سار فيه الانحطاط الديني ، ونقرأ في التوراة عن المقر الملكي - المستوى والصيفي - في منازل من عاج وأخرى من أبنوس ، وعن قصور فخمة ، جاورتها أخصاص خشنة ، وعن الاغنياء الذين أكلوا خرافا وعجولا ، وشربوا كؤوس الخمر على أصوات الرباب وآلات الغناء ، وتطيّبوا بأرقى الطيب وأفخم الادهان ، وقد اقتتصوا هذه المتع والملاذات « بالظلم والاعتصاب » ، وارهق الفقراء والمعوزين ، الذين كانوا يباعون كما تباع السائمة ، وفاء لحقوق دائنين لا تعرف الرحمة الى قلوبهم سبيلا ، واقتراف الغش في التجارة والموازين ، وأخذ الهدايا والرشوة ، وهكذا اضمحلت الفضائل في الحياة الخاصة والعامة ، وحتى العدل قد اعوج في المحاكم والقضاء ، فيصرخ عاموس النبي (٧٦٠ - ٧٤٦ ق م) صرخته الداوية « رؤساء متهمدون وشركاء للصوص ، كل واحد منهم يحب الرشوة ، ويتبع العطايا ، لا يقضون لليتيم ، ودعوى الارملة لا تصل اليهم »^(٨٣) .

هذا وقد بلغت الاباحية حدا شنيعا مخزيا ، حتى ليذهب « رجل وأبوه الى صبية واحدة ، فيدنسوا اسم قدسي » ولم يخفف التجار جشعهم وطمعهم ، لكي « يبيدوا بأئسي الارض » ، وتجاهل القوم كل الشرائع الانسانية ، ولم تعد الارض يملكها ويفلحها « النوابيت » ، وهم

81) . I. Epstein, Judaism, 1970, P. 42.

(٨٢) عاموس ٢١/٥ - ٢٤ .

(٨٣) عاموس ٦/٢ - ٨ ، ١٠/٣ ، ١٥ ، ٤/٦ - ٦/٨ ، حبيب سعيد : المرجع السابق ص ١٥ - ١٧ ، القس عاموس عبد المسيح : دراسات في عاموس ، ترجمة حارث قريصة - القاهرة ١٩٦٦ ص ٦٦ - ٧٣ وكذا

C. Roth, Op. Cit., P. 27.

فلاحون أحرار يتوارثون حقول أجدادهم ، ويكفلون بعملهم المتواصل عيشا شريفا لانفسهم ولاسرهم ، وانما تحولت الملكيات الصغيرة الى ضياع واسعة ، وكان معظم من يفلحونها من العبيد ، كما أصبح المالك - وقد أثرت فيه الحروب القاسية التي نشبت على الحدود فأفقرته ، بل وأفلسته - أصبح فلاحا يستأجر الارض من مالكها ، ثم أصبح آخر الامر مسترقا ، وارتفع مستوى الترف بين الاغنياء ، وهبط مستوى المعيشة بين الفقراء ، وأخذت الفجوة بين هاتين الطبقتين تتسع على مر السنين (٨٤) .

هذا وتظهر لنا أحداث التاريخ أن أحوالا كهذه لا يمكن أن تنتهي الا بأحد أمرين ، أولهما : أن تحتفظ الطبقات الدنيا بشيء من الرجولة يثير حفيظتهم ويدفعهم في النهاية الى الانتفاض على استبداد الاقلية ، فيحدثون انقلابا يزعزع كيان النظام الاجتماعي في الداخل ، وثانيهما : أن يفقدوا روحهم المعنوية فتتفكك أوصال الامة ، وتقع فريسة سهلة لكل فاتح جريء قسوى ، والهلاك نهاية كل من الامرين ، وليس من الواضح أن عاموس فكر في الامر على هذا النحو ، أو أنه كان يفكر في عدو بعينه يريد أن يغتصب البلاد ، ولكنه كان يرى أن الحضارة ممثلة في السامرة ، وفي بيت ايل ، مقضى عليها بالزوال ، ولم يكن يجد في دين يهود ، وقت ذاك ، سندا ، لانه كان في أحسن وجوه طائفة من الشعائر لا تقوم على وازع خلقى ، وفي أسوأها لا يبيح المفسد التي يشكو النبي عاموس منها فحسب ، بل ويشجع عليها أيضا (٨٥) .

وخلف «زكريا» (٧٤٦ - ٧٤٥ ق م) أباه على عرش اسرائيل ، ثم تلاه بعد ستة أشهر مغتصب للعرش يدعى «شلوم بن يابيش» (٧٤٥ ق م) بعد أن قتله (٨٦) ، وهكذا انتهت الاسرة ، كما بدأت ، بدم مسفوك

(٨٤) ملوك أول ١/٢١ - ١١ ، تيودور روبنسون : تاريخ العالم - اسرائيل في ضوء التاريخ ص ١٢١ (مترجم) .
 (٨٥) نفس المرجع السابق ص ١٢١ .
 (٨٦) ملوك ثان ٨/١٥ - ١٢ .

تحقيقا لنبوءة عاموس (٨٧) *

(٥) أخريات أيام دويلة اسرائيل :

أعقب سقوط أسرة «ياهو» انهيارا سريعا في اسرائيل ، وكان انهيارا متلاحقا متصل الحلقات ، لم يستغرق أكثر من ربع قرن من الزمان ، وقد توالى الاحداث في هذه الفترة القصيرة من الزمن في عنف وسرعة ، وهى لم تكن على أية حال ، أحداثا داخلية ، كما تشير التوراة ، فلم تكن بسبب نجاسة اسرائيل (أفرايم) وغضب الرب عليهم بسبب عكوفهم على عبادات أخرى ، وانما كانت هناك عوامل خارجية كانت الاداة الفعلية لهدم اسرائيل والقضاء عليها ، وكانت هذه العوامل تتصل بدمشق واشور ، دمشق بحلفها مع اسرائيل ضد يهوذا واسرائيل ، ثم آشور باهتمامها بشئون بلاد الشام (٨٨) *

كانت آشور ترى أن امتلاكها لسورية وفلسطين هو الشرط الاساسى لنجاح امبراطوريتها ، فهو لم يكن بالنسبة لحكام بلاد النهرين بسبب ثروة سورية وفلسطين من أخشاب نادرة في الشرق ، وبسبب ثروتهما المعدنية ، وساحلها الطويل على البحر المتوسط ، وتجارتهما الغنية فحسب ولكنه كان كذلك — وفي نفس الوقت — المدخل الى جنوب شرقى آسيا الصغرى من ناحية ، ومصر من ناحية أخرى ، ومن ثم فقد اتخذ «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ — ٧٣٧ ق.م) الخطوات الجادة مباشرة لضم الاجزاء الاساسية من سورية وفلسطين الى الامبراطورية الاشورية ، وتثبيت سيادة آشور على سورية وفلسطين ، ومن هنا فانه لم يقنع — كغيره من الحكام الاشوريين — بقبول الجزية ممن يخضعهم من الامراء السوريين والفلسطينيين (٨٩) *

وعلى أية حال ، فلقد انتهت أسرة «ياهو» ، كما رأينا ، على يد

(٨٧) عاموس ٩/٧ .

(٨٨) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤١٤ ، وانظر : هوشع

٨/٧ — ١٣ ، عاموس ١/٥ ، ٣٥/٢ .

(89) M. Noth, Op. Cit., P. 235-236.

«شلوم» الذى قتل بعد شهر من قتله «زكريا بن يربعام» ، على يد مغتصب آخر هو «منحيم بن جادى» (٧٤٥ - ٧٣٦ ق م) ، الذى مارس كل أنواع القسوة والمهجية ، حتى أنه فى «تفسيح الحالية على مبعدة ٦ أميال جنوب غرب القدس» بقر بطون الحوامل ، ومع ذلك لم يستطع توطيد عرشه بدون عون من الخارج ، ومن ثم فما أن غزا «تجبلات بلاسر» اسرائيل ، حتى حنى له رأسه ، وخفض له جناح الذل ، وابتاع معونته بالمال (ألف وزنة من الفضة) فرضه على قومه ليقدّمه رشوة لمعاهل آشور ، استرضاء له ، واستجداء لمعونته على صيانة عرشه (٩٠) .

ثم جاء من بعده مجموعة من المغتصبين ، فجاء «فقيحيا» (٧٣٦ - ٧٣٥ ق م) ، ثم «فقيح» الذى مازال المؤرخون على خلاف فى فترة حكمه (٩١) ، وعلى أية حال ، ففى هذه الفترة تقوم دمشق بدور قيادى — ولآخر مرة — اذ تكونت كتلة سياسية بزعامة «رصين» ملك دمشق ، ومن ورائه تحالف الدويلات الارامية ، ضد آشور ، ثم سرعان ما انضم الى رصين الفينيقيون والدويلات العربية والمدن الفلسطينية ، ثم الادوميون واسرائيل ، ولم يبق خارج التحالف الا «أحاز» ملك يهوذا (٩١) ، ومن ثم فأننا نقرأ فى التوراة أن اورشليم قد هوجمت بقوات دمشق والسامرة ، لازاحة «أحاز» ، وتتويج واحد من الاراميين فى مكانه ليضم يهوذا الى الحلف القائم ضد آشور (٩٢) ، كما نقرأ كذلك أن

(٩٠) ملوك ثان ١٥/١٣ - ٣٦ ، حبيب سعيد : المرجع السابق ص ٣٢ - ٣٦ .
(٩١) محمد بيومى مهران : اسرائيل ٢/٩٣٤ - ٩٣٦ ، وكذا : ملوك ثان ١٥/٢٧ ، وكذا

Historical Atlas of The Holy Land, P. 32.

W. F. Albright, The Biblical Period from Abraham to Ezra, N. Y., 1963, P. 117.

P. K. Hitti, The Near East in History, Princeton, 1961, P. 99.

92) W. Keller, Op. Cit., P. 241-242.

(٩٣) ملوك ثان ١٦/٥ ، اشعيا ١٧/١ - ١٠ ، وكذا

E. G. Kraeling, Aram and Israel, 1918, P. 116.

«رصين» أرجع «أيلة» للاراميين ، وطرد اليهوديين منها^(٩٤) ، ويسجل مؤرخ أخبار الايام الثانى تلك المذابح التى وقعت فى يهوذا ، ونفى عدد كبير من أسرى يهوذا الى دمشق^(٩٥) ، مما أثار النبى «أشعيا» (٧٣٤ - ٦٨٠ ق م) الى حد كبير^(٩٦) .

ومن ثم فقد اضطر «أحاز» الى أن يستنجد بالملك الاشورى «تجلات بلاسر»^(٩٧) الذى ربما كان فى تلك الاونة فى شمال سورية ، وربما كان فى مكان ما فى مجاورات دمشق ، وعلى أية حال ، فلقد بدأت الاحداث تتحرك سريعا ، وأنقد «أحاز» - بسبب التدخل الاشورى السريع والحاسم - قبل أن تسقط أورشليم فى ايدى المهاجمين من الاراميين والاسرائيليين ، وأن «تجلات بلاسر» لم يكن - على وجه اليقين - فى حاجة لتوسلات «أحاز» ليقوم بحملته ضد سورية وفلسطين ، فلقد كان هدفه منذ عام ٧٣٨ ق م ، الاخضاع التام لسورية وفلسطين ، منذ أن أصبحت حماة من أملاكه^(٩٨) .

وهكذا ، وفى عام ٧٣٣ ق م ، تقابل الملك الاشورى مع ملك دمشق ، فهرب «رصين» الى عاصمته دمشق ، ومن ثم فقد قام الملك الاشورى بمحاصرة العاصمة الارامية ، واتلاف ما حولها من حدائق ومدن ، فضلا عن الاغارة على حلفاء الاراميين والانتصار عليهم ، مما جعل دمشق تصبح فى عزلة تامة^(٩٩) .

ونقرأ فى التوراة أن «تجلات بلاسر» قد أخذ عيون وابل بيت معكة ويانونج وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالى ، وسباهم

(٩٤) ملوك أول ٦/١٦ ، ثم قارن : قاموس الكتاب المقدس ١٤٣/١

(٩٥) أخبار أيام ثان ١/٢٨ - ١٧ .

(٩٦) أشعيا ١/٧ - ١٧ .

(٩٧) ملوك ثان ٧/١٦ - ٨ ، وكذا

S. A. Cook, Op. Cit., P. 363.

98) M. Noth, Op. Cit., P. 259-260.

99) E. G. Krasling, Op. Cit., P. 118-119.

M. Noth, Op. Cit., P. 260-261.

وكذا

الى آشور^(١٠٠) ، وتشير الحوليات الاشورية الى أنه قد استولى على كل مدن اسرائيل ، ماعدا السامرة ، ومن ثم ، فاننا نستنتج من ذلك ، ومن قوائم الاقاليم الاشورية ، أن تجلات بلاسر قد ترك ملك اسرائيل «فحق» جبل أفرايم والمدينة الملكية السامرة ، وأما بقية المناطق الاسرائيلية فقد أدمجت في نسق الولايات الاشورية^(١٠١) .

وهكذا فإن الممالك الصغيرة في سورية وفلسطين ، والتي كانت على مدى قرنين من الزمان قبل ذلك ، قادرة على حفظ كيائها دون تدخل من الخارج تقريبا ، وجدت نفسها أمام آشور القوية الطامعة الطاغية ، وقد نجح «تجلات بلاسر» في أن يجتاح في عدة حملات الى الغرب ، مدينة دمشق ، بعد حصار دام عامين ، ويقتل ملكها «رصين» ، وبسقوط دمشق ، حان الوقت لآشور أن تضم سورية بأكملها ، وانتهت قوة الاراميين السياسية ، وأصبحت السيادة على الدويلات الارامية لآشور ، وبالتالي فقد زال الحاجز الذي كان يحول دون سقوط السامرة^(١٠٢) .

(٦) نهاية اسرائيل والسبى الاشورى :

جاء «هوشع» (٧٣٣ — ٧٢٤ ق م) بعد «فحق» ملكا على اسرائيل ، من قبل الاشوريين ، ولكنه سرعان ما أعلن العصيان في عهد الملك «شلمنصر الخامس» (٧٢٧ — ٧٢٢ ق م)^(١٠٣) ، ونقرأ في التوراة «أن ملك آشور وجد في هوشع خيانة ، لانه أرسل الى «سوا» ملك مصر ، ولم يؤد جزية الى ملك آشور حسب كل سنة»^(١٠٤) ، والمعروف تاريخيا أنه لا يوجد ملك في هذه الفترة من تاريخ مصر يحمل اسم «سوا» ، ومن هنا كان الخلاف بين المؤرخين حول هذا ال «سوا» ، وربما كان الملك

(١٠٠) ملوك ثان ٢٩/١٥ ، وكذا

E. G. Kraeling, Op. Cit., P. 118.

101) M. Noth, Op. Cit., P. 261.

102) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 341.

E. G. Kraeling, Op. Cit., P. 118-191.

وكذا

103) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 341-342.

(١٠٤) ملوك ثان ١٧/٤ — ٥ .

المقصود في نص التوراة هو «أوسركون الرابع» (٧٣٠ - ٧١٥ ق.م) من الأسرة الثانية والعشرين (١٠٥) .

وعلى أية حال ، وأيا كان اسم ملك مصر الذي استنجد به «هوشع» ضد آشور ، فلقد تقدم الملك الآشوري «شلمنصر الخامس» نحو «السامرة» واستمر في حصارها نحواً من أعوام ثلاثة ، من السنة السابعة للملك هوشع ، وحتى التاسعة ، وإذا أمكننا أن نضع سقوط السامرة في أخريات السنة التاسعة ، فإن هذا الحدث التاريخي الخطير ، إنما يكون قد تم في ربيع عام ٧٢٢ قبل الميلاد ، في وقت كان فيه «شلمنصر» ما يزال ملكاً على آشور ، هذا ويقرر سفر تاريخي بابلي ، ويؤرخ بالسنة الثانية والعشرين من عهد الملك الفارسي «دارا الاول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) - أي حوالي عام ٥٠٠ ق.م - ويتحدث عن الفترة من عهد «تجلات بلسر الثالث» (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) إلى أيام «أشور بانيبال» (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م) (أي في الفترة من عام ٧٤٥ ق.م إلى عام ٦٢٦ ق.م) أن موت «سلمنصر الخامس» إنما كان في شهر (Toletu) ، وأن اعتلاء «سرجون الثاني» عرش آشور ، إنما كان في اليوم الثاني عشر من نفس الشهر ، وهذا يتأخر به إلى ديسمبر ٧٢٢ ق.م ، كما يعتبر هذا المسفر تدمير مدينة «السامريين» -

(١٠٥) ونظر عن «سوا» والآراء التي دارت حوله (محمد بيومي مهران : إسرائيل ١٩٤٠/٢ - ١٩٤٥ ، وكذا

- K. A. Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt, Oxford, 1927, P. 373-374.
W. O. E. Oesterley, The Legacy of Egypt, Oxford, 1947, P. 228.
Von Bissing, RT, 34, 1912, P. 125.
A. Gardiner, JEA, 50, 1964, P. 94.
J. H. Breasted, A History of Egypt, N. Y., 1946, P. 549.
Ramadan Sayed, VI, 17, 1967, P. 116-118.
S. Yeivin, VI, 2, 1952, P. 164.
R. Borger, JNES, 19, 1960, P. 49-53.
A. T. Olmstead, Western Asia in The Days of Sargon of Assyria, 1908, P. 56, 70.

والتي يمكن أن توحد بالسامرة — من الاحداث الهامة في عهد «شلمنصر الخامس» ، وتؤرخ المعركة بعام ٧٢٢ ق م ، وفي الغالب فيما بين الربيع والخريف من هذا العام ، وان كان هناك من يقرأ اسم المدينة على أنها «الشابريين» بدلا من «الشامريين» ، ويرى أنها ليست مدينة «السامرة» وان كان هذا الاحتمال ضعيفا (١٠٦) .

وعلى أى حال ، فاننا نقرأ في حوليات العاهل الاشورى «سرجون الثانى» (٧٢٢ — ٧٠٥ ق م) قوله : «في بداية حكمى ، وفي السنة الاولى منه حاصرت السامرة واستوليت عليها ، ونقلت من أهلها ٢٧٣٩٠ مواطنا ، واستوليت على خمسين عربة من السلاح الملكى ، ثم ملأتها بسكان أكثر مما كان فيها ، فأحطت بها مواطنين جددا من بلاد كنت قد استوليت عليها ، وعينت حكاما عليها ، وفرضت عليها الجزية والضرائب ، كما يفعل الاشوريون» (١٠٧) .

وانطلاقا من هذا ، فان سقوط السامرة انما قد تم في أوائل السنة الاولى من عهد «سرجون الثانى» ، وأن ذلك قد حدث بعد فترة ما من ديسمبر عام ٧٢٢ ق م ، ومن ثم فربما كان ذلك في عام ٧٢١ ق م ، وهذا يتناقض مع رواية «شلمنصر الخامس» التي ينسب فيها سقوط السامرة الى أيامه (١٠٨) ، بل ان هناك رأيا يذهب الى أن عاصمة اسرائيل

-
- 106) J. Finegan, Op. Cit., P. 208.
A. T. Olmstead, Western Asia in the Days of Sargon of Assyria, P. 45.
E, R. Thiele, The Mysterious Numbers of the Hebrew Kings, 1951, P. 122-128.
A. T. Olmstead, AJSL, 21, P. 181 F.
107) A. L. Oppenheim, ANET, P. 284.

وكذا

- A. G. Lie, The Inscriptions of Sargon, II, Part, I, The Annalas, Annalas, P. 5.
108) J. Finegan, Op. Cit., P. 210.

هذه انما قد سقطت في عام ٧١٥ ق.م^(١٠٩) وآخر يذهب الى أنها قد سقطت في عام ٧١١ ق.م^(١١٠) .

وعلى أى حال ، فإذا كانت السامرة قد سقطت في ربيع أو حتى خريف عام ٧٢٢ ق.م ، فقد بقيت شهور قليلة من هذه السنة حتى وفاة شلمنصر في ديسمبر من تلك السنة ، وأن ذلك ربما قد جعل الامر سهلا بالنسبة الى سرجون الثانى في نقوش كتبت في فترة من عهده من أن ينسب الى نفسه — تيتها وتفاخرا — الفتح الذى قام به سلفه في الواقع . هذا فضلا ، عن أنه في الشهور القلائل التى سبقت وفاة شلمنصر الخامس ، انما كان قد بدىء بالكاد في نفى سكان السامرة ، وأن الانجاز الفعلى لهذا النفى ، ربما كان من عمل سرجون دون غيره^(١١١) ، أضف الى ذلك أن سرجون الثانى ، ربما كان قد اشترك في احتلال السامرة مع أخيه «شلمنصر الخامس» قبل اعتقاله العرش ، ولعل من المفيد هنا أن نشير الى أن التوراة انما تقول أن شلمنصر قد حاصر السامرة ، وأنهم قد «أخذوها» ، فربما تشير صيغة الجمع هنا الى اشتراك «سرجون الثانى» مع «شلمنصر الخامس» في نهاية الحصار ، ولكنها من ناحية أخرى ، قد تشير ببساطة الى «الجيش الاشورى» في صيغة الجمع كذلك^(١١٢) .

وأيا ما كان الامر ، فان سرجون الثانى قد هجر أكثر عناصر السكان أهمية — ربما النبلاء والاغنياء — الى «حلب وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي» ، وبعد سنوات قليلة — وربما في عام ٧٢٠ أو ٧١٥ ق.م — وبعد قلاقل في سورية وفلسطين ، ساهم فيها معظم سكان الولايات المختلفة ، بما فيها دمشق والسامرة ، تكررت العملية على درجة كبيرة ، ثم سرعان

109) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 342.

Bull Inst For L 1, P. 27.

وكذا

110) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 342.

111) J. Finegan, Op. Cit., P. 210.

A. T. Olmstead, AJSL, 47, P. 262 F.

وكذا

112) J. Finegan, Op. Cit., P. 210 No. 29.

ما شارك سكان غربى الجزيرة العربية فى هذه الاضطرابات بنصيب كبير أو قليل ، وحين نجح العاهل الاشورى فى القضاء على هه الاضطرابات ، عمل — كما تقول التوراة — على أن يأتى بقوم آخرين ، وأن يسكنهم هذه الاقاليم ، ومن بينهم مجاميع من العرب ، حددهم النص الاشورى «بقباثل تامودى وايبايدى وهرسيمانو وجبايسا»^(١١٣) والعرب الذين يعيشون بعيدا فى الصحراء ، والذين لا يعترفون برؤساء وموظفين ، والذين لم يكونوا قد جاءوا بجزاهم لاي ملك ، سبيت الاحياء منهم ، ونقلتهم الى السامرة»^(١١٤) .

ونقرأ فى التوراة — فى سفرى الملوك الثانى وعزرا^(١١٥) — أن العاهل الاشورى قد جاء كذلك بقوم من بابل وكوث (تل ابراهيم على مبعده ١٥ ميلا الى الشمال الشرقى من بابل) ومن عوا وحماه وسفروايم (وهما بلدتان على ضفتى الفرات ، على مبعده ١٦ ميلا جنوب غرب بغداد ، ويرى «رسام») أنها «أبو حبه» الحالية ، بينما يرى آخرون أنهما «شومورية» شرقى بحيرة حمص) ومن سوسه وعيلام . وربما كان الاشوريون يهدفون من وراء ذلك الى كسر التحالفات القديمة ، بادخال أجنبى فى البلاد ، ربما كانوا فى بعض الحالات من الاشوريين أنفسهم ، وبداية لظروف جديدة أكثر ملاءمة للامبراطورية الاشورية المطموح ، ومن الصعب أن نقدر أهمية هذا التهجير ، وان كان على الاقل قد عمل على تحطيم الروابط الاجتماعية والسياسية والدينية، بدرجة أكثر فاعلية عما سبقه من اجراءات ، وبدون شك فان الغزوات الاشورية قد عجلت بنهاية الدويلات السامية المخفارة ، كما أن الاحوال القديمة قد تغيرت ، واختفت المعالم القديمة ، واضمحلت المشاعر المحلية والقومية ، ودمرت الدويلات

(١١٣) أنظر عن هذه القبائل العربية الشمالية : الويس موسل : شمال الحجاز ، ترجمة عبد المحسن الحسينى ، الاسكندرية ١٩٥٢ ص ٩١ — ٩٥ ، محمد بيومى مهران دراسات تاريخية من القرآن الكريم — الجزء الاول — الرياض ١٩٧٨ م .

114) A. L. Oppenheim, in ANET, 1966, P. 296.

(١١٥) ملوك ثان ١٧ : ٢٤ غزرا : ٢٤ : ٩ .

الحاجزة وأدى سقوط الممالك الآرامية إلى إضعاف أفراميم ، وكشف سقوط الأخيرة يهوذا (١١٦) .

وأيا ما كان الامر ، فإن الآشوريين قد أعادوا تنظيم مملكة السامرة على أساس أنها إقليم آشوري يخضع لأمرة حاكم آشور وعززوا الحماية العسكرية الآشورية بجنود من مستوطنين أتوا بهم من بلاد بعيدة ، حدث لها ما حدث لفلسطين ، وأخيرا فإن هؤلاء قد نزاوجوا مع السكان الأصليين ، وهجروا تقاليدهم إلى حد ما ، وظهر جنس جديد هم «السامريون» - نسبة إلى السامرة عاصمتهم - قريب الشبه بجيرانه اليهوديين دما وثقافة وإن اختلفوا عنهم في ميولهم السياسية (١١٧) ، وقد أدى ذلك كله ، إلى ظهور نظرة جديدة للامور - بعد العودة من السبي البابلي - تتجه إلى أن إسرائيل الشمالية ليست نقية ، وأن يهوذا إنما هي الموريث الوحيد للتقاليد الإسرائيلية ، ومن هنا فإن الشمال ليس كفؤا لهما ومقاسمتها مميزاتها (١١٨) .

وانطلاقا من هذا ، فمن الضروري أن نعترف أننا ننظر إلى التاريخ - من خلال التوراة - بعيون رجال يحفظون ذكرى النفور العميق للسامريين ، وليس هذا فحسب ، بل إن «اليهوديين» إنما كانوا يشعرون أنهم أرقى أرومة من الآخرين ، ولما كانت إسرائيل قد أزيلت من فلسطين ، فإننا نجد أن مصادرها معتمدة على مملكة يهوذا ، وحيث أن السامرة بعيدة عن منطقة الكتاب (كتاب التوراة) ، فهي غالبا ليست موجودة ، وأنه منذ ازدهار النقد الحديث فحصت بدأ العلماء يبحثون فيما وراء النظرة اليهودية للأحداث ، معترفين بأن طبيعة الأشياء المتعلقة باثنتين لن تنتهي ، وأن هذا التاريخ لجنوب غربي آسيا - بعد عام ٧٢٢ ق م - ليس الا وجهة نظر ناقصة تماما للتطور المتتابع في فلسطين تأخذها من سجلات يهود غير الكافية ، والتي تتطلب الحذر منه (١١٩) .

116) S. A. Cook, CAH, III, 1965, P. 383-385.

117) C. Roth, Op. Cit., P. 28-29.

(١١٨) أخبار ثان ١٢ : ٨ ، ٣٥ : ٧ ، عزرا ٤ : ٣ .

119) S. A. Cook, Op. Cit., P. 386-387.

ثالثا : دويلة يهوذا

(١) رجبعام (٩٢٢ - ٩١٥ ق م) :

قامت دويلة يهوذا — كما قامت دويلة اسرائيل — بعد وفاة سليمان ، ثم جلوس ولده «رجبعام» على عرشها ، وان اختلف عرشها هذا ، عن عرش اسرائيل في أنه لم يكن دائما ماثرا نزاع داخلى ، ولم ينتقل من بيت الى آخر ، بين آونة وأخرى كما كان الامر هناك في اسرائيل ، وهكذا فان الاسرة المالكة في «يهوذا» قد نالت نفوذا على الشعب الذى لم يقدر له أبدا أن يستأصل شأفتها ، حتى حين أصبح الاستقلال حلما بعيد المنال ، ولكن تاريخها تميز — في الغالب الاعم — بعلاقات العداء مع اسرائيل .

ونقرأ في التوراة أنه «في السنة الخامسة للملك رجبعام صعد شيشنق ملك مصر الى اورشليم ، وأخذ خزائن بيت الرب ، وخزائن بيت الملك ، وأخذ كل شيء ، وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان ، فعمل الملك رجبعام عوضا عنها أتراس نحاس^(١) ومن الواضح أن الكاتب العبرانى لم يفزعه تدنيس المدينة المقدسة ، بقدر ما ضايقه ضياع دروع الذهب التى صنعها سليمان والتى استبدلت بمثلها من نحاس ، وليس هناك ذكر لمدينتى «جهازر» و «اورشليم» بين الاسماء الباقية التى تصحب المنظر الكبير فى البوابة البوباستيه ، وهى الاسماء التى تقدم بالصورة التقليدية التى اعتدناها فيما يتصل بحروب فرعون مصر العظيم «تحتوتس الثالث» ، بمعنى أنها ملحقه بصدور أسرى تقودهم صورة فرعون العملاقة الى الامام ، كتقدمة لأبيه «آمون رع»^(٢) .

(١) ملوك أول ١٤ : ٢٥ - ٢٧ .

2) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 329-330.

وأما الحصر العددي فمدعاة لليأس ، ذلك أنه من بين ١٥٠ مكانا ذكرت لا نلتقى الا بالقليل محفوظا ليمهد لنا طرق تدور في النواحي حول المنطقة الجبلية للسامرة ، دون الوصول الى مركز المملكة الاسرائيلية ، بل انه ليست هناك أية اشارة الى أنهم قد اقتربوا من اليهودية اطلاقا — وان كان هناك من يرى عكس ذلك ، كما سوف نرى ومع ذلك فهناك ما يشير الى غارة على الاقليم الادومي ، وأما الفكرة التي ظلت قائمة طويلا من أنه يمكننا قراءة «(حقل أبراهام)» في القائمة ، فقد صرف النظر عنها نهائيا اليوم^(٣) .

وعلى أى حال ، فان حملة شيشنق هذه ، انما قد وصلت الى شرق الاردن — حيث هُزم رجبعام ، حتى وصل الى فنوتيل ومحانيم ، التي لجأ اليها جده داود من قبل ، كما وصلت في الشمال الى سهل يزرعيل والجليل ، وأما في الجنوب فقد وصلت الى «(عصيون جابر)» على خليج العقبة ، وإلى حبرون وبئر سبع وغيرها من مدن جنوب يهوذا ، وإلى سهل عكا وغزة في الغرب^(٤) .

هذا ويعزى الى «(شيشنق)» تدمير مدينة «تل بيت مرسيم» من الطبقة (P) وقد كان تدميرا عنيفا ، حتى اقتلعت المدينة القديمة تماما من جذورها ، وحلت مكانها أبنية تدين بالقليل في تخطيطها الى ما سبقها من مبان في نفس الموقع^(٥) . وأما المدينة الاخرى التي ينسب تدميرها الى فرعون فهي «(بيت شمس)» ، حيث وجدت مباني الطبقة الثانية (P) ، مغطاء بطبقة من الرماد نتيجة حريق هائل ، ورغم أن هناك من يؤرخ هذا الحريق بحوالي عام ٩٥٠ ق م ، فالاكثر احتمالا أنه كان في عام ٩٢٦ ق م ، ومن جراء غزوة «(شيشنق)» ، لأن الحريق لو تم في منتصف القرن العاشر ، فلا بد أن يكون قد حدث بطريق الصدفة ، وليس بفعل عدو للمدينة، ذلك لان سلطات سليمان في تلك الفترة انما كانت

3) Ibid., P. 230.

4) Y. Aharon, The Land of Bible 1966, P. 288-289.

5) K. M. Kenyon, Op. Cit., P. 272-273.

G. E. Wright, Biblical Archaeology, 1957, P. 149.

وكذا

جدا قوية^(٦) وعلى أى حال، فإن غزوة شيشنق انما تركت أثرا كبيرا في عدة مدن ، مثل مجدو وشكيم وغيرها^(٧) .

وأما متى كانت هذه الحملة ، فإن هناك من يراها في السنوات الاخيرة من حكم شيشنق^(٨) ، ومن يراها في عام ٩٣١ ق.م^(٩) ، ومن يراها في عام ٩٢٦ ق.م^(١٠) ، ولعل السبب في هذا الاختلاف انما يرجع الى الاضطراب في التأريخ للوك اسرائيل ، أكثر منه للفراعين المصريين ، وعلى أى حال ، فإننا نفضل الاتجاه الاول ، بخاصة وأننا قد ارتضينا من قبل أن سليمان قد انتقل الى جوار ربه الكريم في حوالي عام ٩٢٢ ق.م ، وبما أن هذه الحملة قد حدثت بعد وفاة سليمان ، فلا بد إذن من أن تؤرخ بتاريخ لاحق لوفاة .

وأيا ما كان الامر ، فإن الكشف في «مجدو» عن قطعة جاء بها ذكر «شيشنق» لا يدع مجالا للشك في صحة الحملة ، وإن ظل الامر غامضا تماما فيما اذا كانت هذه محاولة لاهياء الامجاد المصرية القديمة ، أو هي خطة لتدعيم مركز يربعام ، أو هي غارة سلب ونهب ، وليس أكثر من ذلك^(١١) .

والرأى عندي أن الحملة انما كانت تهدف الى الأمرين الأوليين معا ، فمصر انما كانت قد بدأت في هذه الفترة تسترد أمجاد الاجداد العظام ،

6) G. E. Wright, JBL. 75, 1956, P. 216.

K. M. Kenyon, Op. Cit., P. 273-274.

وكذا

7) D. W. Thomas, Archaeology and Old Testament Study 1967, P. 333, 366.

G. E. Wright, BA, 1957, P. 148-149.

وكذا

8) J. Bright, A History of Israel, Philadelphia, 1959, P. 213.

9) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 229.

10) K. M. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, P. 272.

11) A. T. Olmstead, History of Palestine and Syria, 1931, P. 355.

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 230.

وكذا

J. Bright, Op. Cit., P. 213 F.

وكذا

وأن «شيشنق» إنما كان يريد استعادة سورية وفلسطين إلى حظيرة الامبراطورية المصرية من جديد ، بل ان الامور انما قد بدأت تسير في هذا الاتجاه منذ أيام الاسرة السابقة (الاسرة الحادية والعشرين) ، وذلك حين آوت مصر الفارين من «داود» ، ولكنها في عهد ولده سليمان انما كانت أكثر حسما ، فهي تطلق سراح ابن ملك أدوم ، وهي تأوى «يربعام» الذي فر من ولده سليمان ، ثم هي مرة ثالثة تحاول ألا تصل الامور معه الى حد الاشتباك المسلح ، فتحفل جيوشها مدينة «جازر» ثم تقدمها مهرا لابنة فرعون ، وزوج سليمان ، بل ان «برستد» ليذهب الى حد القول أن سليمان نفسه انما كان وقت ذاك واليا تحصت النفوذ المصري في فلسطين^(١٢) وهذا ما لا نوافق عليه .

وينتقل سليمان ، عليه السلام ، الى جوار ربه راضيا مرضيا عنه ، وترى مصر — على ما يبدو — في ذلك ساعة الصفر ، فتطلق سراح يربعام ، أو بالاحرى تسمح له بالعودة الى فلسطين ، ليقود الثورة ضد رجبام ، وحين يتم له الاستقلال بدويلة سرائيل ، تقف من ورائه تعضده وتسانده ، ولكن يبدو أن «يربعام» رجل مصر في فلسطين — لم يجد الامور تسير ، كما يحب ويهوى ، فربما اعترضته عقبات كؤود ، وربما تعرض لغزو من «رجبام» ، ومن ثم فقد استنجد — فيما يرى سيسل روث^(١٣) ، وأدولف لودز^(١٤) ، وهول^(١٥) — بشيشنق ، فيهرب الأخير الفرصة ، فيقوم بحملته التي أراد بها — بجانب مساعدة يربعام — اعادة سورية وفلسطين الى حظيرة الامبراطورية المصرية^(١٦) ، الامر الذي تابعه فيه الكثيرون من خلفائه ، قدر طاقتهم ، وليس — كما يرى هول — لاحضار الدروع الذهبية من معبد سليمان والبقية الباقية من

12) J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 529.

13) C. Roth, Op. Cit., P. 31.

14) A. Lods, Op. Cit., P. 374-375.

15) H. R. Hall, Op. Cit., P. 436-437.

16) J. Bright, Op. Cit., P. 213 F.

وكذا E. Drioton et J. Vandier, L'Égypte, Paris, 1965, P. 525.

خزائن كهنوت «يهوه» ليضمن بذلك ثراء لامون • الذي لم يكن في ذلك الوقت على ميسرة ، كالتي كانت في الماضي القريب^(١٧) •

ومع ذلك فلعل من الجدير بالملاحظة أن «شينشق» لم يحاول المضي في فتوحاته الى سورية ، كما أن الرجل انما قد اعترف على جدران معبد الكرنك بأن الغنائم والجزى التي جاء بها من فلسطين ، انما قد وهبها لربه آمون ، وأن النقوش التي تزين معبد الكرنك الكبير انما توضح الى حد بعيد مدى التضرع والتوسل من الفرعون لرب طيبة^(١٨) •

وعلى أى حال ، فان التدخل المصرى في اسرائيل ، ولم تمض على موت سليمان سنوات خمس ، فضلا عن احتلال العديد من المدن والاستيلاء على خزائن معبد سليمان وقصره ، لدليل واضح على مدى ضعف الاسرائيليين ، بل ان التوراة انما تنوه بخضوع دويلة يهوذا لمصر ، أو على الاقل ، فان معظم المدن هناك قامت بدفع الجزية لمصر^(١٩) •

(٢) ابيام (٩١٥ - ٩١٣ ق.م)

ورث ابيام أباه رحبعام على عرش يهوذا ، ولمدة سنوات ثلاث ، وان كانت التوراة مضطربة بالنسبة للملك الجديد ، فهو ابيام ابن رحبعام من زوجة معكة ابنة أبشالوم على رواية^(٢٠) ، وهو ابيام بن رحبعام من زوجه ميخايا بنت أوريئيل من جبعة على رواية أخرى^(٢١) • وعلى أى حال ، فلقد وجد ملك يهوذا الجديد ، أنه لا مخرج له من اعتداءات جارتة اسرائيل ، الا بالتحالف مع دمشق^(٢٢) ، ويقص علينا كاتب

17) H. R. Hall, Op. Cit., P. 439.

18) Burguet, Temple d'Amon—Rea Karnak, Vol. III, The Bubastite Portal, Chicago, 1945, Pl. 2

(١٩) أخبار أيام ثان ١٢ : ٨ ، وكذا

S. A. Cook, Op. Cit., P. 359.

(٢٠) ملوك أول ١٤ : ١ ، ١٥ : ١ - ٨ •

(٢١) أخبار أيام ثان ١٣ : ٢١ •

22) C. Roth, Op. Cit., P. 31.

A. Lods, Op. Cit., P. 370.

وكذا

الحواليات العبراني أن «أبيام» قد انتصر على «يربعام الاول» ملك اسرائيل ، وأحتل بيت ايل وبعض مدن أفرايم الجنوبية (٣٣) .

(٣) أسسا (٩١٣ - ٨٧٣ ق.م)

وجاء بعد أبيام ولده «أسا» (وملك احدى وأربعين سنة) (٢٤) ، ونقرأ في التوراة (٢٥) أنه كان «يهويا» مخلصا ، أخرج من معبد سليمان ، الالهة الانثى التي كانت تقطن بجوار «يهوه» وطرد المعاهرات المقدسات ، وأزال المأبوتين من أرض يهوذا ، وسحب من أمه معكة ابنة أبشالوم (٢٦) ، لقب «الملكة الام» ، لأنها كانت تؤيد الوثنية (٢٧) ، وتتعبد الى الهة الاخصاب الكنعانية «عشتارت» .

(٤) غزو سنحريب ليهوذا :

وهكذا بقيت الامور على حالها قرابة عقد من الزمان ، مات فيه «سرجون الثانى» وخلفه ولده «سنحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) وكانت تلك اللحظة هي الاشارة للثورة التي انتشرت كالنار في الهشيم بين الولايات الموالية لآشور ، وفي هذه الاثناء تدخل «مردوخ بالادان» ملك بابل الذى كان يقود الثورة في الاراضى الغربية ، بطريقة أكثر حزما في السياسة اليهودية ، ونظرا لشفاء «حزقيا» من مرضه الخطير الذى كان قد أصيب به ، ولثقة في التخلص من قبضة الاشوريين ، فان حزقيا استقبل بعثة من قبل ملك بابل ، طبقا للتقاليد الملكية القديمة ، تحمل اليه السلام ، وتحضر اليه الهدايا ، وقام حزقيا بفتح خزائنه ، ومحتويات مخازنه الحربية . وتم بهذا التحالف مع بابل الذى اشترك فيه العرب مع آخرون ، وأما «مصر» فقد كان لها هناك في اورشليم حزب قوى يبنى التحالف معها ويطلب الحماية منها ، وينجح الان فيما فشل فيه

(٢٣) أخبار أيام ثان ١٣ : ٣ - ٢٢ .

(٢٤) ملوك أول ١٥ : ٩ ، أخبار أيام ثان ١٦ : ١٣ .

(٢٥) ملوك أول ١٥ : ٩ - ١٥ ، أخبار أيام ثان ١٤ : ٥ - ١ .

(٢٦) لعل هذا نوعا من الاضطراب المعروف في التوراة ، فكلما

اشرنا من قبل - وفي نفس الاصحاح - أن معكة ابنة أبشالوم ، انما هي

أم أبيه وليست أمه هو (ملوك أول ١٥ : ٢ ، ثم قارن ١٥ : ١٠) .

(٢٧) باروخ سبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٤٢٤ .

من قبل ، فلا يسمع «حزقيا» لنصائح اشعيا النبي ، ولا يضيع على نفسه فرصة موت سرجون ومن ثم فان ملك يهوذا انما يطلب من مصر التدخل في شئون فلسطين لتدعيم مركز الثائرين ، ومساعدتهم على التخلص من النير الاشورى ، وهكذا تكون حلف يضم فينيقيا وفلسطين ومؤاب وأدوم وعمون ، فضلا عن بعض القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية ، على رأسها «تعلخونو» ملكة «أدوماتو» (دومة الجندل) وفوق الجميع كانت مصر ، وأخيرا «حزقيا» ملك يهوذا حيث «عصى على ملك آشور ولم يتعبد له» (٢٨) .

وهكذا انتهزت بابل ومصر فرصة قيام ملك جديد في آشور لاثارة المتاعب في طريقة ، كانت بابل تسعى لرفع نير آشور عن كاهلها ، وان لم يكتب لها نجاحا في مسعاها ، وكانت «تعلخونو» (تلخونو) - التي امتدت سلطتها من دومة الجندل ، وحتى حدود بابل - قد وقفت الى جانب الثوار البابليين ضد سنحريب ، وعندما كتب للعاهل الاشورى نجحا كبيرا في القضاء على مقاومة البابليين ، اتجه الى دومة الجندل ، وغرض الحصار عليها (٢٩) ، ثم استولى عليها بعد أن دب النزاع بين ملكة «دومة الجندل» ، وقائد جيوشها «حزائيل» سيد قبيلة قيدار (٣٠) ، ويبدو أن سنحريب قد حقق نجاحا كبيرا على الاعراب في البداية ، كان سببا في أن يفرض نفوذه عليهم بدرجة كبيرة ، ومن ثم فقد رأينا «هيودوت» يطلق عليه لقب «ملك العرب والاشوريين» (٣١) .

وأما مصر ، فقد كانت تستهدف اعادة نفوذها على فلسطين ، وهكذا تجددت العداوة الكامنة بين القوتين الكبيرتين - مصر وآشور - في

(٢٨) ملوك ثان ٢٠ : ١ - ١٩ وكذا

M. Moth, Op. Cit., P. 267-268.

29) A. Musil, Arabia Deserta, N. Y., 1930, P. 480.

D. D. Luckenbill, ARAB, 2, P. 518.

وكذا

(٣٠) جواد على ٥٩٢/١ .

British Museum Tablets, K, 3087, 3405.

وكذا

31) Herodotus, II, 141.

عهد «سنحريب» وبدأ الجيش الاشوري في غزو فلسطين في عام ٧٠١ ق.م ، واخضاع مدن فلسطين الساحلية الواحدة تلو الاخرى ، وبينما كان «سنحريب» يقوم بذلك كله ، ظهرت قوة مصرية في الجنوب الغربى من فلسطين قرب «التقية» (المذكورة في سفر يشوع ١٩ : ٤٤) أو «التكة» — وهى خربة المقنع الحالية ، على مبعده ستة أميال جنوبى العقير (عقرون) ، وسبعة أميال شمالي تبنة (تمنة) — وإن كان من غير المحتمل أن المصريين قد استخدموا قوة كبيرة ، وعلى أى حال ، فإن «سنحريب» يصف منافسيه بأنهم «ملوك مصر» أى حكام المدن ، وربما كانوا من أمراء الدلتا ، وكذلك النبالة وهرسان الفرعون الاثيوبى ، ومن الواضح أن الاشارة فى التوراة عن تدخل «طهراقا» (طهراقا) ملك كوش ضد سنحريب خطأ ، ذلك لان «شباكا» انما كان ما يزال فى عام ٧٠١ ق.م ملكا ، وأن ابن أخيه «طهراقا» لم يخلفه على العرش الا فى عام ٦٨٩ ق.م (٣٢) .

وأيا ما كان الامر ، فإن قوات سنحريب قد اخترقت بلاد يهوذا ، وفتحت حصونها واحدا اثر الآخر ، ثم احتلت سنا وأربعين مدينة مسورة مع عدد من المدن الصغرى ، أو بمعنى آخر ، فإن بلاد اليهودية كلها تقريبا قد سقطت فى أيدي الاشوريين ، وكل ما استطاع «حزقيا» الحفاظ عليه انما كان اورشليم ، كما أن واحدة أو اثنتين من القلاع الحصينة فى الجبهة الغربية استمرت تقاوم الاشوريين ، ومنها «لاخيش» Lachish (٣٣) ، التى اتجه اليها سنحريب وأحكم

(٣٢) قاموس الكتاب المقدس ١٠٣/١ ، والتبرامى : مصر وبلاد النوبة ، ترجمة تحفة هندوسة ص ٢٢٧ (القاهرة ١٩٧٠) ،

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 450.

وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 268.

وكذا

(٣٣) لخيش أو لاخيش : كان يظن أنها «تل الحمص» على مبعده ١٦ ميلا الى الشمال الشرقى من غزة ، ١١ ميلا الى الجنوب الغربى من مدينة جبرين ، ويرجح الان أنها «ته الدوير» على مبعده ٥ أميال غرب بيت جبرين .

W. M. F. Petrie, Tell el-Hesi (Lachish), 1891.

وكذا

M. F. Albright, ZAW, 6, 1929, P. 3.

وكذا

جنوده الحصار حولها ، وهنا لم يكن أمام حزقيال شيئا يفعل في هذا الموقف الميئوس منه ، الا الخضوع لسنحريب ، والا جزية كبيرة يدفعها له صاغرا ذليلا ، ومن ثم فقد أرسل حزقيا للعاهل الاشوري في «لاخيش» يقول : «لقد أخطأت ارجع عني ، ومهما جعلت على حملته ، فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاث مئة وزنة من الفضة ، وثلاثين وزنة من الذهب ، فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة في بيت الرب ، وفي خزائن الملك» (٣٤) .

ويبدو أن سنحريب قد أدرك أنه من خرق الرأي أن يترك أورشليم الحصينة من ورائه في يد حزقيا ، ومن هنا فقد أرسل قسما من جيشه تحت امرة ثلاثة من قواده لحصار أورشليم والاستيلاء عليها ، وهكذا بدأ حصار أورشليم ، وأرسل ضباط سنحريب رسالة سخرية الى حزقيا الذي بدأ في مدينته «كالطير في القفص» وانتشر الرعب بين القوم ، الذين خيل اليهم أن ساعة أورشليم الاخيرة قد دنت ويفتح سنحريب لآخيش بعد ذلك ، ثم يتجه الى «التكة» لمهاجمة الجيش المصري الذي كان يقوده «طهراقا» ، وفي أثناء ذلك حدث ما يدعو سنحريب الى العودة الى «نينوى» ، وأنقذت أورشليم ، وسمح لحزقيا بأن يحتفظ بعرش يهوذا ، كتابع لآشور ، وان أجبر على دفع الجزية المتأخرة ، وأن يرسل بنياته ومحظياته الى سنحريب في نينوى ، ومن المتفق عليه أن سنحريب قد أوقع على حزقيا عقابا قاسيا ، وأنه جعل سلطانه مقصورا على دولة المدينة الصغيرة أورشليم (مدينة داود) ، واستولى منه على كل بلاد يهوذا ، التي وهبها للملوك الفلسطينيين الموالين له ، وهم «متي» ملك أشدود ، و«سلبيل» ملك غزة ، و«بادي» ملك عقرون ، الذي استعاد سلطانه القديم (٣٥) .

(٣٤) ملوك ثان ١٨ : ١٣ - ١٦ .

(٣٥) ملوك ثان ١٨ : ١٧ - ٣٧ ،

M. Noth, Op. Cit., P. 268-269.

P. R. Dougherty, JBL, XLIX, 1930, P. 160-171.

K. Fullerton, AJSL, XLII, 1925, P. 1-25.

وكذا

وكذا

وكذا

هذا وقد سجل «سنحريب» كل هذه الاحداث في حولياته ، ومن ثم فاننا نقرأ في هذه الحوليات : «..... أما بالنسبة لحزقيا اليهودي ، فانه لم يخضع لنيري ، ومن ثم فقد حاصرت ٤٦ مدينة من مدنه القوية ، وكذا القلاع المسورة والقرى الحصينة ، التي لا تحصي في مجاوراتها ، وفتحتها بواسطة منحدرات ترابية وكباش (آلات حربية لهدم الاسوار) جعلتها قريبة من الاسوار ، هذا الى جانب هجمة المشاة الذين استخدموا المقاليع والمدكات ، واستوليت منهم على (٢٠٠١٥٠) (٣٦) نسمة ، صغارا وكبارا ، ذكورا واناثا ، وأخذت منهم خيلا وبغالاً وحميرا وجمالاً وماشية لا تحصى ، كخفيمة ، وأما هو فقد جعلته سجيناً في أورشليم مقر ملكه كطير في قفص ، وحاصرت بأكوام من التراب ، حتى أضايق من يتركون بوابة مدينته ، وأما مدنه التي نهبتها فقد نزعها من بلاده وأعطاها لـ «متني» ملك أشدود و «بادي» ملك عقرون ، و «سلبيل» ملك غزة ، وهكذا اختزلت بلاده ، ومع ذلك زدت الجزية «كاترو» Katru التي يجب دفعها لى بوصفى سيداً له ، بالإضافة الى الجزية السابقة ، على أن تسلم لى سنويا ، أما حزقيا نفسه الذي دحر من بهائي وعظمتي ، والذي هجرته النخبة الممتازة من الجيوش التي جاء بها الى أورشليم لتدعيم قواتها ، فأرسل الى فيها بعد الى نينوى ، مدينتي الملكية ، ٣٠ وزنة من الذهب ، ٨٠٠ وزنة من الفضة ، أحجاراً كريمة ، ككل ألواح كبيرة من الحجر الاحمر ، مفادع مطعمه بالعاج ، ومقاعد مطعمة بالعاج ، جلود فيلة ، أبنوس خشب صناديق ، وكل الذخائر الثمينة ، ثم بناته ومحظياته ، وعازفين وعازفات ، ولكي يسلم الجزية ويقدم الخضوع كعبد ، أرسل رسوله الشخصي (٣٧) .

(٣٦) يرى بعض الباحثين أن ما يدعيه سنحريب من أنه قد أخذ من سكان يهوذا (٢٠٠١٥٠ نسمة) ، إنما يشير الى عدد سكان يهوذا ، كما يقدر في تلك الايام ، وأن العاهل الاشوري إنما قد اعتبرهم جميعاً أسرى حرب (فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢١٧) .

(٣٧) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ٢٨٠/٥ - ٢٨١ (الاسكندرية ١٩٦٣) .

A. Leo Oppenheim, ANET, 1966, P. 288.

وكذا

هذا وقد اختلفت الآراء في الاسباب التي دعت سنحريب الى العودة المفاجئة الى بلاده ، بخاصة وأن العاهل الاشوري لم يشر الى ذلك ، فهناك من يرجع ذلك — الى اضطراب خطير في «نينوى» نفسها ، وهناك من يرجعها الى وجود جفاف من الفيران أكلت قسى الغزاة وجعابهم وحمائل دروعهم ، فكانت النتيجة أنهم قد أصبحوا عزلا من السلاح ، ومن ثم فقد ولوا الادبار ، وسقط الكثيرون منهم^(٣٨) ، وأخيرا ترجعها التوراة الى أن «ملك الرب قد خرج وضرب من جيش آشور مئة ألف وخمسة وثماني ألف ، ولما بكروا صباحا اذا هم جميعا جثث ميتة ، فانصرف سنحريب ملك آشور وذهب راجعا وأقام في نينوى»^(٣٩) .

وهكذا أصبح من الصعب علينا أن نعرف أسباب عودة سنحريب على وجه التحقيق ، ذلك لان كلا من روايتي التوراة وهيرودوت ، انما ترجعها لاسباب غير عادية ، فالاولى ترجعها الى قدرة «هيفا يستوس» (بتاح) الاله المصري ، والثانية ترجعها الى قدرة «يهوه» رب اسرائيل ، وهى فى ذلك انما تعبر عن وجهة النظر اليهودية فى هذه الاحداث^(٤٠) ، وعلى أى حال ، فلتن صدقت احدى الروايتين — أو حتى الروايتين معا — فذلك نوع من المعجزات ، وان كان الامر غير ذلك ، فربما كانت هناك أسباب داخلية فى نينوى دعت سنحريب الى العودة الى بلاده ، ليكون على مقربة من الاحداث ، وهذا ما نرجحه ونميل الى الاخذ به ، وأيا ما كان الامر ، فالذى لاشك فيه أن حزقيا انما استمر على ولائه لآشور ، ما بقى حيا فى هذه الدنيا .

(٥) منسى (٦٨٧ - ٦٤٢ ق.م) :

جاء «منسى» الى عرش يهوذا بعد أبيه حزقيا ، و «كان منسى ابن اثنتى عشرة سنة حين ملك ، وملك خمسا وخمسين سنة»^(٤١) وقد تميز

(٣٨) هيرودوت : يتحدث عن مصر ، ترجمة محمد صقر خفاجه .
مراجعة وتقديم أحمد بدوى ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٧٠ - ٢٧٢ .
(٣٩) ملوك ثان ١٩ : ٣٥ - ٣٦ ، اشعيا ٣٧ : ٣٦ .
(٤٠) J. Laessoe, People of Ancient Assyria, London, 1963, P. 114.
(٤١) ملوك ثان ٢١ : ١ .

عهده الطويل هذا بأن فلسطين أصبحت فيه تحت النفوذ الاشوري المباشر ، وأن حكمه — طبقا لهذا — يمكن أن ينظر اليه كعلامة مميزة في المتطور الداخلي للبلاد (٤٣) .

أما من الناحية الدينية فقد كانت له شهرة سيئة ، ذلك لان «منسى» انما كان كافرا بدين «يهوه» ، متبنيا لطقوس سادته الوثنية ، بما فيها من عبادة الكواكب والتضحية بالاطفال ، ومن هنا فقد اعتبرت هذه المرحلة أسوأ وأقسى ردة وثنية في تاريخ يهوذا ، وأما ما هو أكثر دهشة في هذه المرحلة ، فان هذه الالهوال انما كان يمارسها هؤلاء القوم الذين ادعوا أنهم عباد يهوه ، انما كانوا يعتقدون أنهم بممارستهم مثل هذه الاعمال ، يصبحون جديرين برعاية رب اسرائيل (٤٢) ، ونقرأ في التوراة أن منسى قد «بنى المرتفعات التي أبادها حزقيا أبوه ، وأقام مذابح للبعل ، وعمل سارية كما عمل أخاب ملك اسرائيل ، وسجد لكل جند السماء وعبدها ، وبنى مذابح في بيت الرب الذي قال الرب عنه : في اورشليم أضع اسمي ، وبنى مذابح لكل جند السماء في دارى بيت الرب ، وعبر ابنه في النار ، وعاف وتفاقل واستخدم جانا وتوابع ، وأكثر عمل الشر في عيني الرب لاغاظنه ، ووضع تمثال السارية التي عمل في البيت ، الذي قال الرب عنه لداود وسليمان ابنه في هذا البيت ، وفي اورشليم التي اخترت من جميع أسباط اسرائيل أضع اسمي الى الابد» (٤٤) ، وهكذا جددت المحاريب المحلية القديمة ، ومارس القوم الضحايا البشرية ، وقدموا الطقوس الاجنبية المألوفة حتى في معبد اورشليم نفسه (٤٥) ، وأعترف القوم رسميا بعبادة البعل ، كما اعترف كذلك بممارسة العرافة والسحر ، ولعل هذا كله هو الذي دعا بعض الكتاب المتأخرين الى أن يروا في منسى وما تم في عهده سببا في سقوط

42) S. A. Cook, Op. Cit., P. 391.

43) I. Epstein, Op. Cit., P. 51.

(٤٤) ملوك ثان ٢١ : ٣ - ٧ .

45) C. Roth, Op. Cit., P. 35.

أورشليم ونفى يهوذا (٤٦) .

ونقرأ في التوراة أن «منسى» قد سعى الى «بابل» ، ثم أعيد مرة أخرى الى عرشه ، وليس هناك من المستندات الاشورية ما يدعم ذلك ، وإن كان هناك ما يشير الى أن «أسر حدون» (٦٨٠ - ٦٩٩ ق م) قد استدعى مجموعة من مواليه الصغار - ومنهم منسى - للمساهمة في بناء القصر الملكي ، ولكن ليست هناك أية اشارة الى اعادة «منسى» الى عرشه (٤٧) ، وعلى أى حال ، فإن هذا الامر الاخير انما قد حدث مع «نخاو» أمير سايس (٤٨) ، ومن ثم فليس من الغريب أن يحدث مثل ذلك مع «منسى» حين تؤكد الاشوريون من ولائه لهم ، ولكن الشيء المميز للنص التوراتي يعزو حرية منسى وعودته الى عرش يهوذا ، الى خضوعه لرب اسرائيل «يهوه» ، وبدهى أن هذا ليس صحيحا (٤٩) كما أنه لا يتفق وسيرة منسى وأعماله الدينية .

(٦) آمون (٦٤٢ - ٦٤٠ ق م) :

خلف آمون أباه منسى على عرش يهوذا ، «لوكان ابن اثنين وعشرين سنة حين ملك ، وملك سنتين في أورشليم ، وعمل الشرفى عينى الرب كما عمل منسى أبوه» ، ثم سرعان ما ذبح في فتنة قام بها عبده من خدم القصر فاقتص الشعب لهذه الجريمة ، ونصب ولده «يوشيا» على العرش ، وهو ما يزال بعد صبيا في الثامنة من عمره (٥٠) ، وفي الواقع أننا لا ندرى على وجه التحقيق السبب في اغتيال آمون ، فربما كان تصرفا لانتقام شخصى ، وربما كان نتيجة مؤامرة في الحاشية ، وإن كان من غير المستحيل والحدث

(٤٦) ملوك ثان ٢٣ : ٢٦ - ٢٧ ، ارمياء ١٥ : ٤ ، وكذا

W. F. Albright, Op. Cit., P. 79.

(٤٧) جون الدر : المرجع السابق ص ١٠٤ - ١٠٥ .

48) A. Leo Oppenheim, ANET, P. 295.

49) S. A. Cook, Op. Cit., P. 293-4.

(٥٠) ملوك ثان ٢١ : ١٩ - ٢٦ ، ٢٣ : ٢٠ - ٢٥ ، أخبار ثان ٢٣ :

٢١ ، ٢٥ .

يرتبط بانهييار آشور ، أن النزاع بين مؤيدي آشور والمعادين لها ،
انما كان مسئولا لدرجة ما عن هذا الامر^(٥١) .

(٧) يوشيا (٦٤٠ - ٦٠٩ ق م) :

جاء يوشيا الى عرش يهوذا في وقت كانت فيه آشور تندنو الى النهاية
المحتومة ، وفي هذه الاثناء كان يجلس على عرش آشور «أشور بانيبال»
(٦٦٨ - ٦٢٦ ق م) ، وكانت ظواهر الامور تدل على أن امبراطوريته
وطيدة الاركان ، وخاصة بعد أن قضى على ثورة أخيه «شمش شوم
أوكين» ، وحلفائه من الاعراب مثل «ياتاع» الذي فر الى المبادية على
أيام سلفه «أسرحدون» ، وان انتهى أمره الان الى أن يقبض عليه -
وكذا زوجه أديا «عديّة» - وأن يضعه «أشور بانيبال» في قفص
ليعرض على الناس عند أحد أبواب نينوى^(٥٢) .

وتمضى الايام ، ويحدثنا العاهل الاشورى نفسه أن أياما سوداء قد
حلت في أرجاء مملكته ، وأنه كان يقاسى آلاما جسمية وروحية سلبت
روحه ، ثم حدثت بعد وفاته في عام ٦٢٦ ق م ، مشاكل واضطرابات
أدت في نهاية الامر الى سقوط العاصمة الاشورية نفسها في أيدي
البابليين والميديين في عام ٦١٢ ق م ، وبعد ذلك تم نهبا في صورة
كاملة^(٥٣) ، وان كان هناك من العلماء من يرى أن المدينة قد سقطت في
أغسطس ٦١٣ ق م ، بعد معركة دموية ضد الحلفاء ، بدأت في شهر
يونية ٦١٣ ق م^(٥٤) ، وعلى أى حال ، فلقد اقتسم الفريقان المنتصران
مملكة آشور ، فاستولى «الميديون» على قسمها الشرقى ، وأخذ البابليون
جنوبها ، واضطرت الحكومة الاشورية أن تجعل من «حران» مركزا لها ،
ولكن «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق م) بن «نبوبولاسر» (٦٢٦ -

51) M. Noth, Op. Cit., P. 272.

52) A. Musil, Op. Cit., P. 48-65.

D. D. Luckenbill, Op. Cit., P. 819.

53) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 258.

وكذا

(٥٤) محمد عبد القادر : المرجع السابق ص ٢٤٧ .

٦٠٥ ق٠م) ملك بابل ، استطاع أن يستولى عليها ، وأن يقضى على الجيش الاشورى في عام ٦٠٩ ق٠م^(٥٥) .

وفي هذه الاثناء كان «نخاو الثانى» (٦١٠ - ٥٩٥ ق٠م) يجلس على عرش الكثانة ، فيتابع سياسة أبيه «بسماتيك الاول» (٦٦٤ - ٦١٠ ق٠م) في مساندة آشور - والى أبعد الحدود - ولم يكن نخاو يريد من ذلك أن يجعل لمصر صوتا مسموعا في سياسة الشرق القديم فحسب ، ولكنه أراد كذلك أن يحتفظ بأشور ضعيفة كحماية ضد القوى الخطيرة في الشرق ، والتي تهدد الان آشور في المقام الاول ، ولكنها على العموم ربما تجاوزت في الغد القديم كل الشرق القديم ، وأخيرا لكي يسترجع لمصر الامبراطورية المصرية المفقودة في سورية وفلسطين ، وهكذا أسرع نخاو الثانى بقواته لمساعدة «أشور أو بالث الثانى» القابع في «حران» أملا في عون من السماء ، يأتيه عن طريق مصر ، ويا للعجب ، فان البلد الذى بقى لمدة جيلين هدف الاشوريين ، فاذا هو يصبح الان العون الاكبر - والوحيد لهم - ولست أدري أكان ذلك نتيجة طبيعية لحسن نية المصريين ، وطبيعة نفوسهم النبيلة ونسيانهم الاساءة دائما وأبدا ؟ أم أن الدوافع السياسية كانت وراء ذلك كله ؟

وأيا ما كان الامر ، فلقد كان على الفرعون المصرى لى يصل الى حران أن يعبر كل سورية وفلسطين ، وأن يقبض بيديه على زمام الامور في هذه البلاد ، بعد أن انتهى الحكم الاشورى فيها ، وكان الموقف بالنسبة الى «يوشيا» ملك اليهود مختلفا ، كان انهيار آشور فرصته التى كان يحلم بها ، لاستعادة حكم بيت آل داود مملكة اسرائيل السابقة ، والتى كانت في هذه الفترة مقسمة بين أربع ولايات آشورية ، ولما لم يكن هناك ملك على اسرائيل منذ سقوط السامرة ، فقد رأى أن الطريق ممهد للمحاولة في تعزيز الادعاء القديم لبيت داود ، واستعادة الحكم الملكى على أيام داود وسليمان^(٥٦) .

55) M. Noth, Op. Cit., P. 273.

56) M. Noth, Op. Cit., P. 273-274.

هذا فضلا عن أن «يوشيا» انما كان يميل الى بابل — كما كان حزقيا من قبل — أكثر من ميله الى آشور ، بل ان محاولات يوشيا لاعاقبة الجيش المصرى فى «مجدو» وهو فى طريقه الى حران ، ربما تدل على قاعدة عريضة من خطة استراتيجيه لمعاهدة عسكريه بين يهوذا وبابل ، وان لم تكن لدينا أية معلومات عنها ، ومما يؤيد ذلك أن الجيش المصرى تحت قيادة بسماتيك الاول (٦٦٤ — ٦١٠ ق م) ، كان قد أسرع فى عام ٦١٦ ق م ، لمساعدة الاشوريين ولم يعترضه يوشيا ، لان بابل كانت ماتزال فيما وراء الافق السياسى لمملكة يهوذا ولكن الموقف الان قد تغير تماما ، وقد أصبح الجيش البابلى على مقربة من الفرات (٥٧) ، وتلك فيما أظن طبيعة اليهود ، فهم تحت أقدام القوى دائما وأبدا ، ويؤيد ذلك ما كان يظنه يوشيا من ضعف الجيش المصرى .

وعلى أى حال ، ورغم ذلك ، فليس هناك من شك فى أنه كان فى اورشليم حزب مصرى قوى — كما كان من قبل على أيام حزقيا ، وكما سيكون من بعد على أيام خلفاء يوشيا — وأيا ما كان الامر ، فمن الواضح تماما أن يوشيا كان يؤيد بابل ضد آشور ، وأنه لم يكن أبدا راعبا فى طلب مساعدة مصر ضد عدوه ، كما أنه لم يكن راعبا كذلك فى أن يمكن مصر من الافادة من ضعف هذا العدو (٥٨) .

وفى عام ٦٠٩ ق م ، تقدم الفرعون «نخاو الثانى» نحو «حران» لنجدة ملك آشور ، وهناك فى «مجدو» — تل المتسلم على مبعده عشرين ميلا جنوبى شرق حيفا ، فى الطرف الجنوبى من سلسلة الجبال التى تنتهى بحبل الكرم فى الشمال (٥٩) — اعترض يوشيا الجيش المصرى ومنعه من التقدم ، فأئذره «نخاو» بالحسنى ، ولكنه لم يرعو ، ونقرأ رسالته فى التوراة — كما جاءت فى أخبار الايام الثانى — حيث يقول

57) A. Malamat, The Last Ware of the Kingdom of Judah, JNES, 9, 1950, P. 219.

58) S. A. Cook, Op. Cit., P. 395-396.

(٥٩) قاموس الكتاب المقدس ٨٤١/٢ .

فيها : «مالى ولك يا ملك يهوذا ، لست عليك أنت اليوم ، ولكن على بيت حربى ، والله أمر بأسراعى ، فكف عن الله الذى معى فلا يهلكك » ومع ذلك : «لم يحول يوشيا وجهه عنه ، بل تنكر لمقاتلته ، ولم يسمع لكلام «نخو» (نخاو) من قم الله ، بل جاء ليحارب فى بقعة مجدو»^(٦٠) .

ويبدو أن «يوشيا» قد خيل اليه أن الموقف فى صالحه ، فقد كانت بعض المميزات العسكرية المهمة فى مجدو الى جانب يوشيا ، كالمبادأة بالهجوم والفرصة لهجوم سريع مذهب على عدو بعيد عن قواعد عملياته العسكرية ، ومهدد بخطر الانفصال والانقطاع عنها ، ومع ذلك فإن يوشيا لم يكن بقادر على هذه الخطوة ، ما لم يكن يمتلك جيشا قويا مدربا يمكن الاعتماد عليه ، ومع ذلك فيمكن أن نفترض — على أساس مقدرة يوشيا السياسية — أنه قد أولى اهتماما كبيرا لتطوير الجيش اليهودى ورفع مستواه^(٦١) .

وعلى أى حال ، فسرعان ما يلتقى الجيشان — المصرى واليهودى — ويكتب النصر للمصريين ، والذلة على اليهود ، ويدفع يوشيا حياته ثمنا لهذه المغامرة الفاشلة ، كما يدفع اليهود ثمن خطيئتهم فى تقدير قوة المصريين الحقيقية ، وبسبب سياستهم المناوئة للسياسة المصرية ، وتصبح فلسطين بالتالى خاضعة للسيادة المصرية^(٦٢) ، ومع ذلك ، فإن محاولة «يوشيا» هذه فى «مجدو» انما يمكن أن ينظر اليها على أنها النموذج الوحيد فى التاريخ الاسرائيلى من ناحية القيام بهجوم على جيش ذى قوة عالمية عظيمة^(٦٣) ، وكانت هذه القوة ، هى مصر بالذات ، التى قدر لها أن تزيقهم الذلة على مدى الدهور القديمة ، وأيا ما كان الامر ، فإن «نخاو» قد تابع مسيرته فى أواسط سورية وشمالها ليقوم

(٦٠) أخبار الايام الاول ٣٥ : ٢١ - ٢٣ .

61) A. Malamat, JNES, 9, 1950, P. 222.

(٦٢) ملوك ثان ٢٣ : ٢٩ - ٣٠ ، أخبار أيام ثان ٣٥ : ٢٠-٢٥ وكذا
S. A. Cook, Op. Cit., P. 396.

63) A. Malamat, JNES, 9, 1950, P. 222.

بمحاولة أخيرة لمساعدة آشور ، ورغم أن المصريين لم يوفقوا في انقاذ آشور ، فإنهم استمروا يسيطرون على منطقة عبر النهر و تخوم الفرات ، بعد أن أستولوا في عام ٦٠٦ / ٦٠٥ ق.م ، على معقل «كيموخو» وهزموا البابليين في «قوراماتي» وهما موقعان على الفرات الى جنوب قرقميش (٦٤) .

وعلى أى حال ، فلقد نجح «نخاو» في أن يخضع المدن الساحلية مثل أشدود وعسقلون ، كما أثبتت ذلك أوراق البردي ، وطبقا لرواية في التوراة فقد استولى على غزة كذلك ، وهناك نص بالهيوغليفيه عثر عليه في «صيدا» يشير الى سيطرة نخاو على الساحل الفينيقي ، وقد يسر له ذلك امتلاكه لأسطول في البحر الابيض المتوسط (٦٥) .

ولعل من الالهية بمكان أن نشير هنا ، قبل أن نختم عهد يوشيا ، الى أن هذا العهد انما قد تميز بعدة اصلاحات دينية ، كان أساسها الحصول على نسخة من «سفر الشريعة» في العام الثامن عشر من حكم هذا الرجل (عام ٦٢٢ ق.م) على يد الكاهن «حلقيا» في معبد اورشليم (٦٦) ، وقد قام جدل طويل حول حقيقة هذا الكشف ، وسواء أكان «حلقيا» قد أوجد نسخة سفر «الثنائية» هذه ، أم أنه قد وجدها حقيقة (٦٧) ، وسواء أكانت النسخة أصلية ، أم أنها لم تكتب الا قبيل اكتشافها هذا المزعم بما لا يتعدى عشرات السنين (٦٨) — الامر الذي سوف نناقشه بالتفصيل في الجزء الخاص بالتوراة في كتابنا عن الحضارة

64) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 358.

وكذا

D. J. Wiseman, Chronicles of Chaldaean Kings, London, 1956, P. 23, 67.

(٦٥) ارميا ٤٧ : ٨ وكذا :

A. Gardiner, Op. Cit., P. 358.

(٦٦) ملوك ثان ٢٢ : ٣ - ١٣ ، أخبار أيام ثان ٣٤ : ٨ - ٣٣ .

(٦٧) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣٥٦ .

وكذا W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, P. 225.

68) A. P. Davies, The Ten Commandment, N. Y., 1956, P. 35.

اليهودية — فالذى يهمننا هنا أن النصوص انما تنسب الى يوشيا أنه قد أصلح المعبد ، وطهره من الطقوس الاجنبية ، وأزال المحاريب المحلية من المرتفعات ، ودمر مذبح «بيت ايل» المنافس لمذبح أورشليم منذ أيام يربعام الاول ملك اسرائيل (٩٢٢ — ٩٠١ ق.م) ، واحتفل بعيد الفصح الذى يذكر القوم بالخلاص من مصر^(٦٩) ، ومن المدهش أن سيطرة مصر قد جاءت اليهم بجيوشها فى أورشليم نفسها هذه المرة ، وفى نفس العهد الذى احتفل فيه بالخلاص منها .

(٨) يهو أحاز (٦٠٩ ق.م) :

كان موت يوشيا بعد معركة مجدو صدمة قاسية على الحزب البابلى فى أورشليم ، ومع ذلك فقد «أخذ شعب الارض يهو أحاز بن يوشيا ومسحوه وملكوه عوضا عن أبيه ، وكان يهو أحاز ابن ثلاث وعشرين سنة حين ملك ، وملك ثلاثة أشهر فى أورشليم» ، كان «نخاو» أثناءها مشغولا فى الشمال ، متخذا من «ربلة» — وهى هرملة الحالية عند منابع العاصى — مركزا له ، ثم أمر «يهو أحاز» بالحضور اليه ، وهناك قبض عليه وأرسل الى مصر مقيدا فى الاغلال ، حيث بقى هناك الى وفاته ، وتقاضى نخاو من يهوذا تعويضا كبيرا ، «مئة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب»^(٧٠) .

(٩) يهوياقيم (٦٠٩ — ٥٩٨ ق.م) :

جاء يهوياقيم الى عرش يهوذا — بأمر من الفرعون المصرى نخاو الثانى — بعد أخيه غير الشقيق «يهو أحاز» ، ثم سرعان ما غير نخاو اسم الملك اليهودى الجديد من «الياقيم» الى «يهو ياقيم» ، ورغم أن نقطة التغيير هذه ليست واضحة ، فربما تعنى اشارة ما الى السيادة المصرية ، وعلى أى حال ، فمن الواضح أن الملك الجديد انما كان مرضيا

(٦٩) ملوك ثان ٢٢ — ٢٣ .

C. Roth, Op. Cit., P. 35-36.

وكذا

(٧٠) ملوك ثان ٢٣ : ٣ — ٢٣ ، أخبار أكاد ثان ٣٦ : ١-٣ ، وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 280.

عنه من مصر^(٧١) ، وأن الفرعون المصرى انما كان قد هبط كثيرا بممتلكات «بيت داود» الى الحدود التى كانت عليها قبل يوشيا ، وجعلها مقصورة على «دويلة المدينة اورشليم» ومملكة يهوذا القديم ، كما طلب الاعتراف بسلطانه عليها ، فضلا عن أن تكون له أقاليم مملكة اسرائيل الشمالية ، والتى أصبحت تدار فعلا كأقاليم مصرية تماما^(٧٢) .

وما أن يمضى حين من الدهر قليل ، حتى استقرت الامور تماما لـ «نبوخذ نصر» (٦٠٥ — ٥٦٢ ق.م) ، وفشلت كل محاولات مصر للإبقاء على الامبراطورية الآشورية المنهارة ، وهناك ما يشير الى تجدد العداوة بين القوتين الكبيرتين — مصر وبابل — ذلك أن «نبوخذ نصر» — على ما يبدو — لم يتخل مطلقا عن الوصول الى الحدود المصرية ، ومن هنا نراه فى عام ٦٠١ ق.م ، يتجه الى مصر ، ولكنه رد عنها بعد أن تحمل الكثير من الخسائر ، بل واضطر الى أن يعود الى بلاده ، وأن يبقى هناك عاما يسترد فيه أنفاسه ويستعيد قواه ، ويعيد تنظيم جيشه ، كما أن هزيمة الماهل البابلى هذه انما قد أنهت العداوات المباشرة بين البلدين لبضع سنوات تالية^(٧٣) ، ومن ثم فقد تجمدت السياسة الحربية الشمالية لمصر بقية عهد «نخاو» ، ويشير «هيودوت» الى عقد معاهدة بين البلدين ، وأن الفرعون المصرى قد زوج ابنته أو أخته من «نبوخذ نصر» ، فصارت ملكة على بابل ، وهى رواية لم نتأكد بعد^(٧٤) .

وأيا ما كان الامر ، فان «نبوخذ نصر» ، انما كان يتلقى الجزية من

(٧١) ملوك ثان ٢٣ : ٣٤ — ٣٧ ، أخبار أيام ثان ٣٦ : ٤٠٥ ،
S. A. Cook, CAH, III, 1965, P. 397.

وكذا

72) Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 280.

73) D. J. Wiseman, Op. Cit., P. 29-31, 70-71.

وكذا

K. A. Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt, Oxford, 1972, P. 407.

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 359.

وكذا

(٧٤) عبد العزيز صالح : مصر والعراق ص ٢٧٧ — ٢٨٧ ، وأنظر
Herodotus, I, 184-186.

الاقاليم العربية التي وافقت مصر على أن تترك بابل آشور فيها ، غير أن يهوذا انما بقيت فترة تفاضل بين مصر وبابل ، وأى الدولتين أحق بخضوع اليهود لها ، ونغاز الحزب المصرى آخر الامر باليد العليا ، ونثار «يهوياقيم» ضد سيده البابلى «نبوخذ نصر»^(٧٥) ، وربما ساعده على ذلك هزيمة البابليين أمام المصريين ، ومن ثم فقد انضم الى مصر ، رغم تحذيرات النبى «ارميا»^(٧٦) ونقرأ فى التوراة أن «يهوه» رب اسرائيل قد أرسل الى يهوياقيم جماعات من الكلدانيين والاراميين والمؤابيين والعمونيين لآباد يهوذا^(٧٧) ، والواقع أن «نبوخذ نصر» لم يتدخل بنفسه فى هذا التمرد الذى قام ضده فى عام ٥٩٨ ق.م ، لانه رأى أن امبراطورية عظيمة مثل امبراطوريته لا تخلو من الثورات المحلية الصغيرة ، ولكنه سرعان ما غير رأيه وأسرع بنفسه الى يهوذا ، وبينما كان فى الطريق اليها مات «يهوياقيم» وخلفه ولده «يهوياكين» على عرش يهوذا^(٧٨) .

(١٠) يهوياكين (٥٩٨ - ٥٩٧ ق.م) :

جاء «يهوياكين» بعد أبيه «يهوياقيم» ، وكان عمره ثمانى عشر سنة على رواية توراتية^(٧٩) ، وثمانى سنين على رواية أخرى^(٨٠) ، وملك ثلاثة أشهر وعشرة أيام ،^(٨١) وعلى أى حال ، فلقد وصل «نبوخذ نصر» مع قواته الرئيسية وأطبق الحصار على اورشليم ، ولم يقاوم «يهوياكين» ، أو حتى يفكر فى المقاومة ، وانما خرج ومعه أمه وزوجاته وآل بيته ، وسلموا أنفسهم الى الفاتح الكلدانى فى مارس ٥٩٧ ق.م ، وتم نقلهم الى بابل ، وتتنظر التوراة الى هذا النفى على أنه مرحلة حاسمة فى تاريخ

75) A. Malamat, Op. Cit., P. 223.

(٧٦) ارميا ٤٦ : ١٤ وما بعدها .

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 359. وكذا

(٧٧) ملوك ثان ٢٤ : ٢ .

78) A. Malamat, Op. Cit., P. 223-224.

(٧٩) ملوك ثان ٢٤ : ٨ ، ١٢ .

(٨٠) أخبار أيام ثان ٣٦ : ٩ .

(٨١) أخبار أيام ثان ٣٦ : ٩ ، ثم قارن : ملوك ثان ٢٤ : ٨ .

نهاية يهوذا ، فلقد تم فيه ابعاد حوالى عشرة الاف رجل يكونون هم وأسرهم قرابة الثلاثين ألفا من الناس معظمهم من اورشليم ، والبقية الباقية من مدن الجنوب (٨٢) .

على أن سبى «يهوياكين» ومن معه ، لا تقاس أهميته في الواقع بعدد المسيبين ولكن بنوعيتهم ، فقد سبيت العائلة المالكة والطبقات الحاكمة وكبار رجال الدولة والوزراء والاستقراطيون والكهنة والأنبياء ، وفوق كل هؤلاء الجنود والصناع والحرفيون (٨٣) ، وهذه المجموعة الأخيرة تكون الجيش ومعداته ، ولهذا فان لذكرها أهمية خاصة (٨٤) ، وإذا كان النص التوراتى الأخير (ملوك ثان ٢٤ : ١٦) صحيحا ، وإذا أمكن توحيد كلمة «الجنود» (أصحاب البأس) بـ «الجيش» فان الجيش النظامى يمكن أن يكون عدده في ذلك الوقت سبعة الاف ، والامر كذلك في توحيد الاحتياطى بالصناع والحرفيين ، فان عددهم ألفا ، وبذا فهم يكونون سبع الجيش النظامى ، وقد أضيف الى هؤلاء الاخرى عدة كتائب تركها «نبوخذ نصر» في الخطوط الخلفية ، فضلا عن عدد كبير من المتطوعين حشدوا أثناء الحرب (٨٥) ، وأخيرا فلعل مما يشير كثيرا الى أهمية المنفيين قول التوراة أنه «لم يبق أحد الا مساكن شعب الارض» (٨٦) .

وفي عام ١٩٥٥ م نشر «وايزمان» احدى اللوحات المحفوظة في المتحف البريطانى ، وقد جاء فيها «في السنة السابعة للملك (نبوخذ نصر) في شهر Chisleev ، جمع الملك جيشا وتقدم نحو أرض حاتى (سورية) ، وعسكر أمام مدينة اليهودية ، واستولى عليها في اليوم

(٨٢) ملوك ثان ٢٤ : ١٠ - ١٤ ارميا ٢٤ : ١ ، ٢٧ : ٢٠ ، ٢٩ : ١ - ٢ .

(٨٣) ملوك ثان ٢٤ : ١٥ - ١٦ .

A. Malamat, Op. Cit., P. 224.

وكذا

(٨٤) ملوك ثان ٢٤ : ١٦ .

85) A. Malamat, Op. Cit., P. 224.

(٨٦) ملوك ثان ٢٤ : ١٤ .

التالى من Adar (مارس ٥٩٧ ق م) وأخذ الملك «يهوياكين» أسيرا ، وعين مكانه «صدقيا» ملكا بحسب قلبه ، (برغبته) ، وفرض عليه جزية ثقيلة ، وأحضره الى بابل^(٨٧) ليعمل هذا التقرير البابلى الرسمى لا يختلف كثيرا عن نظيره التوراتى ، كما جاء فى سفرى الملوك الثانى (٢٤ : ٨ - ٢٠) والاعبار الثانى (٣٦ : ٩ - ١٠) .

(٢٠) صدقيا (٥٩٧ - ٥٨٦ ق م) :

تروى التوراة أن العاهل البابلى «نبوخذ نصر» قد أصدر أوامره بتعيين «متنيا» ملكا على يهوذا ، بدلا من «يهوياكين» ، وغير اسمه الى «صدقيا» ، وهو عم يهوياكين على رأى نص توراتى ،^(٨٨) وأخوه على رأى نص آخر^(٨٩) ، وأما «يهوياكين» فقد بقى أسيرا فى بابل حوالى الاربعين عاما ، ولكنه فى نفس الوقت ظل محتفظا بقلبه الرسمى حتى عام ٥٩٢ ق م ، كما تدل على ذلك نقوش اكتشفت فى قصر «نبوخذ نصر» ونشرها «فيدنر» E. E. Veidner ، وكذلك أختام من «بيت شمس» و «تل بيت مرسيم» ، وربما من «لاخيش» و «تل النصبة» . وكلها تؤكد مركز «يهوياكين» الملكى أثناء سبيهِ^(٩٠) .

ولعل هذا كله انما يلقي ضوءا جديدا على سياسة «نبوخذ نصر» نحو يهوذا ، فهو يعين ملكا جديدا ، ولكنه فى نفس الوقت يحتفظ للملك السابق بمركزه الملكى ، كنوع من التهديد لخليفته فى الارض المحتلة ، ولعل هذا هو السبب فى سلوك صدقيا المتردد ، والمتناقض كذلك ، والذي

87) W. Keller, Op. Cit., P. 280.

(٨٨) ملوك ثان ١٧ : ٢٤ .

(٨٩) أخبار أيام ثان ٣٦ : ١٠ .

90) H. G. May, Three Hebrew Saals and Status of Exiled Jehoiatkin, AISL, LVI. 1939, P. 146-148.

J. Finegan, Op. Cit., P. 226.

وكذا

A. Malamat, Op. Cit., P. 224 .

W. F. Albright, King Joiachin in Exile, BA, 4, 1942, No. 4.

انتهى به آخر الامر الى الثورة على القوة التي وصل الى الحكم عن طريقها ، فلقد كان أعداؤه في يهوذا من ناحية ، والملك البابلي «نبوخذ نصر» من ناحية أخرى ، يهددونه عن طريق الاشارة الى بديله الملكي يهوياكين^(٩١) .

ومع ذلك فلقد انتهى الامر بثورة صدقيا على بابل ، مما أدى في نهاية الامر الى السبي البابلي ، في عام ٥٨٦ ق.م الامر الذي سنناقشه بالتفصيل في الفصل التالي .

وهكذا انتهى تاريخ بني اسرائيل ، وبدأ تاريخ اليهود ، ويصف «هربرت جورج ويلز»^(٩٢) (١٨٦٦ - ١٩٤٦ م) نهاية الدولتين - يهوذا واسرائيل - بقوله : لم يتمتع الشعب العبراني بخفض العيش الا أمدا قصيرا ، فلما أن انقطع عون صور ، الذي كانت تقوى به اورشليم ، ثم قويت شوكة مصر ثانية ، حتى أصبح تاريخ ملوك اسرائيل وملوك يهوذا ، تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقي الرحي تعركهما على التوالى سورية وأشور وبابل من الشمال ، ومصر من الجنوب ، وهي قصة نكبات وتصدرات لا تعود عليهم الا بارجاء نزول النكبة القاضية ، هي قصة ملوك همج يحكمون شعبا من الهمج ، حتى اذا وافت سنة ٧٢١ ق.م (٧٢٢ ق.م) محت يد الاسر الاشوري مملكة اسرائيل من الوجود ، وزال شعبها من التاريخ زوالا تاما ، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى حل بها عام ٥٨٦ ق.م ، (أو عام ٥٨٧ ق.م) على أيدي البابليين ، ما حل باسرائيل على أيدي الاشوريين .

91) A. Malamat, Op. Cit., P. 224.

92) H. G. Wells, A Short History Of The World (Pelican Book) 1965, P. 77.

الفصل الخامس

السبى البابلى

(١) سقوط يهوذا :

كانت السياسة المصرية فى تلك الفترة أكثر نشاطا ، فقد قام «بسماتيك الثانى» (٥٩٥ - ٥٨٩ ق.م) فى السنة الرابعة من حكمه بحملة الى فينيقيا ، كما تشير الى ذلك بردية ديموطيقية متأخرة ، وان كان هناك من يرى أنها لم تكن لاغراض حربية ، مادام الفرعون قد استندى كهنة كثير من المعابد ليسهموا فيها ، ومات «بسماتيك الثانى» فى عام ٥٨٩ ق.م ، وترك لولده «واح ايب رع» (ابريس ٥٨٩ - ٥٧٠ ق.م) أن يأخذ على عاتقه القيام بمجهودات نشطة لاستعادة فلسطين^(١) .

وهكذا بدأت سياسة مصر فى عهد «واح ايب رع» (وهو الفرعون خفرع فى التوراة)^(٢) نتيجة الى ممارسة القوة فى الشمال ، وكان سر تغيرها أمران وهما رغبة مصر فى الاستفادة من امكانيات قوتها البحرية النامية فى مراقبة موانئ الشام ، لتعطيل مصالح البابليين فيها ، وحتى لا يستغلوا ضدها ثم عودة البابليين الى التوسع الحربى فى فلسطين وحصارهم لاورشليم عام ٥٨٨ ق.م^(٣) .

وأما يهوذا نفسها ، فقد انقسم أهلها الى فريقين ، الواحد ، يتزعمه «حننيا» ويعلن أن قبضة البابليين الخشنة يجب أن تكسر ، والاخر ، ويتزعمه «ارميا» ويعلن أن «نبوخذ نصر» هو «خادم يهوه» ، وأن

1) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 360.

ثم قارن : عبد العزيز صالح : مصر والعراق ص ٢٧٨ .

(٢) ارميا ٤٤ : ٣٠ .

(٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٧٩ .

المتبضة حديدية وإن تتمزق ، وفي الواقع أن ارميا انما كان من أشد الانبياء حقدا على قومه ، يدافع عن بابل ، ويعلن في الملأ أنها سوط عذاب في يد الرب ، ويتهم حكام يهوذا بأنهم بلهاء معاندون ، وينصحهم بأن يسلموا أمرهم كله الى «نبوخذ نصر» ، حتى ليكاد من يقرأ أقواله في تلك الايام يظن أنه من صنائع بابل المأجورين ، انظر الى قول ارميا (٢١ : ٥ - ١٠) على لسان ربه يهوه : «انى أنا صنعت الارض والانسان والحيوان الذى على وجه الارض بقوتى العظيمة وبذراعى الممدودة ، وأعطيتها لمن حسن فى عينى والان قد وقعت كل هذه الاراضى ليد نبوخذ ناصر ملك بابل عبدى وأعطيته أيضا حيوان الحقل ليخدمه ، فتخدمه كل الشعوب وابنه وابن ابنه حتى يأتى وقت أرضه أيضا فستخدمه شعوب كثيرة وملوك عظام ، ويكون أن الامة أو المملكة التى لا تخدم نبوخذ ناصر ملك بابل ، والتى لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل انى أعاقب تلك الامة بالسيف والجوع والوباء يقول الرب حتى أفنيها بيده ، فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعراذلكم وحالميكم وعائقيكم وسحرتكم الذين يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل ، لانهم انما يتنبأون لكم بالكذب» •

ثم أخذ يتنبأ بعد ذلك بأن ملك مصر سوف يعود الى بلده ، وأن البابليين سوف يستولون على اورشليم ويحرقونها ، وأنه يجب وضع أعناق الامة تحت نير ملك بابل بأمر الرب أيضا ، وهكذا كان شأن من يدعون النبوة من بنى اسرائيل الا من عصم الله ، وأما المنفيين فى بابل منذ أيام «يهوياكين» فقد كانت لديهم الامال الكبار بفجر الحرية^(٤)

وأما «صدقيا» ملك يهوذا ، فقد استمر على اخلاصه لبابل فترة من حكمه ، كانت مصر فيها مهمة كل الاهتمام بالعلاقات بين يهوذا وبابل ، باذلة كل جهودها لاحداث ثورة فى يهوذا ضد العاهل البابلى «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) ومن ثم فقد بثت الموالين والمشايعين لها

(٤) ارميا ٢٨ : ١ - ١٤ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٧٩ ، ول ديورانت : قصة الحضارة ٣٥٨/٢ ، وكذا
S. A. Cook, Op. Cit., P. 399-400.

بين الشعب وقواده ، مما أدى الى زيادة التوتر بين الاحزاب المعارضة في يهوذا ، وحذر الانبياء الحزب الموالي لمصر ، ولكن تحذيراتهم ذهبت أدراج الرياح ، وأرسلت بعثة عسكرية الى مصر — فيما تروى التوراة وتروى أوسترا كالاخيش — وعقد تحالف سرى بين يهوذا وأدوم ومؤاب وعمون وصيد ، بحضور صدقيا في اورشليم^(٥) ، وهناك اشارة في التوراة على أن صدقيا انما قد استدعى الى بابل لتقديم تفسير عن ذلك كله ، وعلى أية حال ، فان «ابريس» ملك مصر ، قد قام بدور رئيسي في اتخاذ القرار بالثورة ، ولا بد — والامر كذلك — أن الفرعون قد أعطى تأكيدات بمساعدة عسكرية ، ومن ثم فقد (تمرد صدقيا على ملك بابل)^(٦) .

وهكذا وجد «نبوخذ نصر» نفسه مضطرا الى القيام بحملة الى فلسطين ، وبدأ يحتل مدن يهوذا الواحدة تلو الاخرى ، — ماعدا اورشليم ، فضلا عن مدن الحدود في لاخلش وعزيقة (تل زكريا) —^(٧) وقد ساعده على ذلك ، أن يهوذا كانت في عام ٥٨٩ ق م غيرها منذ عشر سنوات مضت ، حيث كانت تحت امرتها القلاع الحصينة ، والقواد الكفاء ، والخبراء العسكريون والمهندسون ، الذين أرسلوا الى الخفى ، أضف الى ذلك أن الامة الان — وعلى رأسها ارميا النبي — لم تكن تؤيد اعلان الحرب ضد البابليين ، هذا الى جانب وجود فريق من القوم لا يمكن التفاوض عنه كان يؤمن بسياسة المسالمة ، فضلا عن بعض عناصر الجيش ، التي كانت تعرف أكثر من غيرها ، أن فرص النجاح العسكري كلنت ضئيلة للغاية^(٨) .

(٥) ارميا ٢٦ : ٢٢ — ٢٤ ، ٢٧ : ٢٠ ، حزقيال ١٥ : ١٧ ، وكذا

K. M. Kenyon, Op. Cit., P. 294-296.

(٦) ارميا ٥١ : ٥٩ ، ملوك ثان ٢٤ : ٢٠ ، وكذا

W. Keller, Op. Cit., P. 281.

S. A. Cook, Op. Cit., P. 400.

(٧) ارميا ٣٤ : ٧ ، وكذا

K. M. Kenyon, Op. Cit., P. 294.

8) A. Malamat, JNES, 9, 1950, P. 225.

وأخيرا استسلمت «لاخيشت» ، وتشير حفريات أعوام (١٩٦١ - ١٩٦٧) الى آثار الحملتين البابليتين لعامي ٥٩٦ - ٥٨٨ ق.م ، فقد دمرت الطبقة الثالثة تماما في الحملة الاولى ، وهناك ما يشير الى المجهود الاخير الذى بذل لاعداد المدينة لمواجهة الهجوم القادم ، وهناك فتحة في الصخر لا يعرف الغرض منها ، وان كان من المظنون أنها كانت متصلة بمصدر المياه عن طريق ماسورة الى الينبوع أو كخزان للمياه ، ولا بد أن الغزو البابلى قد جاء قبل أن يبدأ استخدامه ، هذا ويوجد على يمين القاع كميات من فخار القرن السادس قبل الميلاد ، وقد تركت الحفرة مفتوحة لكي تمتلئ تدريجيا على مر القرون المتلاحقة ، ويشير رديم الانقراض الذى يعلو بقايا مدينة الطبقة الثالثة الى أن التدمير انما كان تاما وعنيفا ، وفي الجوابة فقد فصلت أرضية هذه الفترة عما يليها بثمانية أقدام من رديم الانقراض المحترق ، وقد دمرت قلعة القصر ، وتراكمت كمية من الطوب المهش على الاساسات الحجرية ، وقد كشف على مقربة من القصر عن صف من الحوانيت ، وقد وجدت الحجرات مملوءة بأشياء كانت مستخدمة في وقت التدمير ، ولم يجد السكان الوقت الكافي لانقاذها ، وهى كميات كبيرة من جرار تخزين الحبوب ، وأنوال النسيج، تمثل صناعة وتجارة طبق الاصل من مدينة العصر الفلسطيني^(٩) .

هذا وقد وجد خارج المدينة حوالى ألفى جثة ملقاة في قبر قديم وقد وجدت بعض عظامها هشة ، ولا بد أن الجثث قد انقذت من المبانى المحترقة ، ويعتقد «ج. ل. ستاركى» أن هذه البقايا انما تمثل اخلاء المدينة بعد المجزرة الوحشية التى قام بها البابليون ، ويتبين من بعض الجماجم اصابات المعركة ، غير أن أكثر الاكتشافات غريبة انما كانت ثلاثة جماجم أجريت لها عمليات «تربنة» Trephine ، وفي حالتين منها أزيل مربع من العظام بواسطة منشار قاطع ، وكانت العملية الجراحية بدائية جدا لم يعيش بعدها الشخص الذى أجريت له ، فهل يصور هذا تجاربا أجراها الغزاة على الاسرى — على طريقة النازى — أم أنها

9) K. M. Kenyon, Op. Cit., P. 291-293.

محاولات يائسة من الناجين لانقاذ حياة شخص أصيب في المعركة ؟ وربما كان هذا التفسير الاخير أكثر احتمالا ، وفي الصالة الثالثة حيث حفر الثقب بواسطة الكشط فقد عاش المريض فترة طويلة ، لان العظام كانت مندملة ، وقد تكون عملية قديمة وليست السبب المباشر للموت ، ولا بد أن عملية «التربنة» كانت اجراء جراحيا اسرائيليا معترفا به ، وأجرى على حالات أخرى من ضحايا المعركة^(١٠) .

هذا وقد أضاف «ارسيا» في الهجوم البابلي الاخير على مدينة «لاخيش» الى قائمة تتكون منها مدن المقاومة ، فضلا عن اورشليم وعزيقة، على أساس أن «لاخيش» انما هي واحدة من مدن الاستحكامات المنيعة في يهوذا ، لان لخيخ وعزيقة بقيتا في مدن يهوذا مدينتين حصينتين^(١١) .

وبقيت اورشليم وحدها تقاوم الغزاة ، واتجه البابليون اليها بكل قوتهم ، وفرضوا الحصار عليها ، ولكنها ظلت تقاوم قرابة ثمانية عشر شهرا (أى من اليوم العاشر في الشهر العاشر من السنة التاسعة من حكم صدقيا ، الى اليوم التاسع من الشهر الرابع من العام الحادى عشر من حكمه ، ما عدا فترة قصيرة سببها الهجوم المصرى) بالرغم من انتشار المجاعة في المدينة ، والمكوس الثقيلة^(١٢) ، هذا فضلا عن نصائح «ارميا» بالخضوع لبابل ، لان يهو نفسه انما كان يحارب ضد اورشليم، المدينة المنكوبة السيئة المصير ، ولهذا فليس من العجيب أن نبى الويل هذا قد ألقى به في غياهب السجون لمجاهرته بالخذلان^(١٣) ، بعد أن فشل الكهنة — مرار وتكرارا — أن يثنوه عن عمله هذا بوضع رأسه في الدفق ، ولكنه وهو في هذا الوضع ظل يشهر بهم ، فما كان منهم الا أن

10) Ibid., P. 293.

(١١) ارميا ٣٤ : ٧ ، وكذا

K. M. Kenyon, Op. Cit., P. 294.

12) M. Noth, Op. Cit., P. 286.

W. Keller, Op. Cit., P. 383.

وكذا

13) S. A. Cook, Op. Cit., P. 401.

استدعوه الى الهيكل وأرادوا أن يقتلوه غير أنه استطاع أن يفلت منهم بمعونة صديق له بين الكهنة ، ثم قبض عليه الامراء وربطوه في حبال وأنزلوه في بئر مملوءة بالوحل ، ولكن «صدقيا» خفف هذا العقاب بأن سجنه في فناء القصر ، الذى وجده البابليون فيه حين سقطت اورشليم في أيديهم (١٤) .

ومن الواضح أن المدينة البائسة قد تحملت كل تلك الصعاب الجسام، أملا في وصول المساعدة العسكرية القادمة من مصر ، وفعلما ما أن وصلت، «وسمع الكلدانيون المصاصرون اورشليم بخبرهم حتى صعدوا عن اورشليم» ، ورغم أن الوثائق المصرية صامتة تماما في هذا الصدد ، الا أنه — على ما يبدو — فإن الجيش المصرى قد بقى فترة يحمى اورشليم، ولكنه تركها بعد ذلك متجها الى احتلال مدن الساحل الفينيقي ، بعد أن حول اهتمام البابليين عنها ، وبعد أن ترك فيها رجالا أقوياء من الحزب المصرى (١٥) .

وما أن يمضى الا قصير وقت ، حتى يعود «نبوخذ نصر» الى حصار اورشليم ويحث «ارميا» قومه على الاستسلام للعاهل البابلى ، ومع أن النبى العبرانى انما كان دائما متهما باضعاف الروح المعنوية بين الجنود. والمشيح على السواء ، فمن الثابت أنه لم يكن في ذلك كله وحيدا ، كما أن الجوع كان «قد اشتد في المدينة ، ولم يكن خبز لشعب الارض ، فثغرت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلا ، من طريق الباب بين السوريين اللذين نحو جنة الملك ، وكان الكلدانيون حول المدينة مستديرين فذهبوا في طريق البرية» (١٦) .

(١٤) ول ديورانت : قصة الحضارة ٣٦٠/٢ (القاهرة ١٩٦١) .
(١٥) ارميا ٣٧ : ٥ وكذا

W. O. E. Oesterley, Op. Cit., P. 233.

W. Keller, Op. Cit., P. 384.

M. Noth, Op. Cit., P. 285.

(١٦) ملوك ثان ٢٥ : ٣ — ٤ ، ارميا ٢١ : ٩ ، ٤ : ٣٨ .

وكذا

وكذا

وفعل اختلاف الرأي بين المحاصرين وانتشار المجاعة فعملهما مؤخرا، وفي اليوم التاسع من الشهر الرابع من العام الحادي عشر من حكم صدقيا (أي في شهر أغسطس من عام ٥٨٧ ق م) ، حدثت الثغرات في جدران المدينة ، ويطاول «صدقيا» الهرب مع حرسه الى الشرق ، عبر «برية يهوذا» ، ثم الى بلاد شرق الاردن ، ولكنه أسر وهو يعبر وادي الاردن قرب «أريحا» ، وأخذ أسيرا الى «نبوخذ نصر» في «ربلة» التي اتخذها مركزا لقيادة جيشه — كما فعل نفاو فرعون مصر في عام ٦٠٩ ق م — وهناك ذبح أبناءه أمام عينيه ، وقامى ماقية الكثير من المتمردين ، وسملت عيناه وقيد مسلسلا في الاغلال الى بابل حيث مات هناك بعد فترة قصيرة (١٧) .

ونهب الغزاة اورشليم ، وأشعلوا فيها النيران ، وأحرقوا القصر الملكي ، والمعبد ، وطبقا لرواية التوراة ، فان ذلك انما تم في اليوم السابع من الشهر الخامس من نفس السنة ، وضاع معبد سليمان ، ومعه البقية المفترض أنها باقية من الثابوت الذي كفت الروايات عن ذكره بعد نقله الى معبد سليمان ، وكان قد أقيم في مكان خفى من المعبد كهدف تقليدي خاص بالمعبادة ، مع أنه لم يلعب دورا هاما في العبادة العامة (١٨) هذا ولعل من الجدير بالاشارة هنا أن حفريات (١٩٦١ - ١٩٦٧ م) لم تكشف أطلال منازل القرن السابع على المنحدرات الشرقية ، التي دمرت في هذه الفترة (١٩) .

(٢) السبي البابلي :

وهكذا انتهت دويلة يهوذا بما دمجت في التنظيم الإداري للامبراطورية البابلية ، واتباعا للمعرف الاشوري ، فان الغازي الجديد (نبوخذ نصر) قد أبعد البقية الباقية من الطبقة العليا الحاكمة من اليهودية ، فلقد أسر بعضا من حاشية «صدقيا» المدربين ، وعديدا من الرجال البارزين في

17) M. Noth, Op. Cit., P. 286.

ملوك ثان ٢٥ : ١ - ٧ ، أخبار أيام ثان ٣٦ : ١١ - ٢٠ .

18) M. Noth, Op. Cit., P. 286-287.

19) K. M. Kenyon, Op. Cit., P. 291.

أورشليم وبلاد يهوذا ، وأرسلوا الى «ربلة» حيث لقوا حتفهم جميعا ، وأما بقية السكان فقد أقتيد الجزء الأكبر منهم — وقد قدره بعض الباحثين بأربعين ألفا^(٢٠) ، وقدره آخرون بخمسين ألفا^(٢١) — أسرى الى بابل ، وكان «ارميا» من بين الاسرى ، وقد منحه الجنرال «نبوزرآدان» حريته ، ولكن طبقا لرواية أخرى ، فإن «نبوخذ نصر» نفسه هو المسئول عن المعاملة اللينة لشخص يعد قبل كل شيء ، أنه قد لعب دورا هاما في مساعدته على النصر الذي أحرزه على يهوذا ، وعاصمتها أورشليم^(٢٢) .

على أن المعامل البابلي — من ناحية أخرى — انما قد أبقي السكان المزارعين في أماكنهم ، ولم يفعل — كما فعل الاشوريون من قبل — بجلب سكان جدد الى يهوذا كما أنه لم يقيم بأى تنظيم مستقل في المملكة الصغيرة ، ولم يفعل البابليون بيهوذا ما فعله الاشوريون باسرائيل ، بل انهم حتى بعد اخضاعهم ليهوذا فقد تركوا الادارة لواحد من يهود ، وهكذا عين «جداليا بن أخيتام بن شافان» — وهو ابن موظف يهودى كبير ، معروف منذ أيام الملكين يوشيا ويهوياكين — حاكما على يهوذا ، ولا نعرف من الذى أوصى به «نبوخذ نصر» ليشغل هذا المنصب الجديد وعلى أى حال ، فلقد اتخذ «جداليا» من المصفاة — على مبعدة خمسة أميال من الشمال الشرقى لاورشليم — مركزا له ، وربما احتقارا لأورشليم الثائرة ، وربما لان «المصفاة» لم تتعرض لسوء مثل المدن اليهودية الاخرى في معارك ٥٨٩ ، ٥٨٧ ق م وكان ارميا ، الذى أصبح عجوزا في ذلك الوقت ، واحدا من أكبر مستشاريه الجديرين بالثقة ، وتمتع «جداليا» باخلاص جزء من السكان ، وتعهد بأن يتصرف كوسيط بينهم وبين البابليين ، وتغلبت سياسة المهادنة على جماعات حرب

(٢٠) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ٣٢٠/٥ (الاسكندرية ١٩٦٣) .

(٢١) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٢٠ ، طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ٢٩٦/٢ (بغداد ١٩٥٦) .

(٢٢) ملوك ثان ٢٥ : ١١ - ٢١ ، ارميا ٣٩ : ١١ - ١٤ ، وكذا

W. Keller, Op. Cit., P. 402.

العصابات — وهم بقايا الجيش اليهودي — ورجع الفارون من الاراضى
المجاورة ، واستؤنفت الحياة الزراعية^(٢٣) .

ومع ذلك فان الدسائس لم تنته تماما ، ودأبت الامال الكاذبة بعضا
من أفراد المبيت الملكى اليهودى الذين لم يهاجروا ، وسرعان ما وجدوا
لهم حليفا فى «بعطيس» ملك عمون ، وانتهت المؤامرة بأن قامت فرقة
— ربما كانوا من الضباط الذين هربوا من الكارثة الى عمون ، وعلى
رأسهم «اسماعيل بن نثنيا» من النسل الملكى — بقتل «جداليا» أثناء
وليمة عامة ، وأصبح هذا اليوم — الثالث من الشهر السابع — كارثة
قومية رئيسية ، واعتبر من أيام الصيام الرئيسية عند اليهود واستطاع
«يوحنان بن قاريح» احباط مؤامرة قسام بها اسماعيل وعصابتها لاسر
الاميرات ومن كان فى المصفاة مع جداليا^(٢٤) .

وأدرك القوم مدى الكارثة التى حلت بهم ، وخشوا من انتقام
«نبوخذ نصر» لقتل نائبه ، بل وبعض القوات البابلية نفسها التى كانت
فى المصفاة ، الى جانب مجموعة من الرجال أتوا من شكيم ومن شيلوه
ومن السامرة لتقديم قرايئهم الى بيت الرب ، ومن ثم فقد كان الهروب
الى مصر هو سبيل النجاة الوحيد أمامهم^(٢٥) ولدينا تقرير شبه مفصل
عن هذه الاحداث فى التوراة (ارميا ٤٠ : ٧ — ٤١ : ٧) ولكن لا توجد
تفصيلات عن كل ما حدث ، وربما أمكن القول أن اليهوديين قد عينوا
كموظفين اداريين حتى بعد قتل «جداليا» ولم تصبح ولاية يهوذا المحدودة

(٢٣) ملوك ثان ٢٢ : ١٢ — ١٤ ، ارميا ٢٦ : ٢٤ ، وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 288.

S. A. Cook, Op. Cit., P. 402-403.

وكذا

(٢٤) ارميا ٤٠ : ٧ — ١٦ — ٤١ : ١٨ ، زكريا ٧ : ٥ .

S. A. Cook, Op. Cit., P. 403.

وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 288.

وكذا

(٢٥) ارميا ٤١ : ٣ — ٧ .

M. Noth, Op. Cit., P. 288.

وكذا

W. M. F. Petrie, Egypt and Israel, 1911, P. 90-93.

وكذا

H. R. Hall, Op. Cit., P. 564.

وكذا

المساحة ولاية مستقلة على الاطلاق ، وربما ادمجت في ولاية السامرة المجاورة ، ذلك لان السكان اليهوديين ، ورؤسائهم انما كانوا يخضعون لوالي «السامرة» ، و «نائب الحاكم الذي كانت له سلطات محدودة ، وأما الحدود الادارية ليهودا فقد كانت تتفق مع حدود المملكة في عصرها الاخير ، اذا ما كان صحيحا أن فصل الجزء الجنوبي من يهوذا ، انما قد حدث من قبل في عام ٥٩٨ ق.م ، ومن ثم فهي تتضمن الحدود القديمة الفعلية لقبيلة يهوذا من جبال غرب الاردن ، وتبدأ من شمال حبرون ، وحتى دويلة المدينة السابقة اورشليم ، والى الجزء الجنوبي لحدود قبيلة بنيامين» (٣٦) .

ونقرأ في التوراة «فقام جميع الشعب من الصغير الى الكبير، ورؤساء الجيوش وجاءوا الى مصر لانهم خافوا من الكلدانيين ، وهكذا لم يجد اليهود ملجأ يهتمون به سوى مصر التي خرجوا منها ، واعتبروا يوم خروجهم عيداً ، بل أكبر أعيادهم ، وأعنى به «عيد الفصح» ، ومن الواضح من نصوص التوراة أن بلاد اليهودية قد أخليت من سكانها ، فقد سبى الصفوة منهم الى بابل ، وفُرت البقية منهم ، ومنهم ارميا — الى مصر ، وتبعثرت قبائل اسرائيل في شرق الارض وغربها ، ومع ذلك فهناك بعض العلماء من نقاد التوراة — ومنهم ستانلى كوك ، وتورى — ينكرون صحة قصة الاسر ، كما جاءت في التوراة — في أسفار الملوك وحزقيال وارميا وعزرا — ويرون أنه لم يكن هناك نفى ضخم من اليهودية ، وانما كل ما حدث أن بعضاً من الاشراف قد سجنوا في بابل ، وأنه بعد صدمة الغزو البابلى عاد الاهالى من مخابئهم المؤقتة الى بيوتهم القديمة التي أعيد بناؤها» (٣٧) .

وتدل الاكتشافات التي تمت في عدة مواقع بفلسطين أن عدداً من المدن قد تم تدميره في أوائل القرن السادس قبل الميلاد ولم تسكن بعد

26) M. Noth, Op. Cit., P, 288-289.

(٢٧) ملوك ثان ١٤:٢٤ - ١٦ ، ١١:٢٥ - ٢٦ ، ارمنا ١:٢٤ ، ٢٧ : ٢٠ ، ١:٢٩ - ٢ ، ١٤:٣ - ٧ .

S. A. Cook, Op. Cit., P. 403-401.

وكذا

ذلك اطلاقا ، والبعض الآخر دمر في نفس الوقت ثم عاد اليها العمار جزئيا بعد فترة ، أما البعض الآخر فقد دمر ولم يعد العمار اليه الا بعد فترة طويلة من الهجر ، تتميز بتغير ملموح في الطبقة ، وبأدلة خارجية تثبت استعمالها لأغراض غير مدنية ولا تعرف حالة واحدة كانت فيها بلدا من يهوذا الاصلية مسكونة بصفة مستمرة خلال فترة النفي^(٢٨) ، فالبابليون قد دمروا اليهودية وأخلوها من سكانها تماما وبهذا تحققت التحذيرات والتهديدات النبوية ، وأتى قضاء الله الذي أعلنه إرميا النبي: «هأنذا آمر بقول الرب وأردهم الى هذه المدينة فيحاربونها ويأخذونها ويحرقونها بالنار ، وأجعل مدن يهوذا خربة بلا ساكن»^(٢٩) .

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة الى أن التوراة تذهب الى أن السبى البابلي ليهوذا انما كان بسبب الانحلال الداخلي وانتشار الفساد الخلقى والاجتماعي بين القوم فضلا عن الانحرافات الدينية ، فلقد حنث بالاقسام المقدسة ، ودنست أيام السبت ، وكانت القوانين الخاصة بالصلوات والاخلاق الشخصية قد وصلت الى الضياع (طوفوا في شوارع اورشليم ، وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون انسانا أو يوجد عامل بالعدل ، طالب الحق ، فأصفح عنها ، كيف أصفح عن هذه ، بنوك تركوني وحلفوا بما ليست آلهة ، ولما أشبعتم زنا وفي بيت زانية تتراحموا ، صاروا حصنا معلوفة سائبة ، صهلوا كل واحد على امرأة صاحبه) .

هذا الى جانب الابتعاد قليلا أو كثيرا عن عبادة يهوه ، رب اسرائيل والاتجاه الى عبادة آلهة الشعوب المجاورة ، وبخاصة «بعل» رب صور — كما رأينا في الصفحات السابقة — وهكذا اعتبر النبيان إرميا وهزقيال أن «نبوخذ نصر» انما هو وسيلة «يهوه» ضد اورشليم — الأمر الذي سوف يتكرر فيما بعد مع مؤرخ اليهود المشهور يوسف بن متى ، عندما

28) W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, P. 141-142.
W. Keller, Op. Cit., P. 205.

وكذا

(٢٩) إرميا ٣٤ : ٢٢ .

يعتبر الرومان كذلك — وأن الله (يهوه) سوف يحارب في صف البابليين ضد أورشليم التي حان وقت مصيرها المحتوم في الدمار والخراب ، بسبب بعدها عن يهوه ، وبسبب جرائمها في قتل الاخوة والاخوات ، وهكذا تنسب التوراة في كثير من نصوصها أسباب السبى البابلى الى حالة الانحلال والانحراف عن عبادة يهوه اللتين سادتتا في أورشليم في الفترة التي سبقت هذا السبى ، مما يدل على أن كتابة هذه النصوص انما يخلطون كثيرا بين السياسة والاقتار الدينية ، ويصبغون السياسة بالطابع الدينى ، وتلك بالاقتار السياسية^(٣٠) .

وفي الواقع أن ما حدث في عام ٥٨٧ ق.م (أو في عام ٥٨٦ ق.م على رأى كثير من الباحثين) لم يكن الا نتيجة طبيعية لاحداث تاريخية طويلة ، بدأت منذ منتصف القرن الثامن قبل الميلاد ، ولا يدل ، بحال من الاحوال ، على تغير مفاجئ في الموقف التاريخى لاسرائيل ، وكان التدخل المستمر من القوى الاجنبية العظمى في تاريخ اسرائيل لفترة طويلة ، عاملا يجب أن يشار اليه دائما ، ولكن من المرجح أن سقوط ودمار أورشليم قد أظهر أولا كل الحقيقة عن الموقف الفعلى بالنسبة لاسرائيل ، والتي اعتبرت هذا الحادث نقطة تحول حاسمة في تاريخها، وتحت ضغط هذا الحدث يصف مؤرخ العهد القديم تاريخ قومه على أساس من المصادر التي في متناول يده ، وكأنه تاريخ لعصيان دائم ومتكرر الى هذا الحدث المتفاقم ، وكان نبوءات التهديد التي بدأت منذ القرن الثامن والسابع قبل الميلاد قد تمت في هذا الحدث ، وأن الحكم الالهى الذى كان يتنبأ به الانبياء قد وقع الان^(٣١) .

وفي الحقيقة بينما اعتبرت نهاية يهوذا ليست ذا قيمة تاريخية عالمية، حتى أن نبوخذ نصر لم يذكرها في نقوشه ، نظر اليها اليهود على أنها أمر هام وجد خطير ، حيث أنها انما كانت — في نظرهم — تعنى نهاية

(٣٠) ارميا ١٥:١ - ١٦ ، ٢٣:٢ - ٨ ، ١:٥ - ١٩ .

S. A. Cook, Op. Cit., P. 400.

وكذا

31) Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 280.

الاستقلال السياسى فى تربة اسرائيل ، ومن المتفق عليه أن يهوذا كانت منذ قرن ونصف مضيًا — باستثناء فترات قصيرة — ليست الا ولاية فى اطار أملاك القوى المختلفة فى الشرق ولم تشمل الا جزءا صغيرا من القبائل الاسرائيلية ، وان كانت — على أية حال — تعيش حياة سياسية خاصة بها ، أى أن القوم كان لهم ملك ونظام ادارى خاص بهم ، وكان الامل أن هذا الجزء المحدود ، والباقي لهم من الاستقلال ، ربما يصبح يوما ما سبيلا الى عودة الاستقلال السياسى لاسرائيل ، وقد ضاع هذا الامل الان تماما ، فضلا عن اختفاء حكم بيت داود فى اورشليم^(٣٢) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن وجود البابليين فى اليهودية — كحام وكهامية — قد أدى الى قيام المعبودات البابلية والاعتراف بها ، حتى لنرى ارميا يحتج — وهو فى مصر — على عبادة «ملكة السموات» (عشتار) ، ويشير حزقيال — وهو أحد أفراد سبى يهو ياكين فى عام ٥٩٧ ق م — الى مجرى سير الامور فى المعبد قبل عام ٥٨٦ ق م ، فيحدثنا عن «تمثال الغيرة» (وربما كان لعشتار كذلك) ، بينما كان هناك «تموز» الذى تجلس عنده النساء الباكيات هذا فضلا عن عبادة الحيوان التى كانت تمارس فى قاعة سرية ، وفى نفس الوقت كانت «السامرة» تشجع على عبادة «بعليم» (بعل) الكنعانى^(٣٣) .

على أن هذا كله ، لا يعنى ، بحال من الاحوال ، أن القوم قد انصرفوا عن عبادة ربهم «يهوه» ، وانما يعنى أن هناك محاولة للربط بين رب اسرائيل ، وبين مختلف معبودات الشعوب الاخرى ، وبدهى أن الاحتياجات التى أثرت ضد محاولات التوفيق هذه ، انما توحى بأن أولئك الذين كانوا يعبدون «يهوه» حقيقة قد ظلوا فى اليهودية ، كما يشير الى ذلك الوصف الذى يقدمه الثمانون حاجا القادمون من شكيم وشيلوه والسامرة — والذين قتلهم اسماعيل بن نثانيا ، كما أشرنا من

32) M. Noth, Op. Cit., P. 289-290.

(٣٣) ارميا ١٧:٤٤ — ١٩ ، حزقيال ٣:٨ ، ١٤ ، اشعيا ٣:٥٧ — ٨ ، ٣:٦٥ — ٥ ، ٣:٦٦ ، ١٧ ، نجيب بن خائيل : المرجع السابق ص ٤٥٧ .

قبل — (٣٤) انما كانوا قادمين الى اورشليم لتقديم القرابين الى بيت الرب الذى خرب ، وفي هذا دليل على استمرار عبادة يهوه في مكان المعبد ، حتى بعد عام ٥٨٦ ق م .

(٣) العودة من السبي :

لم يكن تأسيس الامبراطورية الفارسية بزعامة «كيروش الثانى» (٥٥٨ — ٥٣٠ ق م) ، والاستيلاء على بابل في اكتوبر عام ٥٣٩ ، ثم خضوع الامبراطورية البابلية لكيروش الثانى واعتراف سورية وفلسطين بسيادة المغازى الجديد ، مجرد تغيير في السيادة ، وتركيز أقوى في السلطة ، وانما كان تغييرا جوهريا في سياسة العواهل من آشور وبابل تجاه الشعوب الخاضعة لهم ، وكان ذلك أمر في منتهى الاهمية بالنسبة لاسرائيل ، ذلك أن الملوك الاشوريين — والبابليين من بعدهم — انما حاولوا أن يوطدوا سلطتهم كلما أمكنهم ذلك ، عن طريق وضع السكان الوطنيين في الاقاليم الخاضعة لهم ، تحت وصايتهم ، وترحيل الطبقات الاعلى مرتبة الى اقاليم أخرى ، هذا فضلا عن ادخال دين الامبراطورية الرسمى في عواصم الاقاليم ، الى جانب الاديان المحلية ، ولو أنهم كانوا يتسامحون معهم الى حد ما ، واستمر الفرس في سياسة التسامح هذه ، ولكنهم احتفظوا بالسلطة الفعلية — والتي كانت مركزة في شخص الملك ، وكبار الموظفين — في أيديهم (٣٥) .

ونقرأ في التوراة (٣٦) أنه في السنة الاولى من حكم كيروش — أى في السنة الاولى من حكمه للامبراطورية البابلية الجديدة — وبمعنى آخر في عام ٥٣٨/٥٣٩ قبل الميلاد أصدر كيروش أمره الملكى بالسماح للمنفين من اليهود بالعودة الى اورشليم ، ان رغبوا في ذلك (٣٧) ، ولعل السبب الذى دفع كيروش الى اصدار أمره هذا ، أن الجالية اليهودية في بابل

(٣٤) ارميا ٤١ : ٤ — ٧ ، وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 288.

وكذا

35) M. Noth, Op. Cit., P. 32.

(٣٦) عزرا ١ : ١ — ١١ .

37) C. Roth, Op. Cit., P. 53.

S. A. Cook, Op. Cit., P. 409.

وكذا

قد ساعدته على احتلال المدينة ، وربما لأن العاهل الفارسي قد رأى في وجود جالية يهودية في فلسطين تدين بوجودها لاحتسانه سيحك توازنا لاتجاه الحزب الموالي للمصريين الذي طالما برز في شئون فلسطين^(٣٨) .

هذا ويبدو أن المنفيين قد ترددوا بين العودة الى ديارهم التي خربت وبين البقاء في تلك التي أقاموها في أرض المنفى، وكانت النتيجة الرئيسية أن غالبية الشعب اليهودي قد بقيت في بابل^(٣٩) فقد كان الكثيرون منهم قد تنقلوا في التربة البابلية وامتدت أصولهم فيها ، فترددوا طويلا في ترك حقولهم الخصبة وتجارثهم الرابحة ، ليعودوا الى القفار الخربة في المدينة المقدسة^(٤٠) ، وهكذا كان من الصعب — فيما يرى المؤرخ الامريكي أولمستد — التوقع بأن يترك اليهود ، بعد أن اغتوا ، بابل الخصبة من أجل هضاب اليهودية الجرداء^(٤١) بل ان هناك من الباحثين من يذهب الى أن زعماء المنفيين انما كانوا يضعون بابل في مرتبة تفوق مرتبة اورشليم نفسها ، وهكذا نرى المؤرخ الامريكي الصهيوني «سالو بارون» يذكر عن مرحلة أقدم من مرحلة العودة نسبيا أن زعماء المنفيين في بابل قد أصروا على أن تتلى في جميع بلدان سبي اليهود الصلوات «من أجل صحة حكماء بابل» قبل أى شئ آخر ، وقد أتاح العدد والرفاء المادى لآباء اليهود الروحيين البابليين أن يؤكدوا أنه هنا — أى في بابل — يسكن مصدر الحكمة والنبوءة ، ومن بابل بالذات — وليس من القدس — يشع الاكليل المتألق على شعبه^(٤٢) .

وهكذا فضل أغنياء المسيبين البقاء حيث هم ، بدليل ورود أسماء عبرانية بصورة متكررة في الوثائق التجارية لذلك العهد ، وكانت هذه الاسماء مركبة من أسماء آلهة ، وكانت أهم مراكزهم — كما أشرنا من

(٣٨) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٤٢ .

39) N. Sokolow, History of Zionism, Vol, II, P. 106.

(٤٠) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣٦٥ .

41) A. T. Olmstead, Op. Cit., 1960, P. 57.

42) Salo W. Baron, A Social and Religions History of the Jews, V, N. Y., 1957, P. 25.

قبل — على نهر الخابور ، جنوب شرق بابل ، وكان هؤلاء الذين بقوا وقاوموا الاندماج بالسكان أو أفراد ما عرف بـ «الدياسپورا» Diaspora أي اليهود المقيمين خارج فلسطين ، أو «يهود الشتات»^(٤٣) .

ورغم ذلك كله ، فإن «عزرا» و «نحميا» يقدمان ٤٢٣٦٠ رقما للعائدين ، وهو رقم — فيما يرى فيليب حتى — مبالغ فيه ، إذا ما قورن بمجموع المسيبين وهو ٥٨ ألف نسمة (٤٠ ألف فيما يرى سيسل روث)^(٤٤) كما أنه لا يتفق مع ما جاء في القوائم المفصلة التي تسبق الجمع النهائي ، ولا بد أن الذين استجابوا لهذه الدعوة — أي العودة — هم بصورة رئيسية من العناصر الناقمة ، ومن الذين لم تكن لهم جذور في الأرض الجديدة^(٤٥) .

وعلى أي حال ، فإن هؤلاء العائدين لم يجدوا ترحيبا كبيرا في وطنهم القديم ذلك أن أقواما آخرين من الساميين قد استقروا في تلك البلاد ، وتملكوا الأرض بحق احتلالها والعمل فيها ، وأخذت هذه القبائل تنظر بعين المقت إلى أولئك الذين خالوهم مغيرين على بلادهم وحقوقهم ولولا تلك الدولة القوية الصديقة لهم والتي كانت تحمي العائدين ، لما استطاعوا أن يستقروا في فلسطين^(٤٦) .

٤ - إعادة بناء المعبد :

نقرأ في المرسوم الملكي الذي أصدره كيروش الثاني (٥٥٨ — ٥٣٠ ق.م) في السنة الأولى من حكمه للامبراطورية البابلية الجديدة (٥٣٩/ ٥٣٨ ق.م) بعودة المنفيين إلى أورشليم^(٤٧) ، أن العاهل الفارسي إنما

(٤٣) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

44) C. Roth, Op. Cit., P. 53.

(٤٥) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٤٣ ، وانظر : عزرا ٢: ٦٤ ، نحميا ٧ : ٦٦ .

(٤٦) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣٦٥ .

(٤٧) هناك من يثير الشكوك حول صحة هذا القرار (انظر :

E. Meyer, Die Entstehung des Judentums, 1896, P. 8 F.)

قد أمر باعادة بناء معبد اورشليم في نفس مكان المعبد السابق ، حيث خانت تقام الاحتفالات الدينية ، وتقدم القرابين ، وأن تكون بنقبات البناء الجديد من «بيت الملك» — أى من الخزانة العامة — ، وأخيرا فان المرسوم الملكي انما يعيد للمعبد الجديد كل متعلقات المعبد القديم الثمينة التي كان قد اغتصبها «نبوخذ نصر» عند الاستيلاء على المدينة المقدسة ، وتدمير المعبد في عام ٥٨٧ ق م ، ثم أحضرها الى بابل مع الغنائم والاسلاب التي أستولى عليها الغازي البابلي من يهوذا ، هذا فضلا عن الاموال التي تبرع بها يهود السبي البابلي للمعبد الجديد (٤٨) .

ولعل سؤال البداهة الآن : لم تدخل كيوس بنفسه في أمر عبادة محلية على نفس حدود امبراطوريته العظيمة ، بعد فترة قصيرة من استيلائه على أملاك الامبراطورية البابلية الجديدة ، داخل بلاد وصلت اليه عن طريق الامبراطورية المذكورة ، رغم أنه لم يرها من قبل ؟

لاريب في أن تصرف كيوش هذا لا يرجع بالتاكيد الى مبادرته الشخصية ، ولعل الامر الذي يمكن ادراكه بسهولة ، أن بعض اليهود الذين سبق ترحيلهم الى بابل ، والذين شاهدوا تجديد الديانات القديمة في ميزوبوتاميا ، ربما لفتوا نظر البلاط الفارسي الى حقيقة أن حاكم الامبراطورية البابلية الجديدة قد دمر معبد اورشليم ، الذي يجب أن يجدد بناؤه الآن ، وأنه من الممكن اعادة الاشياء المقدسة التي نهبت من هذا المعبد .

وأما بالنسبة للمنفيين ، فضلا عن القبائل التي بقيت في البلاد ، والجماعات الاخرى المتفرقة من اسرائيل القديمة ، فقد كان تجديد المعبد أمرا ذا أهمية أساسية بالنسبة للديانة المركزية الفيدرالية التي كانت

(٤٨) عزرا ١:١ - ١١ ، ٣:٦ - ٥ ، وكذا

S. A. Cook, Op. Cit., P. 409.

وكذا

C. Roth, Op. Cit., P. 53.

وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 306-307.

وكذا

أورشليم مركزا لها لفترة طويلة ، وما زالت مركزا لاسرائيل التي تعلقت
بسرعة بتقاليدها •

ولعل من الجدير بالاشارة الى أن هناك من يذهب الى أن كيروش
الثانى لم يصدر أية أوامر رسمية بتجديد معبد أورشليم ولم يشر بأية
وسيلة بأنه سوف يقوم بالاحتياجات التي ربطها اشعياى الثانى بشخص
كيروش كمبعوث من العناية الالهية وهو الذى كان عليه أن يؤثر فى التغيير
النهائى الحاسم فى التاريخ ، ومع ذلك ، فيبدو أنه على الرغم من أن
الامل فى تغيير أساسى ، وتحسن الموقف الذى كان قد ارتبط بظهور
كيروش ، لم يكن هناك أى أمر كتابى ، وقد وجد البعض أنه من الصعوبة
بمكان تصديق أن كيروش قد وافق على أن تكون إعادة بناء المعبد من
الخزانة العامة ، الامر الذى اتخذه البعض كحجة ضد صحة القرار
المقتبس من النص الذى جاء فى سفر عزرا (٦ : ٣ - ٥) •

غير أن هذا العمل انما يتفق مع سياسة تحسين أحوال الديانات
المحلية عن طريق تقديم مساعدة مالية من الدولة فى حالات الضرورة ،
وفى حالتنا هذه انما يوجد سبب خاص لتقديم المساعدة الانفة الذكر ،
ذلك أن العاهل البابلى «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) انما كان قد
دمر المعبد ونهبه ، عند استيلائه على المدينة المقدسة فى عام ٥٨٧ ق.م،
وبما أن العاهل الفارسى «كيروش الثانى» هو الوريث لحكم الدولة
البابلية ، فضلا عن أنه الذى تبنى سياسة معينة بالنسبة للشئون الدينية،
ومن ثم فهناك سبب وجيه لقيامه باصلاح أخطاء «نبوخذ نصر» ، هذا
الى جانب أن المعبد انما كان مكانا للعبادة الملكية السابقة ولما كان
«كيروش الثانى» يعتبر نفسه الخليفة الشرعى للملك يهوذا السابقين، فهو
أذن المسئول عن تكاليف تجديد المعبد ، وهكذا فقد كان من اللائق أن
يعطى أوامره بذلك ، فضلا عن توجيهاته بشأن أسلوب البناء الجديد (٤٩) •

49) M. Noth, Op. Cit., P. 307-308.

ويشير مرسوم كيروش بصفة خاصة الى تجديد المعبد ، وفيما بعد نرى كاتب الحوليات العبراني يسجل الحادث باللغة العبرية في سرده لقصة البداية الجديدة بعد فترة النفي^(٥٠) ، معتمدا في ذلك على النص المعروف والمرتبط بأمر تجديد المعبد ، ومنح المنفيين حرية العودة ، لانه انما كان يفكر في الوطن القديم ، وبخاصة مدينة اورشليم ، والتي كانت خرائب مهجورة ، ومن ثم فمن المحتمل أنه قد استنتج أن كيروش قد استغل سلطاته لاصلاح المعبد والسماح للمنفيين بالعودة الى الوطن للقيام بهذه المهمة ، وأن وجهة نظره انما كانت تنبج الى أن جزءا صغيرا من السكان قد بقي في فلسطين^(٥١) ، فضلا عن تلك الطبقة العليا الاجنبية التي بقيت في ولايات مملكة اسرائيل ، والتي لم تشترك في اعادة بناء المعبد .

وفي المواقع ، ان قرار كيروش لم يذكر عودة المنفيين ، لان ذلك لم يكن ضروريا بالنسبة لتجديد المعبد ، ذلك لان الجزء الرئيسي من القبائل ، انما قد بقي في البلاد للقيام بالخدمة الدينية في المكان المقدس ، حتى بعد تخريب «نبوخذ نصر» لهيكل سليمان ، ومن ثم فهذا الجزء من القبائل انما كان قادرا على التجديد وربما لم يرجع كثير من المنفيين الى اورشليم وبلاد يهوذا ، رغم أن الفرس لم يضعوا أية عقبات في طريق عودتهم ، وعلى أي حال ، فمن المفترض أن عدد العائدين لم يكن كبيرا (أربعين ألفا فيما يرى سيسل روث)^(٥٢) ، ذلك لان أحوال فلسطين نفسها لم تكن تسمح بذلك ، بسبب المدن والقرى الكثيرة التي دهرت ، والتي لم يكن قد أعيد بناؤها بعد ، بل ان مدينة اورشليم نفسها ، كانت ماتزال بمثابة خرائب بدرجة كبيرة^(٥٣) .

وأيا ما كان الامر ، فلقد فوض كيروش شخصا يدعى «شيشبصر»

(٥٠) عزرا ١ : ٢ - ٤ .

(٥١) ملوك ثان ٢٥ : ١٢ .

52) C. Roth, Op. Cit., P. 53.

53) M. Noth, Op. Cit., P. 308.

وصف بأنه «رئيس يهوذا» في أن يأخذ الكنوز التي نهبت من معبد
أورشليم منذ نصف قرن ، وحفظت بمعبد الاله «بل» (Bel) ، وأن يقوم
بمهمة تجديد المعبد ، وكان على «شيشبصر» على أى حال ، أن يقوم
بوضع أساس المعبد الجديد^(٥٤) .

هذا وقد وصف «شيشبصر» بأنه كان واليا من قبل كيروش
الثاني^(٥٥) ، وأنه «رئيس يهوذا»^(٥٦) ، ومع ذلك فليس من السهل علينا
أن نحدد المركز الذي كان يشغله «شيشبصر» هذا ، وهل كان حاكما على
ولاية يهوذا التي كانت قد بقيت كولاية مستقلة ، أو أنها قد أعيد تكوينها
من جديد ، أم أنه كان حاكما مساعدا لجهة ما في يهوذا ، التي كانت تحت
الإدارة الإقليمية للسامرة ؟ أم أنه كان شاغلا لموظيفة عادية عند الحاكم
وليس أكثر من مجرد وكيل خاص يشرف على عودة كنوز المعبد وتجديده ،
وطبقا للأوصاف التي جاءت في سفر عزرا (٥ : ١٥) ؟ كل تلك أسئلة من
الصعب إعطاء إجابة حاسمة عنها ، وكل ما نعرفه أن كيروش الثاني إنما
قد أعطى تفويضا محددا لتنفيذ قراره^(٥٧) .

ثم من هو «شيشبصر» هذا ؟ ، ان الرجل — كما يبدو من اسمه
البابلي — ليس موظفا فارسيا ، وربما كان يهوديا منفيا قبل الآخرين
ممن على شاكلته في بابل ، وفي نفس الوقت كان يحمل اسما بابليا ، وقد
بدا للحكومة الفارسية لسبب أو لآخر أنه الشخص المناسب بهذه المهمة ،
ومن العبد أن نحاول توبيخه بشخصية أخرى معروفة جاء ذكرها في
سفر أخبار الأيام الاول (٣ : ١٨) تدعى «شناصر» والذي يظهر على

(٥٤) عزرا ٥ : ١٤ - ١٦ ، وكذا

C. Roth, Op. Cit., P. 53.

وكذا

(٥٥) عزرا ٥ : ١٤ .

(٥٦) عزرا ١ : ٨ .

57) M. Noth, Op. Cit., P. 309.

K. Gallig, JBL, 70, 1951, P. 179.

وكذا

أنه رابع أبناء الملك اليهودي المنفى «يهوياكين»^(٥٨) ، ورغم أنه لا يوجد حقيقة ما يجعلنا نوحّد «شيشبصر» بـ «شناصر» وأنه من المستحسن أن نعترف بأننا لا نعرف عن شخص «شيشبصر» هذا سوى القليل الذي جاء عنه في نص التوراة (٥ : ١٤ - ١٦)^(٥٩) ، فإن هناك من الباحثين من يذهب إلى أنه ابن الملك «يهوياكين» ، ومن يذهب إلى أنه أمير من الأسرة المالكة^(٦٠) ، وربما اعتماداً على ما جاء في التوراة من أنه «رئيس يهوذا»^(٦١) .

وأياً ما كان الامر ، فبعد عودة قوافل المنفيين إلى فلسطين ، يمكن أن يتصور المرء أن القوم قد تفرقوا في أماكنهم الأولى ، وبدأت كل عائلة تبحث عن قطعة الأرض التي كانت تمتلكها سابقاً ، ورغم ذلك فقد تجمعوا بعد ذلك في أورشليم لإعادة الشعائر المقدسة في المعبد ، وفي مناسبة الحفل الديني الذي كان يقام في بداية الشهر السابع (والذي عرف فيما بعد ببداية العام) بدأت إزالة الانقاض من وسط الساحات المهذمة تمهيداً لاقامة الهيكل الجديد ، ومنذ تلك اللحظة — ومنذ ثلاثة قرون ونصف القرن — لم تنقطع التضحية المنظمة والمتوالية صباح مساء^(٦٢) .

وهكذا — وبعد عامين من العودة — أقيمت أساسات المعبد الجديد ، ولكن العمل سرعان ما توقف بسبب الموقف السيء في أورشليم والبلاد المجاورة ، ومن ثم فقد بدأت دعوة جديدة تنادي ، «بأن الوقت لم يحن بعد لبناء بيت يهوه» ، وأن القوم كانوا ما يزالون مشغولين بأمورهم الخاصة ، «لوكل رجل لا يشغله إلا آل بيته» ، وأن بعضاً منهم كان ما

(٥٨) أطلق الملك البابلي «اويل مردوخ» (٥٦٢ - ٥٦٠ ق.م) سراح الملك اليهودي «يهوياكين» في عام ٥٦٢ ق.م (ملوك ثان ٢٧: ٢٥ - ٣١ ، وكذا (C. Roth, Op. Cit., P. 51.

59) M. Noth, Op. Cit., P. 309-310.

60) S. A. Cook, CAH, III, Cambridge, 1965, P. 409.

(٦١) عزرا ٢ : ٨ .

62) C. Roth, Op. Cit., P. 53.

يزال يعيش في «منازل مكسورة» ، ورغم أنهم ربما كانوا قلة ، فالذي لا شك فيه أن اورشليم كانت ما تزال الى حد كبير مدينة خربة ، يسكنها قوم يستحقون العطف ، وأن القرى في الريف لم تكن بأفضل من ذلك ، وكان على قمة تلك المآسى «المجاعة» التي يتلوها حصاد سىء للغاية ، مما جعل الاهالى يركزون كل اهتماماتهم في متاعبهم الشخصية ، وهكذا بدأت الاساسات دون أن يلمسها أحد ، وتوقف العمل في تجديد المعبد نهائيا (٦٣) .

وهكذا توقف العمل في إعادة بناء معبد اورشليم بسبب حاجته الى اعداد كبيرة من الايدي العاملة ، والتي كانت اورشليم المهذمة في أشد الحاجة اليها لإعادة بنائها ، كما أن المعونة الفارسية كانت جد قليلة ، فضلا عن أن جيران يهوذا ، انما كانوا من عوامل هذا التوقف ، اذ «كان شعب الارض يرخون أيدي شعب يهوذا ويذرونهم عن البناء ، واستأجروا ضدهم مشيرين ليطلوا مشورتهم كل أيام كوروش ملك فارس ، وحتى ملك داريوس ملك فارس» (٦٤) .

وهكذا لم يبين من المعبد الثانى غير أساساته ، حتى قضى «(كيروش الثانى) في سبتمبر من عام ٥٣٠ ق م ، وهو يهاجم جحافل الطورانيين على حدوده الشمالية ، وخلفه ولده «قمبيز الثانى» (٥٣٠ - ٥٢٣ ق م) ، الذى انشغل بالاضطرابات التى انتشرت بعد وفاة أبيه ، بسبب المشاكل المتعلقة بوراثنة العرش ، والتي لعب فيها أخوه «بريديا» (سمروس) دورا هاما ، ومن هنا فقد عقد العزم على أن يكبح بعنف كل ما يهدد قوته بالضعف ، أو يجعل العرش الذى يجلس عليه يهتر من تحته ، ومن ثم فقد تم اغتيال «بريديا» وخلا له الجو ليكون الحاكم الوحيد لأكبر امبراطورية عرفها عصره (٦٥) ، غير أن قمبيز لم يقدم

(٦٣) حجي ١ : ١ - ١١ ، وكذا

M. Noth, Op. Cit., P. 310.

وكذا

(٦٤) عزرا ٤ : ٥ - ٥ .

65) M. Noth, Op. Cit., P. 310-311.

R. Ghoshman, Iran (Penguin Books) 1954, P. 136

وكذا

شيئا ذا منفعة لليهود ، وهكذا ، وبعد ستة عشر عاما من قرار كيروش ، مات قمبيز في سورية ، ولم يتم بناء المعبد الا على أيام «دارا الاول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق م) (٦٦) .

(٥) نهاية اليهود في فلسطين :

وهكذا أصبح لليهود — بعد أن نجح زربابل في اكمال المعبد الثانى في العام السادس من حكم «دارا الاول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق م) (أى في ١٠ مارس عام ٥١٥ ق م) مركز دينى يمكن أن تستأنف فيه من جديد تقاليد معبد سليمان ، وبالتالي فقد اعتبر معبد اورشليم هو المعبد الوحيد الشرعى ، كما أنه أصبح ، مرة أخرى ، المركز الحقيقى للحياة اليهودية (٦٧) .

وقد ترعم اليهود في هذه الفترة «نحميا» و «عزرا» ، فأما «نحميا» فقد نجح — بعون من الملك الفارسى «أرتاكرسيس الاول» (٤٦٥ - ٤٢٤ ق م) — من اعادة أسوار اورشليم وتجديد الحصون ، الامر الذى اقى معارضة شديدة في داخل اورشليم وخارجها ، بل ان معارضة «سنبط» حاكم السامرة وصلت الى حد اغتيال نحميا نفسه .

وعلى أية حال ، فلقد تمتع اليهود في عهد «زربابل» و «نحميا» بامتيازات الحكم الذاتى ، ولكن اللغة العبرية في عهدهما لم تستعمل حتى كلغة دارجة ، ليس في مواطن سبى اليهود فحسب ، وانما في يهوذا نفسها ، وقد حلت محلها اللغة الارامية ، وظلت العبرية تستعمل كلغة دينية فحسب ، واستعمل اليهود اللغة الارامية في مراسلاتهم الرسمية كذلك .

(٦٦) زكريا ١٤/١ - ١٠/٢ ، وكذا

S. A. Cook, Op. Cit., P. 410.

M. Noth, Op. Cit., P. 311-312.

وكذا

(٦٧) انظر عن التفصيلات والمراجع عن هذه الفترة منذ بناء المعبد في عام ٥١٥ ق م ، وحتى نهاية اليهود في فلسطين عام ١٣٥ م (محمد بيومى مهران - اسرائيل - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٧٨ ص ١٠٣٦ - ١١٦٧) .

وأما «عزرا» فقد كانت مهمته تنحصر في القضاء على «الزواج المختلط» بين اليهود وجيرانهم ، الأمر الذي اعتبره «عزرا» خيانة لرب إسرائيل الذي حرمه عليهم ، ويذهب البعض الى أن «عزرا» قد استصدر أمرا من ملك الفرس بمنع الزواج المختلط ، ثم استخدم العنف في هدم الزيجات المختلطة القائمة ، وشتت الأسر بالقوة ، وشرّد الأطفال الأبرياء ، وتم كل ذلك باسم الدين لاستئصال الرجس من بني إسرائيل ، وفي ذلك نرى عزرا يفوق نصميا الذي اكتفى بلعن هؤلاء الأزواج ، وجلدهم ونزع شعورهم ، ثم استطفهم بالله قائلا «لا تعطوا بناتكم لبنينهم ، ولا تأخذوا من بناتهم لبنينكم ولا لأنفسكم» .

وأما المهمة الثانية — والاكثر أهمية — لعزرا ، فقد كانت «اعلان الشريعة» التي أحضرها معه من بابل في اجتماع خطير ، وشرع يقرأ عليهم ، هو وزملائه اللاويون ، من مطلع النهار الى منتصفه ، ولادة سبعة أيام ، ما تحويه صفحات هذا السفر ، ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع ويتخذونها دستوراً لهم يتبعونه ، ومبادئ خليفة يسيرون على هديها ، ويطيعونها الى أبد الآبدين .

وأما مصدر هذه الشريعة ، فكل الاحتمالات الممكنة أنها قد جمعت وظهرت بين جماعات البابليين المنفيين ، ثم أصبحت أمراً ملزماً لكل إسرائيل بسلطة الدولة الفارسية ، وعلى أية حال ، فإن شريعة عزرا هذه انما هي القانون الكهنوتي (أو جزء منه كان موجوداً مع المسيبيين في بابل) وأضيفت اليها بعض الشرائع وبها قصص الآباء ، وكلها تعنى اليوم محتويات ناموس موسى (أسفار موسى الخمسة) ، هي أساس الدين اليهودي ، ومن هنا نظر القوم الى «عزرا» على أنه «موسى الثانى» ، ويعتقد اليهود أنه هو الذى جمع أسفار الكتاب المقدس ، كما حمل الى فلسطين الأحرف الآرامية المربعة الشكل ، والمعروفة بالخط الآشورى ، والتي مهدت لنشوء الأبجدية العبرانية الحالية .

وعلى أية حال ، فلقد بدأ اليهود منذ ذلك الحال في ممارسة الطقوس على النظم القديم ، ومراعاة السبت والعبادة والختان ، التي غدت جميعا بعد هذه المرحلة أمورا يجب اتباعها ، كما عملت في الوقت نفسه ، على ربط ماكان قد انفرد من عقدهم ، ونأت بهم ، الى حد ما ، عما كانوا يترددون فيه من ضباب الوثنية ، وقربتهم الى فكرة التوحيد ، وباعدت ما بينهم وبين الشرك ، وأعطتهم الامل في بعث ونشور ، وثواب وعقاب .

وظل الامر كذلك حتى جاء الاسكندر الاكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق م) الى بلاد الشام ، وخضعت له فلسطين ، وأصبح اليهود من مواليه ، وعندما مات الاسكندر في ١٣ يونية عام ٣٢٣ ق م ، وأصبحت فلسطين تحت حكم السلوقيين ، ومع ذلك ، فلقد عمل البطالمة طوال عهدهم (٣٢٣ - ٣١ ق م) على أن تكون فلسطين تابعة لمصر ، على أن الثورة المكابية (١٦٦ - ١٦٠ ق م) انما أدت الى قيام الأسرة الحشمونية (١٦٠ - ٦٣ ق م) التي انتهت أيامها باحتلال الرومان لفلسطين ، ودخول «بومبي» القدس عام ٦٣ ق م ، وأصبحت ولاية يهوذا ولاية رومانية .

وفي عام ٥٧ ق م ، عين «أولوس جابينيوس» حاكما على سورية (٥٧ - ٥٥ ق م) ، فأعاد تنظيم الامور في اليهودية ، ومن ثم فقد جرد الكاهن الاعظم «يوحنا هيركانموس الثاني» من رتبته الملكية ، على أن يحكم البلاد كتابع لروما ، كما كان يفعل أسلافه على أيام السيادة الفارسية على اليهودية ، كما قام «جابينيوس» بفرض ضرائب ثقيلة على السكان ، وتقسيم الدولة الى خمسة أقسام صغيرة ، يحكم كل منها «منهدين» ، وقد حدث ذلك كله في أعقاب ثورة فاشلة قام بها «الكسندر بن أرسطوبولس» .

وفي عام ٤٢ ق م ، قسمت الامبراطورية الرومانية بين أغسطس وأنطونيوس ، وقد عمل أنطونيوس على القضاء على سلطة المكابيين ، وإقامة

سلطة أخرى من «الادوميين» على رأسها «هيركانوس» ، غير أن زمام الاسور انما كان بيد «أنثيياتر» الادومي الاصل ، والذي أصبح ولده «هيودوس» ملكا على اورشليم في عام ٣٧ ق.م ، وحتى عام ٤ ق.م ، كان طوال تلك الفترة أداة طيعة في أيدي الرومان الذي نصبوه ملكا على اورشليم ، وان قام أثناء فترة حكمه بعدة منشآت معمارية من أهمها بقاء مدينة قيسرية ، وإعادة بناء معبد اورشليم في عام ٢٠ ق.م ، وان لم ينته البناء الا في عام ٦٤م ، في عهد «أغريبا الثاني» ، وكانت مساحته ضعف ما كانت عليه من قبل .

وفي عهد الامبراطور «نيرون» (٥٤ - ٦٨ م) قامت ثورة عنيفة في اليهودية (ثورة ٦٦ - ٧٠م) فعهد نيرون الى قائده «فسباسيان» بقمع الثورة ، وقد تمكن «فسباسيان» من اخضاع منطقة الريف والحصون المنعزلة دون مقاومة ، كما تمكن من عزل اورشليم عن بقية فلسطين ، وبينما كان يعد العدة لحصار اورشليم مات نيرون ، وأصبح «فسباسيان» امبراطور (٦٩ - ٧٩ م) فعهد بمهمة القضاء على الثورة الى ولده «تيتوس» الذي ضرب الحصار حول اورشليم مباشرة ، ولمدة خمسة أشهر ، بقوات كبيرة ، أحاطت بالمدينة المقدسة من كل جانب .

وبدأ «تيتوس» في مهاجمة اورشليم ، ونجحت جيوشه في دخولها في سبتمبر عام ٧٠ م ، وأضرمت النيران فيها ، وهدم معبد هيودوس ، فوق أبنية متعاقبة في نفس الموقع ، وأشعلت النار في قدس الاقداس ، ويقدر المؤرخ اليهودي المعاصر للاحداث «يوسف بن متى» (يوسفوس فيلافيوس ٣٧ - ٩٨ أو ١٠٠م) عدد القتلى بمليون وثلاثمائة وخمسين ألفا ، فضلا عن تسعمائة ألف آخرين ، أسروا أو بيعوا كرقيق ، كما مات مئات من الآلاف غيرهم من المجاعة والابوئة والمذابح ، ورغم أن الباحثين يرون في هذه الاعداد مبالغة كبيرة ، فان البعض يقدرهم بما لا يقل عن ثلاثة أرباع المليون ، ويقدرهم آخرون بما لا يقل عن ستمائة ألف ، فاذا صح هذا الرقم الاخير ، ولعله ربما كان أدنى الى العقل ، فذلك انما يعنى أنقراض جنسى حقيقى ، لم يكد يترك من يهود شيئا .

وأما المعبد اليهودي في أورشليم ، فقد بلغ من جسامته وقسوة تهديمه في هذه الثورة ، أن ضاعت آثاره تماما ، حتى أن الناس قد نسوا فيما بعد ، إذا كان المعبد قد بنى على التل الشرقي أو الغربي من أورشليم ، وقد فشلت جميع المحاولات التي بذلت لاعادة بنائه ، بالاستناد الى وصف التوراة وحدها .

وفي عام ١٣٠ م قام الامبراطور «هيريان» (١١٧ - ١٣٨ م) بزيارة أورشليم ، وأصدر عدة قرارات ، منها تحريم تقديس يوم السبت ، وعادة الختان ، وتحويل أورشليم الى مستعمرة رومانية ، مما أغضب اليهود كثيرا ، وأدى الى قيام ثورة «سيمون باركوخبا» (١٣٢ - ١٣٥ م) الذي استولى على بعض معاقل الرومانى ، واستقل بأورشليم ، واتخذها عاصمة سياسية ودينية ، وضرب العملة باسمه ، ومن ثم فقد أمر «هيريان» قائده «يوليوس سيفيرس» بالقضاء على الثورة ، ونجح القائد الرومانى في أغسطس عام ١٣٥م في القبض على «باركوخبا» وقتله ، واحتلال أورشليم التي هدمها تماما ، وبنى فوقها مدينة جديدة باسم «ايليا كا بيتولينيا» (Aelia Capitalina) ، وأبدل المبد القديم بمعبد جديد كرسه للمعبود الوثنى الرومانى «جوبيتر كابيتولينس» (Jupiter Capitalinus) وقام الرومان بمذبحة نباتية ختمت مصير اليهود في فلسطين - كدولة وكقومية - حيث صفيت بئايا اليهود بالابادة والهجرة ، ويقدر «ديودور الصقلى» عدد القرى التي دمرت بـ ٩٨٥ قرية ، وعدد القتلى من السكان بـ ٥٨٠ ألفا .

ورغم المبالغة في هذه الاعداد ، فإن اليهود قد طردوا فعلا من فلسطين الى كل أجزاء الامبراطورية الرومانية ، وكان عام ١٣٥م ، هو التاريخ الذى انتهت فيه نهائيا علاقة اليهود بفلسطين سياسيا وسكانيا ، انه الخروج الأخير ، وحتى ندرك مدى ضآلة ما بقى من اليهود بعد كل المذابح والمطاردات (بعد السبى الاشورى والبابلى والرومانى الاول عام ٧٠م) ، يكفى أن نذكر أن عدد يتود الخروج الاخير لنما يقدر بنحو أربعين ألفا .

وأما ما تبقى من هذا وذاك من يهود فلسطين ، فشراذم ضئيلة
ازدادت تناقصا فيما بعد ، بتحول بعض أفرادها الى النصرانية ، ولعل
أهم تلك البقايا «السامريين» الذين تحولوا الى قوقعة قزمية مغلقة في
نابلس ، حتى لا يزيد عددها اليوم عن مائة أو مائتين ، وفي بداية القرن
التاسع عشر الميلادي كان عدد اليهود في فلسطين لا يزيد عن عشرة الاف
نفسه (٦٨) .

(٦٨) انظر (محمد بيومي مهران : اسرائيل ١١٠٥/٢ - ١١٥٨) .

البَابُ السَّابِعُ

العناصر غير السامية في بلاد الشام

تقديم :

لعل من الافضل - قبل الحديث عن العناصر غير السامية في بلاد الشام - أن نشير الى أننا قد تحدثنا في الابواب الستة السابقة عن أهم العناصر السامية في بلاد الشام ، ولكننا لم نتحدث عن كل هذه العناصر ، فلقد بقي منها شعوب ، وان كان تأثيرها في تاريخ وحضارة بلاد الشام قليلا ، بل ان كثيرا منها يكاد لا يكون له تأثير يذكر ، وأما هذه العناصر السامية التي لم نتعرض لها في هذه الدراسة من قبل^(١)، فهي :

(١) اليبوسيون :

وهم سكان القدس (أورشليم) فيما قبل استيلاء العبرانيين عليها ، وقد بقى بعض منهم في المدينة المقدسة حتى عهد ما بعد السبي البابلي (٥٨٧ - ٥٣٩ ق.م) ، وعلى أية حال ، فاليبوسيون قبيلة كنعانية على رأى ، بل هم بطن من بطون العرب الاوائل ، نشأوا في صميم شبه الجزيرة العربية ، وترعرعوا في أرجائها ، واستوطنوا ديارها ، وكان ذلك حوالي عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، ثم نزحوا منها ، مع من نزح من القبائل الكنعانية ، غير أن هناك من يرى أن اليبوسيين غير ساميين ، وانما هم حوريون على رأى ، وحثيون على رأى آخر ، اعتمادا على أن الاسم «يبوس» غير سامي^(٢) .

(١) أنظر عن هذه الشعوب السامية (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٥٦٢/٢ ٥٨١) .

(٢) يشوع ٨/١٥ ، ١٦/١٨ ، صموئيل تان ١٦/٢٤ - ٢٥ ، ملوك أول ٢٠/٩ ، عزرا ١/٩ - ٢ ، قاموس الكتاب المقدس ١٠٥٣/٢ ، عبد الحميد السايح : بيت المقدس ص ٤٩ ، حسن ظاظا : المراجع السابق ص ٢٤ ، وكذا
S. Yeivin, JNES, 7, P. 41.
S. Abramsky, Ancient Towns in Israel, Jerusalem, 1963, P. 122.
M. F. Unger, Op. Cit., P. 557. وكذا

(٢) العماليق :

العماليق قوم ساميون ، بل هم - فيما يرى الاخباريون - عرب صرخاء ، ومن أقدم العرب زمانا ، ولسانهم هو اللسان المضرى الذى نطقت به كل العرب البائدة ، بل ويذهب الامام الطبرى الى أن عمليقا ، وهو أبو العمالقة ، كان أول من تكلم العربية حين ظعنوا من بابل ، ومن ثم فقد كان يقال لهم - وكذا لجرهم - العرب العاربة (٣) .

وعلى أية حال ، فهم - فى نظر التوراة - من أقدم الشعوب التى سكنت جنوب فلسطين ، وقد عدهم «بلعام» أول الشعوب ، ربما لانهم كانوا أول من اصطدم ببني اسرائيل فى صحاروات سيناء (فى رفيديم) ، كما كانوا غالبا حلفاء لأعداء اسرائيل ، وطبقا لرواية التوراة ، فقد اتحد للعماليق مع «عجلون» ملك مؤاب الذى انتزع من بني اسرائيل أريحا (مدينة المنخل) ، كما كانوا كذلك حلفاء لأهل مدين وبني المشرق (بني قدم) الذين كانوا يسكنون فى سهل يزرعيل ، وهكذا استمر العماليق يغزون بني اسرائيل فى فلسطين (٤) .

وكان طالوت (شاول) أول ملك اسرائيلى يحارب العماليق ، وطبقا لرواية التوراة ، فان شاول قد نجح فى مهمته ، وحقق للاسرائيليين ، ولأول مرة ، نصرا على العماليق (٥) ، كما يفهم من الرواية نفسها أن العمالقة انما كانوا يسيطرون على طرق القوافل فيما بين جنوب فلسطين ، وشمال بلاد العرب ، وكان هناك طريقان منها يقعان فى أرض العماليق (٦) .

(٣) تاريخ الطبرى ٢٠٧/١ ، جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ٣٠٦/١ ، وكذا

Ency. of Islam, I, P. 325.

(٤) تكوين ١٢/٢٦ ، قضاة ١٢٣/١ ، الويس موصل : شمال الحجاز ص ٣٣ - ٣٤ (مترجم) .

(٥) صموئيل أول ٣/١٥ - ٩ ، الويس موصل : شمال الحجاز ص ٣٤

(٦) صموئيل أول ٧/١٥ ، الويس موصل : شمال الحجاز ص ٣٤ -

٣٥ ، وكذا

M. F. Unger, Op. Cit., P. 41.

وفي أيام داود عليه السلام ، غزا العماليق بنى إسرائيل (وخصروا صقلع وأحرقوها بالنار وسبوا نساءها) ، إلا أن الملك النبى انمسا قد كتب له نجما بعيد المدى فى رد الغزاة ، وفى استعادة الغنائم منهم ، بل وفى استعادة بعض السبائيا ، كما تمكن قائده «يوآب» من أن يخرجهم من ديارهم الاولى ، وان ظلت بقية منهم تسكن الجزء الجنوبي من جبل سدير ، حتى أتى المهاجرون من قبيلة شمعون ، فاحتلوا ديارهم (٧) .

(٣) المدينيون :

كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم «مدين» ، وهى قرية من أرض معان فى أطراف الشام مما يلى الحجاز ، قريبا من بحيرة قوم لوط ، وكانت بلادهم تمتد من خليج العقبة الى مؤاب وطور سيناء ، ويفهم من أسفار التوراة أن مواطن المدينيين (المديانيين) انما كانت تقع الى الشرق من العبرانيين ، ويبدو أنهم قد توغلوا فى المناطق الجنوبية لفلسطين ، متخذين منها مواطن جديدة ، عاشوا فيها أمدا طويلا ، وقد ذكر «بطليموس الجغرافى» موضعا يقال له «مودينا» على سواحل البحر الاحمر ، يرى العلماء أنه موضع مدين ، وأنه يتفق وحدود أرض مدين المعروفة فى الكتب العربية (٨) .

وأما «يوسبوس» فيذكر مدينة «مديم» ، ويقول انها سميت باسم أحد أولاد ابراهيم عليه السلام ، من زوجه قطورة ، وهى تقع وراء المقاطعة العربية فى الجنوب فى بادية العرب المرحل الى الشرق من البحر الاحمر ، وأما «الويس موسل» فالرأى عنده أن أرض مدين يجب أن

(٧) صموئيل أول ١/٣٠ - ٣٠ ، أخبار أيام أول ٣٣/٤ ، محمد بيومى مهران : إسرائيل ٥٦٣/٢ - ٥٧١ .
(٨) ابن كثير : البداية والنهاية ١٨٤/١ - ١٨٥ ، تفسير المنار ٨/ ٥٢٤ ، معجم ياقوت ٧٧/٥ - ٧٨ ، ١٥٣ - ١٥٤ ، قاموس الكتاب المقدس ٨٥٠/٢ ، جواد على : المرجع السابق ص ٤٥٥ ، وكذا

EI, III, P. 104.

T. K. Cheyne, Op. Cit., P. 308.

Ptolemy, Geography, VI, 7, 27.

J. Hastings, A Dictionary of The Bible, Edinburgh, 1936, P 616.

تكون الى الشرق والجنوب الشرقى من مكان العقبة الحالية ، فهناك يمر أهم طريق من طرق النقل التجارى ، وطبقا لرواية التوراة ، فقد غير المدينيون مواضعهم مرارا بدليل ما ورد فيها من اختلاطهم ببني قديم والعائلة والاسماعيليين ، وأنهم استقروا في القرون الاخيرة قبل الميلاد في جنوب وادى العربى ، والى الشرق والجنوب الشرقى من العقبة^(٩) .

(٤) القينيون :

القينيون قبيلة عربية ، وربما كانوا من المشتغلين بالمعادن في منطقة التعدين في وادى عربى ، والعائلة بينهم وبين المديانيين جد وثيقة ، وطبقا لرواية التوراة ، فان القينيين انما كانوا يعيشون في مكان ما في الجزء الجنوبي من غرب الاردن ، لأن مدنها انما تشير الى علاقة ما ، بالاماكن الاخرى المعروفة في الجزء الجنوبي من الجبال ، كما أنهم يشتركون في النجب (النقب) كذلك^(١٠) ، ويبدو أن القينيين كانوا مستقرين تماما ، وفي اشارة في سفر القضاة نسمع عن البدو القينيين الذين كانوا يقيمون لهم خياما في مكان ما في «الجليل» ، كما أن هناك ما يشير الى مجموعة قينية في وادى عربى ، بل ان هناك قينيين في يهوذا الجنوبية على أيام داود عليه السلام ، وفي حالات متصلة حتى في قلب الارض الزراعية^(١١) .

وأما علاقة القينيين ببني اسرائيل ، فان جلة الاراء لتتوافق على الربط بين بني اسرائيل ، ثم بني يهوذا بخاصة ، وبين القينيين ، بوشائج

(٩) الويس موسل : شمال الحجاز ص ٦٩ ، ٨٣ - ٨٤ ، تكوين ٢٥ / ٦ ، ٢٥ / ٢٧ ، ٢٨ ، عدد ١ / ١٢ ، حيقوق ٧ / ٣ ، وكذا

A. Musil, The Northern Hegas, N. Y., 1926, P. 287.

(١٠) خوج ١٦ / ٢ - ٢١ ، يشوع ٥٦ / ١٥ - ٥٧ ، صموئيل أول ١٠ / ٢٧ ، ٢ / ٣٠ ، قاموس الكتاب المقدس ٧٥٦ / ٢ ، وكذا

J. Gray, Op. Cit., P. 108.

M. F. Unger, Op. Cit., P. 627.

(١١) قضاة ٧ / ١٤ ، ١١ ، ٢٤ / ٥ ، وكذا

M. Unger, Op. Cit., P. 627.

M. Noth, Op. Cit., P. 57.

موثقة أشد التوثيق ، فضلا عن أنهم ، طبقا لنصوص معينة في سفر القضاة ، انما هم حلفاءهم الاقربون ، بل ان التوراة لتبدو حريصة على ابراز الترابط الوثيق بين القينيين وبنى اسرائيل ، وبخاصة بنى يهوذا ، في صورة ربما أثارت دهشة الباحثين ، وأما من الناحية الدينية ، فان «قايين» — الجد الاعلى للقينيين — هو الذى تحمل «علامة يهوه» ، بل الاخطر من ذلك كله ، الاقرار بأن «الركائين» ، وهم من أصول قينية ، انما كانوا أشد الاقوام تفسكا بالتعاليم اليهودية ، حين تردت البلاد الى درك أسفل من وثنية (١٢) .

(٥) القنزيون :

القنزيون قبيلة سامية كانت تعيش في كنعان منذ أيام ابراهيم الخليل عليه السلام (١٩٤٠-١٧٦٥ ق م) على الاقل ، وقد ذكروا في سفر التكوين بين القينيين والقنانيين ، وهم ينسبون الى القينيين ، وهم مثلهم عمال مهرة في التعدين بمصانع النحاس المغنية في وادي الاردن والعربة ، وان كان هناك من يرى أنهم من الادوميين ، ومن يرى أنهم أقرباء الكالبيين ، وربما كانوا قد سكنوا في مكان ما في الجزء الجنوبي من كنعان (١٣) .

(٦) الفرزيون :

ربما كان الفرزيون قبيلة كنعانية كانت تسكن العراء في قرى مسورة ، وربما كانوا من عنصر غير كنعانى ، وقد ذكرتهم التوراة مرارا بين قبائل فلسطين ، وكانوا على أيام يشوع يسكنون المنطقة الجبلية في بقعة

(١٢) قضاة ١٦/١ ، ٧/١٤ ، ١١ ، ٢٤/٢٥ ، تكوين ١٥/٤ ، ملوك ثان ١٥/١٠ - ٢٨ ، ارميا ١/٣٥ - ١١ حسين ذو الفقار صبرى : المرجع السابق ص ١٠ .
(١٣) تكوين ١٩/١٥ ، ١١/٢٦ ، ١٥ ، ٤٦/٣٦ ، عدد ٣٢ / ١٢ ، يشوع ٦/١٤ ، ١٤ ، ١٧/١٥ ، تثنية ٢٢/١ - ٤٥ ، وكذا

M. Unger, Op. Cit., P. 627.

M. Noth, Op. Cit., P. 58.

أعطيت فيما بعد لأسباب أفراميم ومنسى ويهوذا^(١٤) .

(٧) العناقليون :

كان العناقليون يسكنون جنوب فلسطين ، فيما بين القدس والخليل ، وقد أُرهبوا الاسرائيليين بمجرد رؤيتهم لهم ، ومن ثم فقد جبنوا عن محاربتهم الى أن طردهم «كالب بن يفتة» واستولى على «حبرون» منهم ، هذا وقد بقى العناقليون في «أشدود» (على مبعدة ١٨ ميلا شمال شرق غزة) حتى بعد دخول بني اسرائيل ، حيث أعطيت المدينة لمسبب يهوذا ، الذي فشل تماما في الاستيلاء عليها^(١٥) .

وهناك كوكبة أخرى من القبائل الاقل أهمية ، فهناك «الايميون» ، وهم السكان القدامى للمنطقة التي سكنها المؤابيون فيما بعد ، وتقع شرق الاردن ، ثم هناك «الرفائيون» ، وهم عشيرة من الجبابرة سكنوا قديمة في فلسطين شرقي الاردن وغربه ، ثم هناك أيضا «الزمزيون» ، وهم شعب أقدم من الكنعانيين ، طوال القامة ، يسكنون شرقي البحر الميت والاردن ، وهناك الجرجاشيون وهم إحدى القبائل الكنعانية التي كانت تعيش في فلسطين قبل مجيء بني اسرائيل^(١٦) .

هذا ويعلق «ارنست رينان» على تلك الشعوب الصغيرة التي جاء ذكرها في التوراة ، على أنها كانت تسكن أرض كنعان ، بأن هناك ظاهرة شائعة في طفولة جميع الشعوب تتخيل الانسانية الفطرية السحيقة القدم ، على شكل بشر لهم أجساد خرافية الطول والعرض ولهم قوة وبأس على مستوى هذه المقاييس الجسمانية الاسطورية^(١٧) .

(١٤) تكوين ٧/١٥ ، خروج ٨/٣ ، يشوع ١/٩ ، ١٥/١٧ ، قضاة ٤/١ - ٥ ، أخبار أيام أول ٩/٢ ، ٤٢ .

(١٥) يشوع ٢٢/١١ ، ٤٧/١٥ ، عدد ٢٨/١٣ ، قاموس الكتاب المقدس ٧٧/٢ ، ٦٤٢/٢ .

(١٦) أنظر : محمد بيومي مهران : اسرائيل ٥٧٨/٢ - ٥٨١ .

17) Ernest Renan, Histoire et Systeme Compare des Langues Sem-
tique, Paris, 1855, P. 97 F.

العناصر غير السامية

(١) الحوريون

أختلف المؤرخون في أصل الحوريين ، فذهب فريق الى أنهم شعب ما زال أصله مجهولا ، من العسير الجزم بأنه سامي أو هندو — أوربي^(١٨) ، وذهب فريق آخر الى أن الحوريين انما هم قوم «هندو — أوربيون» ، وأن هناك ظلالا من شك حول انتماء القوم الى «السوباريين» ، الذين ذكروا الى جوارهم في نصوص رأس الشمر (أوجاريت) والذين ذكروا كذلك في الالف الثالثة قبل الميلاد ، على أنهم شعب كبير ، يشغل مساحة واسعة^(١٩) .

هذا ويجمع العلماء — أو يكادون — على أن الحوريين انما قد جاءوا من المرتفعات الواقعة بين بحيرة أورمية وجبال زاغروس ، وقد غزوا شمال بلاد النهرين ، ثم اتجهوا الى سورية الشمالية ، وأسسوا بها مملكة قوية ، وربما كان مجيئهم متصلا بالحركات «الهندو — أوربية» العامة ، التي جاءت بجماعات منهم الى فارس والهند ، وأدت الى وصول الكاشيين الى بابل ، والحيثيين الى آسيا الصغرى ، والهكسوس الى مصر^(٢٠) .

وعلى أى حال ، فلقد نجح الحوريون — أو نجح فريق منهم — في تأسيس مملكة «ميتاني» التي امتد سلطانها من مرتفعات ميديا الى البحر

(١٨) فيليب حتى : المرجع السابق ص ١٦٠ .

19) S. A. B. Mercer, The Tell el-Amarna Tablets, 2, Toronto, 1939, P. 846.

(٢٠) فيليب حتى : المرجع السابق ص ١٦١ ، وكذا

W. F. Albright, The Horites in Palestine, in From the Pyramids to Paul, P. 9-26.

المتوسط ، وكانت عاصمتها «واشسوكاني» ، والتي يظن أن موقعها «الفخارية» على نهر الخابور ، شرقي تل حلف وحران ، وقد عرفت في النصوص المصرية باسم «نهارينا» ، والتي كانت تمثل في فترة مبكرة من أيام فرعون مصر العظيم «تحتوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) ، حجر العترة الحقيقي أمام خطة التوسع المصري ، وإن انتهت الأمور بعد حملة مظفرة (حوالي عام ١٤٥٧ ق.م) ، إلى فترة سلام طويل (٢١) .

وقد انتشر الحوريون في سورية المنخفضة الخصيبة ، ووصلوا إلى فلسطين ، حيث نزلوا البقاع الواسعة بين نهر الحسا وخليج العقبة ، وهم الذين حل محلهم الآدوميون في حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، ويبدو أن انتشار الحوريين في بلاد الشام بلغ درجة دعت الحوريين إلى أن يطلقوا اسم «خورو» (خارو) على بلاد كنعان (٢٢) ، ويبدو أن الحوريين هم بعينهم — إذا أخذنا بالنص السبعيني لتوراة اليهود — الحوريون كحال شكيم أو على الأقل ، فإن هناك فريقا من الخوريين (أو الخوريين) ، كان يعرف بالحويين (٢٣) .

هنا وقد أقام الحوريون في فلسطين ، وطبقا لنصوص التوراة ، فقد كان ذلك في شكيم ، وفي عصر يعقوب (١٧٨٠ - ١٦٣٣ ق.م) وظل لسلالتهم تأثير في المدينة لعدة أجيال ، كما سكن فريق منهم في «جبعون»

(٢١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢١١ - ٢١٢ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٦١ - ١٦٥ ، وكذا

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 194.

J. H. Breasted, ARE, 3, No. 485-9.

J. A. Wilson, ANET, 1966, P. 241.

R. O. Faulkner, JEA, 32, 1946, P. 39 F.

(٢٢) أنظر : لوح إسرائيل : حيث توصف كنعان — على لسان فرعون — «وأصبحت خارو أرملة لمصر» ، (أنظر :

A. Gardiner, Op. Cit., P. 274.

(J. A. Wilson, ANET, P. 376-8.

وكذا.

(٢٣) تكوين ٢٣ : ١٧ - ٢ ، ١:٢٤ - ٣١ ، قاموس الكتاب المقدس ٢٢٩/١ ، وكذا

S. A. Cook, Op. Cit., P. 359.

ومجاوراتها^(٢٤) ، هذا وربما كان مقرهم الرئيسي في سطح جبل لبنان ، من جبل حرمون الى مدخل حماة^(٢٥) ، في هذه المناطق الجبلية الشمالية كانت لهم قرى يملكونها حتى الى وقت متأخر من عصر داود (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق م)^(٢٦) .

(٢) الحيثيون

ان اللفظ السلاى «حيثيون» ، جاء عن طريق التوراة ، حيث يعنى المجموعة البشرية التى وجدها الاسرائيليون تسكن فلسطين. حين دخلوا أرض كنعان - أو أرض الميعاد كما يدعونها - وهذا ليس سوى خيط رفيع من سلسلة الانساب التى تربطهم بالامسة الكبرى «خاتى» التى سنتعرف عليها الان ، ومع ذلك فان استخدام كلمة حيثيين ظل سائدا لدى الباحثين ولم تقم محاولة للتخلص منها^(٢٧) .

وتقع «خبت» أو «خاتى» الى شمال وشمال غربى سورية وميزوبوتاميا ، وقد ورد ذكرها في النصوص المصرية - لأول مرة - من عهد «تحتوس الثالث» ، حيث الهدايا قد أرسلت من أمير خاتى الى المفرعون ، وحتى عهد رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق م)^(٢٨) .

وتقع «خاتوشاش» - العاصمة الحيثية - على السفح الشمالى لأحد المرتفعات ، حيث تبدأ الهضبة في الانخفاض نحو البحر الاسود ، ويجرى من هذه السلسلة شمالا في مجرى صخرى شديد الانحدار ، تياران يتحدان عند نهاية المنحدر بالقرب من قرية «بوغاز كوى» تاركين

(٢٤) تكوين ١٨:٣ ، ٢:٣٤ ، قضاة ٢٨:٩ ، قاموس الكتاب المقدس

٣٢٩/١ .

(٢٥) يشوع ١١ : ٣ ، قضاة ٣ : ٣ .

(٢٦) صموئيل ثان ٢٤ : ٧ ، قاموس الكتاب المقدس ٣٢٩/١ .

27) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 231.

28) A. H. Gardiner, Orom, I, P. 127.

بينهما نتوءا مرتفعا أقيمت عليه أقدم مستعمرة في «خاتوشاش»^(٢٩) ، على مبعده ثمانين ميلا الى شرق «أنقره» ، ونصف هذه المسافة الى جنوب البحر الاسود ، وكان من ثمار حفائر «هوجوفنكر» ، التي بدأها في عام ١٩٠٦ ، الكشف في هذا الحصن الجبلى بالقرب من قرية «بوغاز كوى» عن دار ملكية للمحفوظات تضم قرابة عشرة آلاف لوح اسفينى ، كتبت بلغة — ثبت بعد بحث طويل — أنها من العائلة «الهندو — أوربية»^(٣٠) .

وأما عن علاقة الحيثيين — أو على الاصح خاتى — بفلسطين ، فأنى أميل الى أنها لم تبدأ الا بعد نهاية دولة خاتى في آسيا الصغرى على أيدي شعوب البحر ، وتفرق سكانها في جهات مختلفة من سورية وفلسطين ، ذلك لانه قبل حكم المعامل الحيثى «شوبيلوليوما» (١٣٧٥ — ١٣٣٥ ق م) ، لم تكن هناك أية دولة حيثية جنوبى جبال طوروس ، وأن الدولة السورية التابعة للامبراطورية الحيثية قد اقتصر على المنطقة الواقعة شمال قادش على نهر العاصى ، وأنه رغم أن الجيوش الحيثية قد وصلت حتى دمشق ، فانها لم تدخل فلسطين نفسها^(٣١) .

ولعل هذا الاضطراب فى نصوص التوراة مرده الى أنها تجعل من «حث» ابنا لكتعان بن حام بن نوح ، عليه السلام ، اذ تقول فى سفر التكوين «وكتعان ولد صيدون بكره وحشا»^(٣٢) ، والاضطراب هنا أن «صيدون» (صيدا) انما هى مدينة على البحر الابيض المتوسط ، وأن «حثا» انما هو شعب له دولة فى آسيا الصغرى ، هذا فضلا عن أن الحيثيين شعب غير سامى ، بعكس الكتعانيين الساميين .

29) S. A. B. Mercer, Op. Cit., II, 1939, P. 830-831.

O. R. Curney, The Hitties, 1969, P. 15.

R. H. Hall, CAH, I, 1929, P. 312.

وكذا

وكذا

30) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 231.

31) O. R. Gurney, The Hittites, (Penguin Books) 1969 P. 58.

(٣٢) تكوين ١٠ : ١٥ .

على أى حال ، فإن هذه الاشارة لا نجد لها صدى من الحقيقة لدى المحدثين من الباحثين ، بل ان هناك ما يؤكد أصولا منغولة كانت مواطنها الاصلية التى هجرتها بقعة «أرمينيا» ، حيث يقترب الفرات من هاليس وليكوس بل ان هناك من يؤكد أن الارمن المحدثين هم سلالة أولئك الحثيون الاقدمون *

(٣) الفلسطينيون

الفلسطينيون : هم برست Prest ، «بلستى Pelesti» ، ويرى «بونفانت» أن «باليستوى» كلمة يونانية ذات أصل انثولوجى ، مشتقة من اسم المكان Palaeste ، بالاضافة الى الزائدة الاليرية (Iro) التى تستخدم فى تكوين المعنى الانثولوجى^(٣٣) ، ويذهب «غيليب حتى» * الى أن Paleste انما هو اسم مكان فى منطقة الليرية وهو «أبيروس»^(٣٤) *

وأما الاسم المصرى للفلسطينيين فهو «برست» (Prest) ، وقد وجد فى مدينة هابو - أوحابو - من عهد رمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) ، حيث نجد أن القوم الذى يحملونه من «شعوب البحر» الذين غزو مصر وسورية من جزرهم ، وكانوا متصلين بصفة خاصة بقوم «ثيكر» الذين كانوا يماثلونهم فى المظهر والاسلحة ، وكانوا يلبسون لباس الرأس المحلى بالريشة ، مسلحين بالحرايب ، والدروع المستديرة ، والسيوف الطويلة العريضة ، والخنجر المثلثة التى كان يستخدمها الشردان^(٣٥) *

هذا وقد قام جدل طويل بين العلماء حول الموطن الاصلى للفلسطينيين ، فلقد ذهب «هول» الى أن التقاليد العبرية انما تتفق على أن الاسرائيليين

33) G. Bonfante, Who were The Philistines, in AJAL, 1946, P. 351.

(٣٤) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٩٦ *

35) A. Gardiner, Onom., I, P. 201.

قد قدموا من مصر ، والفلسطينيين من كفتور ، وفي هذا تقول التوراة في سفر عاموس : «للم أصعد إسرائيل من أرض مصر ، والفلسطينيين من كفتور ، غير أن الفلسطينيين لم يكونوا كفتين أو مينيبيين ، ذلك لانهم لم يلبسوا ملابسهم ، كما أنهم انما يختلفون في أسلحتهم ، وفي غطاء رؤوسهم ، ومن هنا فان الفلسطينيين انما كانوا مختلفين كثيرا في المظهر عن المينيبيين أو الكفتين من كريت» (٣٦) .

ثم يرى «هول» بعد ذلك أن الفلسطينيين قد أتوا — مع الشردان وترشا من شعوب البحر — من زاوية جنوب غرب آسيا ، وهناك ما يدعو الى الاحتمال بأن القبائل الكارية — ومن بينهم الفلسطينيين — قد احتلوا نهاية شرق كريت ، وذلك عند سقوط قوة «كتسوس» وانهاير الحاضرة المينية ، ثم يقرر «هول» بعد ذلك أن موطن الفلسطينيين انما كان حقيقة في ليسياوكاريا (٣٧) .

ويقرر «بونفانت» — بعد دراسة لغوية لتغير اسم الفلسطينيين — أن الفلسطينيين شعب «هندو — أوربي» أتى من كريت ، ولكنه لم ينشأ بها أصلا (٣٨) .

ويذهب «وينرايت» الى أن الفلسطينيين من كفتور ، ولكنه يرى أن كفتور ليست كريت ، ذلك لان فكرة أن كفتور هي كريت لا تعتمد على شيء أكثر من ترجمات الثوارة ، التي تتحدث عنها على أنها «جزر كفتور» ثم وجد بعد ذلك أن جزيرة كريت انما هي جزيرة مناسبة وكبيرة وتصلح للغرض ، ورغم ذلك فان الكلمة العبرية التي ترجمت «جزر» انما تعنى أصلا «الارض الساحلية» وتستعمل مثلا لشاطئ فلسطين ، وهناك أدلة أثرية تجعل الاصرار على الاعتقاد بأن كفتور هي كريت ، يجرنا الى

36) H. R. Hall, CAH, II, 1931, P. 286-7.

وانظر عاموس ٩ : ٧ .

37) H. R. Hall, The Philistine Migration, CAH, II, 1931, P. 287-288.

38) G. A. Wainwright, Some Sea-People, in JEA, 47, 1961, P. 78-82.

اضطراب لا نهاية له (٣٩) •

ويرى «وينرايت» بعد ذلك أن الفلسطينيين قد أتوا من كفتور ، وأن هناك أدلة على أن «سليسيا — تراشيا» بغرب سلجيسيا ، أعلى وأسفل نهر كاليكادفوس وأن نفس الوطن كان من «دومين» ثيكر ، ودليلنا على ذلك أن الفخار الفلسطيني شبيه بالفخار المسينى ، وأن هناك أدلة أثرية ولغوية على أن كفتور ، إنما كانت بلداً عند نهر (كاليكادفوس) كما يظهر ذلك من ترجمة كفتور بقبادوقيا في الترجمة للتوراة - (سبتواجيتا Septuaginta) (٤٠) مرتين ، ذلك لأن المترجمين ربما كانوا في عمل بمملكة «قبادوقيا» العظيمة ، والتي كانت تمتد إلى الشاطئ ، متضمنة جزيرة اليوسيا ، إلى الشرق قليلاً من مصب كاليكادفوس ، كما أن (كابديروس) — طبقاً لترجمة يونانية — إنما كان لقباً للملك كفتور والتي تعادل هنا (سليسيا) ومن ثم فمن الواضح أن الفلسطينيين كانوا قد احتلوا (سليسيا) الغربية ، والاكثر احتمالاً ، المنطقة أعلى وأسفل نهر كاليكادفوس في الجزء الشرقي ، حيث عاش قوم (ثيكر) وهناك ما يثبت أن غارة الفلسطينيين إنما كانت من (سليسيا — تراشيا) وسواحلها وينتهى (وينرايت) إلى أن مجموعة قبائل (الفلسطينيين وثيكرودنين) إنما يكونون مجموعة من القبائل في سليسيا ، الفلسطينيين والثيكر في الجزء الغربي من البلاد ، بينما (دنين) في الجزء الشرقي منها (٤١) •

أما (جيمس هنري برستد) ، فالرأى عنده أن أهالي (بلست) وهم الفلسطينيون — إنما أصلهم من جزيرة كريت (٤٢) •

هذا ويذهب (سير ألن جاردنر) بعد أن لخص البراهين التي تحاول أن تحدد موطن الفلسطينيين الأصلي إلى أن التقاليد العبرية والاعريقية

39) Ibid., P. 82.

(٤٠) أنظر عن الترجمة السبعينية للتوراة ، كتابنا «إسرائيل» ص ٤٩ — ٥٠ (القاهرة ١٩٧٣) •

41) G. A. Wainwright, Op. Cit., P. 82.

42) J. H. Breasted, A History of Egypt From the Earliest Times to Persian Conquest, N. Y., 1946, P. 477.

انما تتفق على أن الفلسطينيين من جنس أجنبي ، وأنهم لا يختلون ، ومن ثم فهم قوم يختلفون عن الساميين ، وأن هناك قوما يدعون (الكفتوريون) قد غزو ساحل فلسطين ، وسكنوا القرى حتى غزة ، وأن الفلسطينيين هم المقصودون بذلك .

وهناك جدل طويل حول تحديد (كفتور) وتوحيدها بكريت ، فهناك نظرية تذهب الى أن (Kftiw أو Kftyw) انما هي المعادل لكفتور ، أو أنه الاسم المصري لكريت ، ولعل المعارض الرئيسي لهذه الفكرة ، انما هو ويترايت — ومن قبله ميلر — الذي يتمسك بأن كفتيو انما هي سليسيا وجنوب شرق آسيا الصغرى .

ويرى (جاردنر) أن (كفتور) لو كانت كلمة مصرية فان وجود النهاية (R) ليست عقبة كؤود للاشتقاق من «كفتيو» بسبب وجود مشابهات كثيرة لذلك ، هذا فضلا عن أن البعض قد سلموا بأن (كفتيو) يمكن أن تعادل أو تدل على كل من كريت وشاطئ سليسيا ، ويبدو أن ذلك مستحيلا ، ومن هنا فانه أي — (جاردنر) — يرى أنه على العلماء أن يختاروا بين كريت أو شاطئ سليسيا (٤٣) .

ويذهب (جاردنر) بعد ذلك الى أن هناك من الأدلة القليلة ما يشير الى أن (بُنسْتى) أو (فلسطينى) رعمسيس الثالث لم يهاجموا مصر من جهة البحر ، فحسب ، بل تدل الشواهد كذلك على أنهم قد ساروا برا مخترقين آسيا الصغرى قاصدين شمال سورية ، والظاهر أنهم في رحلتهم هذه انما كانت نساؤهم وأطفالهم يستعملون العربات التي تجرها الثيران المسهنة ، التي نراها في الموقعة البحرية مصورة في مدينة حابو بطبيعة الغربية .

وأخيرا ، فأننا لم نجد شيئا يتعارض مع ما جاء في النصوص المصرية بمدينة حابو ، من أن الفلسطينيين قد بدأوا غزواتهم من جازر البحر

43) A. H. Gardiner, Op. Cit, P. 204-5.

المتوسط ، كما أننا لم نجد ما يدحض التقاليد العبرية والاغريقية من أن الفلسطينيين قد أتوا الى فلسطين عن طريق كريت ، ولكن فروق التسليح بين المينويين والفلسطينيين ، مضافا اليها (قرص فياستوس) الذي كانوا يلبسونه ، قد جعل من المحقق أن كرت ليست الوطن الاول لهم ، مهما كانت فترة بقائهم بها في طريقهم الى فلسطين ومصر ، أما موطنهم الاول فيمكن البحث عنه في مكان ما شمال بحر ايجه ، وربما كان احتلالهم للجزر احدى مراحل هجراتهم ، وحديثا أصبح من المألوف مرة أخرى أن يربط (بليستي) ب (باليستوى) أو (بلاسوى) ، لما بين الاسمين من التشابه اللفظي^(٤٤) .

أما عن النظرية التي شارك فيها (أولبرايت) فهي مخاطره أكثر منها رأيا ، ذلك أن «وليم أولبرايت» يرى أن الفلسطينيين يتشابهون في كثير من الحالات مع (البلاسجين)^(٤٥) ، وإن كانت لغتهم لغة لوية ، كما رأى أن طرواده الجنوبية كانت مستوطنة بالجماعات البلاسجية ذات الحراب ، هذا الى أن هيرودوت — وهو مواطن من هاليكارناسوس في كارييا — يعيد الايونيين والايوليين الى أصل بلاسجيني ، ولدينا عدة أسماء تؤكد نسب الفلسطينيين الى المنطقة الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى مثل (جليات وأشيش) وكذا جاء بقصة «ون أمون» أسماء ثلاثة من الفلسطينيين — وهم واركاتير ، ووارت وماكامار — تؤكد بعد الدراسات المختلفة أن أصل هذه الاسماء من جنوب غرب الاناضول^(٤٦) .

وأما أسفار التوراة ، فترى أن الفلسطينيين قد هاجروا من كفتور الى فلسطين^(٤٧) .

44) Ibid., P. 205.

(٤٥) البلاسجيون : سكان بلاد اليونان الاصليين غير الهلنيين ، وقد ظلت بقاياهم نقية في العصور الكلاسيكية ، وكانت لغتهم — فيما يرى هيرودوت — برية ، أى غير هلينية .

(٤٦) عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٣٣٧ —

٣٣٩ .

(٤٧) عاموس ٧:٩ ، تثنية ٣٢:٢ ، ارميا ٤٧ : ٤ ، صموئيل أول

٣ : ١٤ .

ويرى أستاذنا الدكتور نجيب ميخائيل أن كفتور هذه يظن أنها كريت ، وقد يكون هذا الرأي صوابا ، ما دام بعض بلاد الفلسطينيين يطلق عليها اسم «جنوبى الكريتين» تميزا لهم عن يهوذا وكالب ، ولئن صح ذلك — وهذا ما نرجحه ونميل الى الاخذ به — فأننا أمام هجرة سامية راجعة مرتدة من كريت ، ربما نتيجة ضغط من ناحية الهلنيين ، هذا الى أن أسماء الفلسطينيين وأسماء مدنهم تشير الى أنهم ساميون ، ولكن الاسرائيليين يشيرون الى أنهم قسوم لا يختنون ، وهو اصطلاح ينأى بهم عن الساميين والمصريين معا ، ورغم ذلك فأننا نراهم يمارسون فوراً عادات الكنعانيين ويتحدثون لغتهم ، كما أن معبوداتهم تغلب عليها النزعة السامية ، فمن بينها «داجون» اله الحبوب و«آثار جاتس» العسقلونى ، و«بلعزيوب» العقرونى (٤٨) .

هذه مختلف وجهات النظر التى ارتآها العلماء عن الموطن الاصلى للفلسطينيين وهى تكاد تتفق جميعا على أن الفلسطينيين قد أتوا من كريت (كفتور) أثناء غزوهم لفلسطين ومصر ، ولكنها لم تكن الموطن الاول لهم ، وإنما كانت مجرد استقرار مؤقت فى أثناء هجرتهم .

وأما قبل كريت فموضع خلاف بين العلماء ، فمنهم من رأى أنهم قادمون من «ليسيا — كاليا» ، ومن رأى أنهم ينتسبون الى القومية الاليرية ، ومن رأى أنهم يتشابهون كثيرا مع البلاسجيين ، وأن لغتهم انما كانت لهجة لوية ، ومن رأى أن احتلالهم للجزر انما كان احدى هجراتهم ، وأما موطنهم فيجب أن يبحث عنه فى مكان ما شمال بحر ايجه ، ومن رأى أنهم ساميون يمثلون هجرة سامية مرتدة من كريت .

وهكذا نتعدّد وجهات النظر ، حتى أصبح من العسير علينا ابداء رأى معين ، أو تفضيل رأى على آخر ، ورغم ذلك كله ، فيبدو لى أن الذين يرجعون بهم الى آسيا الصغرى أقرب الاراء الى الاحتمال ، ذلك لان

(٤٨) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ، الاسكندرية ١٩٦٦ ، ٣٤٨/٣ — ٣٥٠ .

أغلب شعوب البحر ترجع الى هذه المنطقة ولأن الأدلة العلمية في صالح هذا الرأي أكثر من غيره .

وأما علاقتهم بمصر ، فقد بدأت منذ أيام رمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) ، اذ اشتركوا - بصفة رئيسية - في الغزو الذي قام به أقوام البحر في عهده ، والذي انتهى بهزيمتهم هزيمة منكرة في معركتين ، الواحدة بحرية ، والاخرى برية ، وقد صورت المناظر المصرية رؤساءهم ملتحين ، وجنودهم دون لحى ، وبأغطية رأس ذات ريش ، وبسيوف طويلة عريضة وخناجر مثلثة ، وتروس مستديرة وحرا ب . .

هذا ، وقد سمح لهم الفرعون - بعد هزيمتهم - بأن يستقروا بصفة دائمة في ساحل فلسطين ، في المنطقة ما بين يافا وغزة ، وكانت أهم مدنها غزة وعسقلان - على مبعدة اثني عشر ميلا شمال غزة - وأشدد وعقرون وجت (٤٩) وقد احتفظت بأسمائها السامية تحت حكمهم ، وكانت جت أبعد مدنها في الداخل وكانت سياستهم أن يظلوا قرييين من البحر حتى يمكنهم السيطرة على طرقه ، واستخدم التلال التي تغطيها الكروم فيما وراءه ، وكان الكرمل احد الفاصل بين بلادهم الشمالية وبين الفينيقيين ، هذا وقد نظمت مدنها الخمس بشكل ممالك أو دويلات مدن ، كل منها تحت ادارة «سيد» ولكنها جميعا كانت تشكل اتحادا ، ويبدو أن السيادة على هذه المدن انما كانت لمدينة أشدد (٥٠) .

وقد احتفظ التاريخ بأسمهم على فلسطين ، وان كان ذلك لا يرجع الى أنهم قد أصبحوا غالبية السكان فيها ، أو أنهم قد بسطوا نفوذهم

(٤٩) أشدد : وتسمى حاليا أشدود ، وتقع على مبعدة ١٨ ميلا الى الشمال الشرقى من غزة ، وفي منتصف المسافة ما بين غزة ويافا ، وأما عقرون : فتقع الى الجنوب من يافا باثني عشر ميلا ، وأما جت : فيظن أنها في الموقع الحالى المعروف بـ «تل عراق المنشية» ، على مبعد ستة أميال ونصف ميل الى الغرب من بيت جرين .
(٥٠) فبليب حتى : المرجع السابق ص ١٩٧ .

عليها جميعا ولكن ربما لانهم آخر من نزل بها ، ولكثرة ترديد التوراة
لاسمهم •

هذا وقد احتك الفلسطينيون باليهود الذين كانوا قد وجدوا لهم
مكانا في أرض كنعان في ذلك الوقت ، ولكن المغلبة كانت دائما للفلسطينيين ،
ويرجع المؤرخون ذلك لاسباب عدة ، منها (أولا) أن أرضهم كانت من
أخصب ابقاع في فلسطين الغربية ، ومنها (ثانيا) أن الروابط بين مدنهم
الخمسة كانت أقوى منها بين المدن الكنعانية ، ومنها (ثالثا) معرفتهم
بصهر الحديد واستخدامه في أسلحة للدفاع والهجوم ، وهناك صورة
تقدمها التوراة لمحارب فلسطيني مزود بالأسلحة المعدنية في قصة
«جليات» ، تقول التوراة : «فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين
اسمه جليات من جت ، طوله ست أذرع وشبر وعلى رأسه خوذة من
نحاس ، وكان لابسا درعا حرسفيا ، ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل
نحاس ، وجرموقا نحاس على رجله ، ومزارق نحاس بين كتفيه وقناة
رمحه كتول النساجين ، وسان رمحه ست مئة شاقل حديد ، وحامل
القرس كان يمشى قدامه» (٥١) •

ويرى «فيلب حتى» أن ذروة قوة الفلسطينيين انما كانت في النصف
الثاني من القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، فقد كسروا بنى اسرائيل على
أيام الفضاة ، حوالى عام ١٠٥٠ ق م ، وأخذوا منهم «تابوت العهد»
وحملوه الى أشدود ، وفي نحو عام ١٠٢٠ ق م ، كانوا يقيمون حاميات
في البلاد المرتفعة نفسها ، وكانوا متسلطين في عهد الملك شاول (١٠٢٠ -
١٠٠٠ ق م) على مدن بعيدة في الداخل مثل «بيت شان» (بيسان) (٥٢) •

وهكذا تسلط الفلسطينيون على الاسرائيليين ، وبلغوا قمة تسلطهم
في أخريات عهد شاول ، بل لقد عملوا على تجريدهم من أسلحتهم ، بل
لقد احتكروا صناعة الأسلحة نفسها ، حتى لم يوجد — كما تقول

(٥١) صموئيل أول ١٧ : ٤ - ٧ •

(٥٢) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٩٨ •

التوراة — «صانع في كل إسرائيل ، لان الفلسطينيين ، قالوا : لئلا يعمل العبرانيون سيفاً أو رمحاً»^(٥٣) ، وهكذا إحتكر الفلسطينيون صناعة الحديد ، وكانوا يضطرون الاسرائيليين الذين يريدون تجديد آلاتهم الزراعية المقاطعة أن يذهبوا الى الصناع الفلسطينيين ، يقول سفر صموئيل الاول : «كان ينزل كل اسرائيل الى الفلسطينيين ، لكي يحدد كل واحد سكته ومنجله وفأسه ومعوله»^(٥٤) .

وهكذا لعب الفلسطينيون دوراً هاماً ، حتى ليرى «فيلب حتى» أنهم رفعوا الحضارة السورية من مرحلة البرونز الى مرحلة أهم — وهي عصر الحديد — وكان ذلك أهم فضل لهم ، وفوق ذلك ، فإنه يمكن الاعتقاد بأنهم أعطوا جيرانهم وورثتهم من الفينيقيين ميلاً الى الأسفار البحرية البعيدة ، كان من نتائجه استكشاف البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الاطلسي المشرقي^(٥٥) .

(٤) الثيكر

الثيكر : أو ثيكر (Tjekker - Tkr) أخذ أقوام البحر الذين هاجموا مصر وسورية في عصر رعمسيس الثالث ، وربما كانوا من سكان الجزر الذين جاءوا في الغزوة الكبرى ، ذلك لان التفسير العام — فيما يرى جاردنر — أنهم ، — وكذا الشردان — قد أمدونا بأدلة أثرية قد توحى بأنهم من المقوقاز ، وذلك لان منظر «الثيكر» يبدو مميزاً لهم عن الفلسطينيين ، الذين يلبسون ريشة رأس ، ومن قصة «ون أمون»^(٥٦)

(٥٣) صموئيل أول ١٢ : ١٩ .

(٥٤) صموئيل أول ١٣ : ٢ .

(٥٥) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٢٠٠ .

(٥٦) نظر عن : قصة «ون أمون» :

J. A. Wilson, ANET, P. 25-29.

A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 306-314. وكذا

A. H. Gardiner, Late Egyptians Stories, Brussels, 1932, P. 61-76.

A. Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, London, 1927, P. 174-188.

نعلم أن الثيكر انما كانوا يحكمون بلدة «دور» الواقعة جنوبى الكرمل ، وقد ذكر فيما بعد على أنهم قراصنة بحر ، ثم اختفوا بعد ذلك من مسرح التاريخ ، وقد علمت محاولات لتوحيد قوه ثيكر بقوم أو مكان ذكره المؤرخون الكلاسيكيون — أو ذكرته التوراة — وهو مدينة «زكلاج»^(٥٧)

هذا ويرى «هول» أن «زكارى» ، (ثيكر) و «وشوش» انما يعتبرون قبائل كريتية أصيلة ، وان كان حلفاؤهم الفلسطينيون ليسوا كذلك^(٥٨) ، وأما «جيمس هنرى برستد» فالرأى عنده أن الثيكر انما هم قوم يونانيو الامل من جزيرة صقلية^(٥٩) ، وأما «وينرايت» فيذهب الى أن «ثيكر» قد عاشوا في «سليسيا — تراشيا» ، ولفترة مضت قبل عام ١٥٠٠ ق.م^(٦٠) .

ولعل رأى «وينرايت» أقرب الى الصواب من غيره ، على أساس أن الثيكر — كالفلسطينيين حلفائهم ، والذين يذكرون معهم غالبا — انما قد أتوا من آسيا الصغرى أصلا ، وان بقوا لفترة ما في جزيرة كريت ، اشتروا بعدها في غزو فلسطين ومصر ، ثم استقروا — بعد هزيمتهم — في فلسطين ، الى الشمال من حلفائهم الفلسطينيين ، كما يظهر من قصة «بون أمون» ، وربما في مدينة «زكلاج» كما يرى البعض ، وان كان هذا موضع شك الى حد ما .

تم بحمد الله

وأخـر دعـوانا أن الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا وجدنا
محمد رسول الله ، وعلى آله الطيبين الطاهرين

57) A. H. Gardiner, Omon, I, P. 199-200.

58) H. R. Hall, Op. Cit., P. 288.

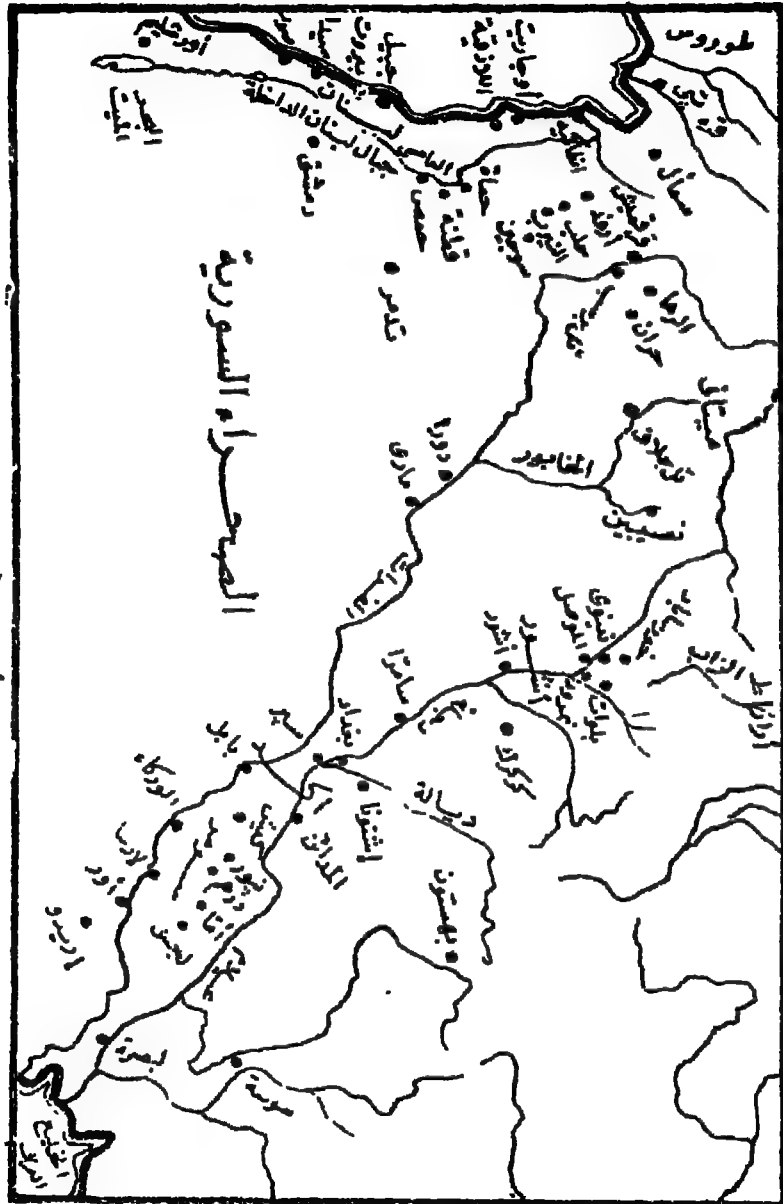
59) J. H. Breasted, Op. Cit., P. 477.

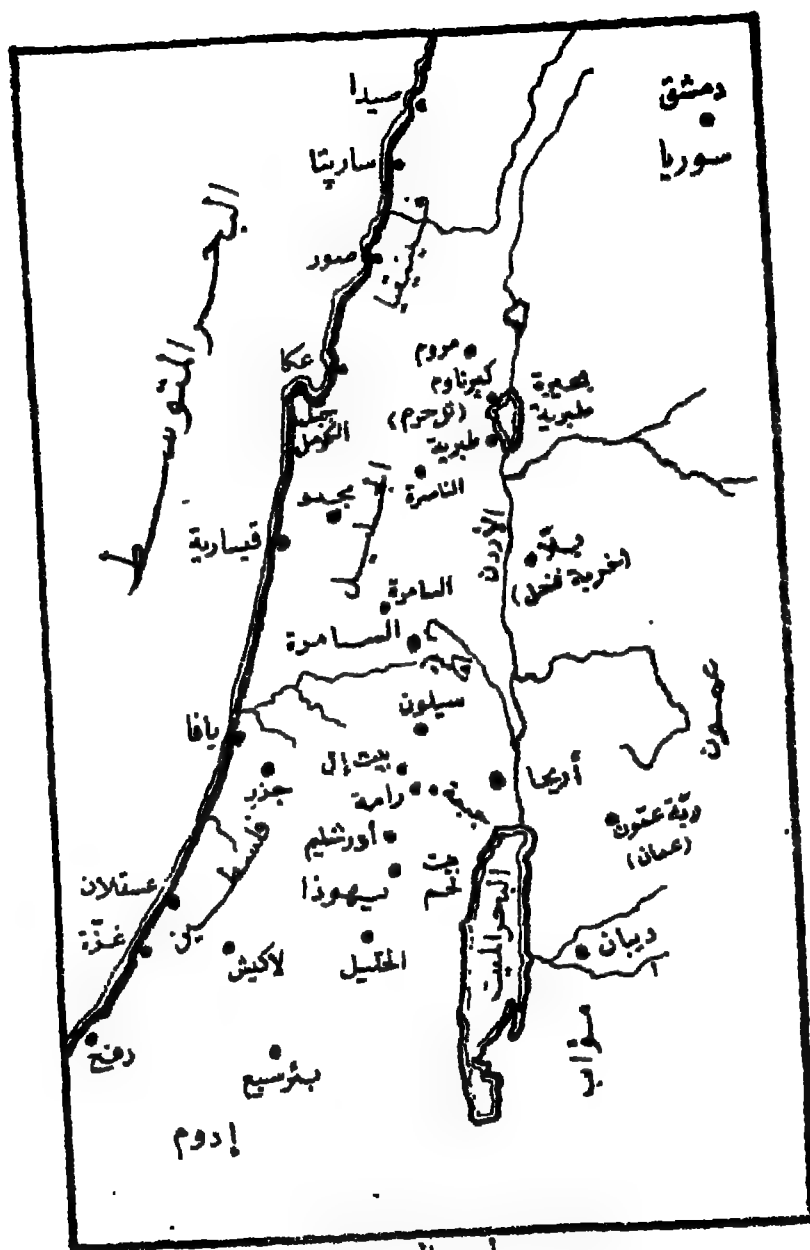
60) G. A. Wainwright, Op. Cit., P. 77.

الخـرائط



(١) المنطقة السامية





أميال
0 10 20 30 40 50
(٣) فلسطين



المراجع

أولا : المراجع العربية

(١) القرآن الكريم

(٢) كتب الحديث الشريف

(٣) كتب التفسير

(٤) التوراة

ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون - بيروت ١٩٧١ .

ابن كثير : البداية والنهاية - بيروت ١٩٦٦ .

أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر - القاهرة ١٣٢٥ هـ .

ابراهيم رزقانة وآخرون : حضارة مصر والشرق القديم - القاهرة .

أحمد ضياد الدين مهران : دراسة تاريخية للعلاقات بين مصر وبنى

اسرائيل أثناء الألف الأول قبل الميلاد الاسكندرية ١٩٨٨ .

أحمد عارف الزين : تاريخ صيدا - صيدا ١٣٣١ هـ .

الدكتور أحمد فخرى :

١ - دراسات في العالم العربى - القاهرة ١٩٥٨ .

٢ - دراسات في تاريخ الشرق القديم - القاهرة ١٩٦٣ .

٣ - مصر الفرعونية - القاهرة ١٩٧١ .

الدكتور اسرائيل ولفنسون :

١ - تاريخ اليهود في بلاد العرب - القاهرة ١٩٢٧ .

٢ - تاريخ اللغات السامية - القاهرة ١٩٢٩ .

الدكتور اسماعيل راجي الفاروقى :

١ - أصول الصهيونية في الدين اليهودى - القاهرة ١٩٦٤ .

دكتور السيد عبد العزيز سالم : دراسة في تاريخ مدينته صيدا في العصر

الاسلامى - بيروت ١٩٧٠ .

- الدكتور التهامي نفرة : سيكولوجية القصة في القرن - تونس ١٩٧٤ .
- الطبري : تاريخ الطبري - القاهرة ١٩٦٧ .
- أمين خليفة : تاريخ سورية قبل الفتح الاسلامي - بيروت ١٩٣٠ .
- أمين الريحاني : قلب لبنان - بيروت ١٩٥٨ .
- أنيس فريحة : أسماء المدن والقرى اللبنانية - بيروت ١٩٥٦ .
- الدكتور بولس عياد : الاراميون في مصر - القاهرة ١٩٧٥ .
- الدكتور جمال حمدان :
- ١ - اليهود انثربولوجيا - القاهرة ١٩٦٧ .
- ٢ - شخصية مصر - القاهرة ١٩٧٠ .
- الدكتور جواد على : الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (١٠ أجزاء) -
بيروت ٦٨ / ١٩٧١ .
- حبيب سعيد : المدخل الى الكتاب المقدس - القاهرة -
- الدكتور حسن ظاظا :
- ١ - القدس - الاسكندرية ١٩٧٠ .
- ٢ - الساميون ولغاتهم - الاسكندرية ١٩٧٠ .
- ٣ - الفكر الديني الاسرائيلي - القاهرة ١٩٧١ .
- الدكتور حسن محمود وآخرون : حضارة مصر والشرق القديم - القاهرة .
- الدكتور رشيد الناضوري :
- ١ - جنوب غربى آسيا وشمال افريقيا (جزءان) - بيروت
٦٨ / ١٩٦٩ .
- الدكتور سليم حسن : مصر القديمة (١٣ جزءا) القاهرة ٤٠ / ١٩٦٠ .
- الدكتور صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى - القاهرة ١٩٧٠ .
- الدكتور طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (جزءان) -
بغداد ١٩٥٥ - ١٩٥٦ .

الدكتور عبد الحميد زايد :

- ١ - مصر الخالدة - القاهرة ١٩٦٦ .
- ٢ - الشرق الخالد - القاهرة ١٩٦٦ .
- ٣ - القدس الخالدة - القاهرة ١٩٧٤ .

الدكتور عبد الرحمن الانصارى : لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال
غربي الجزيرة العربية - مجلة الدارة - العدد الاول -
الرياض ١٩٧٥ .

الدكتور عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم - الجزء الاول - مصر
والعراق - القاهرة ١٩٦٧ .

عصام حفنى ناصف : محنة التوراة على أيدي اليهود - القاهرة ١٩٦٥ .

الدكتور فؤاد حسنين :

- ١ - اسرائيل عبر التاريخ - الجزء الاول - القاهرة .
- ٢ - التوراة الهيروغليفية - القاهرة ١٩٦٨ .

الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور :

- ١ - معالم تاريخ الشرق الادنى القديم - القاهرة ١٩٦٨ .
- ٢ - المدن الفينيقية - بيروت ١٩٨١ .

الدكتور محمد بيومى مهران :

١ - الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعونية - الاسكندرية
١٩٦٦ .

٢ - مصر والعالم الخارجى في عصر رمسيس الثالث -
الاسكندرية ١٩٦٩ .

٣ - الساميون والاراء التى دارت حول موطنهم الاصلى -
الرياض ١٩٧٤ .

٤ - قصة الطوفان بين الاثار والكتب المقدسة - الرياض ١٩٧٥ .

٥ - العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة - الرياض
١٩٧٦ .

- ٦ - حركات التحرير في مصر القديمة - القاهرة ١٩٧٦ .
- ٧ - تاريخ العرب القديم - الرياض ١٩٧٧ .
- ٨ - اسرائيل - التاريخ - (جزءان) - الاسكندرية ١٩٧٨ .
- ٩ - اسرائيل - الحضارة - (جزءان) - الاسكندرية ١٩٧٩ .
- ١٠ - دراسات تاريخية من القرآن الكريم (٤ أجزاء) - بيروت ١٩٨٨ .
- ١١ - مصر - الجزء اول - الاسكندرية ١٩٨٨ .
- ١٢ - مصر - الجزء الثاني - الاسكندرية ١٩٨٨ .
- ١٣ - مصر - الجزء الثالث - الاسكندرية ١٩٨٨ .
- ١٤ - الحضارة المصرية القديمة - الجزء الاول - الاسكندرية ١٩٨٩ .
- ١٥ - الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثاني - الاسكندرية ١٩٨٩ .
- ١٦ - الحضارة العربية القديمة - الاسكندرية ١٩٨٨ .
- ١٧ - النبوة والانبياء عند بنى اسرائيل - الاسكندرية ١٩٧٨ .

الدكتور محمد سيد طنطاوى :

- ١ - بنو اسرائيل فى القرآن والسنة - الجزء الاول - القاهرة ١٩٦٨ .
- ٢ - بنو اسرائيل فى القرآن والسنة - الجزء الثاني - القاهرة ١٩٦٩ .

الدكتور محمد عبد اللطيف :

- ١ - تاريخ العراق القديم - الاسكندرية ١٩٧٧ .
- الدكتور محمد عبد القادر : الساميون فى العصور القديمة - القاهرة ١٩٦٨
- الدكتور محمد غلاب : الساحل الفينيقي وظهيره فى الجغرافيا والتاريخ - بيروت ١٩٦٩ .

- الدكتور مراد كامل - والدكتور محمد حمدي البكري : تاريخ الادب السريانى من نشأته الى الفتح الاسلامى - القاهرة ١٩٤٩ .

الدكتور مراد كامل : النصوص الارامية التى كشفت حديثا فى مصر -
القاهرة ١٩٥٢ .

مصطفى مراد الدباغ : بلادنا فلسطين - بيروت ١٩٦٥ .
الدكتور مصطفى كمال عبد العليم : اليهود فى مصر فى عصرى البطالة
والرومان - القاهرة ١٩٦٨ .

منير الخورى : صيدا عبر حقب التاريخ - بيروت ١٩٦٦ .
موريس شهاب : الاسكندر الاكبر فى صيدا - مجلة الشرق - السنة ٢٧ -
بيروت ١٩٢٩ .

الدكتور نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم (٦ اجزاء) -
الاسكندرية ٦٣ / ١٩٦٦ .

الدكتور يوسف مزهر : تاريخ لبنان العام - الجزء الاول - بيروت .
ياقوت الحموى : معجم البلدان (٥ اجزاء) - بيروت ٥٥ / ١٩٥٧ .
قاموس الكتاب المقدس (جزآن) - بيروت ٦٤ / ١٩٦٧ .

ثانيا : المراجع المترجمة الى اللغة العربية :

اندرية بارو : بلاد آشور - ترجمة عيسى سلمان وسليم التكريتي - بغداد
١٩٨٠ .

اندرية ايمار ، وجانين ابوايه : الشرق واليونان القديمة - ترجمة فريد
داغر ، وفؤاد أبو ربحان - بيروت ١٩٦٤ .

الويس موسل : شمال الحجاز - ترجمة عبد المحسن الحسيني -
الاسكندرية ١٩٥٢ .

باروخ سبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة - ترجمة وتقديم حسن حنفى
- القاهرة ١٩٧١ .

تيودور روننسون : تاريخ العالم : اسرائيل في ضوء التاريخ - ترجمة
عبد الحميد يونس - القاهرة .

ج . كونتنسو : الحضارة الفينيقية - ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة -
ومراجعة الدكتور طه حسين - القاهرة ١٩٦٥ .

جوستاف لويون : اليهود في تاريخ الحضارات الاولى ترجمة عادل زعيتر -
القاهرة ١٩٦٧ .

سبتيانو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة - ترجمه وزاد عليه الدكتور
السيد يعقوب بكر - القاهرة ١٩٦٨ .

فيلب حتى : لبنان في التاريخ - ترجمة أنيس فريجة ونقلوا زيادة -
بيروت ١٩٥٩ .

فيلب حتى :

١ - تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - الجزء الاول - ترجمة
جورج حداد وعبد الكريم رافق - بيروت ١٩٥٨ .

- ليو أوينهايم : بلاد ما بين النهرين - ترجمة سعد فيضى - بغداد ١٩٨١ .
- و • ج • بزج : تراث العالم القديم ترجمة - زكى سوس - القاهرة ١٩٧١ .
- ول ديورانت : قصة الحضارة - الجزء الثانى - ترجمة محمد بدران -
القاهرة ١٩٦١ .
- وليم أولبرايت : آثار فلسطين - ترجمة زكى اسكندر ومحمد عبد القادر -
القاهرة ١٩٧١ .
- يوسفىوس : تاريخ يوسفىوس - دار صادر - بيروت .
- دائرة المعارف الاسلامية : دار الشعب - القاهرة ٦٩ / ١٩٧٢ .

ثالثا : المراجع الاجنبية :

Albright, (W. F.),

1. The Archaeology of Palestine, London, 1949.
2. The Bible and The Ancient Near East, London, 1961.
3. The Bible Period From Abraham to Ezra, N. Y., 1963.
4. Archaeology and The Religion of Israel, Baltimore, 1963.
5. Historical Geography of Palestine, AASOR, 1923.
6. Recent Discoveries in Bible Land, N. Y., 1955.

Altheim, (F.) and Stiehl (R.) Die Araber in Alten Welt, Berlin, 1964-1968.

Barton, (G. A.), Semitic and Hamitic Origins, London, 1934.

Barmaki, (D.), Phoenici and The Phoenicians, Beirut, 1961.

Baron (S. W.), A Social and Religions History of The Jews, N. Y., 1967.

Bentwich, (N.), Palestine, London, 1934.

Bonfante, (G.), Who Were The Philistines, in AJA, L, 1946.

Bottero, (J.),

1. Syria at The Time of The Kings of Agads, in CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971.
2. Syria During The Third Dynasty of ur, in CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971.
3. Archives Royal de Mari, 7, Paris, 1957.

Bottero (J.) and Others The Near East, The Early Civilizations, London, 1967.

Bowman, (R. A.), Arameans, Aramaic and The Bible, in JNES, 7, 1948.

Box, (G. H.), Judaism in The Greek Period, Oxford, 1953.

Brandies, (L. T.), On Zionism, New York, 1942.

Breasted, (J. H.),

1. Ancient Records of Egypt, 5 Vols, Chicago, 1906-1907.
2. The Dawn of Conscience, New York, 1939.

3. A History of Egypt, From The Earliest Times to Persian Conquest, New York, 1946.

Bright, (J.), A History of Israel, Philadelphia, 1969.

Burney, (C. F.),

1. Israel's Settlement in Canaan, London, 1918.
2. The Book of Judges, London, 1920.

Clermont-Ganneau, (C. S.), La Stele de Mesa, Paris, 1887.

Cohen, (I.), A Short History of Zionism, New York, 1951.

Contenau, (G.), La Civilisation Phoenicienne, Paris, 1949.

Cook, (S. A.),

1. Israel and The Neighbouring in CAH, III, Cambridge, 1965.
2. The Rise of Israel, in CAH, II, Cambridge, 1931.
3. The Fall and Rise of Judah, CAH, III, Cambridge, 1965.
4. The Prophets of Israel, CAH, III, Cambridge, 1965.

Cooke, (G. A.), A Text-Book of North-Semitic Inscriptions, Moabite, Hebrew, Phoenician, Aramaic Nabataean, Palmyrene, Jewish, Oxford, 1903.

Cowley, (A. E.), Aramaic Papyri of The Fifth Century, B. C, Oxford, 1923.

Davies, (A. P.), The Ten Commandments, New York, 1965.

Dhorme, (E.), Le Religion Des Hebreux Nomades, N. S. B, Bruxelles, 1937.

Dimont, (M.), Jews, God and History, N. Y, 1962.

Driver, (G. R.),

1. Aramaic Documents Of The Fifth Century, B. C, Oxford, 1954.
2. Canaanite Myths and Legends, Edinburgh, 1956.
3. Semitic Writing, London, 1954.

Driver, (S. R.), An Introduction To The Literature Of The Old

Testament, Edinburgh, 1950.

Drower, (M. S.), Syria Before 2200 B. C., in CAH, I, Part 2, Cambridge 1971.

Dupont - Sommer, (A.), Les Arameens, Paris, 1949.

Dussaud, (R.),

1. Les Arabes en Syria avant L' Islam, Paris, 1907.
2. La Penetration des Arabes en Syria avant L'Islam, Paris, 1955.
3. Les Religions des Hittites et des Hourrites, des Pheniciens et des Syriens, Paris, 1945.

Edgerton, (W. F.), and Wilson, (J. A.), Historical Records of Ramses III, Chicago, 1935.

Elgood, (S. R.), Later Dynasties Of Egypt, Oxford, 1951.

Eissfeldt, (O.), The Hebrew Kingdom, in CAH, II, Part, 2, Cambridge, 1975.

Epstein, (I.), Judaism, (Penguin Books), 1970.

Erman, (A.), The Literature of The Ancient Egyptians, London, 1927.

Faulkner, (R. O.), The Wars of aethos, in JEA, 33, 1947.

Finegan (J.), Light From The Ancient Past, The Archaeological Background of Judaism and Christianity, Princeton, 1969.

Frankfort, (H.),

1. The Birth of Civilization in The Near East, London, 1951.
2. The Art and Architecture of The Ancient Orient London, 1958.

Freud, (S.) Moses and Monotheism, Translated From German, by K. Jones, New york, 1939.

Foster, (C. K.), A History of The Hebrew People, London.

Friedlander, The Jews of Arabia and Rechabites, JQR, 1910-1911.

Hall, (H. R.) The Ancient History of The Near East, London, 1963,

Gardiner, (A. H.),

1. The Delta Residence of The Ramessides, in JEA, 5, 1918.
2. The Supposed Egyptian Equivalent of The Name of Goshen, in JEA, 5, 1918.
3. Tanis and P; Ra'msesse, A. Retraction, in JEA, 9, 1933.
4. Ancient Egyptian Onomastica 3 Vols, Oxford, 1947.
5. Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961.
6. Egyptian Grammar, Oxford, 1966.
6. The Geography of Exodus, in JEA, 10, 1924.

Garber, (P. L.), Reconstructing Solomon's Temple, in BA, 14, 1951.

Garsting, (J.), Joshua and Judges, The Foundations of The Bible History. London, 1931.

Ghirshman, (R.) Iran, (Penguin Books), 1954.

Ginsberg, (H. L.), Aramaic Letters, in ANET, 1966.

Glover, (T. R.), The Ancient World, (Penguin Books), 1968.

Glueck, (N.),

1. The Other Side of The Jordan, New Haven, 1945.
2. The Excavations of Solomon's Seepport, Ezion Gaber, SIAR, 1941.

Goitein, (S. D.), Jews and Arabes, New York, 1955.

Griffith, (J. C.), The Egyptian Derivation of The Name moyses, in JNES, 12, 1953.

Guillaume, (A.), Prophecy and Divination among The Hebrews and Other Semites, London, 1938.

Gureny, (O.R.) The Hittites, (Penguin Books) 1969.

Hallo, (W.W.), and Simpson, (W.K.), The Ancient Near East History, U.S.A., 1971.

Hamza, (M.), Excavations of The Department of Antiquities at Qantir, in ASAE, 30, 1930.

Harden, (D.B.), The Phoenicians, London, 1962.

Hastings, (J.),

1. A Dictionary of The Bible, Edinburgh, 1936.
2. Encyclopaedia of Religion and Ethics, Edinburgh 1908-1921.

Hayes, (W.C.), The Scepter of Egypt, II, Harvard, 1959.

Heaton, (E.W.), The Old Testament Prophets, (Penguin Books), 1969.

Hees, (M.), Rome and Jerusalem, New York, 1944.

Hitti, (P.K.),

1. The Near East in History, Princeton, 1961.
2. History of Syria, London, 1951.

Hornell, (J.), Sea-Trade in Early Times in Antiquity, 15, 1941.

Horovity, (J.), Judaeo-Arabic Relations in Pre-Islamic Times, in IC, III, 1929.

Jack, (J.W.),

1. The Date of The Exodus, Edinburgh, 1925.
2. Samaria in Arabs's Time, Edinburgh, 1929.

Judith Marquet-Krause. Les Fouilles de C Ay, (et-Tell), 1933-1935,
2 Vols, 1949.

Kees, (H.), Ancient Egypt, London, 1961.

Keller, (W.), The Bible As History, 1967.

Kenyon, (K.M.),

1. Archaeology in The Holy Land, London, 1970.
2. Excavations in Jerusalem, 1961, in PEQ, 94, 1962.
3. Excavations in Jerusalem, 1962, in PEQ, 95, 1963.

Kraeling, (E.G.),

1. Aram and Israel, New York, 1918.
2. The Brooklyn Museum Aramaic Papyri, New Haven, 1953.

Kramer, (S.N.), The Sumerians, Chicago 1970.

Kupper, (J.R.),

1. Les Nomades en Mesopotamia au Temps des rois de Mari, Paris, 1957.
2. Northern Mesopotamia and Syria, in CAH, II, Part, I, Cambridge, 1973.
3. Archives Royal de Mari, 6, Paris, 1954.

Largement, (R.), La Religion Canaanenne Tournai, 1956.

Leemans, (W.F.), Foreign Trade in The Old Babylonian Period, Leiden, 1960.

Lewy, (J.), Amurritica, in HUCA, 32, 1961.

Lie, (A.G.), The Inscriptions of Sargon, II, Part, I, The Annals, 1929.

Lods, (A.), Israel, From its Beginnings to The Middle of The Eighth Century, London, 1962.

Luckenbill, (D. D.), Ancient Records of Assyria and Babylonia, Chicago, 1927.

Macalistr, (R.A.S.), The Topography of Jerusalem, in CAH, III, Cambridge, 1965.

Malamat, (A.),

1. The Last Wars of The Kingdom of Judah, in JNES, 9, 1950.
2. Aspects of The Foreign Policies of David and Solomon, in JNES, 22, 1963.
3. The Aramaeans in Aram Naharaim and The Rise of Their State, Jerusalem, 1952.

Margoliouth, (D.S.), The Relations Between Arabs and Israelites Prior to The Rise of Islam, London, 1924.

May, (H.G.), Three Hebrew Seals and The Status of Exiled Jehoiakin, in AJSL, Lvi, 1939.

Meeek, (J. J.), Hebrew Origins, New York, 1950.

Mendenhall, (G.), Biblical History, in Transition in The Bible and The Ancient Near East, London.

Mercer, (S. A. E.), The Tell-El-Amarna Tablets, 2 Vols, Toronto, 1939.

Milgrom, (J.), The Date of Jeremiah, in JNES, 14, 1955.

Montgomery, (J. A.), Arabia and The Bible, Philadelphia, 1934,

Montet, (P.),

1. L'Egypt et Bible, Neuchatel, 1959.

2. Bablos et Egypte, Paris, 1928.

Moscatti, (S.),

1. The World of The Phoenicians, Translated by Hamilton, London, 1968.

2. Ancient Semitic Civilization, London, 1957.

Mowinckel, (S.), General Oriental and Specific Israelite Elements in
The Israelite Conception of The Sacral Kingdom, 1959.

Muffs, (Y.), Studies in The Aramaic Legal Papyri from Elephantine,
Leiden, 1968.

Musil, (A.), The Northern Hegas, New York, 1926.

Myres, (J. L.), King Solomon's Temple and Other Buildings and Works
of Art, in PEQ, 80, 1948.

Naville, (E.),

1. The Geography of The Exodus, JEA, 10, 1924.

2. Archaeology of The Old Testament, London 1913.

Noth, (M.), The History of Israel, London, 1965.

O' Callaghan, (R.T.), Aram Naharaim, Roma, 1961.

Oesterley, (W.O.E.), Egypt and Israel, in The Legacy of Egypt, Oxford,
1947.

Olmstead, (A.T.),

1. History of The Persian Empire, Chicago, 1970.

2. The Western Asia in The Days of Sargon of Assyria, Chicago,
1908.

3. Reforms of Josiah in its Secular Aspects, AHR, 20, 1915.

Oppenheim, (A.L.),

1. Babylonian and Assyrian Historical Texts, in ANET, 1966.

2. The Archives of The Palace of Mari, JNES, 11, 1952.
- Parker, (J.), A. History of The Jewish People, London, 1964.
- Parrot, (A.), Les Fouilles de Mari, in Syria 18, 1937.
- Petrie, (W.F.M.),
1. A. History of Egypt, II, III, London, 1927.
 2. Egypt and Israel, London, 1925.
- Pfeffer, (R.B.), Introduction to The Old Testament, New York, 1941.
- Philly, (J. B.),
1. The Land of Midian, in MEJ,9, 1955.
 2. The Background of Islam, Alexandria, 1947.
- Pliny, Natural History, London, 1962.
- Pritchard, (J.B.), Ancient Near Eastern Texts, Relating to The Old Testament, Princeton, 1966.
- Rabinowitz, (J.J.), Jewish Law, New York, 1965.
- Renan, (E.),
1. Histoire du Peuple d'Israel, Paris, 1887.
 2. Histoire et Systeme Compare des Langues Semetique, Paris, 1855.
- Ricciotti, (G.), The History of Israel, I, Milwaukee, 1955.
- Rodinson, (M.), Israel and Arabs, (Penguin Books), 1968.
- Roth, (C.), Ashort History of The Jewish People, London, 1969.
- Roux, (G.), Ancient Iraq, (Penguin Books), 1980.
- Row, (A.), The Topography and History of Beth-Shan, Pennsylvania, 1930.
- Rowley, (H.H.),
1. The Aramaic of The Old Testament, London, 1929.
 2. From Joseph to Joshue, London, 1950.
 3. The Unity of The Bible, Philadelphia, 1953.
- Sachar, (A.L.), A History of The Jews, New york, 1945.

- Saller, (S. J.), *The Memorial of Moses on Mount Nebo*, 2 Vols, London, 1941.
- Sayce, (A. H.), *The Egypt of The Hebrews and Herodotus*, London, 1896.
- Sayce, (A. H.), and Cowley, (A. E.), *Aramaic Papyri Discovered at Assuan*, London, 1906.
- Sellin, (E.), *Mose und Seine Bedeutung fur die Israelitisch - Judische Religion Sgeschichte*, Leipzig, 1922.
- Shaeffer, (A.) *Ugaritica I - III*, Paris, 1939 - 1956.
- Simon, (J.), *Jerusalem in The Old Testament*, Leiden, 1952.
- Smith, (G. A.), *Historical Geography of The Holy Land*, New York, 1932.
- Smith, (G. A.), and others, *The Legacy of Israel*, Oxford, 1953.
- Smith, (J. W. D.), *God and Man in Early Israel*, London.
- Sprengling, (M.), *The Alphabet its Rise and Development from Sinai Inscriptions*, Chicago, 1931.
- Stindorff, (G.) and Seels, (K. C.), *When Egypt Ruled The East*, Chicago, 1963.
- Strabo, *The Geography of Strabo*, Translated by, H. L. Jones, London, 1961.
- Thureau - Danguin, (F.), *Textes de Mari*, in BA, 33, 1936.
- Torrey, (C.C.),
1. *The A pocryphial Literature*, New Haven, 1948.
 2. *Pseudo - Ezekiel and Original Prophecy*, New Haven, 1930.
- Unger, (M.F.),
1. *Israel and The Arameans of Damascus*, London, 1957.
 2. *Unger's Bible Dictionary*, Chicago, 1970.
- Vincent, (W.), *La Religion des Judeo - Arameens d' Elephantine*, Paris, 1937.

Wainwright, (G.A.), Some Sea-People, in JEA, 47, 1961.

Waterman, (L.), The Treasuries of Solomon's Private Chapel, in JNES, 6, 1947.

Wells, (H.G.),

1. Ashort History of The World (Penguin Books), 1965.

2. The Outline of History, New york, 1956.

Weigall, (A.), A History of The Pharaohs, 2 Vols, London, 1931.

Wilson, (J. A.),

1. The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963.

2. ANET, 1966.

Woolley, (L.),

1. The Beginnings of Civilization, New York, 1965.

2. Ur of The Chaldees (Pelican Books), 1983.

3. Excavations at Ur, London, 1963.

Wright, (G. E.),

1. Isamuel, 13, 19-22, in Biblical Archaeologist, 6, 1943.

2. The Bible and The Ancient Near East, New York, 1965.

Yadin, (Y.), New Light on Solomon's Mejiddo, in BA, 23, 1960.

Yaron, (R.), Introduction to The Law of The Aramaic Papyri, Oxford, 1961.

Yeivin, (G. E.), The Sepulchers of The Kings of The Hous of David, in JNES, 7, 1948.

1. Encyclopaedia Biblica.

2. Encyclopaedia Britannica.

3. Encyclopaedia of Islam.

4. Encyclopaedia of Religion and Ethics.

5. The Jewish Encyclopaedia N. Y., 1903.

6. Historical Atlas of The Holy Land N. Y., 1959.

7. The Westminster Historical Atlas to The Bible, Philadelphia, 1946.

محتويات الكتاب

تقديم ٧

الباب الأول

الموقع والسكان

- الفصل الاول : الموقع الجغرافى وأثره الحضارى والسياسى ... ١١
- الفصل الثانى : الساميون فى سوريا والآراء التى دارت حول موطنهم الاصلى ... ١٧
- ١ - سكان بلاد الشام ... ١٧
- ٢ - الساميون ... ١٨
- ٣ - الموطن الاصلى للساميين والآراء التى دارت حوله ... ٢٥
- ١ - الرأى الاول : بلاد النهرين ... ٢٦
- ٢ - الرأى الثانى : أرمينية ... ٢٩
- ٣ - الرأى الثالث : أرض أمور ... ٣١
- ٤ - الرأى الرابع : أفريقية ... ٣٢
- ٥ - الرأى الخامس : الجزيرة العربية ... ٣٥

الباب الثانى

الاموريون

- الفصل الثانى : الممالك الامورية ... ٤٧
- ١ - سكان بلاد الشام فيما قبل الاموريين ... ٤٧
- ٢ - اسم الاموريين ... ٤٨
- ٣ - مملكة ماري ... ٥٠
- ٤ - مملكتا الاموريين فى شرق الاردن ... ٥٢
- ٥ - الاموريون فى التوراة ... ٥٤

| | | | | | | |
|----|-----|-----|-----|-----|-----|--|
| ٥٧ | ... | ... | ... | ... | ... | الفصل الثاني : الاموريون وجيرانهم |
| ٥٧ | ... | ... | ... | ... | ... | ١ - الاموريون ومصر |
| ٦٢ | ... | ... | ... | ... | ... | ٢ - الاموريون وبلاد الرافدين |
| ٦٢ | ... | ... | ... | ... | ... | ١ - الاموريين والاكديون |
| ٦٣ | ... | ... | ... | ... | ... | ٢ - أسرة أيسين الامورية |
| ٦٦ | ... | ... | ... | ... | ... | ٣ - دولة بابل الامورية |
| ٦٧ | ... | ... | ... | ... | ... | ٣ - الاموريون وبلاد الاناضول |
| ٦٧ | ... | ... | ... | ... | ... | ١ - الاموريون ودولة الحيثيين |
| ٦٨ | ... | ... | ... | ... | ... | ٢ - الاموريون والمراكز التجارية الاشورية في الاناضول |

الباب الثالث

الفينيقيون

| | | | | | | |
|-----|-----|-----|-----|-----|-----|--|
| ٧٥ | ... | ... | ... | ... | ... | الفصل الاول : الفينيقيون والاصل السامي |
| ٧٥ | ... | ... | ... | ... | ... | ١ - الكنعانيون الفينيقيون |
| ٧٦ | ... | ... | ... | ... | ... | ٢ - تاريخ دخول سورية |
| ٧٦ | ... | ... | ... | ... | ... | ٣ - موطن الكنعانيين الفينيقيين الاصلى |
| ٧٩ | ... | ... | ... | ... | ... | ٤ - أصل كلمة كنعان وفينيقيا |
| ٨٣ | ... | ... | ... | ... | ... | الفصل الثاني : دويلات المدن الفينيقية |
| ٨٣ | ... | ... | ... | ... | ... | تقديم |
| ٩٠ | ... | ... | ... | ... | ... | ١ - أوجاريت |
| ٩٤ | ... | ... | ... | ... | ... | ٢ - أرواد (أرادوس) |
| ٩٥ | ... | ... | ... | ... | ... | ٣ - جبيل |
| ٩٦ | ... | ... | ... | ... | ... | ٤ - صيدا |
| ١٠١ | ... | ... | ... | ... | ... | ٥ - صور |
| ١٠٥ | ... | ... | ... | ... | ... | الفصل الثالث : علاقات فينيقيا بمصر |

- ١ - في عصر الدولة القديمة ١٠٥
- ٢ - في عصر الثورة الاجتماعية الاولى ١١٥
- ٣ - في عصر الدولة الوسطى ١١٦
- ٤ - في عصر الدولة الحديثة ١٢٥
- ٥ - في عهد الانتقال الثاني (الاسرات من ٢١ الى ٢٥) ... ١٣٧
- ٦ - في عصر النهضة (الاسرة السادسة والعشرون) ... ١٣٩
- الفصل الرابع : الفينيقيون وعلاقاتهم بجيرانهم الاسيويين ... ١٤٥
- اولا : الفينيقيون وبنو اسرائيل ١٤٥
- ١ - في عهد داود وسليمان عليهما السلام ١٤٥
- ٢ - فيما بعد عهد سليمان ١٤٩
- ثانيا : الفينيقيون وبلاد الرافدين ١٥٢
- ١ - فيما قبل الاشوريين ١٥٢
- ٢ - في عهد الاشوريين ١٥٤
- ٣ - في عهد الكلدانيين ١٦٤
- ثالثا : الفينيقيون والفرس ١٦٥
- رابعا : الفينيقيون والاسكندر المقدوني ١٧١
- الفصل الخامس : الفينيقيون ودورهم في حوض البحر المتوسط ١٧٥
- اولا : الفينيقيون ودورهم في حوض البحر المتوسط ... ١٧٥
- ثانيا : الفينيقيون ومستعمراتهم في البحر المتوسط ... ١٧٥
- ثالثا : قرطاج ١٨٤

الباب الرابع

الاراميون

- الفصل الاول : الاراميون ١٩٣

- ١ - موطنهم الاصلى وهجراتهم ١٩٣
- ٢ - بدء ظهور الاراميين ١٩٥
- ٣ - اسم أرام والاراء التى دارت حوله ١٩٦
- ٤ - الاراميون والاخلامو ١٩٧
- ٥ - الاراميون والعبرانيون ١٩٩
- ٦ - الدويلات الارامية ٢٠٠
- اللفة الارامية ٢٠٩

الباب الخامس

ممالك شرق الاردن

- ١ - الآدميون ٢١٧
- ٢ - المؤابيون ٢٢١
- ٣ - العمونيون ٢٢٤

الباب السادس

بنو اسرائيل

- الفصل الاول : بنو اسرائيل قبل عصر الملكية ٢٢٩
- ١ - العبرانيون والاسرائيليون واليهود والصهاينة ٢٢٩
- ٢ - بنو اسرائيل فى مصر ٢٣٠
- ٣ - بنو اسرائيل فى التيه ٢٣٥
- ٤ - دخول بنى اسرائيل كنعان ٢٣٩
- ٥ - عصر القضاة ٢٤١
- الفصل الثانى : عصر داود عليه السلام ٢٤٥
- اولا : قيام الملكية وعصر طالوت ٢٤٥
- ١ - اسباب قيام الملكية الاسرائيلية ٢٤٥

| | | | | | | |
|-----|-----|-----|-----|-----|-----|---------------------------------------|
| ٢٤٦ | ... | ... | ... | ... | ... | ٢ - ملكية طالوت |
| ٢٤٩ | ... | ... | ... | ... | ... | ثانيا : عصر داود عليه السلام |
| ٢٤٩ | ... | ... | ... | ... | ... | ١ - داود فيما قبل الملكية |
| ٢٥٢ | ... | ... | ... | ... | ... | ٢ - اختيار داود ملكا على يهوذا |
| ٢٥٤ | ... | ... | ... | ... | ... | ٣ - داود وتوحيد اسرائيل |
| ٢٥٥ | ... | ... | ... | ... | ... | ٤ - داود والفلسطينيون |
| ٢٥٨ | ... | ... | ... | ... | ... | ٥ - داود ومؤاب وعمون و آرام و ادوم |
| ٢٦٠ | ... | ... | ... | ... | ... | ٦ - دولة داود ومدى اتساعها |
| ٢٦٣ | ... | ... | ... | ... | ... | ٧ - وراثة العرش والخلافات العائلية |
| ٢٦٥ | ... | ... | ... | ... | ... | ٨ - ثورة ابشالوم |
| ٢٧٠ | ... | ... | ... | ... | ... | ٩ - التعداد العام ونتائجه |
| ٢٧٢ | ... | ... | ... | ... | ... | ١٠ - وفاة داود عليه السلام |
| ٢٧٥ | ... | ... | ... | ... | ... | الفصل الثالث : عصر سليمان عليه السلام |
| ٢٧٥ | ... | ... | ... | ... | ... | ١ - السياسة الداخلية |
| ٢٧٩ | ... | ... | ... | ... | ... | ٢ - السياسة الخارجية |
| ٢٨١ | ... | ... | ... | ... | ... | ٣ - التنظيمات العسكرية |
| ٢٨٤ | ... | ... | ... | ... | ... | ٤ - النشاط التجارى |
| ٢٨٨ | ... | ... | ... | ... | ... | ٥ - النشاط البحرى |
| ٢٩٠ | ... | ... | ... | ... | ... | ٦ - النشاط الصناعى |
| ٢٩٢ | ... | ... | ... | ... | ... | ٧ - مملكة سليمان ومدى اتساعها |
| ٣٠٨ | ... | ... | ... | ... | ... | ٨ - القدس عاصمة سليمان |
| ٣١٢ | ... | ... | ... | ... | ... | ٩ - مبانى سليمان |
| ٣١٦ | ... | ... | ... | ... | ... | ١٠ - بناء المسجد الاقصى |
| ٣٢٨ | ... | ... | ... | ... | ... | ١١ - سليمان ومملكة سبأ |
| ٣٤٣ | ... | ... | ... | ... | ... | الفصل الرابع : عصر الانقسام |
| ٣٤٣ | ... | ... | ... | ... | ... | اولا : أسباب الانقسام |

ثانيا : دولة اسرائيل ٣٥٨

١ - أسرة يربعام (٩٢٤ - ٩٠٠ ق.م) ٣٥٨

٢ - أسرة بعشا (٩٠٠ - ٨٧٦ ق.م) ٣٦١

٣ - أسرة عمري (٨٧٦ - ٨٤٢ ق.م) ٣٦٢

٤ - أسرة ياهو (٨٤٢ - ٧٤٥ ق.م) ٣٧٥

٥ - أخريات أيام دولة اسرائيل ٣٨١

٦ - نهاية اسرائيل والسبي الاشوري ٣٨٤

ثالثا : دولة يهوذا ٣٩٠

١ - رجبام (٩٢٢ - ٩١٥ ق.م) ٣٩٠

٢ - أبيام (٩١٥ - ٩١٣ ق.م) ٣٩٤

٣ - أسا (٩١٣ - ٨٧٣ ق.م) ٣٩٥

٤ - غزو منحريب ليهوذا ٣٩٥

٥ - منسى (٦٨٧ - ٦٤٢ ق.م) ٤٠٠

٦ - آمون (٦٤٢ - ٦٤٠ ق.م) ٤٠٢

٧ - يوشيا (٦٤٠ - ٦٠٩ ق.م) ٤٠٣

٨ - يهوأحاز (٦٠٩ ق.م) ٤٠٨

٩ - يهو ياقيم (٦٠٩ - ٥٩٨ ق.م) ٤٠٨

١٠ - يهو ياكين (٥٩٨ - ٥٩٧ ق.م) ٤١٠

١١ - صدقيا (٥٩٧ - ٥٨٦ ق.م) ٤١٢

الفصل الخامس : السبي البابلي ٤١٥

١ - سقوط يهوذا ٤١٥

٢ - السبي البابلي ٤٢١

٣ - العودة من السبي ٤٢٨

٤ - اعادة بناء المعبد ٤٣٠

٥ - نهاية اليهود في فلسطين ٤٣٧

الباب السابع

العناصر غير السامية في بلاد الشام

تقديم ٤٤٥

١ - اليبوسيون ٤٤٥

٢ - العماليق ٤٤٦

٣ - المدينيون ٤٤٧

٤ - القينيون ٤٤٨

٥ - القنزيون ٤٤٩

٦ - الفرزيون ٤٤٩

٧ - العناقيون ٤٥٠

العناصر غير السامية ٤٥١

١ - الحوريون ٤٥١

٢ - الحيثيون ٤٥٣

٣ - الفلسطينيين ٤٥٥

٤ - الشكر ٤٦٣

المراجع : ٤٦٥

أولا : المراجع العربية ٤٦٥

المراجع المترجمة الى اللغة العربية ٤٧٠

ثالثا : المراجع الاجنبية ٤٧٢

مؤلفات

الاستاذ الدكتور محمد بيومى مهران
أستاذ تاريخ مصر والشرق الادنى القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والاسلامية
بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

أولا : فى التاريخ المصرى القديم :

- ١ - الثورة الاجتماعية فى مصر الفرعنة الاسكندرية ١٩٦٦
- ٢ - مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث الاسكندرية ١٩٦٩
- ٣ - حركات التحرير فى مصر القديمة - دار المعارف القاهرة ١٩٧٦
(وهو الجزء الثالث من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم)
- ٤ - اخناتون : عصره ودعوته الاسكندرية ١٩٧٩
(وهو الجزء الرابع من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم)
- ٥ - مصر الكتاب الاول - التاريخ الاسكندرية ١٩٨٢
- ٦ - مصر الكتاب الثانى - التاريخ الاسكندرية ١٩٨٤
وهما الجزعان الاول والثانى من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق
الادنى القديم .
- ٧ - الحضارة المصرية القديمة الاسكندرية ١٩٨٤
(وهو الجزء الخامس من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى
القديم) .

ثانيا : فى تاريخ اليهود القديم :

- ٨ - دراسات فى تاريخ اليهود القديم - التوراة (١) - مجلة الاسطول -
العدد ٦٢ الاسكندرية ١٩٧٠
- ٩ - دراسات فى تاريخ اليهود القديم - التوراة (٢) - مجلة الاسطول -
العدد ٦٤ الاسكندرية ١٩٧٠

- ١٠ - دراسات في تاريخ اليهود القديم - التوراة (٣) - مجلة الاسطول -
العدد ٦٥ الاسكندرية ١٩٧٠
- ١١ - قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والاسطورة (١) مجلة الاسطول -
العدد ٦٦ الاسكندرية ١٩٧١
- ١٢ - قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والاسطورة (٢) - مجلة الاسطول -
العدد ٦٧ الاسكندرية ١٩٧١
- ١٣ - النقاوة الجنسية عند اليهود - مجلة الاسطول - العدد ٦٨
الاسكندرية ١٩٧١
- ١٤ - اخلاقيات الحرب عند اليهود - مجلة الاسطول - العدد ٦٩
الاسكندرية ١٩٧١
- ١٥ - التلمود - مجلة الاسطول - العدد ٧٠ الاسكندرية ١٩٧٢
- ١٦ - اسرائيل : الكتاب الاول - التاريخ
(وهو الجزء السابع من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم)
الاسكندرية ١٩٧٨
- ١٧ - اسرائيل - الكتاب الثانى - التاريخ
(وهو الجزء الثامن من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم)
الاسكندرية ١٩٧٨
- ١٨ - اسرائيل - الكتاب الثالث - الحضارة
(وهو الجزء التاسع من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم)
الاسكندرية ١٩٧٩
- ١٩ - اسرائيل - الكتاب الرابع - الحضارة
(وهو الكتاب العاشر من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم)
الاسكندرية ١٩٧١
- ٢٠ - النبوة والانبياء عند بنى اسرائيل
الاسكندرية ١٩٧١
- ثالثا : في تاريخ العرب القديم :
- ٢١ - الساميون والاراء التى دارت حول موطنهم الاصلى
مجلة كلية اللغة العربية - العدد الرابع الرياض ١٩٧٤
- ٢٢ - العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة
مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية - جامعة الامام محمد بن
سعود الإسلامية - العدد السادس الرياض ١٩٧٦

- ٢٢ - مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة
مجلة كلية العلوم - جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية - الغدد
الاول الرياض ١٩٧٧
- ٢٤ - دراسات في تاريخ العرب القديم
(وهو الجزء السادس من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الادنى
القديم . وقد أصدرته جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، تحت
رقم (١) من المكتبة التاريخية) الرياض ١٩٧٧
- ٢٥ - دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، الجزء الاول في بلاد العرب
(أصدرته جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية - تحت رقم (٢) من
المكتبة التاريخية) الرياض ١٩٨١
- ٢٦ - دراسة حول الديانة العربية القديمة الاسكندرية ١٩٧٨
- ٢٧ - العرب والفرس في العصور القديمة الاسكندرية ١٩٧٨
- ٢٨ - دراسات في الحضارة العربية القديمة تحت الطبع
- ٢٩ - الفكر الجاهلي ، المجلس الاعلى للثقافة القاهرة ١٩٨٢
(بحث في كتاب الحضارة الاسلامية على مدى أربعة عشر قرنا)
- رابعا : في تاريخ العراق القديم :
- ٣٠ - قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة
مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية - العدد الخامس
الرياض ١٩٧٥
- ٣١ - قانون حمورابي وأثره في تشريعات التوراة الاسكندرية ١٩٧٩
- ٣٢ - المدخل في تاريخ الشرق الادنى القديم - (بالاشتراك مع الاستاذ
الدكتور رشيد الناضوري) ، (جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية) .
- خامسا : دراسات تاريخية من القرآن الكريم :
- الجزء الاول : في بلاد العرب بيروت ١٩٨٨
- الجزء الثاني : في مصر بيروت ١٩٨٨
- الجزء الثالث : في بلاد الشام بيروت ١٩٨٨
- الجزء الرابع : في العراق بيروت ١٩٨٨

سادسا : مصر والشرق الادنى القديم :

| | |
|-----------------|---|
| الاسكندرية ١٩٨٨ | الجزء الاول : مصر - الجزء الاول |
| الاسكندرية ١٩٨٨ | الجزء الثانى : مصر - الجزء الثانى |
| الاسكندرية ١٩٨٨ | الجزء الثالث : مصر - الجزء الثالث |
| الاسكندرية ١٩٨٩ | الجزء الرابع : الحضارة المصرية القديمة - الجزء الاول |
| الاسكندرية ١٩٨٩ | الجزء الخامس : الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثانى |
| الاسكندرية ١٩٨٨ | الجزء السادس: تاريخ العرب القديم |
| الاسكندرية ١٩٨٨ | الجزء السابع : الحضارة العربية القديمة |
| الاسكندرية ١٩٩٠ | الجزء الثامن : تاريخ بلاد الشام القديم |
| تحت الطبع | الجزء التاسع : تاريخ المغرب القديم |
| تحت الطبع | الجزء العاشر : تاريخ العراق القديم |

سابعا : فى رحاب النبى وآل بيته الطاهرين :

| | |
|-----------|---------------------------------------|
| تحت الطبع | الجزء الاول : السيرة النبوية الشريفة |
| تحت الطبع | الجزء الثانى : السيرة النبوية الشريفة |
| تحت الطبع | الجزء الثالث : السيرة النبوية الشريفة |
| تحت الطبع | الجزء الرابع : السيدة فاطمة الزهراء |
| تحت الطبع | الجزء الخامس : الامام على بن أبى طالب |
| تحت الطبع | الجزء السادس : الامام الحسن بن على |
| تحت الطبع | الجزء السابع : الامام الحسين بن على |

الفنية للطباعة والنشر
٤٨ شارع هرود - إسرائيل - الإسكندرية
تليفون ٨٠٣٢٥٠

